الشرق الأدنى القديم

الجزء الأول

العراق

...

دكتور عبد العزيز صالح
استاذ تاريخ مصر والشرق القديم
وعميد كلية الآثار الأسبق
بجامعة القاهرة

طبعة رابعة مزيدة ومنقحة

١٩٩٠

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الشرق الأدنى القديم

الجزء الأول

العراق

DL

• • •

دكتور عبد العزيز صالح
استاذ تاريخ مصر والشرق القديم
وعميد كلية الآثار الأسبق
بجامعة القاهرة

طبعة رابعة مزيدة ومنقحة

١٩٩٠

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

صفحة

الكتاب الثانى

العراق

(بلاد النهرين منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصر الكلدانى)

الفصل الثالث عشر

فجر التاريخ العراقى

صفحة

الفصل السابع عشر

دولة بابل الأولى (او العصر البابلى القديم) ٥٢٥ ـ ٥٥٤

الفصل الثامن عشر

العصر الكاسى ٥٥٥ ـ ٥٧٠

الفصل التاسع عشر

آشـور ٥٧١ ـ ٦٢٢

صفحــة

الفصل العشرون

. . . .

. . . .

. . .

الفصل الأول

التشابه والتنوع في حضارات الشرق الأدنى القديم
(والتأثيرات المتبادلة بينها وبين بيئاتها)

تعبير الشرق الأدنى القديم تعبير إصطلاحي تأثر إلى حد ما بالتعبير الأوروبي (The Ancient Near East). وقد امتدت معالم الحضارات القديمة في هذا الشرق إمتداداً عميقاً واسعاً ، على الرغم من غلبة الطابع الصحراوى على معظم أراضيه . فانتشرت خلال عصور ازدهارها من أعالى الشام وأعالى العراق شمالا حتى سواحل بحر العرب (أو المحيط الهندى) جنوباً ، ومن مصر وجزء كبير من شمال أفريقيا غرباً حتى الخليج العربى شرقاً . وشغلت ما يكاد يشغله الشرق العربى بمفهومه الحالى فيما يضم مصر والعراق والشام وشبه الجزيرة العربية والخليج ، وبعض شمال أفريقيا وشرقها وشمال السودان ، لولا أن صبغته العربية لم تكن قد اكتملت له بعد .

وبعد أن سايرت الحضارات الأولى للدهور الحجرية فى هذا الشرق الأدنى بقية الحضارات الأولية التى عاصرتها فى أنحاء العالم القديم الصالحة لنشاط الإنسان ، تميزت عنها وتفوقت عليها بالسبق الثقافى منذ فجر تاريخها ، أى منذ الألف السابع أو السادس ق . م فصاعداً ، وذلك بعد أن تمايزت بين حضارات وديان الأنهار الكبرى فيها حضارتان أصيلتان توافرت لهما تأثيرات شتى على بعض ما تعاقب بعدهما من حضارات ، ونعنى بهما حضارة مصر وحضارة العراق ، اللتين بدأ فيهما الإنقلاب الرئيسى الثانى فى مجالات الحياة المادية للإنسان القديم ، وهو بداية حرفة الزراعة الأولية (بعد معرفة إيقاد النار) — كما بدأ فيهما التطور المعنوى الكبير الثانى لثقافات الشعوب القديمة ، وهو بداية فكرة الكتابة (بعد ممارسة بدايات الفنون الأولية). ثم ظهرت بعض أنحاء الشرق الأدنى مع توالى نضج ثقافاته القديمة قيم أخلاقية وروحية متقدمة وتشريعات وضعية متكاملة ، وعقائد أخروية واعية ، وبذور للوحدانية الدينية ، وبعض أسس العلوم . كما أشرقت فيه ديانات سماوية ساهم بعض أهله فى نشرها — وكانت ولاتزال هدى للعالمين القديم والحديث .

وظلت آثار حضارات الشرق الأدنى المعمارية والفنية القديمة أوفر عدداً وأعظم ضخامة مما عاصرها من آثار بقية الحضارات الأخرى . كما استمرت تطوراتها أوسع وأوضح من تطوراتها حتى أواسط الألف الأول قبل ميلاد المسيح ، حين أدت ظروفها وملابسات العالم الخارجى إلى انتقال موازين القوى وزعامة الحضارة من بلادها إلى الدولة الفارسية فى شرقها وإلى بلاد الإغريق ومن تلاهم من الرومان فى شمالها الغربى . وإن لم يكن هذا قد حرمها من أن تظل رمزاً باقياً للأصالة ، برغم كل ما تعاقب عليها من محن وشدائد ، كما لم يحل دون نهضتها بعد قرون طويلة عملاقة قوية فى ثوب حضارى جديد بعد ظهور الإسلام فى أرضها وإنتشاره فيها وفى كثير مما حولها .

وربطت بين مواطن العمران الحضارية الأولى فى الشرق الأدنى القديم عدة روابط طبيعية وجنسية وحيوية بقيت بعض آثارها محسوسة حتى الآن . ومعروف ما لطبيعة العوامل المناخية والبيئية من تأثيرات فى نفسيات الشعوب وملامحها ومعايشها وأخيلتها ، لاسيما فى عصورها التكوينية الأولى التى كان ارتباط الإنسان فيها ببيئته وخضوعه لإيحاءاتها أشد مما هو عليه الآن بكثير . وقد ظلت الظروف المناخية التى سادت العصور التاريخية للشرق الأدنى متشابهة المظاهر ومتشابهة النتائج إلى حد واضح . وكانت ولاتزال تميل إلى الجفاف فى معظم أحوالها ، فيما خلا مناطق قليلة اتصفت بمناخها الخاص على سواحل البحر المتوسط وإلى حد ما على سواحل ومرتفعات البحر الأحمر وبحر العرب أو المحيط الهندى . وظلت معابره البرية الطبيعية التى استخدمها أهله القدماء فى تنقلاتهم واتصالاتهم مفتوحة مطروقة فى غالب الأحيان، إلا حينما تطلبت المصالح الإقليمية زيادة تحصيناتها وتشديد الرقابة عليها فى فترات الغزوات الخارجية والهجرات الكثيفة أو العنيفة . وترتب على هذين العاملين أن ظلت أغلب الجماعات ذات الأثر فى عمران الشرق الأدنى وتحضره من السلالات التى عرفت اصطلاحاً باسم السلالات السامية الحامية(١) . وقد تحدرت فى بداية نشأتها من عائلة جنسية متمايزة ذات أرومة لغوية متقاربة . ثم انضافت إلى هوامشها من حين إلى آخر هجرات شعوبية دخيلة وفدت من أواسط آسيا ومرتفعاتها حينا ومن جزر البحر المتوسط وسواحله حينا ، ولكنها وفدت فى أغلب حالاتها قليلة الأعداد وعلى فترات متباعدة ، وذلك مما شجع اللبانة السامية الحامية على أن تتشربها وأن تصبغها بصبغتها ثم تذيبها فى كيانها الجنسى واللغوى والفكرى الكبير . وقد نتج عن ذلك أن استمرت عوامل ومظاهر التشابه فى لغات هذا الشرق الأدنى القديم، واتجاهات عقائد شعوبه وأساطيرهم، أكثر وأوضح من مظاهر الاختلافات الإقليمية بينها . وقد استشهدنا على ذلك بنماذج عدة تخيرناها من صور التشابه والتقارب اللغوى بين لغة المصريين القدماء وبين لغات جيرانهم التى سميت اصطلاحا باسم اللغات السامية والحامية فى بعض بحوثنا السابقة ، ولهذا نحيل القارىء إلى ما فصلناه عنها فيها (٢) . وحسب هذا الفصل من صور ذلك التقارب إمكان الاستشهاد بما يقرب من مائتى كلمة مصرية قديمة لاتزال أمثالها حية مستعملة فى مفردات اللغة العربية الفصحى ، وهى مجرد قلة من كثرة اندثر بعضها ، وانزوى بعضها الآخر فى بطون المعاجم نتيجة للتطور الزمنى والحضارى لمفردات الكتابة والحديث . [...]عل الأكثر دلالة على صلة الرحم القديمة هو وجود صلات جوهرية بين قواعد النحو فى كل من اللغة ا[...]رية القديمة واللغة العربية بخاصة ، على الرغم من اختلاف صور الكتابة بينهما . ومن ذلك وجود حروف الحاء والعين والقاف فى اللغة المصرية القديمة ، وشيوع المصدر الثلاثى لأفعالها ، وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها ، وما أخذت به من سبق الفعل للفاعل ، وإلحاق الصفة بالموصوف ، واستخدام صيغة المثنى ، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض الأسماء والصفات المؤنثة ، واستخدام ياء النسبة ، وتمييز البعض من الكل ، واستخدام كاف المخاطب وميم المكان وميم الأداة

(١) راجع : عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة - القاهرة ١٩٨٨ - ص ٥ .

(٢) المؤلف نفسه : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٢ - ص ١٦ - ٢٢ ، و « شبه الجزيرة العربية فى المصادر المصرية القديمة » ، فى مجلة عالم الفكر - المجلد ١٥ ، الكويت ١٩ ، ص ٢٩٣ ومابعدها .

ونون الجمع ، مثلها فى ذلك مثل اللغة العربية . وذلك فضلا عن كتابة الحروف الساكنة وشبه اللينة فى كلماتهادون حروف الحركة أحيانا ، وتشابه عدد من ضمائرها مع ضمائر بعض لهجات اليمن ولهجات العراق ولهجات جنوب الشام فى العصور القديمة ، مع اختلافات يسيرة فى النطق بين كل واحدة منهاوالأخرى . ولاشك فى أن التقارب فى قواعد النحو بين اللغات لايتأتى عادة إلا عن طريق وحدة أصولها القديمة حتى وإن كانت أصولا بعيدة .

غير أنه كان من البديهى أن يترتب على شدة انفساح رقعة الشرق الأدنى القديم ، وتباعد المواقع الجغرافية لأطرافه ، وتباين التكوينات التضاريسية لأجزائه ، بعض التنوع الإقليمى فى الأوضاع المعيشية والإجتماعية والسياسية لمجتمعاته . وتتضح بعض صور هذا التنوع فيما ستتناوله الصفحات التالية من تباين تأثيرات ظروف البيئات النهرية والصحراوية والساحلية ، ونوعية ما توافر لها من فرص الاختلاط والاتصالات مع بعضها البعض أو مع غيرها — فى تكوين قومياتها ومسيرة خصائص حضارات شعوبها .

• • •

فى مصر ووادى النيل :

إذا بدأنا بمصر ، فلعل أقرب ما يتبادر إلى الخاطر من نصيبها فى التمايز الإقليمى عن جيرانها ، هو أن جريان نهر النيل فى أرضهاقد خفف نتائج جفافها المناخى بعض الشىء واستخلصها إلى حد كبير من النطاق الصحراوى العظيم الذى يحيط بها ويمتد فى أغلب بقاع الشرق الأدنى من الخليج إلى المحيط . ووجه معايش أهلها وجهة زراعية مترابطة وطبعها بطابع خاص من الكفاية والاستقرار ، حين أنسوا إلى سكنى ضفافه وزاد استقرارهم عليها منذ فجر تاريخهم القديم ، ومنذ نجحوا فى استغلالها كما أصبحوا يقدرون جوانب نفعه أكثر مما يتهيبون مظاهر جبروته وطغيان فيضاناته .

وأدت خاصية الامتداد الرأسى الطويل لنهر النيل من الجنوب إلى الشمال مع ندرة فروعه الطبيعية الجانبية فى مصر ، إلى تعاقب مواطن العمران فيها على جانبيه تعاقبا رأسياً أكثر منه أفقياً فى معظم واديه ، ولاسيما فى الصعيد ، وقبل التوسع فى استزراع ماحول أراضى الدلتا . وهى ظاهرة أدت إلى نتيجتين متقابلتين ، فأدت إلى ما هو معروف من تكاثف إقامة السكان فى مناطق محدودة المساحات نسبياً . ولكنها سمحت فى مقابل ذلك بتيسير الاتصالات البرية والمكانية ووسائل النقل المائية بينهم . وترتب على هذه الاتصالات البشرية والمكانية المتاحة بعض الأثر فى الإيحاء إلى كبار الحكام وكبار المفكرين المصريين القدماء بواقع الترابط الطبيعى بين أجزاء أرضهم ومدى اتصال مصالحها ومقومات حياتها وقوميتها . وأفضى هذا الأثر أو هذا الإيحاء ، مع غيره من مجريات الأحداث القديمة فى مصر خلال عصر ما قبل الأسرات ، إلى التبكير فيها بظهور أول وحدة سياسية كبيرة مستقرة معروفة فى تاريخ البشرية كلها .

ولم تخل البيئة المصرية من مشكلات تطلبت أن يواجهها سكانها بالتحدى العملى والفكرى حتى يتغلبوا عليها ، أو ييسروها ويقللوا من أخطارها . وغالباً ما كانت التحديات المصيرية ولا تزال من أهم الحوافز إلى التجديد والارتقاء والإبداع الحضارى .

والواقع أن أمور النيل ومطالب الزراعة لم تكن هينة دائماً فى أوائل عصور الاستقرار المصرى القديم، وإنما تخللتها مصاعب وظواهر ظلت تتطلب كثيراً من العمل والجهد المتصل، وإن يكن جهداً منتجاً فى حد ذاته. ففيضانات النهر بقيت على الرغم من جودها وانتظام مواسمها، تستدعى اليقظة الجماعية لمواجهتها، وتتطلب التعاون لتقليل أخطارها، وتحتاج إلى كثير من بذل الجهد والصبر والمهارة لتيسير الانتفاع بها وتوصيلها إلى الأراضى المرتفعة عن مستوياتها. وظلت بعض ضفاف النيل ومناطق دلتاه بخاصة، على الرغم من خصوبتها الفطرية، موطناً للأحراج النباتية والمناقع المائية طوال دهور ما قبل التاريخ بل وخلال أوائل العصور التاريخية ذاتها. وبهذا بقيت هى الأخرى تحتاج إلى تكاتف بشرى وسعى متصل من أجل إستصلاحها وتهذيبها واستغلالها. وأدت جهود المصريين فى الحالين إلى تزكية إحساسهم الجماعى بضرورة الارتباط بحكم مركزى مستقر يشرف على جهودهم العامة وينسقها وينظم الانتفاع بنتائجها. وفى كل هذا ما يبرر القول بأن الحضارة المصرية القديمة لم تكن هبة من النيل وحده كما يتردد أحيانا، وإنما كانت هبة منه ومن مجهودات أهلها فى آن واحد (١).

وإذا كانت الصحراوات المصرية الواسعة قد شابهت غيرها من صحراوات الشرق الأدنى، فى مظاهر جدبها الطبيعى، وفى أن الفقر كثيراً ما دفع بدوها إلى تعكير أمن حواف المناطق الزراعية وطرق التجارة البرية، وظلت أمورها نتيجة لذلك تستدعى اليقظة الدائمة من الحكومات المصرية القائمة لكسر شرة بدوها وإلزامهم حدود الطاعة قدر المستطاع، إلا أنه بقى لهذه الصحراوات من الخصائص ما تميزت به إلى حد ما عن غيرها.

فعلى نحو ما ظل النيل أباً حانياً لحضارة المصريين القدماء، رغم الجبروت الظاهر لفيضاناته، ظلت صحراواتهم الجافة الموحشة أماً لحضارتهم من حيث لم يحتسبوا. فقد أدى إتساع فيافيها الداخلية الخطرة إلى التقليل من إمكانية استخدامها سبيلا للغزوات الشعوبية الخارجية التى كان يمكن أن تهدد استقرار وادى النيل الأخضر وتجانس سكانه. وتحقق بذلك للمصريين نصيب كبير من الوحدة الجنسية النسبية ومن الأمن الدولى القديم. وكفلت لهم صحاراهم ومرتفعاتها، على الرغم من وحشتها، بعض مقومات مدنيتهم المادية، نتيجة لوفرة معادنها من النحاس والذهب وفرة نسبية، وكثرة أحجارها مع تعدد أنواع هذه الأحجار وألوانها وضخامة محورها بما سمح لهم بأن يقيموا بها على مر الزمن أضخم وأروع عمائر حجرية فى العالم القديم قبل نهضة الإغريق. بل إن رمال الصحراء القريبة من وادى النيل لم تكن بدورها بغير أثر فى تزكية آمال المصريين فى الخلود حين استغلوا جفافها لصيانة رفات موتاهم ومقتنيات مقابرهم سليمة لآماد طويلة.

وما من بأس فى أن يضاف إلى كل ذلك أن ما لقيه المصريون من متاعب بيئتهم المعيشية يقل نوعا عما عاناه بعض جيرانهم الشرقيين من مشكلات بيئاتهم. والبيئة المناخية فى مصر كانت ولاتزال غير ذات تأثير

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق – ص ٨٤ – ٨٦ .

معاكس على وجدان أهلها على الرغم من جفافها وقلة أمطارها . وهى إذا قورنت بكثير غيرها بيئة مأمونة العواقب هينة الحدة قليلة التقلب ، ليس فيها من شدة صراع الظواهر الطبيعية أو مظاهر الرهبة والصخب العنيف ما يمكن أن يوجه أهلها إلى اعتياد الصخب والعنف ، أو يطبعهم بطابع التمرد والقلق وتقلب الأهواء والمشاعر والعادات : ولم يكن من الغريب أن يترتب على ما ألفه المصريون من غلبة الخير على الشر فى أحوال نيلهم ووادبهم وصحراواتهم ومناخهم بعض الأثر فى صبغ حضاراتهم المتعاقبة بصبغة غالبة من مظاهر التواصل والتكامل ، وصبغ حياتهم السياسية بطابع الاستقرار والاستمرار ، ثم الإيحاء إليهم بنوع من الشعور التلقائى بالكفاية النسبية ، كفاية الجهد المنتج فى الأرض ، وكفاية الموارد الطبيعية بها ، فضلا عن كفاية مقومات الحضارة وصلاحية التراث فى بلدهم بوجه عام وبغير حاجة إلى مدد خارجى كبير .

ولم يكن انطباع المصريين بيسر البيئة ووضوح معالمها واستقرار أحوالها ، بغير أثر من ناحية أخرى فى ثبات تقاليدهم الاجتماعية والثقافية ، وصبغ إنتاجهم الفنى القديم بصبغة غالبة من بساطة الخطوط ووضوح التعبير وسماحة الهيئة والطابع المميز لاسيما إذا قورن بغيره من الفنون القديمة . وذلك فضلا عن ثبات عقائدهم الدينية التى استوحوا أغلبها من طبيعة بيئتهم ، وبعدهم عن التعصب المذهبى وتغليبهم طابع الرحمة فى معبوداتهم القديمة على طابع العنف والنقمة . بل ولم يكن بغير أثر كذلك فى تزكية آمالهم فى عالم أخروى مستقر يجدون فيه أحسن ما استحبوه من الطمأنينة والكفاية والاستقرار فى دنياهم .

وعلى أية حال ، فليس فى كل هذا ما يؤدى بالضرورة إلى تفضيل بيئة مصر على بيئة غيرها ، أو تفضيل حضارة شرقية على أختها ، وإنما يكفى الاستشهاد به على ما يمكن أن يتأتى من تبادل التأثر والتأثير بين البيئة وبين أهلها ، هنا وهناك ، وما قد يترتب على ذلك من اصطباغ حياة الشعوب بخصائص معينة تحتسب لها أحياناً أو تحتسب عليها أحياناً أخرى .

فى بلاد النهرين :

تشابهت تأثيرات الأنهار الكبيرة والصحراوات الواسعة فى العراق القديم مع تأثيرات أمثالها فى مصر فى بعض أمورها واختلفت عنها فى بعض آخر . فقد كفل نهرا الدجلة والفرات لأهل العراق الأقدمين خصباً وكفاية ، ووفرا لهم نصيباً كبيراً من الاستقرار فى المعيشة والسكن ، الأمر الذى ساعد حضاراتهم الأولى على أن تتضح فى عصور مبكرة لا تبعد كثيراً عن العصور التى نمت فيها بدايات الحضارة المصرية القديمة .

وساعد النهران وفروعهما على تيسير الاتصالات المكانية والمواصلات المائية وإتاحة فرص الارتقاء بصناعة السفن منذ فجر التاريخ العراقى القديم فى أواخر الألف الرابع ق . م . ولكن الملاحة فى النهرين لم تكن على الرغم من ذلك مأمونة العواقب دائماً ، وذلك نتيجة لشدة انحدارهما وسرعة جريان تيارات المياه فى أجزائهما العليا بعامة ، وبطء انحدارهما ، وكثرة مناقعهما فى أجزائهما الدنيا بخاصة ، وذلك بحيث ظلت عملية نقل وحدات الجيش عبر أحد النهرين تحتسب من الأمور الشاقة التى رددت النصوص العراقية القديمة مخاطرها حتى فى

العصور الأشورية المتأخرة (١) . يضاف إلى هذا أن فيضانات النهرين مع ما حملته للعراق من خصب ورخاء واستقرار، كانت قبل أن تخفف الجسور ومشاريع الري الكبرى والسدود من وطأتها وحدتها، عنيفة مخشية الجانب في اغالب أمرها ، لعدم انتظام مواسمها ، وشدة اندفاعاتها، وذلك إلى حد أن أصبحت عبارة « زوبعة الفيضان » مثلا استخدمه أدباء العراق القدماء للتعبير عن كل أمر كاسح مدمر . وكانت هذه الظاهرة أحد مبررات القول بحدوث طوفان عهد نوح عليه السلام في العراق بخاصة . وقد تشتد هذه الفيضانات في غير فترات الحاجة الملحة إليها ، بحيث قد تعنف خلال مواسم الحصاد ، أو تعنف في أوائل الصيف حيث تؤدي شدة الحر والبخر إلى سرعة تسرب ماء الري وجفافه من الأرض .

وأفضت خاصية الامتداد الأفقي الكبير للأراضي التي تتوسط النهرين والأراضي الواقعة على جانبيهما والمترامية على روافدهما وفروعهما (مثل الزاب الأكبر والزاب الأصغر وديالى والكرخة وبالخ والخابور..)، فضلا عن الامتداد الطولي الكبير للمناطق العراقية الواقعة بين حافة الخليج العربي وبين مرتفعات أرمينيا وزاجوراس ، إلى ظاهرة قيام وحدات سياسية وحضارية كثيرة متفرقة مستقلة بعضها عن بعض ، نعمت كل منها بحكمها الخاص في ظل دويلات المدن لفترات طويلة ، ولكن تفرقها هذا أدى من ناحية أخرى إلى قلة إحساس أهلها بالضرورة الملحة إلى التكاتف السياسي والترابط القومي فيما بينها إلا بوحي المطامع الإقليمية الطارئة التي تمثلت في أغلب أحوالها في رغبة بعض دويلات المدن في تعويض شح مواردها على حساب جيرانها ، وتأمين طرق تجارتها إذا سلكت سبلها في أقاليم أخرى قريبة منها . وعملت هذه الأوضاع مع غيرها، على ماشهد به تاريخ العراق القديم من أن سياسته العامة لم تتطور من الإقليمية إلى مرحلة الوحدة السياسية الكبيرة والقومية الواضحة والإتساع الخارجي إلا في عصور متأخرة نسبياً (منذ عصر الأكديين) وبغير استقرار فعلي طويل ، ثم ما شهد به من استمرار المشاحنات الداخلية بين أمثال البابليين وجيرانهم الأشوريين على الرغم مما كان بينهما من صلة الجنس وقرب الجوار ووحدة الديار .

واتصلت ببلاد النهرين من الغرب والجنوب صحراوات وبوادي واسعة لم تخل من نفع كبير ومن متاعب كثيرة في الوقت نفسه . فكان من وجوه الخير فيها أن قامت على أطرافها أسواق تجارية رائجة (عرفت منها فيما بعد مقدمات الحيرة والأنبار والكوفة) . وخرجت منها أو عبرها هجرات سامية كبيرة نزلت أراضي العراق القريبة منها على فترات متقطعة، وكانت تشتد على أهلها الزراع في بداية اندفاعها ثم لا تلبث حتى تطمئن بعد ذلك إلى أسلوب معايشهم وتكفل التجديد في دمائهم وتؤدي إلى التنويع في حضاراتهم ، بل ونجحت أحياناً في ضم شملهم وتوسيع حدودهم تحت راية زعمائها ، كما فعل الأكديون الساميون الذين حققوا وحدة جنوب ووسط العراق لأول مرة في القرن الرابع والعشرين ق . م . ، ثم اتسعوا بنفوذه الخارجي لأول مرة

See, D.D. Luckenbill , *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, I, 287, 475, 558, 633, etc. ; A. L. Oppenheim, "Babylonian and Assyrian Historical Texts", in *Ancient NearEastern Texts* (ed.by J.B. Pritc hard) , 1955, 275 f.

فى تاريخه . وقلدهم بعد ذلك البابليون الساميون . وظل بعض من عشوا فى واحات البوادى المتناثرة بين العراق وبين الشام من أدوات الاتصال التجارى والتبادل الحضرى بين بلاد النهرين وبين ما أحاط بها من مواطن الحضارات القديمة الأخرى فى الشرق الأدنى . ومعنى ذلك كله أن إنكشاف حدود العراق للهجرات السامية الصحراوية لم يكن شراً كله (على خلاف ما تصفه به عادة أغلب المؤلفات التاريخية الحديثة) .

ولكن صحراوات العراق وبواديه ظلت من وجه آخر شحيحة فى مواردها الطبيعية من المعادن والأحجار ، ولم تجد بمثل ما جادت به الصحراوات المصرية منهما . وهو وضع قلل من إمكان إقامة المبانى الحجرية فى جنوب ووسط العراق واستدعى استيراد بعض المعادن من خارجه . كما ظلت حواف البوادى المطلة على أرض الزراعة تتطلب جهداً عسكرياً متصلا لمراقبة تحركات وتحرشات قبائلها البدوية الرعوية التى لم تكن تنقطع .

وبلاد العراق بلاد قارية داخلية ليست لها سواحل بحرية غير سواحلها الجنوبية على الخليج العربى الذى نافستها إلام فى استغلاله ، وأدى هذا بها إلى أن تتطلع دائماً إلى استخدام مخارج غربية تخدم مصالحها على ساحل البحر المتوسط ، بناء على اتفاقيات سلمية أو مشروعات توسعية حربية .

وجاور بلاد العراق من الشرق شعب كبير آخر لم يقل عن شعبها طموحاً ، ألا وهو شعب إلام أو عيلام ثم ماذى وفارس فى هضبة إيران . وكان من منطق الحوادث ألا ينقطع التنافس بينهما لاتصال الحدود وإختلاف الجنس وتضارب المصالح ورغبة الغلبة .

وعوضت المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية سهول العراق القريبة منها ببعض ما أعوز المناطق الجنوبية من المواد الأولية لا سيما الأحجار والمعادن ، لولا أن شعابها كثيراً ما اجتازتها هى الأخرى هجرات آرية رعوية كاسحة ، وكثيراً ما جاست فى وديانها قليات متفرقة خشنة عز على أفرادها أن ينسجموا فى معايشهم وعاداتهم مع الزراع العراقيين المستقرين على السهول ، وعز عليهم التوطن بسهولة معهم . وترتب على ذلك أنه كثيراً ما فاجأت هذه الأقليات وتلك الهجرات دويلات العراق المتحضرة المعاصرة لها بين كل حين وآخر وقطعت عليها نضجها السياسى وحرمتها نعمة الاستقرار الطويل . وينطبق ذلك على ما فعلته هجرات الجوتيين والكاسيين (والحوريين) والميتانيين ، فضلا عن غزوات العيلاميين والخاتيين (أو الحيثيين) على التوالى .

ومرة أخرى لم تكن الهجرات الآرية التى نزلت أرض العراق شراً عليها كلها ، فقد توفرت لها جوانب أخرى نافعة ، وقد لا يكون من قبيل المصادفة أن أقدم تشريعات أشورية معروفة حتى الآن يغلب على الظن أنها ظهرت فى عصر إمتداد هجرات الحوريين الآريين إلى أرض آشور(١) .

ولعله كان لتعدد الجنسيات والهجرات التى دخلت العراق فى عصوره القديمة بعض الأثر فى ظهور تشريعات عراقية متعددة تنظم العلاقات بين الطوائف المختلفة من السكان ، وبعض الأثر كذلك فى ظهور فكرة معاجم المفردات المقارنة باللغات القائمة فى حينها لتيسير إنتفاع الجماعات المتنوعة بها .

(١) **Th. J. Meek, The 'Middle Assyrian Laws", in, *Ancient Near Eastern Texts*, 1955, 180.**

وأخيراً قد لا يكون من المستبعد أنه ترتب على ما تعوده أهل العراق القديم من الظواهر الغالبة لفيضاناتهم وصحراواتهم ومرتفعاتهم من حيث تعدد المشكلات فيها إزاء المنافع، فضلا عن تقلبات المناخ القارى وحدة الفوارق فيه، بعض الأثر فى صيغ حياتهم القديمة بغير قليل من الحدة والتوتر، وهى صبغة توافرت لها مزاياها أحياناً، كما توافرت لها عثراتها أحياناً أخرى. بل وتوافر لها بعض الأثر كذلك فيما رددته أساطير العراقيين القدامى عن شدة عداء بعض أرباب بيئتهم لبعض ومنافسة بعضهم بعضاً. وبعض الأثر أيضاً فى توجيه فنون النحت والتصوير فى عصورهم الأولى بخاصة، إلى إيثار المبالغة والميل إلى إشاعة الرهبة. ثم صرف معظم جهودهم الفكرية القديمة إلى توفية المطالب الدنيوية والتشريع لمعاملاتها دون إهتمام صريح عميق بأمور الآخرة وفلسفات الحساب والثواب المعنوية، على خلاف إهتمامات المصريين القدماء بها، وذلك رغم ما تدل عليه بعض الآداب العراقية من رغبة حكمائها الملحة فى تحصيل الخلود الدنيوى ودفع الموت والفناء بكل سبيل (فى مثل قصة جلجميش وغيرها) (١)، ثم ما تدل عليه نصوصهم الدينية من حرصهم على إرضاء أربابهم فى دنياهم وطمعهم فى أن يدع هؤلاء الأرباب أرواح موتاهم آمنة فى عوالمها البعيدة الغامضة (٢).

فى بلاد الشام:

تأثرت بلاد الشام فى تاريخها القديم بإيحاءات بيئتها وخصائص موقعها، شأنها فى ذلك شأن غيرها من مواطن الحضارات القديمة، أو بما هو أكثر قليلا منها. ومن أوضح هذه المظاهر والخصائص تأثيراً فيها هو التنوع الواضح فى تضاريسها، وتعاقب الفواصل الجبلية فيها، وتباعد مناطقها الخصبة بعضها عن بعض. فقد ترتب على تنوع هذه التضاريس وصلاحيتها فى الوقت نفسه للسكنى والتكاثر العددي، وضوح التباين بين ميول أهلها، أهل الجبال، وأهل السواحل، وأهل السهول والوديان، وأهل البوادى والصحارى، وصعوبة إتحادهم فى وحدة قومية صريحة خلال الغالبية العظمى من عصورهم القديمة. وأفضى قيام الفواصل الجبلية فى بلاد الشام وتباعد مناطقها الخصبة بالتالى عن بعضها البعض إلى نتيجة مشابهة، فتوزعت الوحدات السياسية والاقتصادية فى طول البلاد وعرضها على هيئة دويلات صغيرة أسهمت كل منها بدورها فى ركب الحضارة، ولكنها ظلت متفرقة الإمكانات، محدودة المساحات، محدودة وسائل الهجوم والدفاع، ولم يلتئم شملها فى وحدة سياسية كبيرة طوال عصورها القديمة حتى بداية ظهور الدولة العربية الإسلامية.

وتوسطت بلاد الشام بين حضارة النيل وبين حضارة النهرين، فكانت من أدوات الوصل بينهما واستفادت منهما أو تبادلت النفع معهما. وظلت مناطقها الشرقية والشمالية الشرقية أكثر تجاوباً مع حضارات بلاد النهرين بينما ظلت مناطقها الساحلية الغربية ومناطقها الجنوبية أكثر تجاوباً مع حضارة النيل، وذلك منذ مراحلها العتيقة الأولى. وأفضى هذا إلى نتيجة أخرى، وهى أن مواضع الاحتكاك فى هذه المناطق كثيراً ما غدت من ميادين التنافس السياسى بين جارتيها القويتين مصر والعراق.

(١) N. Kramer, "Sumerian Myths and Epic Tales", *op. cit.*, 44, 48 f. ; E.A. Speiser, "Akkadian Myths and Epics", *ibid.*, 79f. 90, 95, 96.

(٢) N. Kramer, *op. cit.*, 50 f., 52 f. ; Speiser, *op. cit.*, 87 f., 97 f., 107, 109.

ووقعت أعالى الشام فى الوقت ذاته بين الكتلة السامية فى الشرق الأدنى وبين المجموعات الآرية التى تحف بها فى آسيا الصغرى وأعالى النهرين ومرتفعات زاجوراس ،فكانت ميداناً للاتصال الحضرى بينهما واستفادت بذلك منهما ، ولكنها بقيت فى الوقت نفسه ميداناً للتنافس المسلح بينهما ، فشقيت بذلك بهما .

وظلت بوادى الشام من أهم مناطق الجذب والدفع البشريين فى الشرق الأدنى ، ولم تهدأ الحركة فيها فى أغلب عصورها القديمة،وشابهتها فى ذلك إلى حد ما بوادى العراق . وقد اكتسبت خاصية الجذب نتيجة لتميزها عن صحراوات شبه الجزيرة العربية المتصلة بها فى جنوبها ، بوفرة عشبها الطبيعى وفرة نسبية وصلاحية بعض واحاتها للإقامة والتكاثر صلاحية نسبية . فترتب على ذلك أن أصبحت منطقة إغراء بالنسبة لقبائل هذه الصحارى كلما زادت كثافتهم عن طاقة مواردها المحددة ، وكلما طالت موجات الجفاف واشتدت على مراعيهم ، وكلما مزقت الخلافات الداخلية شمل قبائلهم وبطونهم وأجبرت بعضهم على ترك مواطنهم إلى خارجها . واكتسبت هذه البوادى خاصية الدفع ، من ناحية أخرى ، نتيجة لوقوعها بين منطقتين غنيتين تمتازان عنها من مناطق الهلال الخصيب ، وهما ضفاف الفرات شرقاً والوديان والسهول الممتدة إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، وذلك مما جعل هاتين المنطقتين مطمحاً دائماً لأهلها ، فتسربوا إلى دولهما فى تحركات صغيرة عديدة خلال عهود تماسكها السياسى وقوتها العسكرية ، كما اندفعوا إليها فى هجرات كبيرة عنيفة فى عهود تخلخلها السياسى وضعفها الحربى (مما سنعود إلى ذكره فى ص ١٦ — ١٧) ، بل وامتدت تطلعاتهم أحيانا إلى الحدود المصرية الشمالية الشرقية أيضاً .

ولم تقم بادية الشام وحدها بعمليتى الجذب والدفع البشريين فى تاريخ بلادها ، وإنما شابهتها فى ذلك إلى حد ما بعض المناطق الجبلية الساحلية ، مثل مرتفعات فينيقيا أو سوريا ولبنان . فقد حفلت هذه المرتفعات بغابات متسعة من أشجار الأرز والصنوبر استغلها أهلها فى ممارسة الملاحة البحرية على نطاق واسع ، وضمنوا بها موارد تجارية ضخمة فى تعاملهم مع كل من مصر وبلاد النهرين وحوض البحر المتوسط الشرقى ، ولكن غناها النسبى هذا بمواردها الطبيعية جعلها مناطق إغراء فى الوقت ذاته لطمع الهجرات والغزوات الآرية ذات الصلة بأمثال الحوريين والميتانيين ، الذين اندفعوا عليها على فترات مختلفة عن طريق ثغرة حلب وجنوبى الأناضول ، وذلك فضلا عن إغراء السيطرة الإقتصادية أو السياسية عليها من الدول القوية المحيطة بها (لا سيما دول مصر والعراق وخاتى أو الحيثيين) .

واكتسبت نفس المناطق المرتفعة خاصية الدفع منجهة أخرى ، نتيجة لأن غناها النسبى لا يكاد يوفر الحياة الرغدة لغير الأعداد والجماعات المحدودة من السكان ، بينما هو يعجز عن توفيرها بنفس الكفاية كلما اشتد تكاثف أعدادهم وتضخمت فوق طاقة مواردها الطبيعية ، فلا يكون أمام بعضهم حينذاك إذا شاءوا أن يستعيدوا رغد الحياة إلاأن يلتمسوا أسباب الرزق الواسع بالهجرة لفترات قصيرة أو طويلة إلى أراض أخرى تستوعب طموحهم .

وتمتد سواحل الشام إمتداداً طويلا على البحر المتوسط ، وتمثل جزءاً كبيراً من النهاية الغربية لمنطقة واسعة من أقصى غرب آسيا ، وأدى هذا الوضع الطبيعي إلى عدة نتائج حيوية : فكان له أثره فى إزدهار عدة موانى طبقت شهرتها آفاق العالم القديم لعصور طويلة،وأصبحت عصباً لدويلات مدن مستقلة ثرية (مثل دويلات جبيل وأوجاريت وصورصيدا ويافا وعكا وغزة) . وكان له أثره كذلك فى توجيه نشاط أهلها وجهة بحرية وتجارية غالبة وقيامهم بدور الوسيط الاقتصادى والثقافى بين بعض المناطق الداخلية فى غرب آسيا بين جزر الحوض الشرقى للبحر المتوسط من ناحية ، وبين سواحل أفريقيا الشمالية من ناحية أخرى كما كان له أثره فى تشجيع بعض طوائفهم على الهجرة إلى الخارج عن طريق البحر المفتوح وبناء على توافر إمكانات التجارة فيه . ثم كان له أثره كذلك فى تعرضهم لهجرات غربية وفدت عليهم عن طريق هذا البحر أيضاً ، وكانت لها منافعها كما كانت لها أخطارها . وأدت هذه العوامل كلها إلى وضوح نسبة الاختلاط الجنسى بين أهل السواحل والأطراف فى الشام وفينيقيا بخاصة،وتزويدهم بنصيب كبير من المهارة التجارية مع المرونة فى التعامل مع مختلف البيئات والأجناس ، وقدرة ملحوظة على التأقلم السريع بخصائص المجتمعات التى عايشوها أو التى اضطرتهم الظروف إلى الإنتقال إليها والتماس الإقامة القصيرة أو الإقامة الطويلة فيها .

فى شبه الجزيرة العربية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أكبر أشباه الجزر القارية وأشدها جفافا وصحراوية . وقد وفرت لها طبيعتها البيئية فوائد شتى ومشكلات كثيرة ، حيث حمت كتلتها الصحراوية الكبيرة أهلها القدامى من أخطار الغزوات الكثيفة إلا فى حالات محدودة . وكفلت لهم نعمة الاستقلال آماداً طويلة . وساعدت على نقائهم الجنسى واللغوى إلى حد مناسب لاسيما فى مناطقها الوسطى . وجعلت بعض سكان أطرافها وسطاء لاغنى عن الاستعانة بهم فى عمليات الوصل التجارى البرى بين سواحل المحيط الهندى وما يصل إليها من شرق أفريقيا من ناحية؛وبين ضفاف الفرات فى العراق،وسواحل البحر المتوسط فى الشام،وحدود مصر الشمالية الشرقية من ناحية أخرى . وربما أسبغت على أهل البوادى طبيعتهم الطلقة الرحبة والقاسية فى الوقت نفسه شيئاً من صفاء الذهن وتوقد القريحة التى عرفوا بها قبيل الاسلام ، وإن لم يصلنا للأسف من آثارهما الحضارية الأولى حتى الآن غير القليل النادر .

ولكن ضخامة الكتلة الصحراوية الجافة فى شبه الجزيرة العربية أدت فى الوقت ذاته إلى تضييق آفاق الاستثمار القديم أمام أهلها فيما أقامت شعوب الهلال الخصيب القريبة منها حضاراتها المادية عليه ، سواء من حيث اتصال العمران أم من حيث وفرة الإنتاج الزراعى ورواج الصناعة . كما قللت تفاعلهم مع هذه الحضارات تفاعلا إيجابياً عميقاً ، وإن لم تحرمهم تماماً من الاحتكاك بها والاستفادة منها استفادة متقطعة عن طريق مناطق حوافها الحدودية وعن طريق الاتصالات التجارية .

وفرضت الظروف الطبيعية لشبه الجزيرة على حياة أهلها القدامى صورا شتى من التنوع الاجتماعى والاقتصادى . وترتب هذا التنوع على ضخامة مساحتها وتباين تضاريسها واختلاف مواقع أطرافها وبطء الاتصالات بين أجزائها ثم تفاوت نوعية فرص الاستغلال التى تهيأت لكل جماعة من جماعاتها . فشبه الجزيرة العربية مع طابعها العام المعروف ، قد توزعت فيها تلال عادية الارتفاع وجبال شاهقة الارتفاع . وامتدت على حدودها الغربية والجنوبية سواحل صخرية يصعب الانتفاع بها وسواحل أخرى وموان يتيسر إستغلالها . وكما شغلت معظمها صحراوات شاسعة مترامية ، تنوعت هيئات كثبانها ورمالها ، انتشرت فى بعض أماكنها الداخلية حرار وأراض بركانية . وتوزعت فيها وديان تتعرض للسيول العنيفة المتباعدة ، وسهول خصبة تصلح للاستغلال ، وثالثة قاحلة تعز عليها موارد الماء من الأرض أو من السماء على السواء . وأدى هذا التباين الإقليمى والتنوع البيئى فى شبه الجزيرة العربية إلى اختلافات ضمنية فى معايش واتجاهات أهلها القدامى ، البدو منهم والحضر ، والجبليين والزارعين ، والشرقيين والغربيين ،والشماليين والجنوبيين ، والمستقرين والجوابين ، مع إتساع المسافات الفاصلة بينهم . وكان لذلك بعض الأثر أيضاً فى حرمانها من تحقيق وحدتها السياسية الكاملة فى عصورها القديمة إلى أن توحدت مختلف جماعاتها وأطرافها باسم الدين مع ظهور الإسلام ، ثم أخيراً حين تكونت بها الدول الكبيرة فى العصر الحديث .

ولعل أهم ماتداولته المناقشات التاريخية عن توجيهات بيئة شبه الجزيرة العربية لأهلها ، هو دفعها لأغلب قبائلها البدوية القديمة إلى التحركات الداخلية من منطقة إلى أخرى بين كل حين قصير وآخر ، ثم دفعها لبعض جماعاتها فى هجرات كبيرة إلى ما يجاورها من حواف الهلال الخصيب بين كل حين طويل وآخر .

وتمثلت دوافع التحركات القبلية الداخلية القديمة ، فيما هو معروف ، فى تفرق موارد الماء ،وتغير مناطق العشب والرعى ، وتسابق مختلف القبائل والعشائر إلى إستغلال هذه الموارد والمناطق والاستئثار بها والتحكم فيها ، كلما استطاعت سبيلا إلى ذلك ، فضلا عن كثرة المنازعات والحروب الداخلية التى تغذيها الطبيعة البدوية والروح القبلية ، واضطرار الجماعات المستضعفة إلى النزوح خلالها عن مواطنها المحلية إلى حيث تبحث عن الأمن والاستقرار ولو بعيداً عنها . وترتبت على هذه التحركات الداخلية مزايا وعيوب . وتمثلت مزاياها فى اعتياد البدوى بعامة على حرية السعى والإنتقال ، وتجدد رغبته فى أن تظل مسالك الأرض العربية متاحة له يسعى فيها أنى شاء ويتلمس رزقه فيها حيثما شاء ، طالما توفرت له الوسيلة والجرأة وطالما اطمأن إلى مساندة عشيرته وكثرتها . وذلك على حين تمثلت عيوبها فى أنها كثيراً ماشلت أيدى رؤساء القبائل الكبيرة القديمة عن توحيد كلمتهم داخل وحدات سياسية مستقرة واسعة تستطيع أن ترسى مقومات الحضارة الثابتة وتطورها وتنميها ، إلا لمرات معدودة ولفترات محددة . وذلك نتيجة لتباعد مواطن بعض هذه القبائل والمناطق عن بعض ، واختلاف مصالحها الخاصة ، وتضارب الحريات التى افترضتها لأنفسها ، ثم حرص أوفرها عدداً وبأسا على توسيع مجالات نفوذها وحرياتها وأرزاقها على حساب جيرانها دون كبير اعتبار منها لفكرة الصالح القومى العام ،ودون إلتزام كبير منها بحقوق بقية القبائل العربية الغريبة عنها أو العشائر المستضعفة إزاءها ، على الرغم من وحدة الجنس واللغة والديار بين الجميع .

ولم تقتصر التحركات الداخلية على المناطق الصحراوية الوسطى والشمالية فى شبه الجزيرة، وإنما امتدت بعض مسبباتها ونتائجها كذلك إلى عدد من المناطق الصالحة للاستقرار الطويل فى الجنوب العربى . فكثيراً ما أفضت منازعات أمراء القبائل والأقاليم هناك، وأطماع الدول الجنوبية فيما بينها، مثل حروب دول السبئيين والمعينيين والقتبانيين والحضرميين، بل ومنافسات أقاليم الدولة الواحدة منها، كمنافسات الهمدانيين والريدانيين، بعضهم لبعض، إلى إستهلاك قوى دولهم ودويلاتهم وإماراتهم بين كل حين وآخر، وتتصير أمدها وتشتيت بعض أهلها . وكثيراً مادفعت هذه المنافسات بطوناً إلى ترك أمهاتها على أطراف الجنوب والرحيل عنها إلى مواطن أخرى شمالية بالحجاز وما ورائه، بل وإلى أرض نجد أحياناً على الرغم من شدة تصحر بيئتها الطبيعية الداخلية عن بيئة الجنوب .

وانشعبت الآراء فى تعليل دفع شبه الجزيرة العربية لبعض سكانها فى هجرات خارجية كبيرة نسبياً إلى مناطق وأطراف الهلال الخصيب فى العراق والشام ومصر، إلى ثلاثة آراء رئيسية :

رأى تصور أصحابه (ومنهم كايتاتى) أن شبه الجزيرة كانت أشبه بمستودع بشرى كبير للعناصر السامية القديمة، وأن نوبات الجفاف الشديدة الطويلة التى تعاقبت على أرضها فى دورات مناخية ثابتة ظلت عاملا أساسياً فى ضيقها بسكانها الزائدين عن طاقة مواردها الطبيعية، وظلت سبباً فى دفعهم إلى الهجرة الكثيفة منها إلى الخارج على حقب متباعدة يفصل بين الواحدة منها والأخرى ألف عام (١) .

ورأى آخر عارض تعليل الرأى الأول، وهون أصحابه (ومنهم ألوا موزيل) من أهمية تأثير نوبات الجفاف فى ذلك الدفع البشرى الكثيف إلى الخارج . ورأوا أن تحديد ما بين الدورات المناخية وفترات الهجرة بألف عام ليس له أساس تاريخى يزكيه . وقدروا من ناحيتهم أن أسباب الهجرات العربية الكبيرة القديمة تمثلت أساساً فى عاملين بشريين وهما : تعاقب الضعف السياسى على إمارات شبه الجزيرة العربية من حين إلى آخر، ثم تحول طرقها التجارية عن مسالكها الرئيسية لسبب أو لآخر . وأقام هذا الرأى حجته على أساس أن الإمارات المستقرة القوية تستطيع أن تذود عن ديارها وأن تحمى مواردها الطبيعية وتنميها، وتستطيع أن تحسن إستغلالها وتنظم الإنتفاع بها، ويمكنها أن ترعى أسباب العمران فى أراضيها، وأن توفر السلام لأهلها كما تيسر أسباب الرزق لأعدادهم المتزايدة، طالما احتفظت ببأسها — فإذا اعتراها التمزق السياسى أدى إلى عجزها عن حماية أرضها وعن مواصلة مشاريع التنمية والاستغلال والعمران فيها، والعجز عن حفظ الأمن والسلام الداخلى، حتى ينتهى الأمر إلى شيوع الفتن والفرقة فى أقاليمها، وإلى بوار أرضها وإهمال موارد الرى فيها والعجز عن تنظيم إستغلالها، ثم العجز بالتالى عن توفية مطالب إقامة سكانها .

ولم يقل أثر تحول الطرق التجارية الرئيسية، فى نظر أصحاب هذا الرأى، عن أثر ضعف الإمارات فى دفع الهجرات الكثيفة، على أساس أنه كان من شأنه كلما حدث أن يفضى إلى كساد التعامل وبوار الأرزاق

(١) Caetani, "L'Arabia Preistorica e L'essi Camento della Terra...", *Studi di storia orientale,* I. Milan, 1911, 51 f. and 289 f. (after Alois Musil *Northern Negd,* Appendix X).

وانتشار الفقر والمجاعات على إمتداد الطرق التجارية المهجورة وفى محاط القوافل التى يقل نشاطها الاقتصادى، ثم يؤدى فى نهاية أمره إلى ضيق أهلها بأرضهم، وضيق مواردها بهم.

وهكذا إذا اشتد تأثير أحد العاملين، تمزق الإمارات، أو تحول طرق التجارة الكبيرة ونضوب مواردها، أو ازدوج هذان العاملان، لم يكن هناك مناص من أن تترك جماعات كثيرة من السكان مواطنها وتهاجر منها إلى مواطن أخرى خارجية تطمع أن تضمن فيها معاشها وتطمع أن تأمن فيها على أهلها (١).

ويبدو أن هذا الرأى كان أكثر إلتفاتاً إلى ظروف الجنوب العربى حيث قامت دول ودويلات كثيرة وانهارت، وحيث اشتدت المنافسات الداخلية والخارجية على تحويل طرق التجارة الكبيرة من مسار إلى مسار بين كل حين طويل وآخر.

وجمع رأى ثالث بين وجهتى النظر السابقتين، واعتقد أصحابه (ومنهم حزين) أن العوامل السياسية التى تمثلت فى تعاقب ضعف الإمارات وعجز الحكام واضطراب موارد التجارة، كما تمثلت فى تكرار الفتن والمنازعات هى عوامل يشتد أثرها فى دفع الهجرات فعلا، ولكنها غالباً ما تكون عوامل مباشرة وليست عوامل أساسية. أما العوامل الأصيلة فتتمثل فى الجفاف الطبيعى نفسه، وذلك بمعنى أن منازعات القبائل على الماء والمرعى والتجارة تشتد عادة بعد ظهور الجدب البيئى فعلا، وأن ضعف الإمارات يشتد بدوره بعد بوار مواردها وبعد حدوث القحط فعلا، لاسيما وأن نزوح الهجرات كان يبدأ عادة من المناطق المعرضة للجفاف الشديد أكثر مما يبدأ من غيرها، ولكن دون التقيد بدورة الألف عام التى خمنها كايتانى (٢).

ونرى تزكية آراء هذا الاتجاه الأخير، مع إضافة ملاحظة رئيسية عليه، وهى أنه مع منطقية اعتبار شبه الجزيرة العربية مصدراً أولياً لكثير من السلالات السامية القديمة التى انتشرت فى الشرق الأدنى القديم، إلا أنه ليس ثمة مايؤكد اتجاه هجراتهم الكثيفة منها إلى الأراضى الزراعية فى بلاد الهلال الخصيب رأساً وفى دفعات كبيرة دائماً أو على فترات قصيرة، وذلك لأمرين: أولهما أن نزوح هجرات كثيفة متماسكة من أرض مايتطلب عاملا أساسياً وهو أن تسمح موارد هذه الأرض فى أحوالها العادية بتكاثف سكانها، حتى إذا نزل القحط بها واشتد وطال أمده ونضبت معه مواردها، اضطرت أعداد كبيرة من سكانها الكثيرين إلى أن تنشد لنفسها حياة خارجية أفضل من حياة أرضها، وذلك على نحو ماحدث بالنسبة لرعاة مناطق الاستبس الأورو آسيوية أكثر من مرة فى تاريخهم القديم وتاريخهم الوسيط.

أما الأمر الآخر فهو أنه لم يكن من اليسير على أصحاب هذه الهجرات وأغلبهم من البدو الرعاة أن يسارعوا بتغيير حياتهم ليكونوا مزارعين مستقرين فى الهلال الخصيب بعد وقت قصير من هجرتهم.

---

(١) Alois Musil, *Northern Negd, A Topographical Itinerary*, (The Oriental Exploration and Studies, V), New York, 1928, 304 f. and 311 f.

(٢) S.A. Huzayyin, *Arabia and the Far East*, Cairo, 1942, 3 f.

ولم تكن موارد شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، تسمح بالتكاثف السكانى الكبير فى أطوارها العادية ، فى حدود المعلومات المعروفة عنها حتى الآن وبغض النظر عن الدهور الحجرية المطيرة التى سبقت عصور الهجرات التاريخية بعشرات الآلاف من السنين ، وإنما الأقرب إلى الظن فيما يبدو هو أن الهجرات السامية الكبيرة لم تكن تصل من شبه الجزيرة إلى مناطق الهلال الخصيب دون أن تمر ببضع مراحل تمهيدية . وذلك بمعنى أن عوامل القحط والجفاف الشديد وضعف الإمارات ونشوب الخصومات وتغير مسالك التجارة الرئيسية كان من شأنها أن تدفع جماعات قبلية صغيرة أو كبيرة إلى التحرك فى هجرات بطيئة متقطعة من شبه الجزيرة العربية إلى بوادى الشام وبوادى العراق ، حيث المعيشة أنسب وآثار القحط أخف وحيث البيئة أقرب إلى بيئتها الأصيلة ، وحيث هى معتادة عليها فى هجراتها الفصلية . فإذا نجحت أمثال هذه الهجرات القبلية المتقطعة فى الإقامة بمواطنها الجديدة مع سكانها الأصيليين بناء على تراض واتصالات سابقة ، أو بناء على القسر والغلبة ، تشجعت جماعات قبلية أخرى من جاراتها ولحقت بها ، أو مرت جماعات أخرى بنفس ظروفها وكررت فعلتها . . .

وتبدأ مرحلة تالية إذا طال توطن هذه الجماعات فى بيئتها الجديدة ، وساعدتها ظروفها على التكاثر السكانى والتكاثف المعيشى النسبى ، واقترب أهلها شيئاً فشيئاً من أطراف الهلال الخصيب بعد أن سمعوا بخيراتها أو دفعتهم ظروفهم إليها ، ثم تعاملوا معها ونهلوا بعض الشىء من أرزاقها ولمسوا رخاءها وطمعوا من ثم فى أن ينعموا بنصيب منه . وترتبط هذه المرحلة بالأمر الآخر الذى بنينا عليه ما أضفناه على المذهب الثالث فى تعليل الهجرات العربية الكبيرة .

وجدير بالذكر ، على سبيل التشبيه الضيق ، أن طغيان العوامل البيئية على مقومات الحياة البشرية فى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية وعمله على تقليل فرص الاستقرار والاستثمار الطبيعى أمام سكانها بقيت بعض آثاره حتى العصر الحديث فيما قبل إستغلال مصادر البترول . فإقليم الاحساء على سبيل المثال ، وهو إقليم ساحلى سبخة كثير المياه والزروع فى أحواله العادية ، كثيراً ما تعرضت أرضه المحيطة بالعقير والقطيف ، وهى من مناطق الاتصال الرئيسية بين المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية وبين جيرانها على الخليج العربى وفى جنوب العراق ، لزحف الكثبان الرملية الكثيفة التى قد تغطى مزارعها أحياناً وتطويها ، بل إنها لتكسو حين شدتها أشجار الأثل والنخيل النامية فى المنخفضات بحيث لا تظهر منها غير أطرافها(١) ، وكان من شأن تكرار مثل هذه الظاهرة أو اشتدادها فى عهود ما قبل الثراء النفطى الحديث ، أن يضيق مجالات الرزق أمام أهل المنطقة ويدفع بعضهم إلى الهجرة منها . ولما كانوا أصحاب مزارع ومياه ، فإن بيئة العراق الجنوبى الزراعى ظلت أنسب لهجراتهم من غيرها . ولكن يغلب الظن أن أمثالهم ما كانوا يتركون أرضهم فى شكل هجرة جماعية كبيرة بسهولة ، فأرض الوطن عزيزة على أهلها مهما بلغ من فقرها الطارىء . ولنا أن نفترض أن جماعاتهم الصغيرة كانت تتسرب ببطء تدريجى إلى الشمال مدفوعة بقسوة الظروف . وما كانت مثل هذه الجماعات

(1) See, P. B. Cornwall, «Explorations in Hasa», The Geographical Journal, Jan. *Feb., 1946, 3 f.*

مهما بلغ عددها لتسمح بتشكيل هجرة تاريخية تدخل أرض العراق مثلا وتستقر فيها دفعة واحدة ، أو تؤثر فيها تأثيرا فعالا ، وإنما كان أهلها يتلاحقون وراء بعضهم البعض على فترات ، أسراً وعشائر ، ثم يتفرقون على أطراف العراق أو بالقرب منها ، إلى أن تكتمل لهم مقومات مرحلة جديدة يمكن أن تجعل منهم أصحاب هجرة فعلية موثرة ولو إلى حد ما .

وتبدأ مرحلة ثالثة للهجرات الكبيرة ترتبط بما أسلفناه عن عملية الدفع البشرى من بوادى الشام والعراق إلى ما حولها ، وذلك حين يتعرف المهاجرون الطامحون على مواطن الضعف فى حدود دويلات الهلال الخصيب المستقرة المجاورة لهم والطامعين فى خيراتها فيبدأوا من ثم يترقبون الفرص لصالحهم ، حتى إذا تفككت وحدتها وضعفت قوتها وخفت قبضتها عن حماية ذمارها ، لأسباب داخلية أو لأسباب خارجية ، تسربوا إليها أسراً وعشائر وشاركوا أهلها معايشهم ، أو اندفعوا إليها قبائل وجيوشاً إذا توافرت لهم الزعامات القوية ، ثم تغلبوا على أهلها وسيطروا على أرضهم وحكمهم .

ويمكن افتراض مايشبه هذه المراحل المتتالية بالنسبة للهجرات الأكدية والبابلية والآرامية حتى نزولها أرض الزراعة بالعراق ، وبالنسبة كذلك لهجرات الأموريين والكنعانيين (والساتو والأخلامو والخابيرو والعابيرو) والآراميين حتى نزولهم مناطق الخصب فى بلاد الشام والعراق .

ولم تخل طبيعة شبه الجزيرة العربية من تأثير فى عقائد سكانها الأوائل،فقد ترتب على صفاء سمائها فى أغلب أحوالها ، وتطلع أهلها إلى صيب السماء وأمطارها ، واعتماد قوافلهم السارية بالليل على هداية القمر والنجوم ، أن اتجه تدينهم إلى السماء أكثر من غيرها ، وحاولوا أن يتقربوا من القوى المتحكمة فيها ، وجعلوا القمر والشمس والشعرى على رأس أربابهم العديدين ، أوهم بمعنى آخر قدسوا أرباباً تخيلوهم يتحكمون فى هذه الأجرام الثلاثة،وأطلقوا عليهم ماشاءوا من الأسماء والصفات . وظلت ديانتهم فى جوهرها ديانة قمرية أكثر منها شمسية (١) ، ربما لشدة هجير الشمس وقلة نفعها بالنسبة لأهل الصحارى بخاصة ، وإن لم يصرفهم هذا عن إجلال ربتها ورهبتها .

* * *

وأخيراً فليس من شك فى أن التنوع البيئى والمعيشى والوجدانى والسياسى الذى أوجزناه لبلاد الشرق الأدنى القديم داخل وحدته الجنسية واللغوية الكبيرة القديمة ، كان مسئولا إلى حد كبير عن مراحل التنافس السياسى والحربى التى نشبت بين شعوبه وقطعت عليها سلامها واطمئنانها من حين إلى آخر . وكان مسئولا كذلك عن سوء فهم الفريق منها للفريق الآخر أحياناً ، ليس على مستوى الشعوب وحدها بل وبين طوائف الشعب الواحد أيضاً فى بعض الأحوال ، لاسيما فى مناطق العراق وبلاد الشام .

ولكن ليس من ريب كذلك فى أن ذلك التنوع لم يكن فى الوقت نفسه بغير قيم وفوائد حيوية لشعوبه . فقد كان من شأنه أن يحفظ لكل بلـــد منها شخصيته الإقليمية واضحة ، وأن يكفل لكل شعب منها خبراته

(١) ديتلف نيلسن : الديانة العربية القديمة (فصل من التاريخ العربى القديم - تعريب فؤاد حسنين) - القاهرة ١٩٥٨ - ص٢

الخاصة التي اعتز بها ، واشتهر بها وأن ويطلق العنان لخيال أصحابه كي يشيدوا بعراقتهم وأصالة موطنهم كيفما شاءوا . وكان يؤدى إلى ثراء الفنون الشرقية فى مجملها ، وإلى تعددصناعاتها ، باختلاف مقوماتها واختلاف أذواق أصحابها ، وإلى فتح مجالات المنافسات الاقتصادية والفنية المشروعة بينها فى الأسواق الخارجية . وكان من شأنه كذلك أن يفتح مجالات الاتصالات الحيوية بين مختلف حضاراته ، حين كان يلزم أصحاب كل حضارة بأن يستكملوا ماينقص بيئتهم من المواد الأولية والكمالية ومن الخبرات الصناعية والفنية من أصحاب الحضارات الأخرى .

ولازال مدى تأثير كل حضارة من هذه الحضارات الشرقية فى أختها ، موضعاً لمجادلات تاريخية وأثرية طويلة ، ولكنها مجادلات لاتنفى إطلاقاً عمق صلات بعضها ببعض منذ فجر تاريخها البعيد(١). وذلك ماسوف تناقشه الفصول التالية فى سياق بحثها لمراحل التطور فى كل حضارة من حضارات الشرق الأدنى القديم على حدة .

* * *

(١) See, V. G. Childe, *New Light on the Most Ancient East*, 1952, 111 f. ; H. Frankfort, *AJSL*, 1941, 239 f. ; *The Birth of Civilization*, 1951, 110 f. ; Scharff–Moortegat, *Die Frukulturen Aegyptens und Mesopotamiens*, 1941; H. Kantor, *JNES*, 1942, 174 f. ; 1952, 239 f. ; R. Weill, *Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prépharaoniques*, 2 partie, Paris, 1961, 279 f.

الفصل الثاني

الشرق الادنى ودهوره الحجرية فيما قبل التاريخ

تعبير « ما قبل التاريخ » تعبير زمنى اصطلاحى مرن ، يطلق عادة على كل الأزمنة السحيقة التى سبقت عصور اهتداء الأمم القديمة إلى الكتابة وإلى تكوين القوميات الكبيرة والوحدات السياسية المستقرة . ويرادفه إلى حد ما تعبير حضارى اصطلاحى آخر يقل عنه إمتداداً فى الزمن ، وهو تعبير « الدهور الحجرية »: وتقصد به الدهور التى بدأت معها حضارة الإنسان البدائى ، أو التى بدأت بمعنى أصح بالدهر الذى استطاع الإنسان الأول أن يصنع فيه شيئاً بيده عن قصد وهدف ، والتى لم يستخدم أهلها معادن مصنوعة ، وإنما إعتمدوا أساساً على أدوات حجرية بدائية كانوا يشكلونها بما يناسب مطالبهم المحدودة ويستخدمون إلى جانبها أدوات أخرى أقل بقاء منها اتخذوها من فروع الشجر ومن عظام الحيوانات الكبيرة النافقة وقرونها وأنيابها الضخمة . ومن الأصداف البحرية الكبيرة حيثما توافرت لهم .

ولا يزيد المعروف من الآثار الحضارية لما قبل التاريخ ودهوره الحجرية الطويلة ، عن آثار متواضعة ضئيلة خشنة متفرقة لا تكاد ترضى غير المتخصصين فى دراستها وبحثها . ولكنها على الرغم من ضآلتها وخشونتها ، وعلى الرغم من بطء تطورها واستمرار مظاهرها المتواضعة عشرات الآلاف من السنين ، آثار لا يستطيع التاريخ أن يتجاهلها إلا إذا تنكرت البشرية لأصولها الأولى وتناست شقاء أسلافها المبكرين الذين واجهوا وحشية البيئات القديمة وعملوا على أن يستغلوها ، وواجهوا جبروت كائناتها العديدة وكافحوها ما استطاعوا ، وذلك على الرغم من أنهم كانوا حينذاك لا يزالون قلائل متفرقين ، وكانوا لا يزالون عزلا إلا من عقليات طفلية حائرة وتجارب محدودة متعثرة ، فى عالم كان البقاء فيه للأقوى دائماً ، قبل أن يصبح والبقاء فيه للأذكى .

فى الدهر الحجرى القديم الأسفل :

بدأت بواكير النشاط الحضارى البدائى لإنسان الشرق الأدنى ، وما عداه من المناطق الصالحة للإقامة فى العالم القديم ، فى دهر يسمى اصطلاحاً بإسم الدهر الحجرى القديم الأسفل(١) ، وهو دهر مديد للغاية ، لن نطيل فى مناقشة امتداده وخصائصه ، ولكن يكفى التنويه هنا بأن الفوارق الزمنية بين النظريات المختلفة فى توقيته تبلغ وحدها عشرات الآلاف من السنين ، وأنه تعاقبت فيه على مناطق العروض الوسطى والمدارية

---

(١) O. Menghin, *Welt Geschichte der Steinzeit,* Wien 1931, 88 f.

التى يقع الشرق الأدنى فيها ، حقب مطيرة طويلة جداً ، وحقب أخرى جافة طويلة جداً (١) ، تكاد تقابل ما شهدته مناطق العروض العليا من تقدم موجات الجليد وموجات انحساره .

وكانت خطوات بواكير الحضارة فى هذا الدهر بطيئة للغاية بحيث تشابهت مظاهرها المتواضعة حيثما وجدت آثار البشر فى دهرها . واستخدم الإنسان فيها أدواته اليدوية البدائية فى الدفاع عن نفسه ضد الحيوان وضد أخيه الإنسان . وكان يستعين بها فى تحصيل معاشه ، وذلك كأن يستخدمها فى صيد الحيوانات الصغيرة وتهشيم عظامها وتقطيع لحومها وسلخ جلودها ، ويستخدمها فى اقتلاع ما يستسيغ أكله من جذور النباتات ، وما يود إسقاطه من ثمار الشجر . واتخذ الإنسان أدواته تلك من الأحجار وفروع الأشجار ومن العظام والمحار ، ولكنه حرص حيثما استطاع على أن يتخذ أكثرها استعمالا فى حياته اليومية مما يتوفر فى بيئته من قطع الأحجار الصلبة . وهدته التجارب إلى أن أصلح الأحجار لأغراضه هى قطع الظران ، فكانت أداته المفضلة عبارة عن زلطة غليظة من الظران (٢) يحرص حين يتخيرها على أن تكون قاعدتها مناسبة لقبضة يده ، ويترك هذه القاعدة بشكلها الطبيعى وبقشرتها الطبيعية ما دامت ملساء نوعاً لا تؤذى كفه ، ثم يشكل قمتها وجوانبها بما يسمح له بأن يستخدمها فى أغراضه المحدودة التى أسلفناها . ويمكن تسمية الواحدة من مثل هذه الأدوات بإسم الفهر .

ومرة أخرى لن نتعرض لتفاصيل خصائص الفهر وتطوراته ونحيل من شاء الاستزادة من المعلومات عنه إلى كتابنا عن « حضارة مصر القديمة وآثارها » . وكل ما يعنينا هنا أن فريقاً من الباحثين يفترضون منطقة قديمة واسعة منبسطة السطح متوسطة الموقع معتدلة المناخ مفتوحة المداخل والمخارج تمرس الإنسان الأول فيها على صناعة الفهر الحجرى وتطويره ، ثم انتشر به منها إلى بقية المناطق الصالحة للسكنى فى العالم القديم . ويعتقد بعضهم أن هذه المنطقة ذات المميزات الخاصة كانت ضمن مناطق الشرق الأدنى ، وربما فى شمال أفريقيا وغرب آسيا بخاصة ، وكانت منها هضاب مصر وما يحيط بها شرقاً وغرباً (٣) ، وهى هضاب كانت تتلقى نصيباً كافياً من الأمطار ، وتنمو عليها نباتات تشبه نباتات السفانا الحالية ، ولا زالت شواهد صلاحيتها المناخية القديمة ماثلة فى بقاء عدد من الوديان والأخاديد والينابيع شقتها المياه الغزيرة وجرت فيها ، ثم جفت أو تحجرت . ولا زالت شواهد سكناها القديمة ماثلة كذلك فى وجود أعداد من الأدوات الحجرية البدائية التى خلفها إنسانها الأول فى مواضع متفرقة على سطحها .

وقسم الباحثون الحضارات البدائية فى الدهر الحجرى القديم الأسفل إلى قسمين متعاقبين ، وهما : الحضارة الشيلية ، أو الأبيفيلية ، نسبة إلى قريتين فى فرنسا وجدت فيهما نماذج كثيرة لأقدم أدوات الإنسان

(١) *See*, K. S. Sandford and W. J. Arkell, *Palaeolithic Man...*, II 83 f. ; S. A. Huzayyin, *The Place of Egypt in Prehistory*, Cairo, 1941, 94 f., 112, 329 f.

(٢) عن صناعتها : إبراهيم رزقانة : الآلات الحجرية – القاهرة – ص ٥٠ .

الأول .-ثم الحضارة الأشيلية نسبة إلى قرية أخرى فى فرنسا أيضاً عثر الباحثون فيها على نماذج عدة لأدوات حجرية امتازت بتطور نسبي عن الأدوات الشيلية التى سبقتها . ويتلخص هذا التطور بين الحضارتين فى بداية إهتمام الإنسان بتصغير سمك وحجوم أدواته الحجرية بعض الشيء ، ربما ليسهل عليه استعمال أكبر عدد منها ، ثم إهتمامه بتحديد حوافها وبتهذيب سطوحها بحيث تصبح مستوية بقدر الإمكان وبحيث ترضى ذوقه بعد أن أرضت مطلبه المادى منها .

واهتدى الإنسان فى خواتيم هذا الدهر ، وفى بقعة أو بقاع ما من العالم القديم ، إلى طريقة إيقاد النار اهتداء عفوياً فى الأغلب ، وكان اهتداؤه إليها مبشراً بأول انقلاب مادى فعال فى تاريخ الحضارة البشرية ، إنقلاب تميز به طعام الإنسان بعد طهيه بالنار عن طعام الحيوان ، وأصبح الإنسان بفضله أكثر اطمئناناً على نفسه وعلى عياله حين يستعين بدفء النار على مقاومة البرد والصقيع ، وحين يستعين بنورها على مخاوف ظلام الليل عدوه المخيف ، وحين يستعين بأثرها فى حفظ لحم الصيد وعدم فساده سريعاً . وليس من المستبعد أنه حين لم يعد فكه وأسنانه يتطلبان المجهود الذى كان يبذله فى أكل اللحم النيء — كان لذلك بعض الأثر فى أن تهذبت خلقته وخفت وحشيته .

فى الدهر الحجرى القديم الأوسط :

أعقبت حضارتى الدهر الحجرى القديم الأسفل : حضارة الدهر الحجرى القديم الأوسط . وهذه نكتفى بأن نذكر عن خصائصها هى الأخرى أن مناطق الشرق الأدنى عاشت فى أغلب دهرها فى ظل حقب مطيرة طويلة ، وإن تكن أقل أمداً واتصالا من الحقب المطيرة التى سبقتها خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل . وأن الاصطلاح العلمى جرى على تسمية الأدوات الشائعة فى أجزاء العالم المعمور خلالها بإسم الأدوات الموستيرية (نسبة إلى أدوات كهف موستييه فى فرنسا) ، و ميزها توسع أصحابها فى صناعة كان أهل الدهر السابق قد بدأوا بها ، وقامت على أساس استخدام الشظايا التى تنفصل عن جوانب الفهر حين صناعته . وقد زادت مهارتهم فى فصلها بعناية وسهولة وتشكيلها بأشكال مختلفة ، بحيث إذا حددوا جانبى الشظية استخدموها إستخدام المدية ، وإذا حددوا أحد جانبيها استخدموها استخدام المبشر أو المكشط ، وإذا دببوا أحد طرفيها إستخدموها استخدام المثقاب أو المخراز . وعلى الرغم من شيوع الخصائص العامة لهذه الصناعات الحجرية فى أغلب المناطق المعمورة من العالم القديم ، دون تغيير كبير ، إلا أن بعض جهات الشرق الأدنى استطاعت أن تنحو بصناعتها الحجرية المتواضعة نحو التخصص ، ومنها مصر التى نهج بعض أهلها نهجاً إقليمياً فى صناعة النصال والأفهار (الليفلوازية) مما ميز بعض الشيء بين إنتاجهم المتواضع منها وبين إنتاج الأدوات والشظايا الموستيرية العامة الشائعة عند من سواهم من أهل العالم القديم (١) .

(١) S.H. Breuil, *L'Afrique préhistorique*, 1931, 71 ; S. Huzayyin, *Bull. Soc. de Géogr. d'Egypte*, XX, 210 f. ; E. Massoulard, *Préhistoire et Protohistoire d'Egypte*, 1949, 13.

فى الدهر الحجرى القديم الأعلى :

تغيرت بانتهاء الدهر الحجرى القديم الأوسط صورة الشرق الأدنى القديم إلى حد كبير ، فانتهت بانتهائه فترات الأمطار الكثيفة المتصلة فى العروض المدارية والوسطى ، وتضاءلت بانتهائه فرص نمو نباتات السفانا الوفيرة ، وقلت بذلك فرص الحياة للحيوانات الضخمة التى تحب وفرة الماء ووفرة النباتات كالفيل والخرتيت والثور البرى ، فانقرض بعضها ، ولجأ بعضها الآخر إلى المناطق الإستوائية أو المناطق الشمالية الباردة .وأخذت ظروف الجفاف تسود الشرق الأدنى شيئاً فشيئاً ، وظهرت معها حضارات بدائية جديدة هى حضارات الدهر الحجرى القديم الأعلى . وفيها حاول الإنسان أن يتطور بوسائله المادية إلى ما يناسب ظروف حياته الجديدة ، فقلل استعمال وحجوم أدواته الحجرية الكبيرة ، وأصبح يستخدم معها أدوات حجرية صغيرة تصلح لأن يصيد بها الحيوانات الخفيفة سريعة و التى استمرت تعيش معه فى ظل الجفاف وحلت محل الحيوانات القديمة الكبيرة . وبلغ من صغر بعض الأدوات الحجرية المتخلفة عن هذا الدهر ما دعا إلى تسميتها بإسم الأدوات الضئيلة والأدوات القزمية . وكانت أكثر هذه الأدوات تنوعاً وتطوراً هى التى استخدمها الإنسان على هيئة السهام بعد معرفته عمل الأقواس ، وأسلحة أخرى أكبر منها كان يثبتها فى أيد من فروع الشجر لتغنيه عن ثقل الادوات الحجرية ، وتؤدى أغراض الخناجر والحراب .

قرائن مناطق العمران :

وجدت آثار النشاط البشرى خلال الدهور الحجرية القديمة الثلاثة وافرة فى أغلب بقاع الشرق الأدنى القديم . فتفرقت فى مصر ، على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، فى مناطق العباسية والجبل الأحمر وجبل المقطم ودهشور وسقارة وسفوح مرتفعات الأقصر وقرب أسوان ، وفى الطرق المؤدية إلى الواحات ، خلال الدهرين الحجرى القديم الأسفل والحجرى القديم الأوسط . كما وجدت على أطراف الدلتا ، وحول وديان وعيون كان لا يزال يجرى بها نذر من الماء كعيون حلوان ، ووادى الطميلات ، ووادى العنجبية ، وفى الجيزة ، والفيوم ، وحوض كوم أمبو ، وقرية السبيل ، والواحة الخارجة ، خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى (١) .

وتوزعت آثار الدهور نفسها فى بلاد النهرين فى مناطقها الشمالية أكثر من مناطقها الجنوبية التى غطت الرواسب الطمية الكثيفة على آثارها ، إن كانت بها آثار . فوجدت نماذجها فى الشمال على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر أيضاً ، فى كهف بردايلكا قرب جمجمال خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل أو الأوسط ، وفيما بين كهف شانيدار وبالى جاورا خلال الدهر الحجرى القديم الأوسط أيضاً . ووجدت غيرها فى مثل كهف هزارمرد وكهف زرزى ، فى أواخر الدهر القديم الأوسط وخلال الدهر الحجرى القديم الأعلى (٢).

(١) A. Huzayyin, *The Place of Egypt in Prehistory*,1941;E. Massoulard, *op. cit.*; F. Wendorf end Others, The Palaeolithic of the LowerValley, 1975; Prehistory of the Nile Valley, 1976; P.M. Vermeersch, Elkab, L'Elkabien, Epipaléolithique de al Vallée du Nil égyptien, 1978.

(٢) R.J. Braidwood, *Prehistoric Man...;* H.E. Wright, *BASOR*, 1952, 11f.
مجلة سومر ١٩٥١ — وأنظر طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة — ج ١ ص ٢٩ .

ووجدت أمثالها فى الشام فى كهوف عدلون ومنطقتى نهر إبراهيم ونهر الكلب وفى رأس الشمرا ، فى الشمال ، وفى جبل الكرمل وأم قطفة والزطية وقرب مجرى نهر الأردن فى الجنوب ، خلال الدهرين القديم الأسفل والقديم الأوسط . ثم وجدت غيرها فى كهوف أنطلياس ، ونهر الكلب ، ومغارة الأميرة قرب بحيرة طبرية خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى (١) .

وظلت شبه الجزيرة العربية أقل حظاً من غيرها فى نتائج البحوث الأثرية لأدوات الدهور الحجرية القديمة حتى نشطت مؤخراً (٢) . وقد يعنى ما عثر عليه من أدوات الدهر الحجرى القديم الأسفل فى جنوب الأردن أن هذه المنطقة وما يتصل بها من شمال شبه الجزيرة العربية معها على أقل تقدير ، كانا صالحين للنشاط البشرى منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأسفل . كما أنه من المرجح أن الأودية الجافة الكبيرة التى لاتزال تقطع شمال الجزيرة ويجرى بعضها ناحية البحر الأحمر ، بينما يجرى بعضها الآخر ناحية الخليج العربى ، قد شقتها أمطار كثيفة خلال فترات مطرة طويلة ساعدت على قيام النشاط البشرى فى شبه الجزيرة خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل أو الدهر الحجرى القديم الأوسط (٣) .

أما عن أدوات الدهر الحجرى القديم الأعلى فيها ، فقد عثر عليها فى الشمال ، وفى مناطق الأحساء والعروض وفى سواحل الخليج ، وكذلك فى حضرموت ومناطق متفرقة من اليمن . أى أنها وجدت فى كل من شرق شبه الجزيرة وجنوبها وجنوبها الغربى . وذهب رأى قديم نوعاً إلى أن بعض الأدوات الحجرية البركانية التى عثر عليها فى الأحساء والعروض ، كان أصحابها يجلبون أحجارها البركانية من المناطق الغربية لشبه الجزيرة نظراً لعدم توافرها فى بيئتهم . وقد يصعب تأييد هذا الرأى نظراً لاتساع الشقة بين شرق شبه الجزيرة وغربها ، مع تفاهة الأدوات نفسها وبطء الإنسان القديم ، ولكنه إذا صح احتمالا أمكن أن نرتب عليه بداية قيام الاتصالات وتبادل المنافع بين أجزاء شبه الجزيرة منذ ذلك الحين ، على أن نفترض أن هذه الاتصالات كانت تجرى بطرق غير مباشرة ، إذ أنه من الصعب أن نتصور رجالا يرحلون من أقصى شرقها إلى أقصى غربها من أجل أحجار صغار يمكن أن تحل محلها إلى حدما أحجار بيئتهم .

وذهب نفس الرأى السابق إلى ما هو أبعد من ذلك ، فرجح تبادل التأثير الحضارى بين مناطق جنوب شبه الجزيرة وبين المناطق التى تقابلها على سواحل أفريقيا الشرقية[٤] . وقد يكون هذا التأثير المتبادل صحيحاً ،

(١) G· Zumoffen, in *Anthropos*, III, 431 f. ; D.A.E. Garrod and Others, *The Stone Age of Mountain Carmal*, 1937; Th. D. Mc. Cown and A. Keith, *The Stone Age...*, 1939 ; W.F. Albright, *From the Stone Age...*, 1946 ; *The Archaeology of Palestine*, 1961, Ch. 3 ; D.R., Hughes- Brothwell, "The Earliest Populations of Man in Europe, Western Asia and Northern Africa", *C. A. H*, vol II, Part I, 156 f.

وأنظر فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين – ص ٩ ؛ لبنان فى التاريخ، ص ٥٣ + .

(٢) *See, Kuml*, 1954 — 1969 .

سليمان البدر : منطقة الخليج العربى خلال الألفين الرابع والثالث ق.م – الكويت ١٩٧٤ .

عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية لعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية – الكويت ١٩٨١–ص٦٣–٧٢ ، ٧٧–٨٠ .

(٣) Caetani, *op. cit.*, I, 64 f. ; II, 53 f. ; A. Musil, *Northern Negd*, 1928.

(٤) G. Caton-Thompson and E.W. Gardner, "Climate Irrigation and Early Man in the Hadramout", *Geog. J.*, (1939) 18 f. ; S. Huzayyin, *Nature*, Sep. 18, (513) ; *Arabia and the Far East*, 1942, 36. ; A. H. Masry, *Prehistory in North-eastern Arabia*, 1974.

غير أنه ينبغى أن نضيف إليه أن تحديد زمن أدوات الدهر الحجرى القديم الأعلى فى شبه الجزيرة ، وشرق أفريقيا ، بالنسبة لتطور الصناعات الحجرية فى المناطق الخصبية من الشرق الأدنى أمر غير يسير . فهى قد تعاصر أدوات الدهر الحجرى القديم الأعلى فى مصر وبلاد النهرين والشام فعلا ، أو تتأخر عنها بعصور طويلة وهذا هو المرجح ، نظراً لاتساع خطى التطور وسرعتها فى وديان الأنهار الكبيرة عنها فى المناطق الجافة ، مع إحتمال بقاء أدوات الدهور الحجرية فى هذه الأخيرة لأزمان طويلة نوعا .

من السلالات البشرية :

ليس من اليسير الحديث عن أصحاب حضاوات الدهور الحجرية القديمة ، والدهر الأسفل بخاصة ، كأجناس أو سلالات أو قوميات ، فكل ما يمكن استنتاجه مما أتى به علم الأنثروبولوجى عن أقدم البقايا البشرية فى العالم القديم ، هى الصفات التى استنتجها بعض الباحثين من بقايا ما يسمونه إنسان جاوة ، ثم إنسان بكين أو الصين ، وإنسان شرق أفريقيا . وهى صفات صورت لكل منهم قامة قصيرة وقدرة على انتصاب الجذع مع ميل الرأس الضخمة قليلا إلى الأمام ، وشدة تراجع الفك الأسفل ، وبروز عظام الحاجبين وغلظهما واتصالها ببعضهما . وذلك مع ملاحظة تطور الجبهة من الضيق والتراجع فى جمجمة إنسان جاوة إلى البروز الخفيف فى جمجمة إنسان بكين أو الصين . واستمرت سلالات هذه الأجناس آماداً طويلة ، ثم ظهرت معها سلالات أخرى فى أواخر الدهر القديم الأسفل مثلتها فى أوروبا بقايا إنسان هيدلبرج الذى اتصف باتساع عظمة الصدغ وقوة عضلات الوجه المتصلة بعملية المضغ ، مع غلظ الفك وتراجعه من ناحية الذقن(١).

وانتشرت فى الدهر الحجرى القديم الأوسط سلالات من جنس جرى الاصطلاح على تسميته باسم الإنسان النياندرتى أو النياندرتالى (نسبة إلى وادى نياندر بألمانيا) . وهو جنس ذو جسم ممتلىء لم يكتمل انتصاب قامته تماماً ، ورأس كبيرة قليلة الإستدارة لازالت تميل قليلا إلى الأمام ، وجمجمة ضخمة عريضة سميكة العظام ، وحاجبين شديدى التقوس سميكى العظام ، وفك ضخم بارز ، وأنف متسعة المنخرين . وإن تميز هذا الجنس فى الوقت نفسه بتناسق أطرافه ، بالنسبة للأجناس التى سبقته . وتضمنت حفريات الشرق الأدنى بقايا من سلالات هذا الإنسان ، فكان منها ما وجد فى كهف شانيدار بالعراق ، كما كان منها ما وجد فى مغارات بجبل الكرمل وجنوب الناصرة وشمال غرب بحيرة طبرية بالشام(٢)، وما وجد من حفريات هوافتيح فى شمال أفريقيا ، والكوبانية فى مصر . وهذه وإن كانت جميعها من السلالات النياندرتالية العامة إلا أنها اتصفت بخصائص إقليمية ، مثل وضوح كبر الذقن فى رأس إنسان جبل الكرمل .

وكان الجنس الغالب لإنسان الدهر الحجرى القديم الأعلى جنساً مهجناً وبداية لما سمى باسم الإنسان العاقل Homo Sapiens جد الإنسان الحالى . وقد ظهرت فى بقايا الهياكل البشرية التى عثر عليها فى مناطق قنا

(١) See, P. Rivet, *L'Origine de l'Homme*, 1954.

(٢) راجع حاشية ١ – ص ٢٥ .

وقاو الكبير وكوم أمبو فى مصر ، من الدهر الحجرى القديم الأعلى ، وجوه شبه جنسية قريبة من الهياكل التى تخلفت من فجر التاريخ المصرى القديم(١) . وذلك مما يعنى وحدة الجنس واتصال العمران بين هذين الزمنين . كما رأى بعض الباحثين فى بعض هياكل جبل الكرمل المتطورة حلقة وصل بين الخصائص التشريحية لإنسان الدهور الحجرية القديمة والإنسان الحالى . ولعل الخصائص التشريحية والذهنية المميزة لهذا الجنس من بنى الإنسان كانت مسئولة إلى حد كبير عن نجاحه فى تطوير أدواته وتنويعها خلال ظروف الجفاف القاسى للدهر الحجرى القديم الأعلى ، ثم نجاحه فى ابتداع حرفة الزراعة وحرفة الرعى وما ترتب عليهما فى بداية العصر الحجرى الحديث .

ولم تكن الحدود الإقليمية لجماعات الإنسان القديم وتنقلاتها ، ذات أثر واضح خلال الدهور الحجرية القديمة إلا إذا وقفت دونها البحار الواسعة أو الجبال الشاهقة . وكانت شعاب الأرض مفتوحة للأقوى ولمن يستطيع أن يطرقها ، سواء للأفراد والأسر أم للجماعات التى انتشرت تبحث عن الأراضى المعشبة المطيرة التى يتيسر الصيد فيها وتتوفر قطعان الماشية البرية على مراعيها . وكان فى هذا ما أدى إلى تشابه أغلب أدوات الدهور الحجرية القديمة مع بعضها البعض إلى حد ما ، سواء وجدت فى الشرق أم وجدت فى الغرب . وبعد أزمان طويلة أخذت كل من هذه الجماعات تألف الإقامة تدريجياً فى البقاع التى ناسبتها طبيعتها الجغرافية وأحست بالأمن النسبى فيها .

وأعقب هذه الدهور دهر رأى فيه بعض الباحثين من الخصائص ما يسمح بتسميته باسم الدهر الحجرى الوسيط ، بينما أنكر باحثون آخرون أهميته بالنسبة للشرق الأدنى بخاصة .

وعلى أيه حال ، فإنما نود قبل أن ننتهى من استعراض أحوال الدهور الحجرية القديمة ، أن نشير إلى أنه ليس من ضرورة للمغالاة فى تصوير مابلغه إنسانها البدائى من قدرة على التطور بحضاراته الأولى والابتداع فيها . فقدرة الإنسان الأول على التفكير والابتداع لم تتعد كثيراً دائرة حياته الفردية الخشنة ودائرة مطالبه المحدودة . ولم يكن التطور فى آفاق حياته ومطالبها يسير فى غالب أمره إلا بجهد جهيد وبطء شديد ، وذلك إلى الحد الذى رتب معه الأستاذ فلندرز بترى أن ألف عام من حياة البشر فى الدهور الحجرية القديمة لاتكاد تعادل فى تطورها الفكرى ما كان يتم من تطوير خلال عمر شخص واحد فى العصور التاريخية القديمة . وهذا بطبيعة الحال لايكاد يعادل مايتم خلال أعوام قلائل أو حتى بضعة شهور من حياة الإنسان وإمكانياته فى عصوره التاريخية الحديثة . زد على ذلك أن الأدوات التى كان الإنسان القديم يستخدمها فى عصر ما لم تكن تجب الأدوات التى اعتاد أسلافه عليها فيما تقدمه من عصور ، وإنما كانت تستخدم معها جنباً إلى جنب وإن زادت عنها فى شيوعها وأعدادها وأنواعها .

* * *

(١) Sandford and Arkell, *op.cit.*, III (1934), 86; E. Strouhal, in *Homo*, 29 (1978), 108-121.

بداية الزراعة فى فجر التاريخ (أو العصر النيوليثى) :

شهد الشرق الأدنى القديم طفرته الحضارية المنتجة حقاً منذ أواسط الألف السابع أو أوائل الألف السادس قبل ميلاد المسيح ، وتلك هى طفرة الإهتداء إلى بداية حرفة الزراعة قبل معرفة المناطق الأوروبية بها بنحو ألفى عام . وكان من منطق التطور أن تنشأ أولى خطواتها وتنضج فى وديان الأنهار الكبيرة أو بقربها . وقد اشتركت بلاد الهلال الخصيب فى معرفتها بممهدات الزراعة الأولية . ومن ذلك معرفة المصريين وأهل العراق والشام منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى بفوائد النباتات والثمار الدرنية ثم انتقاء أنواع الحبوب الغذائية المفيدة كالشعير البرى والحنطة البرية ، وبطرق جرشها والانتفاع بها ، بدليل العثور على بعض مناجل الحصاد ومراحى جرش الحبوب فى منطقة عيون حلوان وحوض كوم أمبو فى مصر ، وفى مغارة الناطوف وما حولها فى فلسطين (١) . وربما تولدت عندهم حينذاك معرفة فطرية بظواهر الإنبات الطبيعية عن طريق ما كانوا يشهدونه من خروج النبت من الحبوب البرية والبذور التى تلقيها الرياح والمصادفات أمام أعينهم فوق سطح الأرض اللينة ، أو التى تسقط منهم وهم فى طريقهم إلى حيث يقيمون ، كلما أصابها البلل والمطر . ولم تكن مهمة جمع الحبوب الغذائية البرية يسيرة دائماً ، لتفرق عيدانها فى الطبيعة على مساحات واسعة ، ولتقدم الجفاف شيئاً فشيئاً خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى وما كان يستتبعه من شح نمو النباتات الطبيعية تدريجياً أيضاً ، وذلك مما كان من شأنه أن يولد الرغبة لديهم فى محاولة الاهتداء إلى وسيلة يضمنون بها تواجد هذه الحبوب المفيدة فى مساحات متصلة قرب أماكن إقامتهم بقدر الإمكان .

ووجدت مصر ميلا كبيراً من أغلب الباحثين لافتراض تحقيق هذه الرغبة ومعرفة الزراعة لأول مرة على أرضها . وذلك على أساس أن اشتداد الجفاف على هضابها الشرقية والغربية فى أواخر الدهر القديم الأعلى كان من شأنه أن يدفع أهلها إلى أن يتتبعوا إنتشار النباتات والحبوب الطبيعية على ضفاف مورد الماء الدائم فى أرضهم ، وهو نهر النيل ، فاقتربت جماعاتهم من مدرجاته فى دفعات متتالية وشجعتهم أحوالها الآمنة على الاستقرار عليها . ولما طالت إقامتهم فى أرجائها ابتغاء الانتفاع بنباتاتها الطبيعية وأسماك الماء والحيوانات التى تقصد ضفاف النهر وفروعه إلتماساً للشرب ، أصبحت ملاحظاتهم لنمو بذور النباتات الطبيعية فى أرضها الخصبة مستقرة مضطردة ، نتيجة لما كانوا يشهدونه من أثر التعاقب السنوى المنتظم لفيضان النيل وانسياب مائه عليها ثم انحساره ، فى النمو التلقائى السنوى الجديد للنباتات والحبوب كلما توفرت لها الأرض الطمية السوداء على وجه الخصوص . ولما استرعت هذه الظواهر الطبيعية أنظار المصريين جيلا بعد جيل واستوعبوها ، وأدركوا بها العلة فى نمو النباتات فى أعقاب الفيضانات مع إنتشار البذور فى الأرض الخصبة ، كما أدركوا معها العلة فى ذواء النباتات وجفافها حين قلة الماء وجفافه وصلابة التربة ، حاولوا أن يستفيدوا مما استخلصوه فائدة إيجابية ، وبمعنى آخر حاولوا أن يباشروا عملية النمو الطبيعية للنباتات والحبوب الغذائية بأنفسهم ، وأن

(١) Ed. Vignard, *B I F A O*, XX, 24 ; Huzayyin, *The Place of Egypt in Prehistory*, 257 f., 289 f. ; A.D.E. Garrod, *"The Natufian of Palestine" T.R.A.I.*, LXII, 257 f. ; H. Farnkfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, 1951.

يصبحوا منتجين لغذائهم متحكمين فيه بأنفسهم . وسواء طالت محاولاتهم هذه أم قصرت ، فقد انتهت باهتدائهم إلى أساليب الزراعة البسيطة منذ نحو ثمانية آلاف عام أو أكثر ، وقبل غيرهم من أهل العالم القديم المسكون (١) ، أو قبل أغلب أهل العالم القديم المسكون إن نظرنا بعين الاعتبار إلى مايراه أنصار حضارات وديان الأنهار الكبرى الأخرى مثل حضارة بلاد النهرين ،وأنصار حضارة سوريا وفلسطين ،وأنصار حضارة إيران ،بل والباحثين فى حضارات جنوب شرق آسيا ، من أن كلا منها قد عرفت الزراعة فى عصر قريب من العصر الذى اهتدت مصر فيه إلى معرفة الزراعة (٢) .

وترتبت على بدايات معرفة الزراعة فى الشرق الأدنى نتائج اجتماعية وعمرانية واقتصادية متعددة كانت أساساً لبعض ماتلاها من مظاهر الحضارات التاريخية :

فقد ترتب على الاشتغال بالزراعة زيادة التماسك الأسرى بين الأفراد نتيجة لإمكان إنتفاع رب كل أسرة بمجهودات أولاده وبناته وزوجاته فى عمليات الزراعة ،ثم زيادة الاستقرار السكنى بين الزارعين نتيجة لحرصهم على الإقامة بجوار مزروعاتهم لرعايتها وحمايتها ثم للانتفاع بها ، وزيادة الاستقرار المعيشى بينهم نتيجة لإمكان تحكم الإنسان فى محصول أرضه بقدر ما يبذله فيها من الجهد ، وزيادة تعوده على الإدخار للاستعانة بمحصوله المدخر على المعيشة فى غير فصول الإنبات وفى مواسم الجفاف . مع زيادة التعاون بين الأقارب فى إستصلاح المزيد من الأرض واستغلالها . وازدياد الميل إلى التجمع بين الجيران فى سبيل حماية المناطق المزروعة ودرء أخطار الفيضانات عنها . ثم التماس الفرد للأمن وسط الجماعة وفى حماية المجموع ، مع زيادة إحساسه بفرديته وشخصيته نتيجة لما أصبح يمتلكه من الأرض الزراعية وما يستغلة عليها من الحيوانات الأليفة ، وإن وضحت الفوارق الإقتصادية فى الوقت نفسه مع حياة الزراعة بين المالك وبين الأجير ، وبين الغنى وبين الفقير .

تعدد الحرف وبدايات الفنون :

عرف أهل الشرق الأدنى ، وأهل مصر وبلاد النهرين بخاصة ، مع الزراعة نوعاً من ضمان الرزق لم يعرفه أسلافهم من قبل . واتسعت مطالبهم الفردية والجماعية بعض الشىء . وبدأ تعدد الحرف بينهم فى الوضوح . فظهرت لديهم إلى جانب حرف الزراعة والصيد واستئناس الحيوان ورعيه وصناعة الأدوات الحجرية ، حرف لصناعة أدوات الزراعة من فؤوس ومناجل ، وأخرى لتضفير الحبال وعمل الزنابيل

---

(١) *See also*, S. Huzayyin, *op. cit.*, 231.

تاريخ الحضارة المصرية – القاهرة ١٩٦٢ – المجلد الأول – ص ١٥ – ١٦ .

عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها – الجزء الأول – القاهرة ١٩٦٢ – ص ٨١ – ٨٦ .

(٢) *See*, Peake, *The Origins of Agriculture*, 1928; *The Beginning of Agriculture*, 1931; R.J. Braidwood, "The World's first farming villages", *Illustrated London News, April*, 28, 1956, 410 f. ; etc.

والسلال (من الخوص ونبات الحلفا وألياف البردى) لخزن الحبوب ، وعمل الحصير ، ونسج الكتان ، وحرف غيرها لصناعة أوانى الفخار والقليل من الأوانى الحجرية (١) .

ولم يكن الإنسان ليستطيع أن يهتدى إلى صناعة من هذه الصناعات بسهولة وفى وقت قصير ، وإنما لعبت عوامل المصادفة والملاحظة والصبر ثم رغبة الابتداع دورها فى كل واحدة منها . ففى عوامل الاهتداء إلى صناعة الأوانى الفخارية على سبيل المثال ليس من المستبعد أن يكون الإنسان القديم قد هيأ لنفسه منذ الدهر القديم الأعلى أوعية بدائية خشنة يسيرة يحتفظ فيها بقوت يومه ويأكل فيها حبوبه المجروشة ويشرب فيها الماء واللبن . وإذا صح هذا الظن ، صح التساؤل معه ، وكيف وفر هذا الإنسان الأول أوعيته هذه وكيف كانت هيئتها ؟ — هناك احتمالان للإجابة على هذا السؤال وهما : أن يكون الإنسان قد اتخذ أوعيته تلك من بيض النعام على نحو مافعل أصحاب الحضارة القفصية فى شمال أفريقيا . أو يكون قد صنع أوانى الطعام من ألياف النخيل والدوم ومايشبهها ، واتخذ أوانى الشراب من جيوب الجلد التى تشبه السقاء ، على نحو ماتفعل بعض الجماعات البدائية المتخلفة حتى الآن (٢) .

ومنذ استقر الإنسان القديم على مدرجات وضفاف الأنهار إستقراره الطويل ، إهتدى إلى صلاحية الطمى لصناعة أوانيه ، ثم إستعمالها بعد حرقها . ومرة أخرى يصح التساؤل عن المقدمات التى سمحت له بأن يتبين خواص الطمى وفوائد حرقه . وفى تخمين هذه المقدمات إحتمالان أيضاً ، وهما : أن يكون الإنسان قد لحظ صلابة الطمى وإحمراره تحت مواقد النار التى كان يستعملها منذ دهوره القديمة ، وأطال ملاحظته حتى أدرك أثر الحرارة فى هذه الصلابة وذاك الإحمرار ، ثم تعمد أن ينتفع بهذا الأثر فى حياته العملية وجربه فى صناعة أوانى الفخار حتى أتقنها . أو أنه إعتاد على أن يغشى أوعيته الليفية القديمة بغشاء خفيف من الطمى يسد مسامها ، ثم لاحظ بعد مرات ومرات ، أن أوعيته تلك إذا تعرضت لحرارة الشمس جف سطحها الخارجى ، وإذا تعرضت لحرارة النار احترقت أليافها واحمر طميها أواسود وتماسك . فلما أطال الملاحظة فى هاتين الظاهرتين أدرك أنه يستطيع أن يستغنى عن إستعمال الليف فى صناعة أوانيه ، ويستطيع أن يكتفى فى صناعتها بالطمى المحروق وحده (٣) .

وظل الصناع يصنعون أوانيهم الفخارية يدوياً أمداً طويلا (دون معرفة عجلة الفخرانى) . وكان الصانع يبدأ بتنقية الطمى من الشوائب العالقة به ، ويعجنه بالماء بقدميه ، ويضيف إليه أحياناً بعض التبن الدقيق الخفيف أو الروث المسحوق ، ليقلل به لزوجته ويزيد تماسكه . ثم يشكل آنيته ويسوى سطحها بيده المبللة

(١) أنظر أيضاً : مصطفى عامر : فى تاريخ الحضارة المصرية — المجلد الأول — القاهرة ١٩٦٢ — ص ٥١ + عبد العزيز صالح : المرجع السابق — ص ٦٨ — ٩٢ .

(٢) Caton-Thompson, *Man,* XXXII (1932), 131 f. ; H. Frankfort, *Studies in the early pottery,* 1924, 12 ; J. Meyers, in *Cambridge Ancient History,* I. 79.

(٣) J. Meyers, *op. cit.,* 70.

حتى يقلل من سعة مسامها ، ويجففها فى حرارة الشمس قبل أن يحرقها حتى لا تؤثر النار المتوهجة على شكر عجينتها الطرية أو تعمل على تبخير مائها بسرعة فتتشقق جوانبها . وكانت هذه الخطوات تكفى لصناعة الأوانى العادية قبل حرقها ، فإذا شاء الصانع أن يزيد عنايته بها غشى سطوحها قبل أن تجف بغشاء خفيف من صلصال ناعم ، ليسد مسامها ويقلل رشحها ويجعل سطوحها ملساء تصلح للرسم والزخرفة . وإذا شاء أن يصقلها ، حكها قبل تمام حرقها بصدفة أو حصاة ناعمة ، حتى يزيد تماسك مسامها ويقلل خشونة سطحها ويجعلها أكثر قابلية للتلون بعد حرقها فى النار (١) .

وفى ظل الرزق المكفول مرة أخرى ، وفى ظل أوقات الفراغ التى سمحت بها ظروف الدورة الزراعية الواحدة ، مع نمو عادة الإدخار وتنوع الحرف ، وفى ظل الرخاء النسبى المترتب على ذلك كله ، بدأت خيوط التحضر فى الشرق تتزايد فى الوضوح قليلا قليلا ، وأخذت أذواق الرؤساء وأهل اليسار تتحسس سبل الاستمتاع بالجمال ، ومضت صناعة أدوات الزينة وأساليب الزخرف وراءها تتلمس لأصحابها الجزاء المقبول ورواج الصنعة . وبمعنى آخر كان من الطبيعى بعد أن نجح الإنسان القديم فى تحسين حياته المادية ، أن يتجه إلى إشباع ذوقه وإرضاء تطلعاته المعنوية .

وبدأت طفولة الفن حينذاك بصناعة تماثيل صغيرة من الصلصال (والخشب والعظم والعاج) ، قلد الصناع فيها هيئة الإنسان وهيئة الحيوان ، على اختلاف فيما بينهم فى مدى التوفيق فى تحقيق التناسب ودرجة الإتقان . وكانت أغلب التماثيل الإنسانية صغيرة لا تزيد الرأس فيها عن كتلة مستديرة تشكل العينان والأنف والفم فيها تشكيلا بدائياً . ويلتصق الساقان فيها بعضهما ببعض أو يفصل بينهما مجرد حز ضيق ، رغبة فى تماسك التمثال . وصاحب صناعة التماثيل ، أو فن التماثيل إن شئنا التجاوز فى التعبير ، فن الرسم والزخرفة ، وقد وجد أولى مجالاته على سطوح الأوانى الفخارية الدقيقة التى كانت تعتبر فاخرة فى حينها ، وكان من رسومه عليها أشكال تعتمد على خطوط وتكوينات شبه هندسية ، وأشكال مستمدة من البيئة ومصنوعاتها ، مثل صور الحيوانات الأليفة والكاسرة ، وصور القوارب فى البيئات النهرية والساحلية ، وبعض مناظر الرقص لرجال ونساء .

وبناء على هذه التطورات كلها فى حياة الإنسان ، جرى الإصطلاح على تعريف عصر بداية الزراعة بتعريفات ثلاثة ، وهى : تعريف زمنى يسميه العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) إشارة إلى حداثة زمنه عن أزمنة الدهور الحجرية القديمة التى سبقته ، مع تميزه بأدوات حجرية جديدة كان من أهم ما يميزها صقل سطوحها واستواء أشكالها وحدة أسلحتها التى قامت مقام الخناجر ، مع الدقة الواضحة فى تشكيلها وتحليتها . وتعريف حضارى يسميه عصر بداية الإنتاج نظراً لتحول الإنسان فيه من جامع غذاء إلى منتج غذاء ، ومن كائن يعيش عالة على بيئته إلى كائن يتحكم فى إنتاج أرضه إلى حد مقبول . ثم تعريف تاريخى يسميه عصر فجر التاريخ إشارة إلى وضوح خيوط التحضر خلاله أكثر بكثير مما كان عليه أمرها فى ليل الإنسانية

(١) الفرد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين – معرب بالقاهرة – ص ٥٩٧ – ٦٠١ .

H. Frankfort, *op. cit.*, 6.

الطويل خلال الدهور الحجرية القديمة التى سبقته ، ثم إشارة إلى اعتباره مبشراً بصبح البشرية الذى تمثل فى بداية عصورها التاريخية الأولى .

بداية حرفة الرعى :

توافرت التطورات الحضرية السابقة فى مناطق الهلال الخصيب فى الشرق الأدنى القديم ، أكثر من غيرها ، لتوافر مقومات الزراعة فى أنهارها وأمطارها وتربتها . أما شبه الجزيرة العربية التى تحتل رقعة كبيرة من الشرق الأدنى ، فعلى الرغم من نشاط بحوث ما قبل التاريخ مؤخراً فى بعض أرجائها ، إلا أن ما تم من هذه البحوث لا يكفى لبيان نصيبها من موارد الزراعة وتصوير الأوضاع المعيشية لأهلها فيما يواكب العصر الحجرى الحديث أو فجر التاريخ فيما أحاط بها من أقطار الهلال الخصيب . ولكن يمكن أن يذكر من ناحية أخرى ، أن العصر الحجرى الحديث فى مجمله قد ارتبط فى العالم القديم بتطور مناخى جديد ، إلى جانب التطور البشرى الجديد . فعوضاً عن ظروف الجفاف العنيف التى سادت الشرق الأدنى خلال أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى ، ظهرت فترة رطيبة وصحبتها أمطار قلت من حيث المنسوب والاستمرار عن أمطار الحقب المطيرة القديمة ، ولكنها كانت أمطاراً مناسبة على كل حال ، وصحبها إعتدال واسع فى معدلات الحرارة ، وذلك مما دعا الجغرافيين إلى اعتبار عصرها عصراً للمناخ المثالى فى مناطق الشرق الأدنى وفى المناطق الأوروبية أيضاً . وهكذا يمكن أن يفترض أنه إذا كان أهل شبه الجزيرة قد عز عليهم أن يهتدوا إلى الزراعة فى عهود قريبة من العهود التى اهتدى إليها فيها أهل المناطق النهرية المحيطة بهم ، وذلك أمر مرجح ، فلا أقل من أن نفترض أنهم استطاعوا أن ينتفعوا بما هيأته لهم الفترة الرطيبة الجديدة من أمطار ونباتات وحياة حيوانية مشجعة على ممارسة حرفة الاستئناس ثم حرفة الرعى . ومرة أخرى إذا تابعنا العوامل المحتملة المؤدية لظهور حرفة الرعى التى بدأت بوادرها فى الشرق منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى ، نجد من الباحثين من يفترض أنه مهدت لها مرحلتان ، وهما : مرحلة أسر الحيوانات البرية من آكلات العشب ، ثم مرحلة استئناسها . وذلك على أساس أنه ترتب على الظروف شبه الصحراوية ثم الصحراوية التى انتهى بها الدهر القديم الأعلى فى المناطق المدارية بخاصة أن تضاءلت فيه مناطق العشب والحشائش ، وتضاءلت معها بالتالى أعداد حيوانات الصيد وأنواعها ، إلا حيث توافرت المجارى المائية التى تتلقى مواردها من بلاد مطيرة بعيدة خارج المنطقة المدارية ، أو تتلقى مواردها من نزول الأمطار والسيول المتقطعة على المناطق الساحلية المرتفعة من حين إلى حين. ولعله حدث خلال تلك الظروف أن تعمد مهرة الصيادين أن يتخيروا أعداداً مما يتيسر لهم صيده من حيوانات بيئتهم التى اعتادوا أكل لحومها ، لا سيما صغار الحيوانات قليلة البطش ، واستأسروها ليحتفظوا بها دون قتلها أو ذبحها ، بغية أن تنمو وتتوالد عندهم ، وبغية أن تصبح عندهم هى ونسلها بمثابة احتياطى حى من اللحم للظروف التى يعز الصيد عليهم فيها . وبعد أن اطمأنت الجماعات القديمة إلى هذه الوسيلة واعتادوها ، أخذوا يستأنسون ويتألفون أقل الحيوانات ضراوة وأكثرها نفعاً ، لا سيما صغيرة الحجم وذوات الظلف التى أمدتهم باللبن ولم تحوجهم إلى ضرورة قتلها من أجل الإنتفاع بها . وعملوا على تربيتها وشجعوا تكاثرها وتعهدوها

فى قطعان ، فاستأنست بهم ، واستأنسوا معها بعض أنواع الكلاب واستخدموها فى حراستها . وبدأت المرحلة الأولى – أى مرحلة الأسر فيما يرجح منذ أواخر الدهر القديم الأعلى . أما المرحلة الثانية – وهى مرحلة الإستئناس والتربية ثم الرعى – فقد اتضحت مظاهرها خلال العصر الحجرى الحديث نفسه . ورجح بعض الباحثين أن استئناس الحيوان ظهر فى بداية أمره فى منطقة « أناو » فى التركستان وما يليها غرباً من مناطق الإستبس ، ثم انتشر منها شرقاً وغرباً . ومن حججهم فى ذلك ظهور ثلاثة أنواع من أسلاف الماشية البرية فى أواسط آسيا دون غيرها (١) .

* * *

بدايات المعـــادن (فى العصر الخالكوليثى – (Chalcolithic Period) :

كانت الخطوة الحضارية الكبيرة التالية – فى فجر التاريخ – هى معرفة استخراج بعض المعادن وتصنيعها بعد معرفة الزراعة والرعى ، ثم نشأة القرى .

ولعل أقدم ما استخدمه الإنسان من المعادن (فيما خلا حديد النيازك الذى كان يجده عفواً ويستخدمه دون أن يعرف أصله) هو معدن النحاس . وترجع ميزته إلى إمكان العثور عليه قرب سطح الأرض مختلطاً بمواد يمكن صهرها وفصلها بمجهود يسير وتحت حرارة ليست شديدة جداً ، مثل مادة الدهنج الخضراء (الملاخيت) ، ومادة الأزوريت الزرقاء ، ومادة الخريسوكولا . وليس من المستبعد أن بعض القدماء قد اهتدوا إلى استخلاص النحاس فى بداية أمرهم عفواً . وذهب الظن فى تصوير مناسبات اهتدائهم إليه إلى عدة فروض ، ومنها : أن مواد الأفران أو الأكوام التى كانوا يحرقون فخارهم فيها كانت تتضمن قطعاً من أخلاط النحاس أحياناً ، فلما تعرضت للحرارة الشديدة خلص النحاس منها وظهر بريقه فالتفتت الأنظار إليه . وأن من النساء من كن يتركن قطعاً من دهنج الكحل (الملاخيت) بجوار مواقد الأكواخ عن غير قصد ، فإذا اشتدت نار المواقد وصهرتها خلصتها من لونها الأخضر وأبقت منها رواسبها المعدنية البراقة . ولما تكررت هذه الظواهر وأمثالها ، والتفتت الأنظار إليها ، وظهر من الصناع من أدركوا مسبباتها ، وأصبحوا يكررونها عن قصد ويبحثون عن أخلاط النحاس فى مواطنها القريبة والبعيدة ثم يصهرونها بوسائلهم البدائية اليسيرة(٢).

وتعتبر العهود الأولى لاستخدام النحاس فى الشرق الأدنى جزءاً من فجر تاريخه ، ولكنها توصف على الرغم من ذلك بثلاثة تعريفات خاصة بها ، وهى : تعريف زمنى يسميها العصر الإنيوليثى بمعنى العصر الحجرى الأحدث ، وتعريف حضارى يسميها العصر الخالكوليثى بمعنى العصر النحاسى الحجرى (ويعرب تجاوزاً بإسم عصر بداية المعادن) ، ثم تعريف تاريخى يسميها بإسم عصر ما قبل الأسرات فى مصر بخاصة .

---

(١) See, *O. Menghin, Weltgeschichte der Steinzeit,* Wien 1931, 302 f. *But compare,* V.G. Childe, *New Light on the Most Ancient East,* 24 f.

(٢) A. Lucas, *JEA,* XXXI, 96—97 ; Coghlan, *Man,* July 1939.

الفرد لوكاس : المرجع المعرب السابق – ص ٢٨١ – ٢٨٣ ، ٢٤٦ .

وبدأ الإنتفاع بالنحاس على نطاق ضيق ، ولم يزد إستخدامه فى بداية أمره عن صناعة مجموعات من الخرز الصغير تستخدم فى أغراض الزينة ، ومثاقب طويلة دقيقة استخدمت فى ثقب حبات الخرز الحجرية ، ودبابيس طويلة استخدمت فى شبك أرديتهم الجلدية أو الكتانية . ثم إتسع إستخدام النحاس إتساعاً نسبياً مع مرور الزمن ، وصنعت منه بعض المدى والأسلحة الصغيرة ، وتطلب هذا التوسع مزيداً من النشاط فى إستخراج المعدن وتنقيته ، ومزيداً من النشاط فى البحث عن مصادره . وكان أمر هذا النشاط فى مصر أمراً ميسراً بعض الشئ ، فقد توفرت مصادر النحاس فيها فى شبه جزيرة سيناء وبعض مناطق الصحراء الشرقية . وذلك على العكس من حال أهل بلاد النهرين ، الذين قلت مصادر النحاس فى أرضهم وتوفرت فيما حولهم فى إيران والأناضول وعمان ، وكان عليهم بذلك أن يبذلوا المجهود فى استيراده .

* * *

وضوح التجمعات :

صحب التطور الحضارى فى فجر التاريخ بشقيه ، العصر النيوليثى والعصر الخالكوليثى ، إتجاه إلى تكوين المجتمعات القروية ثم بداية التطور نحو المجتمعات المدنية . وقد مر بنا كيف دعت حياة الزراعة أصحابها إلى الاستقرار بالقرب من زراعاتهم لرعايتها وحمايتها ، وإلى التعاون فى سبيل إستصلاح الأرض واستغلالها ، ثم فى سبيل دفع أخطار الفيضانات وتيسير الإنتفاع بمائها . كما دعتهم إلى التقارب والتماس الأمن للفرد وأسرته وملكيته وسط الجماعة وفى حماية المجموع . وأدت هذه العوامل إلى تجمع سكان المناطق الزراعية فى قرى صغيرة كانوا ينشئونها على مناطق الحواف ، أى الحواف الزراعية والحواف الصحراوية ، أو المناطق المرتفعة بعض الشىء عن مناطق الزراعة المنخفضة ، بغية الابتعاد عن رطوبة أرضها ، وبغية توفير مساحاتها للإنتاج الزراعى بقدر الإمكان . وكانت المادة الميسرة فى إنشاء مساكن القرى الزراعية هى الطين الذى بدأ إستخدامه فى البناء على هيئة الجواليص ، أى الكتل غير منتظمة الشكل . ثم تطور إلى هيئة قوالب اللبن المستطيلة المنتظمة الشكل مع تدعيم الطين فيها بالحشائش الجافة والمواد العضوية حتى يزداد تماسكه ، ومع تدعيم أساسات المساكن نفسها بقطع الدبش الغفل . ونشأت أمثال هذه القرى فى بداية أمرها متواضعة متفرقة متباعدة ، ولكن لم يكن من منطق الأشياء أن تظل على التفرق طويلا أو تستقل كل منها دائماً عن الأخرى ، وإنما كانت عرضة لأن تستجيب من حين إلى آخر إلى دواعى التقارب والتضام بعضها مع بعض . وقد تكون هذه الدواعى دواعى سلمية كاتصال المصالح التجارية وصلات النسب ، والاشتراك فى الديانة ، والتحالف من أجل تحقيق منفعة أو دفع خطر عدو مشترك . أو تكون دواعى قسرية تتأتى من سعى بعض القرى القوية إلى بسط نفوذها على القرى الضعيفة القريبة منها وضمها تحت رايتها عن طريق القسر والغلبة . وكانت كل من الطريقتين تؤدى فى العادة إلى تميز قرية معينة ضمن كل مجموعة من القرى ، سواء بميزات الموقع الطبيعى والرخاء النسبى ووفرة الإنتاج واتساع المساحة ، أو بميزات الكثرة العددية وشدة البأس . ومثل هذه القرية القوية بأهلها وبرئيسها وبإنتاجها وبموقعها غالباً ما كانت تتحول إلى بلدة عامرة محصنة

بأسوارها ، ومتميزة بأسواقها وصناعها ، أى إلى مدينة أولية ، وهنا قد يصحب الرقى المادى فى هذه المدينة رقى فكرى نسبى يماثله ، ثم يؤدى هذا الرقى الفكرى إلى تنظيم سياسى معين أو إلى تحقيق زعامة دينية أوما أشبه ذلك مما قد تختلف به كل بلدة عن الأخرى ،وهذا التمايزفيما بين بلدان فجرالتاريخ فى الشرق الأدنى القديم ، المتعاصرة مع بعضها البعض ، أو المتتابعة بعد بعضها البعض ، سوف نؤجل بحثه لحين بحث التطور التاريخى والحضرى لكل شعب من شعوب الشرق القديم على حدة فى الفصول التالية .

وإذا كان لا بد من عودة إلى شبه الجزيرة العربية وأحوالها فيما يعاصر حضارات عصر بداية المعادن فى المناطق المحيطة بها ، فإن كل ما يمكن تقديمه بشأنها أمرين ، وهما : أنه ليس من المستبعد أن أهل أطرافها الشمالية الغربية قد عرفوا النحاس وعرفوا إستخدامه على نطاق ضيق بحكم مجاورتهم لشبه جزيرة سيناء المورد الرئيسى لمعدن النحاس فى مصر ، ثم بحكم مجاورتهم لجنوب الشام الذى عرف أهله النحاس فى وقت قريب من وقت معرفة المصريين به . ويمكن ترتيب مثل هذا الرأى إحتمالا كذلك بالنسبة للمناطق الشرقية القريبة من حدود العراق والخليج العربى وإيران .

أما الأمر الآخر ، فهو مبنى على ما لوحظ من وجود شيء من التشابه بين بعض المصنوعات والمظاهر الحضارية فى مصر وبين أمثالها فى العراق خلال ما قبل العصور التاريخية وفى بدايتها (١) . ونم هذا التشابه الذى سنشرح بعضه فى فصول تالية ، عن اتصال حضارى وتجارى قديم بين أصحاب الحضارتين . غير أنه لم يكن من الضرورى أن يتم مثل هذا الاتصال بين الفريقين بطرق مباشرة دائماً ، بحيث يرتحل من أجله عراقيون إلى مصر أو يرتحل فيه مصريون إلى العراق بالضرورة ، وإنما يبدو أن أغلب الاتصالات بينهما كانت تتم عن طريق وسطاء تلقائيين يرتادون المناطق التى تفصل بينهما . وغالباً ما كان بعض هؤلاء الوسطاء من أهل الشام ، ولكن لا يستبعد فى الوقت نفسه أن بعضهم الآخر كان من أهل شبه الجزيرة العربية ، سواء من أهل أطرافها الشمالية أم من أهل أطرافها الجنوبية . وإذا صح هذا الفرض الأخير ، وهو فيما يبدو رض محتمل ، أمكن أن نرتب عليه أن بعض أهل هذه الأطراف العربية قد انتفعوا بالحضارتين وقلدوا بعض أوجه نشاطهما فى حدود ما كانت تسمح به بيئتهم وما يسد مطالبهم .

(١) أنظر مراجع حاشية ١ ص ٢٠

العــــــراق

(بلاد النهرين)

منذ فجــر التاريخ حتى نهاية العصر الكلدانى (٥٣٩ ق . م .)

تمهيد

تاريخ بلاد النهرين القديم هو أقرب ما يقرن بتاريخ مصر القديم ، من حيث السبق الزمنى والثراء المتنوع والطابع المتميز واتصال التطور فى مجالات الفكر والمادة معا . وكان فيما بقى ظاهرا من آثار العراق ، وما أتت به قصص التوراة عن الأشوريين والبابليين وعلاقاتهم بمناطق فلسطين والعبرانيين ، ثم ما سجله الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان الكلاسيكيون عنهم وعنها ، ما أثار تطلع عدد من الرحالة والباحثين بل والمغامرين الغربيين فى بداية العصر الحديث إلى محاولة كشف النقاب عن آثار بلاد العراق وتاريخها القديم . وأخذ تطلعهم هذا يكتسي بطابع الجدية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، حين استرعت بقايا النصوص المسمارية العراقية والفارسية القديمة أنظار اللغويين ، وعمل بعضهم على نسخها والنشر عنها ، مما مهد لمحاولات أولية شتى لقراءتها ومعرفة رموز كتابتها ، منذ أوائل القرن التاسع عشر . وقد أثمر الاتجاهان معا بجهود عدد من الرواد الكبار ، ومنهم هنري رولنسن ، وف. شبيجل ، وجورج ف . جروتفند وآخرون ، ويسرت لهم جهودهم الاستعانة بنصوص معينة تصادف أن سجلت مضامينها قديما بأكثر من لغة احدة مثل نصوص بهستون التى سجلت انتصارات الملك دارا الأول بكل من اللغات : الإلامية أو العيلامية العتيقة ، والبابلية السامية . والفارسية القديمة ، مما يسر عقد المقارنات بين ألفاظها والاستعانة بالواحدة منها فى فهم مترادفاتها الأخرى . ومقارنتها بنصوص إصطخر (برسوبوليس) للملك أخشويرش الأول . وبلغت أمثال هذه المحاولات بواكير النجاح منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وأدى هذا النجاح بدوره ، مع نشاط الرحالة الأوروبيين فى وصف الآثار القائمة وتصويرها إلى تشجيع المتاحف العامية والجمعيات العلمية الأجنبية الثرية على تبنى عمليات الكشف عن الآثار فى العراق ، وفتح الأبواب لتقبل ما يحصل الأفراد عليه من الآثار فى نظير مكافآت سخية . وقد تركز الإهتمام فى بداية أمره على شمال العراق على أمل البحث عن آثار مدن نينوى وأشور ونمرود ذات الشهرة التاريخية الواسعة . وبدأ هذا العمل كالعادة نفر يوصفون بالمغامرين أكثر مما يوصفون بالباحثين ومنهم بول إميل بوتا الذي تنقل بنشاطه السريع من تلال نينوى إلى تلال خورساباد . ثم هنرى لايارد الذى تنقل بدوره بين نمرود وبين نينوى . وكان لمـــا كشفه كل منهما من قصور الملوك الأشوريين العظام ومقتنياتها القديمة دوى عالمى كبير وتشجيع لغيرهما على سلوك نفس السبيل . وقد عمل رعيلهم الأول فى أرض بكر وبوسائل بسيطة وبخبرات متواضعة ، وكانوا يهدفون أساساً إلى استخراج أكبر عدد من الآثار الفنية والثمينة فى أقصر وقت مستطاع وبأقل كلفة ممكنة ، حتى يشبعوا رغبتهم فى الشهرة والمال ، ويشبعوا نهم المتاحف الأجنبية وأصحاب المجموعات الخاصة . وكانوا بوسائلهم هذه أكثر جناية على آثار العراق من زملائهم الأجانب المغامرين الأوائل الذين عملوا فى مصر . فقد كفل للآثار المصرية نصيبها من المنعة تشييد معظم مبانيها الرئيسية بأحجار صلبة متنوعة ، وتماسك موادها الأخرى نتيجة لصيانتها فى رمـــال الصحراء وفى مناخ جـــاف ، وذلك على العكس من آثار العراق التى شيدت غالبية مبانيها

من اللبن والآجر، وشيد أقلها بالحجر الجيرى والألباستر ، وقلت مناعة موادها الأخرى نتيجة لرطوبة أرضها ، مما كان يتطلب من الباحثين عنها دراية كافية بوسائل التنقيب العلمى عن الآثار ووقايتها وحفظها ، وهو مالم يتوافر كثيراً لأوائلهم ، الأمر الذى أفضى إلى تصدع وتفتت كثير من الآثار الصغيرة التى اكتشفوها بمجرد تعرضها للعوامل الجوية الخارجية .

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر بداية إهتمام الدراسات الأثرية بالنصف الجنوبى من بلاد النهرين ،وكان ذلك إيذانا بالكشف عن حضارات السومريين والأكديين ، فى مثل مدن كيش وأور والوركاء ونفر ولجش ونيبور . ثم إتسعت البحوث الأثرية فى جنوب العراق وشماله معا فى القرن العشرين واتسم بعضها بالطابع العلمى الدقيق فى الكشف عن الآثار وقراءة النصوص وتحليلها ، وصحبها إهتمام مماثل بآثار فجر التاريخ فى النصف الجنوبى ، فى مثل العبيد وجمدة نصر ، وفى النصف الشمالى فى مثل تل حلف وحسونة ... الأمر الذى جعل كل فترة من فترات الحضارات العراقية الطويلة الممتدة من الدهر الحجرى القديم الأسفل حتى نهاية العصر الكلدانى الأخير ، جديرة بدراسة مستقلة مستفيضة(١) .

ولم تؤد دراسة النصوص المسمارية القديمة إلى الكشف عن تاريخ أهلها وحده، وإنما أزاحت النقاب كذلك فى صيغها الأشورية والبابلية الكلدانية بخاصة عن فترات من التاريخ المقارن لشعوب وقبائل تعاملت مع الأشوريين والبابليين تعاملا حضاريا حينا وتعاملا حربيا حينا آخر .

• • •

وإذا كان ثمة ما يضاف إلى هذا التمهيد ، فهى ملاحظة تعترض كل من يكتب باللغة العربية عن تاريخ العراق القديم وما سواه من تواريخ الشرق القديم ، وتتمثل فى التقيد أحياناً بألفاظ ومسميات ذات جرس أجنبى ، واستخدامها بحرفيتها أو بمعناها ، اعتماداً على شيوعها ونظراً اسبق الباحثين الأجانب فى دراسة حضارات هذا الشرق وكثرة مؤلفاتهم عنها . وذلك مثل لفظ ميزوبوتاميا Mesopotamia الإغريقى الصبغة الذى تستخدمه بعض الكتب العربية بحرفيته ، بينما يترجمه بعضها الآخر باسم « بلاد ما بين النهرين » ، وهى ترجمة أمينة ، لولا أنه ينبغى أن يقدر إلى جانبها أن مواطن الحضارة العراقية القديمة لم تقتصرعلى ما بين النهرين وإنما إمتدت إلى ما حولها أيضاً ، بل إن طائفة من أقدم المواطن الأثرية مثل العبيد وإريدو وأور ، قامت غرب الفرات وليس فيما بينه وبين دجلة ، كما قامت إشنونا (تل أسمر) ونوزى شرق دجلة وليس فيما بينه وبين الفرات .

وفطن بعض الكتاب الإغريق أنفسهم إلى قصور لفظ ميزوبوتاميا ، فأضافوا إليه لفظ بارابوتاميا

---

(١) G.E. Daniel, *A. Hundred Years of Archaeology*, 1949.

Parapotamia أى خارج النهرين أو ما حولها . وهكذا يحسن فيما نرى أن نقول « بلاد النهرين » وهى التسمية التى استخدمناها فى هذا الكتاب ، دون تسمية « بلاد ما بين النهرين » الشائعة .

واستخدمت كتب عربية أخرى تعبير « بلاد الرافدين » (وحضارة الرافدين) ، وهو تعبير لطيف ، لولا أن روافد النهر تختلف عن النهر ذاته فيما هو معروف .

وما يجرى على هذا اللفظ من تحفظ يجرى مثله على ألفاظ قديمة أخرى نكتبها مضطرين بحكم العادة بمنطوقها الذى حرفه بعض كتبة التوراة وبعض المؤرخين الكلاسيكيين ، مثل أسماء الملوك سرجون وسينا خريب وإسر هدون ونبو خذ نصر .. ، عوضا عن تسمياتهم الأصيلة : شروكين ، وسين أخى ربا ، وأشور أخادين ، ونابو كدورى أوصر ، إلخ . والعلة فى هذا هى نفس العلة فى الملاحظة السابقة ، أى سبق الأجانب عنا فى دراسة تاريخ العراق القديم ، واستخدامهم لهذه الألفاظ فى مؤلفاتهم الكثيرة ، مما أكسبها شهرة وشيوعاً وجعل التخلى عنها أمراً غير يسير ، وإن أمكن التخفف من عدم دقتها فيما نرى باستخدام أصولها القديمة الصحيحة معها جنباً إلى جنب ولو من حين إلى حين وهو ما سوف نتبعه هنا ، (ويراجع أيضا فيمايلى عيلام وإلام والخاتيين ، والحيثيين ، وهلم جرا .

* * * * *

الفصل الثالث عشر

فجر التاريخ العراقى
فى العصر الحجرى الحديث

أ – فى الحقبة النيوليثية (الحجرية الحديثة)

قدمنا فى ص ٢٤، ٢٦، ٢٨ بعدد من مراكز الحضارات الأولية للدهور الحجرية القديمة والوسيطة فى بلاد النهرين ، وما استتبع ذلك من المعرفة المبكرة ببدايات الزراعة والاستقرار فى وديانها وحول مجاريها المائية وقد بدأت أهم مواطنها خلال الألف الخامس ق . م فى وديان العراق الشمالية التى انتفعت بمياه الأمطار فى الرى وصرف ملوحة الأرض إلى جانب انتفاعها بفروع النهرين ، أكثر من انتشارها فى السهول الجنوبية التى لم تكن أراضيها قد صلحت بعد للاستغلال والسكنى ، لا سيما القريبة منها من سواحل الخليج العربى ، نظراً لانخفاضها وكثرة مناقعها وكثافة نباتاتها المائية غير المثمرة ، وارتفاع نسبة الملوحة فى تربتها .

وفرقت البحوث الأثرية الحديثة بين ثلاث مناطق حضارية متواضعة لبداية العصر الحجرى الحديث فى النصف الشمالى من العراق ، نشأت قراها حيث تقوم الآن : جرمو شرقى منطقة كركوك فى سهل جمجمال قرب أحد فروع دجلة ، وحسونة فى جنوب الموصل الحالية ، ثم حلف فى أعالى نهر الخابور . وتضمنت آثار كل منطقة منها عدة مستويات لعمران متواضع فى تتابع زمنى يقوم تقديره على الاحتمالات أكثر مما يقوم على اليقين ، وهو أمر يغتفر لقلة بقاياها الأثرية وبعد زمنها .

فقد اعتبر بريدوود (R. J.. Braidwood) قرية جرمو أقدم قرية زراعية ، ونسب إليها تماثيل طينية بدائية متواضعة ، لحيوانات ، ورجال ، وما يشبه نساء جالسات ذوات أرداف غلاظ (١) . ولكن لا زال توقيت عهد هذه الحضارة قرين الشك حتى الآن ، بحيث تردد الباحث V.G.C. Childe فى نسبتها إلى عصر الزراعة وشك فى تمثيلها لمرحلة حضارية متميزة ، بل واعتبرها مجرد قرية صغيرة متخلفة قد ترجع إلى أواخر العصر الحجرى الحديث أو ما بعدها(٢) .

أما مخلفات حسونة فكانت أسعد حظاً فى تقرير نسبتها إلى عصر بداية الزراعة ، وتضمنت أكمتها عدة مستويات لعمران متواضع متتابع ، بحيث وجد فى أقدمها فخار خشن بدائى ، وظهر فى أوسطها فخار ذو

---

(١) R.J. Braidwood, in *Sumer*, VII (1950) ; *BASOA*, No. 124 (1951); "The World's first farming villages", *Illustrated London News*, April, 28, 1956, 410f. ; etc.

(٢) *See* also, P. Mortensen, *Sumer*, 1962, 74—76; J. Mellaart, *CAH*, I, 257—58.

زخارف مرسومة ، وظهر فى أحدثها فخار ذو خربشات ورسوم محفورة حفراً بسيطاً (١) . ووجدت أشباه لهذه الأنواع فى عدة مواقع أخرى معاصرة (مثل تل الصوان وسامرا وتل المطارة) كما جرت محاولات للتعرف على تخطيط بقايا نوعيات المساكن والمقابر التى استخدمها أهلها القدامى فى مراحلهم المتطورة (من حيث الحضارة) والمتأخرة نوعاً (من حيث الزمن) .

أما حضارة حلف ومصنوعاتها فقد انتشرت نماذجها رغم تواضعها ، بين جزء من العراق وبين جزء من أطراف الشام القريبة منه ، بحكم موقعها الحدودى بينهما فى وسط الفرات ، فانتشرت فى الجانب العراق فى مثل سامرا والأربجية وتبة جاورا ، وميزها فخار يدوى ملون ومصقول مزخرف برسوم حيوانية ونباتية وتخطيطية ، يعتبر راقياً إلى حد ما بالنسبة للأنواع السابقة له . وأختام صغيرة صنع بعضها من السربنتين . وتخلفت لها بقايا مساكن صغيرة دائرية المقطع ربما كانت مقبية السقوف استخدم أهلها قطع الدبش الغفل فى تدعيم أساساتها (٢) . وعاشت مظاهر هذه الحضارة حتى عاصرت المراحل الأولى لاستخدام النحاس . ووجد عدد من مقابرها داخل مساكنها ، كما عثر فيها على عدد من تماثيل الخصوبة والأمومة الطينية الصغيرة .

ب ـــ فى الحقبة الخالكوليثية (النحاسية الحجرية)

شهدت بلاد العراق فى أواخر عهد حضارة حلف ، دبيب النشاط الحضارى فى مناطقها الوسطى والجنوبية ، وتمثلت المراكز المبكرة لهذا النشاط فى كل من إريدو وحچى محمد ، ونسبت إلى كل منهما مستويات ومراحل عديدة من العمران تتراوح بين ١٤ وبين ١٩ مرحلة (٣) ، وتدعو كثرتها إلى الشك فيها أكثر مما تدعو إلى تأكيدها . ولم تكن أيهما بمعزل تماماً عن حضارات الشمال المعاصرة لها . وارتبط أهم أنشطة هذه الفترة بتطور صناعى جديد ، وربما بتحركات شعوبية أو قبلية جديدة أيضاً . أما التطور الصناعى فهو بداية معرفة استخلاص معدن النحاس واستخدامه على نطاق ضيق ، جنباً إلى جنب مع الأدوات الحجرية فيما يعرف اصطلاحاً باسم العصر النحاسى الحجرى أو عصر بداية المعادن . وفرقت البحوث الأثرية بين ثلاث مراحل شهدها العراق فى هذا العصر ، ونسبت كلا منها إلى أقدم أو أكبر الأماكن التى عثر فيها على مخلفاتها ، فأطلقت عليها أسماء : حضارة العبيد ، وحضارة الوركاء ، وحضارة جمدة نصر . وقد تعاقبت

---

(١) R.J. Braidwood, *Sumer*, 1945, 59 f.; 1947, 26 f. ; 1950, 93 f.; Braidwood, J.G. Smith and C. Leslie, 'Matarra : A southern variant of the Hassuna assemblage", *JNES*, 1952, 2f., ; T. Dabbach, "Hassuna-Pottery", *Sumer*, 1965, 93 f. ; F. El-Wailly-B. Abues-Soof, "Tell-Es-Sawwan" *Ibid.*, 17 f.; 24; also, *Sumer*, 1968, 58 f., 1971, 3f. ; 1973, 7 f.; Mellaart, *op. cit.*, 271 f.

وراجع ترجمات فؤاد سفر وبشير فرنسيس العربية فى مجلة سومر لعامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١

(٢) Von Oppenhiem, *Tell Halaf*, 1943, M.E.L. Mallowan & C.J. Rosse, *Prehistoric Assyria, The Excavations at Tell Arpachiyah*, 1933 ; *Irak*, II, 1935 1 f.
S. Lloydand F. Safar, *Sumer*, 1948; A. Jawad, *ibid.*, 1974;

(٣) Mallowan, *C.A.H.*, I, 330 f.; J. Mellaart, *ibid.*, 67 f.

ثلاثتها فى مواضعها من جنوب العراق إلى وسطه على مسافات متفاوتة ، ولكنها تداخلت مع بعضها البعض فى أزمنتها وخصائص منتجاتها ، إلى حد أن مال الرأى الحديث إلى إدماج ثالثها وهى جمدة نصر فى حضارة الوركاء ، واعتبارها مرحلة أخيرة منها ، وسوف نأخذ بهذا الرأى فيما يلى :

حضارة العبيد (أو تل العبيد) :

لم يتوافر معدن النحاس الذى تميز هذا العصر ببداية استعماله كثيراً فى بلاد النهرين ، وإزاء هذه الظاهرة لجأ الباحثون إلى أن يفترضوا أن من أدخلوا استخدامه إلى بلاد العراق لأول مرة قد وفدوا به عليها من منطقة خارجية يتوافر فيها ، مثل مناطق عدن أو إيران أو الأناضول .

وافترضوا خروج هجرات لأصحاب حضارة النحاس فى هذا العصر من جنوب غرب إيران أو فيما يحتمل عبره إلى العراق قبل أوائل الألف الرابع ق . م ، إثر حدوث تغير مناخى أشاع الجفاف الشديد فى مواطنهم الأولى . وعثر من مصنوعاتهم فى بلدة إربلو (أبى شهرين الحالية) على فخار ملون شديد الاحتراق ذى أرضية تميل إلى الإخضرار يشبه الفخار المميز لمعاصريهم فى أرض إلام أو عيلام جنوب غربى إيران . وقيل إن أولئك النازحين كانوا على معرفة بطريقة البناء باللبن التى يحتمل أنهم مارسوها أيضاً قبل انتقالهم إلى سهول النهرين . وعندما نجحوا فى الاستقرار فى مواطنهم الجديدة تشجعت هجرات أخرى على النزوح إلى ما يلى مواطنهم شمالا من بلاد النهرين . ولو أنه ليس من الضرورى إذا صح هذا الرأى أن نفترض أن المسرح قد خلا لهجرات الهضاب الشرقية حينذاك ، وإنما لا يبعد أنه كانت تقابلها فى الوقت نفسه هجرات سامية شقت طريقها من الغرب إلى بلاد النهرين بالانتشار السلمى حيناً وبالغزو القبلى حيناً آخر .

وأدى تكاثر هؤلاء وهؤلاء ، واستفادة بعضهم من إمكانيات بعض ، إلى انتشار أنواع راقية نسبياً من فخار مزخرف برسوم بنية أو سوداء طغى إنتاجها شيئاً فشيئاً على إنتاج فخار حسونة الشمالى وكانت أكثر انتشاراً من الجنوب والوسط إلى الشمال الشرقى عنها إلى الشمال الغربى (ووجدت نماذجها فى تبة جاورا والأربجية ونينوى وسنجار ومندلى وسامرا قرب نهر دجلة ، وباغوص وغيرها قرب نهر الفرات ، وفى حسونة نفسها) (١) . وذلك مما يعنى قيام المبادلات والاتصالات بين أهل الشمال وأهل الجنوب فى العراق . وبلغ من رقة صناعة بعض أوانى هذا الفخار ما دفع بعض الآثاريين إلى التعبير عنها باسم « أوانى قشر البيض » . وزود بعضها بآذان ومقابض وصنابير .

وعبر مهرة الصناع حينذاك عن فنون عصرهم على أفضل نوعيات هذه الأوانى الفخارية ، فزينوا سطوحها الخارجية بأشكال تخطيطية متجانسة وبألوان حمراء وسمراء ، واستغلوا بواطنها المتسعة لتصوير

---

(١) Hall, *A season's work at Ur, Al'ubaid and Abu Shaharin*, 1930; Ann Louise Perkins, *The comparative stratigraphy of early Mesopotamia*, 1949; and *See* S.N. Kramer, *From the Tablets of Sumer*, Ch. XXII.

مجموعات تخطيطية أيضاً لنساء وطيور وحيوانات وأسماك . وتعتبر بعض نماذجها الراقية مفخرة لعصرها (١) إن صحت نسبتها إليه فعلا . فن هذه المجموعات الراقية التى نستشهد بها على حذر : مجموعة صورت ست إناث يتوزعن على محيط دائرة تتطاير شعورهن داخلها ، وتحيط بهن ست عقارب كبيرة توزعت هى الأخرى على المحيط الدائرى لباطن الصفحة . وليست أشكال النساء هنا غير خطوط تقريبية لا تزيد الرأس فيها عن بقعة سوداء ، ولا يزيد الساقان فيها عن خطين متجاورين ، ولكنها تميزت على الرغم من ذلك بتناسقها والفصل بين الساقين واستدارة خطوط الفخذين فيها . وصفحة أخرى صورت فيها أربعة طيور طويلة الرقاب والأجنحة توزعت على أركان باطن الصحفة واتجهت نحو مركزها والتقط كل طائر منها سمكة بمنقاره ؛ واستغل الصانع الرسام الفراغات بين هذه الطيور فوزع حولها مجموعة أخرى من الأسماك فى شكل دائرة ، ثم عبر عن مركز الدائرة فى الصحفة بخطوط متقاطعة تكاد تقرب من هيئة الصليب المعقوف .

ولم يكن الصانع العبيدى أقل توفيقاً فى صحفة ثالثة ، فرسم فيها أربعة مثلثات تلاقت رؤوسها على هيئة المعين ، واستغلها لتصوير أربع عنزات تصويراً تجريدياً لطيفاً بالنسبة لعصره . ووجدت كسر فخارية أخرى صورت عليها مجموعة من الطيور تلتقط طعامها بمناقيرها ، وأخرى تتجمع فوق قطيع حيوانى ، وصورت غيرها فهداً ذا جلد مرقش يرتكز على خلفيته . . . الخ .

وخطا أصحاب حضارة العبيد بعض الخطوات البطيئة فى العمارة ، فوجدت لهم (فى تل العقير) آثار عدة مساكن لبنية يحتمل أنه كانت لها ميازيب فى سطوحها . كما بقى من أطلال معابدهم الدينية آثار أرضية معبد فى إريدو (أبى شهرين) (٢) شيد لمعبود ذى صلة أولية بالمعبود إنكى الذى اعتبره خلفاؤهم فى العصور التاريخية رباً للمياه العذبة وتخيلوه مستقراً فى أعماقها .

ونشأ معبد إريدو هذا متواضعاً يناسب إمكانيات عصره ، وتكون من مقصورة بسيطة (١٢× ١٥قدماً) أقيمت فيها مشكاة لتمثال معبودها أو رمزه ، ومائدة من اللبن للقرابين وضعت أمام هذه المشكاة (٣) . وتجدد المعبد وزاد اتساعه أكثر من مرة خلال عصر العبيد ، ودل تخطيطه فى مراحلة الناضجة على تطورات مبتكرة، فشيد من جديد فوق مسطح يؤدى إليه درج . ويدعو الإرتفاع بمثل هذا المعبد فوق المسطح ذى الدرج إلى أكثر من فرض واحد ، فهو قد يعتبر تطوراً معمارياً محضاً فى أسلوب البناء ، أو إجراء عملياً محضاً للارتفاع بقاعدته عن مستوى الأرض الرطبة المحيطة به ، أو يكون تعبيراً دينياً يدل على رغبة أصحابه فى التسامى بمعبدهم ومعبودهم إلى العلى ، أو يعبر عن فكرة شعوبية تدل على أن أصحابه كانوا فى بداية أمرهم من سكان المرتفعات الذين عبدوا آلهتهم ، آلهة الربوات، فوق قممها العالية ، فلما تركوا هذه الربوات والهضبات واستقروا على سهول النهرين استعاضوا عنها بمسطحات أو دكات من صنع أيديهم . وليس من سبيل إلى ترجيح أحد هذه

---

(١) *Cf. JNES*, III (1944), 47 f. ; *Sumer*, 1971, pls. XII–XIII .

(٢) *Sumer*, III (1947), 84 f. ; IV (1948), 115 f.

(٣) H. Frankfort, *The Art and Architecture of The Ancient Orient*, 1958, 2 f.; Mallowan, *op. cit.*, 335 f.

الفروض دون غيره بالنسبة لهذا العصر ، ولو أننا سنلحظ فيما بعد أن الفرض الأخير منها قد زكته شواهد متأخرة ظهرت فى آثار أواخر بواكير العصر الكتابى وفى آثار العصور السومرية وأساطيرها . وزادت إحدى مراحل تجديد معبد إريدو فى محتويات مقصورته ، فأضيف مذبح جديد على مبعدة من مائدة القربان القديمة ، وأحيطت المقصورة بحجرات جانبية ، كما شكلت واجهة جدران المعبد الخارجية على هيئة مشكاوات (أو دخلات) رأسية مستطيلة بسيطة تعاقبت الواحدة منها بعد الأخرى على مسافات متساوية(١) .

وتكرر أسلوب هذا المعبد فى مدن سومرية أخرى مثل مدينة أور (فى مستوى عمرانها الرابع) . كما جرى أهل شمال العراق على السبيل نفسه فى تطوير عمارة معابدهم ، فتميزت المراحل المتطورة لمعابد بلدة تبة جاورا بتعاقب المشكاوات الرأسية فى كل من الواجهات الداخلية والخارجية لجدرانها ، ولم تعد جوانب هذه المشكاوات قائمة الزوايا دائماً ، وإنما أصبحت الرئيسية منها تبنى بعدة مستويات داخلية متدرجة . غير أنه ليس من سبيل للقطع بإرجاع هذه التطورات إلى عصر العبيد فعلا أم لفترة لاحقة له ، نظراً لإستمرار مظاهر ما قبل التاريخ فى تبة جاورا إلى ما بعد إنتهاء عصرها فى الجنوب(٢).

وفى جنوب العراق ، عثر فى إريدو مما يعاصر حضارة العبيد ، على العديد من المقابر الفردية والجماعية التى تضمن بعضها صناديق من الطين المحروق وتماثيل صغيرة متواضعة من الصلصال لمعبودات وقوارب وأوانى للقرابين ، وجمعت بعض الأشكال البشرية وتماثيل الأمومة فيها بين خصائص الجنسين . وتميزت المراكز الشمالية من العصر نفسه بأختام حجرية صغيرة نقشت بصور حيوانية وخطية ، ومختومات من الطين تماثلها(٣).

ج – قبيل العصر الكتابى

حضارة الوركاء :

لعبت بلدة أوروك (أو أونوج) التى تقوم على أنقاضها وتحتفظ باسمها بلدة الوركاء الحالية (والتى ذكرتها التوراة باسم إرك) ، دوراً رئيسياً فى حضارة فجر التاريخ العراقى القديم . واعتبرت المقر المقدس لإنانا (أو إن نن) ربة الزهرة إبنة المعبود آنو وزوجته ، وإن زادت شهرتها فيها عن شهرته . وقسم الباحثون فيها مراحل عمرانها وتطوراتها الفنية المتواضعة فى فجر التاريخ إلى ست عشرة مرحلة ، عاصرت فى أغلبها حضارة العبيد(٤) ، ثم دخلت بمرحلتيها الرابعة والثالثة فى عصر جديد سمى اصطلاحاً باسم (Proto-Literate Period) نتيجة لإحتمال إبتداع أولى علامات الكتابة العراقية فيه ، وقد ترجمته بعض الكتب العربية بأسماء ما قبل العصر الكتابى ، والعصر الشبيه بالكتابى ، فضلا عن بواكير العصر الكتابى . . . الخ .

(١) *Ibid.*, 380 f. ; Frankfort, *op. cit.*, 380 f.

(٢) A. L. Perkins, *op. cit.*; J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra*, II (1950), 30 f.

(٣) Mallowan, *op. cit.*; Lloyd and Safar, *op. cit.*,

(٤) Frankfort, The Last Predynastic Period in Babylonia ; *C.A.H.*, I, *part* II, 70 f. ; Raymond Weill, *Recherches sur la Ire Dynastie et les prepharaonique*, Le Caire, 1961, II, 296;

وترتب على الوفرة النسبية لآثار بلدة الوركاء خلال هذا العصر أن أطلق الآثاريون إسم حضارتها على بقية مواطن العمران المحلية التى عاشت معها وشابهتها فى خصائصها ، وإن تميزت إلى جانبها فى آخر مراحلها تسمية حضارية أخرى ، ألا وهى تسمية « حضارة جمدة نصر » التى أشرنا إلى الاتجاه الحديث نحو إدماجها فيهـا . وتفاوت إنتشار خصائص حضارة الوركاء فى الجنوب والشمال بتفاوت مدى التطور فى مراحلها المتتابعة ، دون إلتزام بعدد الستة عشر الذى قسمت إليه مراحل عمرانها – وكانت مظاهر التطور فى مراحل بواكير العصر الكتابى أكثر وضوحاً فى الجنوب عنها فى الشمال .

ويبدو أن المجتمع الزراعى العراقى القديم قد بدأ يصطبغ بصبغة مدنية منذ أواخر حضارة الوركاء (أو منذ بواكير العصر الكتابى الجديد) ، فنشأت فيه بلدان أو مدن صغيرة تطورت عن القرى الكبيرة ، وامتازت عما يحيط بها من أراضى الزراعة والقرى العادية باتساع عمرانها إتساعاً نسبياً وبأهمية معابدها وقصور حكامها ، وكفاية صناعها وفنانيها ، وباتساع مجالات الإنتاج وفرص التشجيع فيها ، وإن ظل ذلك كله فى حدود نسبية بطبيعة الحال .

ولعل أهم مايصور الرقى النسبى فى حضارة الوركاء ، هو نقوش أختامها التى ترجع مراحلها الأولية المتواضعة إلى عهود حلف والعبيد ، ثم تطور عمارة معابدها . فقد استخدم أهل أوروك ، أو الوركاء ، أختاماً مخروطية ذات قواعد شبه دائرية كانوا يختمون بها على الطين عن طريق الضغط عليها ضغطاً رأسياً ، وأختاماً أخرى أسطوانية الشكل كانوا يثبتونها فى أيد خشبية ويختمون بها بتمريرها بقوة على سدادات الأوانى ولوحات الصلصال الطرية الصغيرة ، وقد شاع هذا النوع الأخير واستغله الصناع لنقش مناظر دنيوية ودينية وأسطورية وعناصر أخرى زخرفية على سطوحه .

وبلغت نقوش أختام أوروك غايتها من التنوع خلال المرحلتين الرابعة والثالثة من مراحل عمران بلدتها ، فصورت مناظرها الدينية بعض أعياد المعبودات ، ورمزت إلى تقوى الحكام وكبار الناس . ومما بقى منها ما يصور حاكماً يتقدم بسنبلتى شعير إلى ستة رؤوس من ماشية معبد مدينته كأنه يطعمها ، وتلاه تابعه يحمل له مجموعة سنابل أخرى(١) . وصورت غيرها رجلا كبير المقام فى مرحلتين من مراحل زيارته لمعبد هام ، فأظهرته فى بداية رحلته يستقل قارباً يجذف له فيه أحد أتباعه ويتوجه به إلى مرساة المعبد ، ثم صورته يسير فى رحاب المعبد مبتهلا ضاماً كفيه . تجاه وجهه مع ثنى ابهاميهما إلى الخلف ، يحف به كاهنان يرفعان قلادتين فخمتين أهداهما باسمه إلى ربة المعبد(٢) .

ورمزت المناظر الدنيوية فى نقوش الأختام إلى بعض الأحداث العامة فى عصرها ، فصور أحد ما بقى منها ساحة حرب يتصدرها رئيس ذو لحية كثيفة وعمامة كبيرة ونقبة نصفية ، يقف منتصباً مستنداً إلى رمحه فى اعتزاز وقوة ، وقد تجمع أمامه عدد من زعماء أسراه عراة ، ومنهم إثنان تقدما إليه فى خضوع يعلنان

---

(١) H. Frankfort, *Cylinder Seals*, pl. V. d.

(٢) H. Farnkfort, *The Art and Architecture*,... pl. VIII c.

التسليم وثلاثة رجال قيدت سواعدهم خلف ظهورهم وألقوا أذلة على أرض المعركة(١) . ثم رمزت مناظر أختام أخرى إلى كفاح الأفراد ضد أخطار بيئتهم الخشنة ، مع شيء من المبالغة التي ترتفع بهم إلى مصاف الأبطال ، كتصوير راع يدفع أسداً ضخماً بعيداً عن بقرته دون خشية منه(٢) .

وصورت النقوش نفسها حيوانات بيئتها تصويراً يستهدف تسجيل حياتها العادية في بعض أمره ، ويستهدف غرض الزخرفة في بعض أمره . فصورتها أحياناً يتلو بعضها بعضاً ويهاجم بعضها بعضا من الخلف(٣) . وألفت من صور الأفاعي الضخمة وصور الأسود برقاب تشبه الأفاعي مجموعات زخرفية محورية يواجه كل حيوان فيها حيواناً آخر يماثله ويتداخل فيه بحيث تلتف عنق كل منهما على عنق الآخر وتؤلفان بجزئيهما العلويين هيئة حلقة مستديرة ، بينما يواجه رأس كل منهما رأس الآخر أو يدابره(٤) .

ولعبت صور المراكب دورها في مناظر الأختام ، ودلت على أهميتها في حياة الناس وإنتقالاتهم الفعلية . وكانت مراكب ذات طرفين مرتفعين يميلان إلى الداخل أو إلى الخارج ، وإمتازت في أغلب صورها برموز تخطيطية ترمز إلى أصحابها أو ترمز إلى معبوداتهم ، وتناسب في الوقت ذاته المناظر المسجلة معها ، وهي مناظر كان منها ما هو دنيوي الطابع يتألف من تصوير صاحب المركب وزوجته (٥) ، كما كان منها ما هو ديني الطابع يتألف من تصوير جانب من حفل ديني في عيد إحدى المعبودات(٦) ، تصويراً مختصراً بطبيعة الحال .

وكان من البدهي أن يتفاوت مدى إتقان أمثال هذه النقوش بتفاوت كفايات الصناع ، وثراء أصحابها النسبي ،ومدى التطور الفني والفكري في عصرها . غير أن صور الحيوانات فيها ظلت على وجه الإجمال أكثر إتقاناً من صور الإنسان ، وقد صورها الفنانون من الجانب دائماً ، وبرع بعضهم في تصوير قوة عضلات أجسام الأسود(٧) ، وتصوير تحركات الماعز والأغنام وتفاصيل قرونها وشعورها وأصوافها ، والتعبير عن عجزها إزاء هجمات الوحوش الكاسرة ، وتصوير ضراوة الأفاعي(٨) . والتزم بعض أولئك الصناع الفنانين بتصوير كل حيوان مستقلا عن الآخر لإظهار فرديته . بينما مارس عدد آخر منهم بعض قواعد المنظور الأولية في تصوير الحيوانات ، فصوروا بعضها يخفي أجزاء بعضها الآخر حين سيره(٩) .

---

(١) *Ibid.*, Fig. 7 a.

(٢) H.H. von der Oslen, *Ancient Oriental Seals*, No. 695.

(٣) A. Scharff, *Die Fruhkulturen Aegyptens und Mesopotamiens*, 1951, Taf. VIII, 45, IX, 46, 51 ; Frankfort, *op. cit.*, Fig. 7 e, pl. VIII a.

(٤) A. Scharff, *op. cit.*, 26, Taf. VII, 40, Abb; 9,10 ; Frankfort, *op. cit.*, Fig. 7 b, pl. VIII b.

(٥) A. Scharff, *ZAeS*, LXXI (1935), 94 (*m*).

(٦) *Ibid.*, 95 (*n*).

(٧) Frankfort, *op. cit.*, pl. 8 *a*.

(٨) *Ibid.*, pl. 8 a, Fig. 7 *e*.

(٩) أنظر حاشية ٢ أعلاه .

واكتفى صناع الأختام بتصوير الملامح العامة للإنسان دون تفصيل ، وأخذوا بما أخذ به أغلب الفنانين الأوائل من تصوير رأس الإنسان وجذعه الأسفل من الجانب مع تصوير عينه تصويراً أمامياً ، وتصوير صدره باتساعه ، وتقديم ساقه البعيدة إلى الأمام ، وإن كان أقلهم قد تعدى هذه التقاليد أحياناً ونجح فى تصوير الكتفين تصويراً جانبياً حين الضرورة(١) .

وصور الرسامون الأوائل كهنة معابدهم عراة تماماً ، قصار الشعور وحليقى الشوارب واللحى ، بينما صوروا المدنيين بثياب نصفية تمتد من السرة إلى الركبة ، أو تزيد قليلا أحياناً(٢) ، وبثياب طويلة أحياناً أخرى.

ومارس مهرة فنانى بواكير العصر شبه الكتابى فى نهاية حضارة الوركاء النقش على الأوانى الحجرية الفاخرة وعلى بعض النصب الصغيرة . وأمتع ما ينسب إليهم من الأوانى المنقوشة آنية أسطوانية أو مزهرية حجرية قسمت سطوحها إلى ثلاثة صفوف تتضمن أشكالا دينية وزخرفية . وظهرت المعبودة إنانا فى صفها الأعلى كربة للخصب تستقبل موكب تقديم النذور والقرابين فى عيد رئيسى لعله عيد الزواج المقدس أو رأس السنة الزراعية ، ينسدل غطاء رأسها على ظهرها وكتفيها وتتدثر بثوب طويل أو شال واسع ، وتجمع بيسراها مجامع ثوبها بينما ترفع يمناها لتبارك بها سلة فاكهة قدمها إليها أحد كهنتها العراة . وتلاها تصوير شعار معبدها المعبر عن اسمها والمشيد من الغاب (أو القصب) المحزوم ، ومجموعات الهدايا الفاخرة التى قدمت إليها ، ثم رجل وأنثى بملابس طويلة وشعر مرسل طويل (أو غطاء رأس طويل) يصعدان مسطحى المعبد المسورين. ويرى فالكنشتين وياكوبسن أنه صورت فى يد الرجل علامة كتابية ترمز إلى كونه حاكم أوروك وممثل دوموزى رب الإخصاب .

وشغل الصف الثانى من نقوش الآنية تصوير عدد من الكهنة أو الأتباع العراة حاملى القرابين ، بينما صورت فى صفها الثالث مجموعة كباش ونعاج ونباتات على التتابع . وعبرت صور الكباش فيها عن الأنواع الشائعة فى عصرها ، فمنها كباش أفقية القرون ومنها عالية القرون ، وكلها قصيرة الذيول ذات طيات سميكة تحت أعناقها وفى مقدمات صدورها . ولا تزال نقوش هذه الآنية تعتبر خير نقوش أوانى عصرها(٣) ، بل ولم يعثر بعد على ما يدانى نقوشها فى آثار عدة قرون تالية لها من الألف الثالث قبل الميلاد .

وظلت نقوش نصب الوركاء متواضعة على الرغم من أن بعض صناعها قد نجحوا فى تنفيذها على الأحجار الصلبة أحياناً ، ومن هذا القبيل جزء من نصب صغير من حجر الجرانيت الأسود (وهو فريد بمادته فى بيئته) نقشت عليه هيئة رجل يصيد الأسود بسهامه وآخر يهاجمها برمحه ، ويبدو أنهما فردان من جماعة ترمز إلى طبقة الحكام أو الأبطال الأوائل الذين أراد الفنان أن يرمز إلى بأسهم فى مواجهة الحيوانات الضارية

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, pl. 8 *d.*

(٢) *Ibid.*, pl. 8 a, Fig. 7 *a.*

(٣) H. Heinrich, *Kleinfunde...*, *Uruk*, Taf. 2, 3 ; A. Scharff, *Die Fruhkulturen...*, 1941, 22, [illegible] Taf. V, 31 ; H. A. Grosenewegen–H. Frankfort, *Arrest and Movement*, 150—152.

وكفاحهم الشاق فى سبيل تأمين الحياة فى بيئتهم(١) . ولم يوفق ناقش النصب فى تصوير النسب الجسمية السليمة لهذين الرجلين ، وإن نجح نجاحاً لا بأس به فى التعبير عن حركة أذرعهما خلال إطلاق القوس وتصويب الرمح ، وصورهما بأنف أقنى بعض الشيء .

ثم بدأ أواخر فنانى العصر بممارسة تجاربهم لتنفيذ النقش الغائر والنقش المجسم والنقش المفرغ ، وكانوا أكثر توفيقاً فى النوعين الأخيرين ، ومن روائعهما الباقية كأس منقوشة من تل أجرب برز من أحد وجهيها شكل بطل أسطورى ربعة ، عار إلا من حزام حول وسطه ، وله لحية طويلة ممشطة وشعر مرسل ، يضغط بيديه على كفلى شبلين يلتفتان بوجهيهما إليه كأنما يستنكران ضغطه عليهما ، وبدت آثار الجهد على البطل فى تجاعيد جبهته وانطباق شفتيه واتساع محجرى عينيه . وبرز على الوجه الآخر للكأس أسدان فاغرا الفاهين ، على مستوى أعلى من مستوى الشبلين .

ووجدت قاعدة كأس حجرية أخرى فى تل أجرب أيضاً نقشت عليها هيئة البطل الربعة بخف صوف (؟) طويل ، يمسك ذنبى أسدين يهاجمان فحلين خرافيين برأسين ملتحيين(٢) . وقد أزال فنان الكأسين جزءاً من الأرضية التى تحيط بأشكال الأولى ، ثم أزالها تماماً فى قاعدة الكأس الثانية فبدت أشكالها مجسمة واضحة .

وتعددت صور النقش على أوان وكؤوس أخرى جمع بعضها بين أسلوب النقش البارز العادى وبين أسلوب الصور المجسمة . كأن ينقش جسم حيوان مثلا على سطح آنية نقشاً عادياً ، على حين يبرز رأسه منها بروزا كاملا . بحيث يواجه الرائى باتساعه كأنه رأس تمثال مجسم(٣) . وظلت أمثال هذه الأوانى على صغرها تعتبر فى عصرها من أدوات الترف ومن كنوز المعابد ، بحيث طعم بعضها بالصدف والمحار واليشب الأحمر(٤).

وخطا فن النحت ذو الأبعاد الثلاثة خطوات بطيئة كذلك خلال بواكير العصر الكتابى ، وتخلفت من نماذجه الصغيرة تماثيل لحيوانات أليفة وضارية وتماثيل بشرية وتماثيل كائنات أسطورية وخرافية . وكان من هذه التماثيل ما ينحت قائماً بذاته ، ومنها ما يعتبر جزءاً من تركيبات أخرى ، كأن ينحت الصانع أو المثال قاعدة قطعة ثمينة من مقتنيات المعابد والقصور ، أو مقدمتها ، مثل المباخر والمذابح والأحواض وموائد القرابين وقطع الزينة ، على هيئة رأس شاة(٥) ، أو على هيئة كبش بارك يواجه الرائى برأسه بينما يخرج من ظهره قائم معدنى يربطه ببقية القطعة التى يتصل بها (٦) .

---

(١) Holdeke, Heinrich und Schott, *Funfter vorlaufiger Bericht*..., *Uruk*..., 193?, 11—13; Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, 14.

(٢) *Op. cit.*, pl. 6 *a—c*.

(٣) *Ibid.*, pl. 5 *a—b*.

(٤) *Ibid.*, pl. 11 and notes 33—35.

(٥) *Ibid.*, pl. 4 *b*.

(٦) *Ibid*, pl. 4 *a*.

وكان من المثالين من يرمز إلى الحارس المقدس الذى يرعى معبده أو يرعى قصر مولاه ، بتمثال كائن أسطورى يجمع بين عناصر مختلفة ، كأن يجمع بين جسم الأنثى وهيئة القردة ووجه اللبوة(١). واستهوت تماثيل النساء الفنانين الأوائل ، كما ظلت تستهويهم فى كل عصر ، فرمزوا بها إلى رباتهم وإلى رعاة الأمومة ، وعبروا بها عن بعض شخصيات مجتمعهم ، وعن جمال الأنثى بوجه عام . ولم يبلغ أغلب هذه التماثيل حد الإجادة ولكن بعضها لم يخل فى الوقت ذاته مما يعبر به عن محاولات فنية ترمى إلى تقليد الطبيعة أحياناً فى صدق مثل تمثيل بروز النهدين وانسياب الشعر النسوى الطويل المرسل(٢) .

ومن خير ما افترضت نسبته إلى هذا العصر من منحوتات ، رأس من الألباستر طعمت بمواد مختلفة لأنثى عثر عليه فى الوركاء(٣) يمكن اعتبارها مفخرة لعصرها إن صحت نسبتها إليه فعلا ، بل وقلما بلغ الفن العراقى مبلغ إجادتها فى تاريخه كله . وقد نحتت بحجم يقرب من حجم الرأس الطبيعية (ويبلغ إرتفاعها ٢٠سم) وكانت ملونة . وتظهر دقة التمثيل فيها فى رقة تكوين ملامح صاحبتها ونعومة خدها ورقة شفتيها وخطوط ذقنها ونقوش حاجبيها وانسياب الخصل الرقيقة من مفرق شعرها على جبهتها ، وكانت فجوات عينيها وحاجبيها مطعمة ، كما كانت خصل شعرها مكسوة بطبقة معدنية رقيقة . وقد استقامت خلفية الرأس وبقيت فيه ثقوب كانت تستخدم لتثبيتها فى جسم تمثال صاحبتها (٣) .

وواصل التطور المعمارى طريقه حينذاك فى أبنية المعابد والمساكن الرئيسية فى عصره . واحتفظت مدينة الوركاء ، بأطلال معبد عرف باسم المعبد الأبيض لكسائه بالجص واستخدام الكلس أو الحجر الجيرى فى بعض أجزائه(٤) . وقد أقيم أولا من اللبن للمعبود آنو فى نهاية بواكير العصر الكتابى ، فوق ربوة أودكة اصطناعية ترتفع نحو إثنى عشر متراً عن مستوى السهل الممتد حولها وتشرف عليه . وسورت جوانب هذه الربوة بسور ذى مشكاوات ، واعتبرت فيما يحتمل بديلا عن أمثال مسطح معبد إريدو ، أو اعتبرت على الأرجح نموذجاً لأصله الجبلى القديم . ويؤدى إلى سطحها طريق صاعد ودرج طويل بقى جزء منه . وتوسط المعبد الأبيض سطح الربوة واستكملت جدرانه هيئة المستطيل وتشكلت على هيئة مشكاوات متتالية ، تعاقبت فى كل منها عدة مستويات داخلية ، وكانت قد بنيت باللبن كالعادة ودعمتها فلوق نخيل قصيرة ، ثم كسيت بجص أبيض . وتوسطت المعبد مقصورته الرئيسية وتضمنت فى داخلها عنصريها الرئيسيين ، وهما المذبح ومائدة القربان ، ولكن مذبحها كان ذا درج وبلغ إرتفاعه أكثر من متر ، وجاور مائدة القربان فيها موقد منخفض نصف دائرى . وأحاطت بالمقصورة بضع حجرات فصلت بينها جدران ذات مشكاوات نصفية ،

---

(١) *J.A.O.S.*, LXX (1950), 223 f.

(٢) Frankfort, *op. cit.*, pl. 9 *b*..

(٣) *U.V.B.* XI, pl. I (Vorlaufiger Bericht uber die von der deutschen Forschungsgemeinschaft in Uruk–Warka unternommenen Augsrabungen..., 1940).

(٤) *U.V-B.*, VIII, (1963), Abb. 13, Taf. 40 f. ; *Mitt. der Deutschen Orient -Gesellschaft*, Nr. 83 (1951).

وزينت بمخاريط ملونة – وألحقت به معابد صغيرة أخرى . وفى بعض مداخله الاضافية شكلت فى المعبد أعمدة كاملة وأخرى نصفية المقطع . واستمر تل هذا المعبد باقيا حتى احتوته وضمته أسوار معبد آن أو آنو الكبير فى العصور الهيلينستية ، أى بعد بداية البناء فوقه بنحو ثلاثين قرناً ، وقد يعنى ذلك أنه كان يرتبط بقداسة خاصة عند أهله أدت بهم إلى شدة المحافظة عليه .

وظل أسلوب المسطحات متبعاً فى بناء المعابد جنباً إلى جنب مع طراز التل أو الربوة ، فعثر فى تل العقير على أطلال معبد (مزوق) عاصر معبد الوركاء ، وأقيم فوق مسطحين(١) وليس مسطحاً واحداً ، وكان يؤدى إليه درجان . وخطوا بذلك خطوة جديدة ، استكملها خلفاؤهم على المدى الطويل حين زادوا أعداد المسطحات أو الطبقات وجعلوها تتراوح بين الثلاثة وبين السبعة ، كما سيمر بنا فى صفحات تالية . وصورت المناظر على جانبى مقصورة معبد العقير حيوانات قائمة وجاثمة ، تميزت منها صور فهود لعلها مثلت الحماية الرمزية للمعبد .

وكشفت التنقيبات الأثرية عن أطلال معابد أخرى ، كان منها معبد فرعى يجاور معبد الوركاء ، للربة إنانا(٢) ، ومعبد لإله القمر شيد وسط مساكن بلدة خفاجى تناولته تعديلات كثيرة تميزت منها مرحلة خامسة أصبح يتقدم المعبد فيها ثلاثة أفنية متعاقبة يضمها معه سور كبير(٣) .

وظلت قوالب اللبن هى مادة البناء الرئيسية طوال ذلك العصر ، واستغلت فى تشكيل نوعين من الأساطين ، أساطين نصف دائرية المقطع تعتمد على جدران ساندة ، وأساطين أخرى دائرية المقطع يبلغ قطر الكبيرة منها نحو المترين .

واستعان المعماريون على إدخال عنصر الزخرفة فى مبانيهم بما أشرنا إليه من تعاقب المشكاوات أو الدخلات فى واجهاتها المتسعة بما يخفف من حدة استقامتها ويعمل على تعاقب الأضواء والظلال فيها ، ثم عن طريق كسائها بطبقة من الملاط أو الجص وتلوينها بلون واحد كما حدث بالنسبة لكساء جدران معبد الوركاء بجص أبيض . أو تصوير صفوف من الحيوانات (والنباتات) عليها ، كما حدث بالنسبة لجدران معبد العقير(٤).

ولما لم يكن من اليسير نقش جدران المبانى اللبنية نقشاً غائراً أو بارزاً ، عالج معماريو العصر هذا النقص بعدة وسائل : فكان منهم من ينقشون أفاريز حجرية صغيرة بما تراءى لهم نقشه من رموز الأرباب وصور الحيوانات ثم يثبتونها فى الجدران الرئيسية بسيور تناسبها ، عن طريق فجوات فى خلفياتها(٥) . كما كان منهم

(١) Seton Lloyd and Fouad Safar, "Tell Uqair", *JNES*, 1934, 132 f.

(٢) *U.V.B.*, VII (1935), Taf. II.

(٣) Delougaz and Lloyd, *The temple oval at Khafaje*, 1940, pl. V a; *Pre-Sargonic Temples in Diyalah Region*, 1942.

(٤) *Ibidem*.

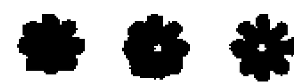
(٥) Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, 1951, pl. X, Figs. 17—18.

من يزخرفون المساحات الصغيرة من الجدران بلوحات فخارية صغيرة تشكل على هيئات الحيوانات والزهور ثم يختم عليها بأطراف أعواد البوص بحيث تبدو أرضيتها كما لو كانت مشكلة من دوائر صغيرة(١).

وكانت بعض الأساطين والجدران تزخرف كذلك بمخاريط فخارية صغيرة (يبلغ متوسط طول الواحد منها نحو عشرة سنتيمترات) يلونون رؤوسها المستديرة بألوان سوداء وحمراء، وقد توجد معها مخاريط حجرية أو مرمرية صغيرة أحياناً ثم تعشق متجاورة فى الجدران والأساطين بحيث تؤلف رؤوسها الملونة الظاهرة أشكالا زخرفية تشبه هيئات المثلثات وخطوط الزجزاج(٢). ويرى البعض أنها حلت محل الحصير الملون الفاخر الذى كان يسدل من قبل على الجدران الطينية ستاراً وزينة (٢)

وبلغ من افتتان بعض الباحثين بآثار فجر التاريخ العراقى التى أجملنا مظاهرها الأساسية فى الصفحات السابقة، أن افترضوا لأصحابها توسعاً سياسياً يزيد عن رقيهم الحضارى. فنسب إليهم صمويل نوح كرامر ما أسماه أول إمبراطورية سامية إيرانية فى بلاد (ما بين) النهرين، ثم افترض أن نفوذ هذه الإمبراطورية قد إمتد من العراق إلى غرب إيران حيث شمل أرض إلام أو عيلام، وافترض وجود دولة حاجزة فى أقاليم غرب إيران تفصل بين إمبراطورية (ما بين) النهرين هذه وبين البرابرة(٣). غير أن مثل هذا الغلو فى التقدير ليس له ما يبرره فى عصر فجر التاريخ العراقى البعيد، لاسيما إذا قدرنا أن أكثر من خمسة قرون من العصور التاريخية نفسها قد مرت بعد ذلك دون أن يجتمع سكان بلاد النهرين فى دولة واحدة، ناهيك بامبراطورية واحدة! (مع ملاحظة تسمية «بلاد ما بين النهرين»، وليس بلاد النهرين، فى الترجمة العربية لهذا الكتاب).

وعلى أية حال فإن بدايات إبتداع علامات الكتابة فى أواخر عصر الوركاء، وهى ماسوف نتناولها فى سياق بحث خاص فى صفحات تالية، تكفى لتمييزها عما سبقها، وتجعلها مبشرة بتحضر واسع يأتى بعدها.



(١) U.V.B., II, Abb. 25—27; III, Taf. 18; XI, Taf. 34.

(٢) U.V.B., III, Taf. 1 ; VII, Taf. 17 a. — وأنظر تقارير الحفائر فى مجلة سومر ١٩٦١ عن مخاريط حجرية ملونة.

(٣) See, S.N. Kramer, *From the Tablets of Sumer*, 1956, Ch. XXII.

الفصل الرابع عشر

اوائل العصور التاريخية فى العراق

عصر بداية الأسرات السومرى

بدأت خصائص العصور التاريخية فى العراق فى فترة ماتراوحت تقديرات المؤرخين بشأنها بما بين أوائل القرن الثلاثين ق.م وبين القرن الثامن والعشرين ق.م . وتعددت مراكز التجمع والتحضر حينذاك فى النصف الجنوبى من سهول النهرين ، وهى سهول عبرت بعض النصوص السومرية عنها باسم « كلام » أو « كالاما » ورمزت إليها نصوص أخرى بمجموعة العلامات الكتابية « كى – إن – جى » ، ثم ذكرتها نصوص القرن الخامس والعشرين ق.م باسم « سومر » أو « شومر » ، وهو إسم ليس من المستبعد أنه كان يجرى على ألسنة أصحابه قبل ذلك بزمن طويل ، ثم شاع فيما بعد أكثر مما سواه والتصق بأهله الذين عرفهم التاريخ باسم السومريين ، واستخدمه الساميون خلفاؤهم فى قولهم « مات شوميريم » بمعنى أرض شومير (١) .

وصورت المناظر والتماثيل السومرية خاصة أهلها أميل إلى الإمتلاء ، مع قصر القامة أو توسطها ، وصورت بعضهم بأنف كبير أقنى (٢) ، وأظهرتهم حليقى الشوارب ، ولم تظهرهم فى عصورهم الأولى بلحى إلا فى حالات قليلة تبدو اللحى الكبيرة فيها أشبه باللحى المستعارة ، بينما أظهرتهم تماثيلهم فى أواخر عصر بداية الأسرات بلحى كثة(٣) . أما شعر الرأس عندهم فمختلف ، فمنه الحليق ، والقصير ، والطويل المعقوص ، والمرسل على هيئة الضفائر ، وإن بدا فى بعض صوره طويلا كثيفاً أحياناً مرسلا على الكتفين وأقرب إلى هيئة الشعور المستعارة(٤) . وصورت المناظر نفسها أصحابها برؤوس عارية إلا من خوذ الحرب وتيجان الحكم . وكانت ثيابهم متنوعة ، وأكثرها نصفية فضفاضة تبدأ بثنية عريضة مطوية عند الخصر تؤدى غرض الحزام ، وتمتد إلى ما تحت الركبة(٥) ، أو تنسدل إلى قرب العرقوبين(٦) ، وينتهى بعضها بشرائط طويلة مدببة الأطراف مرسلة فى صف واحد ، أو تكسوها عوضاً عن الشرائط أهداب (من خيوط معقودة) تتعاقب

---

(١) *For:* "Sumer" "Shumer" and "Shuwer" see : *Encyclopaedia Britanica,* XXVI, 75.

(٢) J.B. Pritchard, *The Ancient Near East,* Figs, 115, 154; H. Frankfort, *The Art and Architecture...,* Fig. 9, pls. 11 a, 17, 22, 23, 25, 33 *a—b.*

(٣) *Encyclopedie photographique de l'art,* I, 204; *Syria, XVI,* pls. IX, XX, XXIV ; *Frankfort, Sculpture...,* pls. 52—53; ; *More Sculpture ...,* pls. 35—36.

(٤) *Cf.,* Frankfort, *The Art and Architecture...,* pl. 34, Fig. 12 (left), pls. 19, 33 *a,* and pls. 22 *c,* 24 *a—b,* 25.

(٥) See for example, Frankfort, *op. cit.,* Figs, 9, 16 *b,* pls. 11 *a.* 13, 17, 19, 33 *a,* 36, 37.

(٦) *Ibid.* Fig. 12 (right), pl. 33 *b.*

فى صفوف يتلو بعضها بعضاً ، على هيئة جزة الغنم أو على هيئة فلو السمك(١) . وغالباً ما يظهر الحكام وذوو الحيثية السومريون بعباءات واسعة يبدو أنها كانت تتخذ من أصواف الأغنام الطويلة الممشطة تمشيطاً جيداً ، ويلتفعون بها بحيث تغطى الكتف اليسرى وجزءاً من ذراعها وتمر من تحت إبط الكتف اليمنى(٢) . وظهر بعض أولئك الحكام والخاصة بمعاطف فريدة مزركشة يتصل طرفاها أسفل الرقبة(٣) ، وذلك على الرغم من غلبة الحرارة والرطوبة فى الأجزاء الجنوبية من العراق . أما النساء السومريات فقد ظهرن فى صور قليلة بشعور طويلة مرسلة وبثياب طويلة كاسية .

وتخيل السومريون بعض أربابهم فيما صوروهم به على هيئات بشرية مثالية وبلحى كثة ممشطة وشعور طويلة معقوصة من الخلف ، وبملابس تقرب من ملابس الحكام ، وتوجوا بعضهم بقرون قد تدل على عصور بدائية عتيقة كان الحكام يزينون تيجانهم فيها بالقرون .

• • •

لازال التاريخ على غير بينة أكيدة من جنس السومريين وموطنهم الأصيل الذى وفدوا منه على العراق إذا كانوا قد أتوا إليه حقاً من خارجه . ودفعت إلى الحيرة فى تحديد أصلهم الجنسى واللغوى عدة أسباب ، منها : اختلاف لغتهم المكتوبة عن اللغات السامية المألوفة مع صعوبة تقريبها فى الوقت نفسه إلى مجموعة اللغات الآرية المعروفة . وقد ذهب فرض حديث إلى تقريبها إلى مجموعة اللغات قليلة الشيوع التى تأخذ بطريقة الإلصاق (Aggulitination) مثل المجموعة الأسيانية أو مجموعة الأورال طاى(٤) (ومن مظاهر الإلصاق اللغوى إدراج لفظين أو أكثر لتكوين كلمة جديدة ، وإدماج الضمير فى الفعل المتصل به) ، ولكن بغير أدلة مقنعة . ولوحظ من جهة أخرى أن من أسماء المعالم الرئيسية فى أرض العراق والتى تضمنتها النصوص السومرية نفسها ما يختلف فى لفظة عن مفردات لغة أصحابها السومريين ويختلف عن مسميات اللغة السامية فى الوقت ذاته ، مثل أسماء : دجلة (إديقلات) ، والفرات (بورانون ، بورنونا)(٥) ، وإريدو ، وشوروباك . . الخ ، وذلك مما قد يوحى باختلافهم فى الجنس أو اللغة عمن لحقوا بهم أيضاً . ثم أزاد الشك فى وحدة جنسهم أن تبين بعض الباحثين أن جماجمهم الباقية قد جمعت بين خصائص الرؤوس السامية الطويلة وبين خصائص أصحاب الرؤوس العريضة من غير الساميين(٦) . وهذه ظاهرة يمكن أن تقرن بما أسلفناه عن تصوير بعضهم بأنف

---

(١) *Op. cit.*, pls. 19, 21, 23, 33 *b*.

(٢) *Ibid.*, pls. 33, 34.

(٣) *Ibid.*, p. 36; cf. G. Contenau, *La Civilisation d'Assaur et de Babylone*, 1951, 19.

(٤) *Ibid.*, 19, 23.

صمويل كرامر : من ألواح سومر –ترجمة طه باقر – ١٩٥٧ – راجع المقدمة بقلم المترجم .

(٥) حور هذا الإسم فى النصوص السامية إلى بوراتوم ، وبوراق ، ثم إلى فرات .

(٦) *Cf. Sumer*, 1949, 1950, Frankfort, *The Birth of Civilization*, 1948.

أفق، وتصوير بعض كبارهم بأردية ثقيلة لاتناسب حرارة جنوب العراق، وذلك فضلا على ماسوف نذكره بعد قليل عن مدلول إقامة بعض معابدهم الكبرى فوق ربوات أو مسطحات اصطناعية ، وما ألمحت إليه أساطيرهم القديمة من الربط بين أصول بعض معبوداتهم وبين مناطق جبلية أو هضبية مرتفعة .

فقد جرى السومريون على عادة أهل بواكير العصر الكتابي الذين سبقوهم فى مجالات الحضارة بالعراق ، من حيث تشييد بعض هياكل أربابهم فوق مسطحات اصطناعية مرتفعة . وصوروا الأرضيات التى يعتليها أولئك الأرباب فى مناظرهم الدينية على هيئة مدرجات الجبال وكومات الأحجار ، وذلك مما قد يعنى أنهم شابهوا أصحاب حضارة الوركاء ، أو حضارة بواكير العصر الكتابى، فى فكرة تعويض معابد آلهتهم عن قممها العالية فى بيئات جبلية قديمة ، بإقامة المسطحات الاصطناعية العالية فى سهول العراق لسبب أو أكثر من الأسباب التى افترضناها من قبل وتراجع فى ص٤٣٧–٣٨ . وقد يتصل بهذه الظاهرة ماجرى عليه السومريون من تسمية معبد إلههم إنليل فى مدينة نيبور السومرية باسم « إكور » وهو إسم يحتمل أن يعنى معنى (البيت الجبلى » وما وصفوا به ربتهم إنانا فى إحدى الأساطير بأنها ملكة السماء الجليلة التى تسكن « جبال » الأرض العالية شوبا ، ثم روايتهم عن معبودهم أوتو رب الشمس ، فى الأسطورة نفسها ، برغبته فى أن يشيد أتباعه معبده متسامياً « كالجبل » المقدس ويكون مزاره فيه كالغار ، وأن يجلبوا له أحجاره من جبال أرتا لبنائه(١) .

وقد يتصل بهذا الأصل الجبلى المفترض ، وصلة أسلاف السومريين المقترحة به ما أتت به أسطورتان لملك يدعى إنمركار اعتبرته القوائم السومرية المتأخرة ثانى ملوك الأسرة الأولى فى مدينة أوروك بعد الطوفان(٢) . وروت إحداهما أن الربة إنانا قد اصطفته من بلاد شوبا الجبلية ، كما وصفته بأنه المحتبى بالإمارة فى البلاد « الجبلية المحصنة » ، وأنه الراعى الذى ولدته البقرة الأمينة فى « جوف الجبال » . وكل ذلك مما يحتمل معه الربط بين أصول الرجل وأسطورته وبين منطقة ما من مناطق المرتفعات . وروت الأسطورة الثانية أن إنمركار هذا كان على علاقة بمدينة أرتا وملكها ، وهى مدينة تقع فى منطقة جبلية افترض كرامر أنها منطقة أنشان فى بلاد عيلام (فى إيران) ، وسمحت له هذه العلاقة بأن يطلب من ملكها أحجاراً ومعادن ثمينة لبناء معابد أربابه وزخرفتها ، فى مقابل تصدير الغلال إليه ، ولو أنه يبدو من الأسطورتين أن روح التنافس الخفى بين الملكين جعلت كلا منهما يتعالى على الآخر فى طلبه ويضمر له الغدر فى نفسه .

وبناء على كل هذه المشكلات والشبهات ، اتجهت الآراء فى تخمين الأصل الجنسى واللغوى للسومريين إلى عدة مذاهب ، كان منها ما افترض أن أجداد السومريين هاجروا إلى العراق من المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية التى تحف به ، عن طريق أرمينيا وإيران . وهو فرض قد يجد ما يزكيه فى توافر البيئة الجبلية والخصائص الجنسية المومى إليها فى هاتين المنطقتين ، لولا أنه يمكن أن نستبعد أرمينيا منها ، على اعتبار أنه كان من المستبعد

---

(١) صمويل كرامر : من ألواح سومر – لوحات ١٤–١٦ .

(٢) المرجع السابق – لوحات ١٤–١٦ ، ٧١ ، ٧٨ . Kramer, *JAOS*, 63 (1952), 191 f.

أن يهبط المهاجرون منها ويتجاوزوا المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها فى شمال بلاد النهرين ، ليذهبوا بعيداً عنها ثم يستقروا فى الأجزاء الجنوبية حيث تشتد ملوحة الأرض وترتفع المياه الجوفية والرواسب المعدنية للفيضانات وحيث كانت أطرافها لاتزال وحشية الطابع تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتيسير الانتفاع بها . ومن المعروف أن الأطراف القصوى لهذه الأجزاء ، التى سميت فيما بعد باسم شط العرب ، وإن توافرت لها أهمية خاصة بحكم إشرافها على الخليج العربى ومصاب النهرين ، وبحكم اعتبارها من مناطق الإتصال القريبة بين العراق وبين إيران ، إلا أنه تعقبها شمالا فى أرض العراق منطقة منخفضة كثيرة التعرض لأخطار الفيضان كثيرة المناقع قليلة الصلاحية للزراعة والعمران الدائم ، . ويلى هذه المنطقة شمالا منطقة النشاط الحضرى القديم فى بلاد النهرين .

وإلى جانب هذا الفرض فثمة رأى آخر ذهب فيه صمويل كرامر إلى إعتبار أجداد السومريين بدوا مماوراء القوقاز ، أو مما وراء بحر قزوين ، اندفعوا على مناطق غرب إيران فيما يعاصر عصر العبيد أو أوائل عصر الوركاء ، ونجحوا فى إقتباس حضارة بلاد النهرين التى إمتدت منها (على حد رأيه) عبر حدود إيران ، ثم إستعانوا بما تعلموه منها ، وبخفة الحركة البدوية فى الإندفاع إلى جنوب العراق منذ الربع الأخير من الألف الرابع ق.م وسيطروا عليه تدريجياً خلال فترة من فترات حضارة الوركاء . وكان لمـــا أشاعوه به من الإضطراب حينذاك أثر فى بداية فترة ركود حضارى فيه ، وإن يكن قد نشأ خلال هذه الفترة نفسها (حوالى القرن الثلاثين ق.م) عصر البطولة السومرى الذى قام على الشجاعة الفردية للقادة السومريين ومحاولاتهم لتملك زمام السلطة فى المناطق التى سكنوها ، لا سيما وأنه لم يكن عليهم أن يبسطوا سلطانهم عليها وحدها ، وإنما كان عليهم أن يواجهوا فى الوقت نفسه هجرات سامية لم تكن تنقطع اندفاعاتها من ناحية الغرب على حدود العراق . وعندما تمت الغلبة للسومريين وتم اندماجهم فى السكان الأصليين الذين كانوا أرقى حضارة منهم ، بدأ العصر الشبيه بالكتابى فى العراق حوالى القرن التاسع والعشرين ق . م ، على حد قوله (١) . ليمهد بعد ذلك لنشأة العصور التاريخية الصريحة .

وافترض رأى ثالث أن السومريين هاجروا من منطقة ما تقع فى جزء من الأرجاء الممتدة بين باكستان وبين أفغانستان وبلوخستان ، واستقروا بعض الزمن فى غربى إيران ، ثم نزحوا منها إلى بلاد النهرين عن طريق الخليج العربى وجزيرة البحرين (٢) . وزكى أصحاب هذا الفرض رأيهم بسند حضارى وآخر أسطورى . فقد تشابهت أوائل طرز الفخار السومرى القديم وزخارفه فى بلاد النهرين مع نماذج وزخارف الفخار القديمة التى انتشرت جنوباً بشرق حتى منطقتى خاربا وموهنجو دارا بسهول السند (٣) (وإن كان إنتاجها الحضارى

(١) كرامر : المرجع السابق ــ الفصل ٢٢ .

(٢) See, E.A. Speiser ,'The Sumerian Problem Reviewed" ,*Hebrew Union College Annual,* XXIIII, (1950—51), 339 f.

(٣) *Cf.* Frankfort,*The Art and Architecture*..., p. 1, n. 3 ; Hall, *History of the Ancient Near East,* 173; Mackay, 'Sumerian Connection with Ancient India", *JRAS,* 1925, 697.

المعروف قد تأخر فى الزمن عن العصر السومرى نفسه) ، وذلك مما قد يوحي بوجود روابط جنسية وحضارية بدائية قديمة بين أهل هذه النواحي الذين سبقوا الأجناس الهندوآرية فى سكناها ، والذين يكفى أن يقال عنهم إنهم من الفروع المبكرة للسلالات الأسيانية Asianic الآسيوية . وذلك مع تقدير ما ألمحت إليه الأساطير السومرية فيما بعد من أن أصحابها الأوائل هاجروا من الجنوب عن طريق البحر فى عصور كان بقية الخلق لا يزالون يسعون فيها على أربع ، على حد روايتها ، واستقروا حينا فى جنة تلمون (أو دلمون) ، وهى فيما يرجح جزيرة البحرين الحالية (١) ، تلك التى روت الأساطير السومرية أنه لم يكن ينعق فيها غراب أسود ، ولا يفترس أسد ، ولا يعتدى ذئب على حمل ، ولا تحنى الحمامة رأسها ، ولا توجد أرملة ، ولا مرض فيها ولا شيخوخة ، ولا نواح ولا رثاء ، . . . ولكن كان ينقصها الماء إلى أن أوحى إنكى (رب الحكمة) إلى أوتو (رب الشمس) بأن يزودها بينابيع المياه العذبة ، ففعل ، وتحولت إبستانا أنبتت فيه ننخر ساج (الإلهة الأم) ثمانية أنواع من النباتات على غفلة من إنكى نفسه (٢) . ثم نزحوا منها بعد ذلك إلى « كالاما » بالعراق لأمر ما لم تسجله الأسطورة .

وأبى رأى رابع اعتبار السومريين أغراباً ، وتشكك فى نتائج دراسة بقايا الجماجم السومرية ، وافترض أن الرؤوس العريضة فيها ترتبت على اتصالات متقطعة بين سكان جنوب العراق ذوى الأصل السامى فى فجر التاريخ وبين جيرانهم ذوى الأصل ما قبل الآرى ذوى الرؤوس العريضة ، دون أن يتأتى عن هجرة أو وحدة جنسية لازمة بين الفريقين . ولكن صعب على هذا الرأى تعليل اختلاف لغة السومريين عن اللغات السامية . وعندما أراد أن يوازن بين هيئات أرباب العصر السومرى ذوى اللحى الكثة والشعور الكثيفة والملابس الصوفية التى تقربهم إلى هيئات الرعاة الساميين ، وبين جماهير السومريين حليقى اللحى والرؤوس ، لم يزد الأمر غير تعقيد (٣) .

وإذا كان ثمة ما يمكن إضافته هنا فهو احتمال اعتبار السومريين فرعاً جنوبياً مما سمى اصطلاحاً باسم الجنس القوقازى أو جنس البحر المتوسط ، يختلف عن الفرع السامى ، دون أن ينفى هذا تواجد الساميين وربما من أطلق عليهم اصطلاحاً أيضاً إسم الجزريين معهم على أرض العراق بنسبة ما ، وإن ظل نفوذهم أقل من نفوذ السومريين لعهود طويلة .

---

(١) *Cf.* P.B. Cornwall, "On the Location of Dilmun",, *BASOR*, No. 10? (1946) ; *JCS*, VI, No. 4 (1952); Kramer, *BASOR*, 1954 (Suppl. No. 1); ; The Indus Civiilzation and Dilmun..., *Exvedition*, VI, 1964.

(٢) كرامر : المرجع السابق – لوحة ٥٩ – ص ٢٤١ + Kramer, *ANET*, 38 f.

(٣) *Cf.*Keith, by Hall, -Woolley, *Ur-Excavations,;* Ed. Meyer, *Histoire*... (trad.), t. III, 369. Frankfort, *Studies*..., 91; and *see*, H.Schamakel,*Das Land Sumer* ,1956, 44f. ; *Geschichte der alten Vorderasien*, 1957, 3 f.

أنه على مهما يكن من أمر هذه الآراء التي لا يزال كل منها بحاجة إلى قرائن جديدة لتزكيته عن غيره، فالذي لا شك فيه هو أن السومريين في أوائل العصور التاريخية ، قد انتفعوا بالحضارات التي سبقتهم منذ بواكير العصر الكتابي ، ثم طوروها إلى ما يتفق مع مطالب عصرهم وإمكاناته وأذواقه ، وكان من أوضح مظاهر التطوير هو تنظيم علامات الكتابة ، وأساليب البناء ، وأساليب النقوش .

الكتابة المسمارية :

ظهرت تباشير الكتابة فيما يحتمل منذ المراحل الأخيرة لحضارة الوركاء ، أو حضارة جمدة نصر ، في أواخر فجر التاريخ العراقي القديم، كما أسلفنا ص٤٣٨.وبدأت بالطريقة التصورية أو التصويرية التي تعبر كل صورة منها عما تمثله على وجه التقريب ، وهي طريقة تصلح للتعبير عن الماديات ولكنها لا تكفي للتعبير عن المعنويات ، وقليلا ما عبرت عن الفكرة المعنوية بشيء مادي يرمز إليها كالذراع الذي يعبر عن القوة ، أو القدم التي تعبر عن حركة المشي ، شأنها في ذلك شأن الكتابة المصرية في بداية ظهورها. وعثر على بعض نماذج هذا الطور الكتابي على لوح حجري صغير رقيق من مدينة كيش صورت علاماته التصويرية ما يمثل الوجه والقدم وواجهة المسكن وما إليها داخل مستطيلات منسعة تتحدد بخطوط تفصل بين كل واحد منها والآخر . ونموذج صغير آخر نقشت علاماته التصويرية في مستطيلات ضيقة تتعاقب في أنهر رأسية (١) . ثم تطورت الكتابة على أيدي السومريين بخاصة إلى المرحلة الصوتية التي تؤدي علاماتها وصورها وظائف المقاطع الصوتية ويقصد بها نطق لفظها أكثر من مدلول شكلها ، ويمكن التعبير بها عن المعنويات ، مثل استخدام الصورة المختصرة للجذع الأعلى للإنسان للدلالة على المقطع « لو » الذي يعبر عن معنى رجل أو إنسان،وفقاً لسياق الكلام . واستخدام الصورة المختصرة لجريان الماء للتعبير عن الماء « آ » وعلى حرف « في »، واستخدام صورة السمكة للدلالة على السمكة « خا » وللتعبير عما يوازي لفظ « لعل » . واستخدام صورة النجم للتعبير عن اللفظ « آن » ، وعن السماء ، وعن لفظ إله (دنجر) ، وعن معنى السمو ، فضلا عن دلالتها على النجم نفسه ، وعثر على عشرات اللوحات في الوركاء ، قد ترجع كتابتها إلى هذا الطور التصويري المقطعي(٢) .

وزاد السومريون علاماتهم المقطعية الصوتية مع توالي الزمن واستمرار الخبرة حتى أوفت بمطالب حضارتهم ، وبلغت أشكالها مبلغاً عددياً كبيراً ، ثم عادوا فيسروها عن طريق تركيز أعدادها وأشكالها ، واتجهوا بها وجهة خطية ، فقللوا انحناءاتها ودوائرها كيما تتناسب خطوطها الحادة الجديدة مع طبيعة اللوحات الطينية اللينة التي استحبوا الكتابة عليها ووجدوها أقرب في التناول وأيسر في الكلفة من قطع الحجر . وهي لوحات كانوا يتخيرون طميها نقياً ناعماً ويصبونه في قوالب ذات أشكال متعارف عليها ، فتخرج اللوحة على

(١) C. Leonard Woolley, *Ur Excavations*, Figs. 1,2.

(٢) طه باقر — مجلة سومر ١٩٦١ .

هيئة القرص مسطحة الوجهين ، أو على هيئة نصف أو ربع الدائرة مستوية السطح محدبة الظهر ، أو على هيئة المستطيل ، وقليلا ما تكون على هيئة المخروط . وقد يتركونها على حالها بعد الكتابة أو يجففونها فى حرارة عادية بحيث تكتسب صلابة مناسبة . ويلفون أهمها بنسيج يمهرونه بختم صاحبها فوق قطعة من الطين اللزج ، لا سيما إذا كانت لوحة لها اعتبارها أو كانت ستنقل من مكان إلى آخر على هيئة الرسالة . وشاعت هيئة الاستطالة فى الألواح منذ خواتيم العصر السومرى القديم ، وأصبحت اللوحات الهامة منها تحرق فى أفران وتحفظ فى أغلفة طينية بعد أن ينثر عليها قليل من مسحوق الطمى الجاف ليمنع التصاقها بغلافها ، ذلك الغلاف الذى كان يجب كسره مرة ثانية بطبيعة الحال قبل قراءة لوحته الداخلية .

وكتب السومريون عباراتهم فى بداية عصورهم دون ترتيب ثابت (فى مثل نص أوتوج حاكم كيش على نذر للمعبود إنليل ، ونص على رأس مقمعة ميسيلم حاكم كيش أيضاً) . ثم أصبحوا يرتبون عباراتهم فى أنهر رأسية يفصل بين كل نهر منها وآخر خط رأسى (فى مثل لوحة أورنانشه ولوحة إياناتم) . وكانوا يبدأونها من اليمين أو من اليسار. ثم انتهوا أخيراً إلى تفضيل السطور الأفقية. وكان منهم من يكتبون وجهى اللوحة المسطحة بعد قلبها رأساً لعقب بحيث يقابل النهر الأول من ظهرها النهر الأخير من سطحها ، كما كان منهم من استعاضوا عن اللوحات المسطحة بكتل طينية مجسمة على هيئة الأسطوانة ، أو هيئة المنشور ، رغبة فى أن تتسع سطوحها للنصوص المطولة .

واستمرت موجة الاختزال تعمل عملها البطىء فى العلامات السومرية . وواصلت وجهتها التخطيطية حتى غدت هيئة كل علامة منها تشبه هيئة المسمار ، وذلك مما دعا إلى تسمية كتابتها اصطلاحاً باسم الكتابة المسمارية (أو الكتابة الإسفينية) . وناسبت هذه الكتابة فى هيئتها الجديدة استخدام أهلها لأقلام الغاب والخشب (والمعدن) ذات السن المدبب ، ثم الأقلام المنشورية المقطع التى انتهوا إلى الكتابة بها فأصبحت بدورها من أسباب تسمية الكتابة بالكتابة المسمارية . وظل السومريون منذ ذلك الحين يصورون خطوطهم المسمارية رأسية وأفقية ومائلة ، متجاورة ، ومتصلة أو متقاطعة ، وإن احتفظوا لعدد قليل منها بهيئاته التصويرية القديمة ، مثل صورة القدم والسهم والمشط وبعض الأغصان والأزهار ، وهى صور استخدمت لذاتها أحياناً ، ولتكون مخصصات لكلمات تتصل بها أحياناً أخرى . كما تخففوا شيئاً فشيئاً من الفواصل الرأسية التى كانت تفصل بين كل سطر وآخر .

لم تميز الرموز الصوتية السومرية كثيراً بين الحروف المتقاربة فى النطق ، مثلما بين حرفى د ، ت ، وما بين حروف ج ، ك،ق ، وما بين حرفى س ، ز ،وذلك مما أحس الساميون بالنقص فيه عندما أصبحوا يكتبون لغتهم بالكتابةالمسمارية وحاولوا تعويضه منذ العصر الأكدى فى أعقاب عصر بداية الأسرات السومرى. غير أن المقاطع السومرية تميزت فى مقابل هذا النقص بتضمنها ما يؤدى غرض حروف الحركة التى تنقص أغلب الكتابات السامية القديمة ، وذلك حين توضيحها للتعبيرات المركبة التى تتألف من « حرف حركة +

حرف ساكن » أو تتألف من « حرف ساكن + حرف حركة » ، أو تتألف من « حرف ساكن + حرف حركة + حرف ساكن » .

وعمل السومريون على الجمع بين القديم وبين المستحدث فى كتابتهم ، شأنهم فى ذلك شأن أغلب الشعوب الزراعية المحافظة القديمة مثل الشعب المصرى — ، وترتب على ذلك أن كتبتهم كانوا يكتبون الكلمة الواحدة بصورتين أحياناً ، وبالطريقتين التخطيطية والصوتية معاً ، فكلمة « ماتو » بمعنى أرض ، قد يكتبها الكاتب السومرى بثلاث علامات مسمارية بسيطة تدل عليها ثم يتبعها بثلاثة رموز صوتية تساوى « ما — آ — تو » ، وذلك فضلا عن التجائه إلى إضافة المخصصات التصويرية إلى كلماته أحياناً ، كما ألمحنا من قبل ، مثل إلحاق علامة الشجرة بأسماء الأشجار وأنواع الخشب والمصنوعات الخشبية ، وإلحاق علامة المكان بأسماء الأقطار والبلدان . . . ، الخ .

واستمرت الكتابة المسمارية فى تطورها ، وانتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيثما توافرت (مع بقاء الغلبة للوحات الطين) ، وكانت جهود السومريين الأوائل فى تطويرها بمثابة حجر الزاوية لها . وظلت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة التى نافستها شهرتها فى العالم القديم ، فى أربعة أمور وهى : سهولة التعبير نسبياً عن الحركات فى مقاطعها ، وتخلها فى أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصيلة ، وذلك فى مقابل عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية ، وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التى عرفها المصريون لاسيا صفحات البردى وأنواع المداد . ولو أن هذه الإختلافات كلها لم تحل دون استمرارها قروناً طويلة عند السومريين وعند من تلاهم من الساميين ، بل ولم تقف دون شيوعها من العراق إلى ما يتصل به فى غرب إيران وشمال بلاد الشام وشرق الأناضول . وعندما قل استخدامها فى أواخر التاريخ العراقى وغلبت الكتابة الأرامية عليها شيئاً فشيئاً ، انطوت فى ظل النسيان وأصبحت مجرد رموز وطلاسم ، حتى بدأت الدراسات الحديثة تكشف النقاب عنها مرة ثانية منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى (تراجع ص ٤٣١ وما بعدها) (١) .

وسجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر وأنصاف دوائر أحياناً ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه فى جملتها هيئة المربعات والمعينات أحياناً أخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى الآحاد بعد العدد ٥ الذى يمثل نهاية العد على أصابع اليد الواحدة ، كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات ، وكانوا يرمزون إليه بعلامة مسمارية قائمة شأنه فى ذلك شأن الواحد بداية العد . ولعل التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق كان متأثراً نوعاً ما فى أصله البعيد بعلم الفلك البابلى المتأثر بدوره بعلم الرياضيات السومرى .

وتوافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، وكان الكتبة لايزالون قلة ، ويبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها . وظل الناس يحسون بأهميتهم حين يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء المعابد ، وحين

---

(١) *Cf.* S.N. Kramer, *Sumerian Mythology*, 1944, 1 f.

يلجأون إليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها. وكان كتبة المحفوظات يحفظون لوحاتهم العامة فى جرار وسلال يعنونونها ببطاقات صغيرة مسطحة أو بيضاوية أو مستديرة ويسجلون عليها طبيعة محتوياتها . ومن هذا القبيل ماذكرته بطاقة صغيرة سجل عليها كاتبها : « لوحات ما جاء به سماكو البحر وسماكو النهر – بارتامتارا زوجة لوجالاندا إنسى لجش – السنة الثانية » ، وكان لهذه الزوجة الأميرة كاتب خاص سجلت على ختمه عبارة « أنيجال كاتب دائرة الزوجة » (١) .

التطور السياسى :

اعتمدت الحياة السياسية فى بلاد سومر على إمارات المدن ودويلاتها ، فى واقعها وكما روت الأساطير ، (وبما يشبه ما أصبح يسمى فيما بعد (City-States) ، دون أن تتطور إلى نظام الدولة المركزية الكبيرة الواحدة إلا بعد قرون طويلة . وترتب على ذلك أن تعاصرت دويلات وأسر حاكمة كثيرة فى مثل مدن كيش (تل الأحيمر) ، وأوروك (الوركاء) ، وشوروباك (فارة) ، وأور (المقير) ، ولجش (تلو) ، وأوما (تل جوخة) ، وإريدو (أبو شهرين) ، وسيبار (أبو حبة) ، وخفاجى ، ونيبور (نفر) ...

وتلقب رأس الحكم فى المدينة السومرية فى بداية أمره بلقب « إنسى »(٢) ، ربما بمعنى النائب أوالوكيل إشارة إلى وكالته عن معبود مدينته فى حكم بلده وأهلها ، وإشارة إلى القداسة بالوكالة التى يرتكز عليها فى ممارسة سلطاته الدينية والمدنية (٣). ويفترض البعض ومنهم ياكوبسن (Th. Jacobsen) أنه سبق إسناد الرياسة إلى رئيس واحد . نوع من الحكم الثيوقراطى كان يتولاه من يلقب بلقب سانجا ويشرف على شئون المعبد الرئيسى ومصالحه ، ونوع من الحكم الديموقراطى تمثل فى وجود مجموعة من الشيوخ كانوا يجتمعون فى مجالس عرفية ويتشاورون فى أمور مدينتهم ، ويستندون القيادة إلى واحد منهم خلال الحروب . واعتمد ياكوبسن فى تخريجه هذا على عبارات وردت فى قصة جلجميش وقصة إنمركار و ماتضمنته بعض الأساطير عن مجامع الأرباب ، ولو أنها عبارات ليس من الضرورى أن تدل على ماذهب إليه . وظلت الصبغة الدينية ألصق بلقب « إنسى » وترتب عليها أن انفسح المجال أمام كهنة المعبودات السومرية ليكون لهم شأن فعال فى أوضاع دويلاتهم وسياستها ، وظلت معابدهم تنتفع بنصيب كبير من ثروات المدن وأرضها وضرائب أصحابها حتى أصبحت بأملاكها شبه وحدات اقتصادية وإدارية قائمة بذاتها(٤) . ومعنى هذا أن الصبغة الدينية للحكم

---

(١) ل. ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – تعريب محرم كمال – ص ٢٣٨ ، ٢٤٣ .

(٢) عن ترجيح قراءة هذا اللقب « إنسى » عن قراءتى « إيشاكو » و « باتيسى » القديمتين :
see, Falkenstein, *ZA*, XLII, 152 f.; F.M. Th. Boehl, *MAOG*.XI, 37; and *ANET*, 267.

(٣) *Cf.* Th . Jacobsen, „Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia", *JNES*, II (1943), 172.

(٤) Th. Jacobsen, *JNES*, 1943, 145 f. ; j . author), *The Intellectual Adventures of the Ancient Man*, 1946, 186; Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, 68.

كانت سلاحاً ذا حدين ، فهى وإن ضمنت بعض القداسة للحاكم ، إلا أنها كان يمكن أن تخلق أمامه منتفعين ومنافسين من رجال الكهنوت . ولهذا مال حكام المدن إلى تغليب الصبغة السياسية فى سلطاتهم ، وتلقب كل منهم بلقب «لوجال» ، بمعنى الرجل الجليل وبما يرادف لقب ملك ، واتسعت سلطاتهم المدنية على حساب سلطان الكهان ، وإن ظلوا من الناحية الشكلية يعتبرون ممثلين لمعبوداتهم على الأرض ، ويدعون أنهم يصدرون فى تصرفاتهم عن وحيهم لاسيما فى فترات الحروب ، ثم تركوا لقب إنسى لولاتهم الفرعيين ، وإن استعادوه لأنفسهم من حين إلى حين ليؤكدوا صلاتهم بأربابهم وتواضعهم إزاءهم . وظهرت لهذا التطور فى سلطات الحكام السومريين أمثلة شرقية أخرى لاحقة لعصورهم ، فبدأ الحكم فى جنوب شبه الجزيرة العربية بنفس الصبغة وتلقب الحكام هناك بلقب مكرب ولقب مزود ، ثم إنتقل هؤلاء وهؤلاء إلى ألقاب الملوك وأكدوا بها الصفة الدنيوية فى حكمهم .

وهكذا قطع السومريون أكثر من خمسة قرون من عصر بداية الأسرات العراقى ، غابت فيها الوحدة السياسية الكاملة عن آفاقهم ، ولم تجمع بين مدنهم محالفات بريئة طويلة الأمد فى غير القليل النادر ، ومن هذا القبيل صداقة بعض حكام كيش الأقدمين لمعاصريهم حكام لجش لفترة من الزمن ، وإن ظلت اليد العليا لحكام كيش فى هذه الصداقة .

ويبدو أنه لم يكن يدفع دويلات المدن تلك إلى محاولات الترابط من حين إلى آخر ، غير الرغبة فى تحقيق منافع ذاتية فى أغلب الأحوال ، ومن هذا القبيل رغبة المدن القوية فى بسط نفوذها على جيرانها ، أو رغبتها فى تصريف منتجاتها وتأمين سبل تجارتها عن طريق إستبقاء علاقات الود مع جيرانها الذين تسلك قوافل تجارتها أرضهم وتجد رواجها عندهم ، أو رغبتها فى سد مطالبها من المواد الأولية التى تتوافر فى منطقة قريبة منها . ولم تتطلع دويلة منها إلى تحقيق وحدة وطنية ثابتة تستهدف الصالح العام السومرى ، إلا فى عهود متأخرة نسبياً ، وذلك على الرغم من أن أهلها فى مجموعهم كانوا يحسون تلقائياً بوحدة جنسهم ، وجنس «أصحاب الرؤوس السود» ، ووحدة الأرض «كالاما» التى عاشوا عليها ، ويحسون بتقارب مذاهبهم العقائدية التى شجعتهم على أن يتمثلوا بعض أربابهم فى بعض آخر ، ويتخيلوا صفات بعضهم لبعض آخر ، وذلك فضلا عن شعورهم برقى حضاراتهم فى جملتها عن حضارات جيرانهم من أهل البوادى وأهل الجبال ، لاسيما بعد أن إتسعت آفاقهم وأخذت بثقافتهم مناطق فى غرب الفرات وأخرى فى شرق دجلة .

وليس من المستبعد أن حياة اللامركزية السومرية كانت لها مزاياها الداخلية من حيث تفرغ الحكام لأحوال دويلاتهم وإلمامهم بمشاكلها نتيجة لمحدودية رقعتها ، فضلا عن قربهم من رعاياهم وصلتهم المباشرة بهم ، ولكنها من جهة أخرى ، زادت عن فرص المشاحنات بينهم على الحدود وعلى النفوذ وحرمت سياستها من الإنطلاق الدولى بمعناه الواسع .

ويمكن ترتيب ما يماثل هذه النتائج بوجهها على الإنتاج الحضارى للمدن السومرية ، فقد إرتقت كل

مدينة بحضارتها رقياً يناسب إمكانياتها ، وحاولت كل منها أن تبتدع فى صناعاتها وفنونها جهد طاقتها ، كما يتضح مما بقى من روائع مخلفات مدينة أور وغيرها ، ولكن عز عليها فى الوقت نفسه ، نتيجة لتفرق إمكانياتها ، أن تنتج من العمائر وفنون الدنيا والدين ما يضارع العمائر والفنون المصرية التى عاصرتها فيما بين القرن الثلاثين وبين أواسط القرن الرابع والعشرين ق.م، سواء فى روعتها أم فى ضخامتها واتساع مسطحاتها .



صورت المصادر السومرية المتفرقة طرفاً من أواخر أدوار التنافس وأعنفها بين مدينتى لجش (تلو) ، وأوما (تل جوخة) ، وقامت كل منهما على أحد فروع ا[illegible]ات الداخلية . وبدأ التنافس بينهما على موارد الماء وحدود الزراعة ، ثم تدخل للفصل بينهما « ميسيلم » أو [illegible]الم أحد حكام كيش الأوائل ، وكانت له صلة وثيقة بمدينة لجش شجعته على أن يقدم هداياه إلى ربها نين جيرسو ، وربما شارك فى بناء معبده ، فى الوقت الذى حكم لجش فيه حاكم يدعى لوجال شاج نانشه (أو شاج أنجور) ، ففرض بينهما حدوداً فاصلة بعد أن أقنعهما بأن معبودته أوحت إليه بتقرير السلم بينهما ، وبأن ما أوحت إليه به كان عن أمر الإله إنليل نفسه ، ثم أقام نصباً سجل عليه قضاءه بينهما(١) وذلك مما يعنى أن الوازع الدينى كان له تأثير معترف به فى الأمور المصيرية . ولكن النزاع الحدودى بين المدينتين كان قد تطور فى جوهره إلى تنافس على الزعامة والسيطرة .

ولم يرد اسم ميسيلم فى قوائم الملوك السومرية ، ولكن نصوص لجش أشادت به . وبلغ من تقدير المؤرخين لشخصه أن اتخذوه علما على مرحلة من مراحل الحضارة السومرية فى عصره ، واعتبروا أن نقوش رأس صولجانه أو مقمعته النذرية التى وجدت فى تلو تعبر عن واحدة من أقدم كتابة تاريخية معروفة(٢) .

وظهر فى لجش عدد من رجال الإصلاح والسياسة(٣) ، عرف التاريخ منهم مؤسس أسرة حاكمة يدعى أورنانشه أو (أورنانشى وكان ينطق من قبل أورنينا) ، نشط العمران الداخلى فى عهده وتميزت نقوشه بالمناظر العائلية التى ضمت زوجته وأبناءه وبعض أتباعه مع ذكر أسمائهم على ظهر اللوحة . وصوره فنانه خلال لحظات تقواه فى نقوش لوحة صغيرة من الحجر الجيرى يحمل فوق رأسه سلة يحتمل أنها كانت تتضمن بضعة نماذج من أدوات البناء والتعمير ، أو تتضمن كمية من الطين أو التراب لضرب اللبنات الأولى فى حفل إقامة مشروع جديد (قد يكون مشروعاً دينياً)(٤) ، وصور فى لوحة أخرى صغيرة (ذات ثقب مستدير فى وسطها) يسير فى هيئة المتعبد أو الداعى يضع يديه على أسفل صدره ، ومن خلفه حاجبه بحجم

---

(١) E. de Sarzec, *Découvertes en Chaldée*, pl. I ter. ; *Encyclopédie photogyraphique de l' Art*, I, 176; G. A. Barton, *The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad*, 1929, 2—3; Kramer, *Tablets...*, Ch. V.

(٢) مورتجات : الفن فى العراق القديم – ص ٦٣ ، ٨٢ .

(٣) See, E. Sollberger. *Corpus des inscriptions royales presargoniques de Lagash*, Geneve, 1956.

(٤) E. de Sarzec, *op. cit.*, pl. 2 bis. ; and see, *Sumer*, 1959, 21 f.; 1960, 35 f.
وشابهه فى هذا لادرنانشه أحد خلفائه (مورتجات : المرجع السابق – ص ١٤٥ ولوحة ١٠٩) .

صغير يرفع يديه على هيئة التحية ، ثم أربعة من الأمراء أبنائه فى صفين يسيرون على هيئة أبيهم ، وكلهم يرتدون ثياباً نصفية تمتد من أسفل الصدر إلى ما تحت الركبة . ومثلت صورة ثالثة هذا الحاكم الطيب فى ولمة لعله كان يحتفل فيها بإتمام مشروعه . وجاء فى نصوصه أن سفنه وسفن دلمون نقلت الأخشاب الضرورية لبناء المعابد على متن النهر . وعلى الرغم من إتجاهه الدينى إمتد نفوذ أورنانشة خارج بلده وحتى مدينة أور .

واشتهر حاكم من أحفاده يدعى إ أناتم ، أو إياناتم Eannatum ، كان رجل الحرب فى دولته ، تطور التنافس فى أيامه إلى دوره العنيف مع أوما . ويبدو أن حكامها ومنهم من يدعى أوش ، تنكروا فى عهد سلفه لمعاهدة السلام القديمة وأظهروا العدوان واحتلوا الأطراف الزراعية (جودانا) الفاصلة بين المدينتين ، فرد إأناتم لهم الصاع صاعين ، وذكرت نصوصه أنه استفتى ربه فى حربهم وزار معبده واستلقى فيه على وجهه طالبا وحيه ، فتمثل له نين جيرسو فى رؤياه ووقف عند رأسه ووعده بأن ينصره وبأن قوة بابار سوف تؤيده (١) . وعندما تم النصر له على خصومه خلد فنان ذكراه على لوحة تعرف اصطلاحاً باسم لوحة العقبان (٢) ، نقشت مناظرها على وجهيها وبقيت منها ست قطع . وتعتبر من المصادر الهامة فى التعبير عن نظام الجيش وأسلحته فى عهدها ، وعن بعض عقائد مجتمعها . فقد صور الملك عليها يحارب برمح غليظ وقوس وعصا معقوفة ، راكباً عربته ، وراجلا ، وصور بعض جنوده المشاة فى صفوف صغيرة يتترسون بتروس كبيرة يقل إرتفاعها عن قامة الرجل بقليل ، ويحملون رماحهم أفقياً ، ومشاة آخرين يتسلحون بالحراب الطويلة المشرعة والبلط ، وجعل لبعض هؤلاء وهؤلاء ما يشبه الخوذ على رؤوسهم ، وأشير إلى أن من استشهدوا منهم دفنوا فى ساحة المعركة بعد النصر فى إحتفال مهيب ، وصور بعض إخوانهم يحملون سلال التراب ليوسدوهم فى باطن الأرض فى مقبرة جماعية قدمت عليها القرابين وسكب الماء المقدس ، بينما صور جثث الأعداء عارية ممددة تحت أقدام الجنود ، وصور بعضها الآخر تنهشها الأسود والعقبان وصغار الطيور ، وذكر أن ضحاياه بلغوا ٣٦٠٠ رجل . ووفق الفنان فى تصوير بعض الجنود بطريقة التصفيف الرأسى فجعل أدناهم مكانا أقلهم ارتفاعا وأبعدهم مكانا أكثرهم ارتفاعا ، وإن أخطأ فجعل هؤلاء الأخارى أضخم ممن يتقدمونهم .

وصور الفنان الملك يزجى الشكر لربه نين جيرسو ويصب القرابين فى حضرته . وأظهر هذا المعبود على الوجه الآخر للوحة على هيئة شيخ جليل بنقبة نصفية ولحية طويلة ولمة شعر كثيفة فى مؤخرة رأسه على شاكلة الأبطال الأسطوريين . يقبض بيسراه على أطراف شبكة كبيرة أو قفص ذى شباك إرتمى فيه ضحاياه قتلى وبعضهم يتخبط تخبط الأسماك وكأنما أحاط بهم جميعاً وأوقعهم فى شباكه التى جمعها ماسك على هيئة نسر برأس أسد يعتلى أسدين وهو رمز من رموز الموت . وأشهر نينجرسو مقمعته بيمناه كأنما يرعب بها من بقى

(١) Thureau-Dangin, *Les Inscriptions de Sumer et d'Akkad*, 27.

(٢) Heuzey et Thureau-Dangin, *Restitution de la stele des Vautours*, ; Handcock, *Mesopotamian Archaeology*, Fig. 27 f.; Frankfort, *The Art and Architecture...*, pls. 34—35.

منهم على قيد الحياة . ومع اهتمام إأنانم بذكر أبيه وجده باسميهما إلا أن النصر شجعه على ادعاء النسب الإلهي فادعى أن الإله نينجرسو وضع بذرته ، وحملت به الربة نينخرساج وأرضعته وأجلسته على ركبتها كما احتوته الربة إنانا بين ذراعيها(١) . ويحتمل أن تكون هذه اللوحة قد أقيمت تخليدا لذكرى نصر إأنانم ومعبوده في عهد ابن أخيه إنتمنا .

ولما استقر النصر لإأنانم ، أعاد تخطيط الحدود ، لصالح دولته بطبيعة الحال ، وأجبر خصومه على عقد معاهدة جديدة أعاد بمقتضاها النصب القديم إلى مكانه ، وحفر رجاله خندقاً كبيراً على طول الحدود وأقاموا عدة نصب على إمتداده ، وبنوا على جانبيه عدة مزارات لمعبوداتهم لتكون رادعاً للعدوان ، ويبدو أنه كان من المفروض أن تجرى المياه إلى الخندق من قنوات أوما المهزومة . وأراد إياناتم أن يخفف وقع الهزيمة على خصومه فسمح لهم باستغلال جزء من الأرض الحدودية بشرط أداء الضرائب عليها ، وذكرت نصوصه أن رجاله حفروا قناة كبيرة إمتدت من النهر إلى خزان متسع كبير عند مدينة لجش(٢) . ثم شجعه نصره على مهاجمة مدن أور وأوروك وكيش وغيرها ، واشتد على حكامها ، وابتغى أن يكفل لنفسه السيادة على أرض سومر ، وادعت نصوصه أنه تجاوز حدودها شرقاً وغرباً ، ولكنه لم يتمتع بثمرة إنتصاراته طويلا ، فثارت ضده أغلب المدن التي حاول إخضاعها ، ولقي بعض الفشل بجنوده على حدود إلام (عيلام في إيران) .

ولما قضى الرجل نحبه حاول بعض خلفائه أن ينهجوا نهجه في الحرب وبسط النفوذ ، فكانت لهم حروبهم على حدود عيلام وحاولوا زيادة إتصالاتهم ببلاد الشام . فقد خلفه أخوه إناناتوم الذي ذكر في نصوصه أن نانشه قد أحبته ، وأن إنانا سمته بإسمه ، وعلمه إنكي الحكمة ، ووهبه إنليل القوة ، وزكاه الملك أوروسكار ، حتى لقد أصبحت الأقطار الأخرى ملك يمينه وألقى الثوار تحت أقدامه — وظل مع ذلك يعتبر إنسياً للآلهة وأقام لهم المعابد وأصلح مرافق بلده(٣) .

ولكن لم تخل الأيام من عودة المنازعات مع دولة أوما ، وقد قص خبرها أحد كتبة « إينتيمنا » (إبن أخ إياناتم) على أسطوانتين من الطين ، وبدأ قصته بعلاقات المدينتين منذ أيام ميسيلم ، وأنهاها باستنزال اللعنات على من يتعدا الحدود الموسومة بإسم نين جيرسو ونانشه ، سواء أكانوا من دويلة أوما أم من غيرها ، واستعدى عليهم ربه إنليل ودعا عليهم بأن يلقى عليهم نين جيرسو شبكته ، وأن تتنزل عليهم يده الرفيعة وقدمه السنية من عل . ولم يكتف الرجل باستنزال اللعنات ، وإنما تلاقى جيشه مع خصومه أهل أوما في سهل « جانا أو جيجا) ودحرهم ، ثم أعاد الكرة عليهم حينما سيطر على حكمهم كاهن يدعى

---

(١) Jacobsen, *JNES*, XI, 1943, 119—121.

(٢) كان إسم القناة « هو مادمشا » ويحتمل أن تكون القناة الحالية التي تتفرع من دجلة عند قنطرة كوت وتنحدر جنوباً حتى تلو (لجش) وتسمى شط الحي . أما الخزان فكان متسعاً وأكمل في عهد ابن أخيه أنتيمنا . Jacobsen, *Sumer*, 1969, 103 f.

(٣) Iraq Museum, I.M. 67842; *Sumer*, 1973, 29 f.

« إل » ذهبت آماله إلى حد الطمع فى مهاجمة لجش نفسها . وتخلفت من عهد إنتمنا آثار عدة أهمها آنية فضية ذات نقوش رائعة ، ولوحة صغيرة منقوشة من الطمى المشبع بالقار (سوف نعرضهما بعد قليل) ، ونشط فى إقامة المعابد وزاد من إهداءاته لها . وقد عثر له فى أور على تمثال معبر من الديوريت ، كما نحتت فى أيامه رؤوس نسائية ذات أغطية وتسريحات متنوعة على هيئة العمائم جعلت من عهده بداية لاتجاهات فنية جديدة (١) .

ويبدو أن حرص الحكام ذوى السلطة الدينية على رد إنتصاراتهم إلى تأييد أربابهم ، وحرصهم على استفتاء وحيهم وطلب عونهم ، شجع كهنة أولئك الأرباب على أن يتمتعوا بنفوذ كبير فى ظل ملوكهم وعلى أن يشاركوهم قيادة الجيوش لحماية ذمار مدنهم ، كما شجعهم على أن يذكروا أسماءهم إلى جانب أسمائهم ، وسمحت لهم هذه الأوضاع بأن يزيدوا ثراء معابدهم ويضاعفوا إلتزامات السكان إزاءها ، بل ويشتطوا فى تحصيل نصيب واف من الإتاوات أو الضرائب على كل ما كبر أو صغر حتى على جز صوف الغنم وعلى طلاق الرجل لامرأته وعلى دفن الموتى ، فانضاف استغلالهم إلى استغلال ضعاف النفوس من الولاة ورجال القصر وكبار الموظفين وجباة الضرائب ، بحيث قيل إن بيوت الحاكم وضياعه وبيوت حريم القصر ومزارعهن ، وبيوت أطفال القصر ومزارعهم ، أصبحت يتاخم بعضها الآخر وتتلو بعضها بعضاً . ومن المحتمل أن نفوذ الكهنة قد تضخم فى لجش بحيث شاركوا الحكام أهميتهم ، إن لم يكونوا قد طغوا على نفوذهم فعلا(٢) ، حتى استرجع النفوذ منهم ، واسترجع الحكم الصالح فى الوقت نفسه ، لوجال « أوروكاجينا » أو أورو إنمجينا وقد وجه همه إلى الإصلاحات الداخلية فى عهده القصير الذى لم يزد عن ثمانية أعوام ، وتعمد أن يحد من دخل الكهان ويمنع الرشا ويعزل من حامت الشبهات حولهم من الموظفين ، فأصدر عدة قرارات تحدث فى بدايتها عن المساوىء التى سبقت عهده ، وكيف كان الكهنة والموظفون يغتصبون فيها أرزاق العباد ويستغلون مزارع المعابد وماشيتها كأنما هى ملك خالص لهم ، ويشتطون حتى فى تحصيل أجور الدفن . وأعلن فى أحدها كيف أقر ربه بأسه فى قلوب ستة وثلاثين ألفاً من رعاياه ، وكيف وفقه إلى أن يسير على هديه ، ويعيد حرية Ama-ar-gi الأهلين الذين قاسوا المظالم ، فخفف عن الملاحين عبودية العمل فى مراكبهم لمصلحة نظار الملاحة ، وخفف عن الرعاة عبودية العمل وراء الحمير والأغنام لصلحة نظار الماشية . ولا ندرى هل عنى بذلك تخفيف ساعات العمل عليهم أم الحد من سلطة الرؤساء فى استغلالهم . وشجع ذلك كاتبه على أن يقول إنه لم يعد هناك جاب للضرائب فى عهده ، وروى كيف أنه لم يسمح لشخص كبير بأن يشترى داراً تجاور أملاكه إلا أدى فى مقابلها ما يرضى صاحبها الفقير دون إجبار ، أو يشترى جحشاً دون أن يؤدى ثمنه لصاحبه . وأعلن استعداده أمام ربه نين جيرسو لرعاية الأرامل والأيتام وحماية الفقراء من الأغنياء (٣) .

(١) مورتجات : المرجع السابق – ص ١٢٩–١٢٧ ، حاشية ١٦٩ ، لوحة ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢) أنظر ل . ديلابورت : المرجع السابق ، ص ٢٩ ، ١٦٢ .

Th. Jacobsen (j. author)' *The Intellectual Adventures of Ancient Man*, 186.

(٣) M. Lambert, "Les reformes d'Urukagina", *Revue d'assyriologie*, V, (1956), 169 f. ; G.A. Barton, *The Royal Inscriptions*, 80 f.

ويفهم من نصوص عهده أن إصلاحاته خففت أجر كاهن الدفن إلى ثلاث قدور من النبيذ وثمانين رغيفاً وتيس وأريكة (؟) ، بعد أن كان يتقاضى سبع قدور و ٤٢٠ رغيفاً وتيسا وعدة أرائك . وخفض مرتبات بعض الكهنة إلى النصف ، وألزم العرافين فى المعابد بأن يقدموا تنبؤاتهم بغير مقابل بعد أن كانوا يشتطون فى فرض أجورهم عنها على الناس .

ومهما يكن من أمر تقدير إصلاحات أوروكاجينا باعتبارها مجرد تنظيمات إدارية أو باعتبارها بداية متواضعة لتشريعات العراق ، فإنه يبدو أن عصره كان يتطلب منهاجاً آخر إلى جانب منهاج الإصلاح المدنى الداخلى ، فقد ظهر فى أوما عدوة لجش اللدود حاكم طموح وهو لوجال « زاجيزى » ، استفاد من إنصراف أهل لجش إلى حياة السلم ، فهاجمهم بجيشه وضرب مدينتهم وأساء إلى ملكهم ، وسجل أحد كتبة لجش ماأصاب بلده منه على لسان ملكه التقى ، فصور كيف إعتدى رجال أوما على هياكل الأرباب وأملاكهم وكيف نهبوا ملمخراتها وخرقوها ، وعقب على ذلك بقوله « آذى رجال أوما لجش فأثموا فى حق نين جرسو » . ثم توعدهم القصاص العادل فتنبأ لهم بأنهم سوف يفقدون بأسهم ، وبرر ذلك بقوله إنه ما من ذنب جناه رب أو ملكه ، ملك جيرسو ، ولكن الذنب كله ذنب زاجيزى ، ولهذا فلن يحتمل إثمه وحده ، وإنما سوف تحتمله معه ربته نيدابا (أو نيسابا) فوق عنقها (١) . ومعنى ذلك أن الناس كما كانوا يعتقدون أن المعبودات تشارك الحكام إنتصاراتهم كانوا يعتقدون أنها تشاركهم أخطاءهم أيضاً .

وتجرأ زاجيزى بنصره فبدأ فى تنفيذ مشروع لم يجرؤ أسلافه على المضى فى تنفيذه ، وهو مشروع توحيد المدن السومرية تحت زعامته ، ونقل مركز نشاطه إلى أوروك ربما لسمعتها الحضارية والعقائدية القديمة ، واعتبر نفسه ملكاً على سومر « لوجال كالاما » ، (وربما سبقه إلى هذا الإدعاء حاكم آخر يدعى إنشاكو شانا ولكن لم يتحقق له مدلول إدعائه (٢) . ولم يهمل لوجال زاجيزى الإستعانة بالدين وأربابه وكان له فى نفسه رأى آخر يختلف عن رأى لجش فيه ، فادعى أن أرباب سومر رعوه ورددوا إسمه ونصبوه فى هياكلهم إلسيا للبلاد كلها ، وظل يعتبر نفسه كاهنا للاله آن إله أوروك الأكبر ، بل وادعى أنه الابن المولود للربة نيسابا وأنه رضيع اللبن المقدس من الربة نينخر ساج (٣) . وكتب أحد رجاله يقول على لسانه بعد أن عدد صلة مولاه بأربابه « عندما عهد إنليل رب الدنيا بملكية هذه الأرض إلى لوجال زاجيزى ، أقر العدالة فى الأرض وغلب بأسه البلاد من مشرق الشمس إلى مغربها ، وفرض الجزى على أهلها . وحقت السيادة لإنليل حينذاك من البحر الأسفل ، والدجلة والفرات ، إلى البحر الأعلى ، واستقرت أحوال البلاد فى سلام ، وسقيت الأرض بماء السعادة . . » ثم دعا زاجيزى لنفسه بقوله « أدام (الإله) عمرى أمد الحياة ، ونشر السلام على

(١) *Op. cit.*, 90—91; *Vorderasiatische Bibliothek*, I, 58.

(٢) ل . ديلابورت : المرجع السابق — ص ١٩ .

(٣) R. Labat, *Le Caractére Religieué de la Royoute Assyro-Babylonienne*, 1939, 63 f.

الأرض ، وأزاد الجنود (أو الناس) بعدد حشائش الأرض ... »(١) . ولعله رأى أن توحيد البلاد غاية غالية تبرر ما يبذله من أجلها وما يمكن أن يلحق بالغير من أذى فى سبيلها ، وأنه كان فى إعلاء شأن دولته إعلاء لشأن ربه إنليل ، وأن حربه كانت حرباً مقدسة . ولم تقف آمال زاجيزى عند حدود بلده ، وإنما تطلع إلى ما يمتد من البحر الأسفل (الخليج العربى) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط أو بحر قزوين ؟) ، على حد دعواه ، وربما كانت له جهوده بالفعل فى سبيل تحقيق أطماعه ، لولا أن واجهته بوادر تغيير شامل سرت فى أوصال بلاد العراق كلها وقضت على آماله جميعها ، وكان أصحاب هذا التغيير هم الأكديون الساميون . وتعين على السومريين منذ ذلك الحين أى منذ أواسط القرن الرابع والعشرين ق.م أن يتمهلوا مع الزمن حتى أتيحت لهم فرصة الظهور والغلبة مرة أخرى بعد أكثر من قرنين .

بيد أن السومريين وإن عز عليهم التوسع السياسى الكبير خارج حدودهم ، فإن حضارتهم لم يعوزها الإنتشار السلمى الواسع ، فمدت جناحيها عن طرق التجارة على ضفتى الدجلة والفرات ، وتركت بصماتها على فنون دويلة آشور ، وفنون دويلة مارى (تل الحريرى قرب بوكمال والضفة اليمنى للفرات وكانت تغلب عليها الصبغة السامية قبل الأكدية وهو ما عبرت عنه حفائر تل خويرة فى منتصف مابين نهرى الخابور والبليخ ، وحفائر حران (تل أبيض) ، فضلا عن أطراف الشام الشرقية (٢) .

استمر عصر بداية الإسرات السومرى أكثر من خمسة قرون ، غابت الوحدة السياسية فى أغلبها عن آفاق أهله كما مر بنا ، ولهذا كان من منطق الأشياء أن تتعدد الأساليب الفنية خلاله بتعدد دويلات مدنه وتعدد أذواق أهلها وحكامها ، لولا أن غياب الوحدة الفنية الكاملة عن أرض سومر لم يمنع من شيوع أساليب معينة منها على حساب أساليب أخرى من حين إلى حين ، وذلك بنتيجة لتبادل المصنوعات الفنية الصغيرة بين المدن ، كالأختام الاسطوانية المنقوشة ، وتحف المعابد مثل رؤوس المقامع الرمزية وقوائم المباخر والموائد الفاخرة التى كانت تشكل بأشكال حيوانية وزخرفية لاتخلو من جمال .

واستشهدنا فيما مربنا من تاريخ السومريين بما اقتضاه سياق الحديث عنهم من دلالات مناظر النصب ونصوصها ، وتطور فنون عمارة المعابد الأرضية والزقورات ، وسوف نتابع الحديث فى الصفحات التالية عن صور أخرى من نقوش الأختام والمقامع والأوانى واللوحات الصغيرة التى شاعت فى عصرهم من حيث أساليبها العامة ونماذجها الممتازة ، ومختارات من تماثيل الحكام والمعبودات ، فضلا عن خصائص المساكن ومحتويات المقابر .

---

(١) Theureau-Dangin, *Konigsinchriften*, 219; G.A. Barton, *op. cit.*, 98—99.

(٢) See, M. Mallowan, *Iraq*, IX (1947) ; Parrot, *Syria*, XVI—XVII (1935—6); *Revue d'assyriologie*, XXXI (1934), 180 f.; W. Andrae, *Die archaischen Ischtar temple in Assur*, Leipzig, 1922.

مورتجات : المرجع السابق — ص ٨٢ وحاشية ٩٢ .

فقد شاع فى مناظر أختام الفترات الأولى من عصر بداية الأسرات السومرى ، أسلوب نقش تخطيطى بارز إكتفى فنانه بتصوير الخطوط العامة للأجسام ، واعتمد فيه على تكرار وحدات محدودة كان يستغل ما بينها من فراغات لتصوير أشكال نباتية وتجريدية عديدة . وإنعكس صدى هذا الأسلوب على نقوش الأوانى الحجرية ورسوم الأوانى الفخارية ، وقرب فى الإصطلاح الفنى إلى ما يسمى باسم Brocade Style وكانت نماذجه الأولى قد ظهرت منذ بوا ير العصر الكتابى ثم اختفت حتى ظهرت ثانية فى أوائل عصر بداية الأسرات السومرى . ويبدو أن تجدد ظهوره حينذاك إرتبط بقرب تأثر أهله بفنون مواطنهم الأولى ، أكثر من إرتباطه برغبتهم فى إحياء أسلوب عراقى قديم .

وتطورت نقوش الأختام بعد ذلك فى أواسط عصر بداية الأسرات السومرى ، وتميزت بتعدد موضوعات مناظرها وتداخل صورها وتقاطع أجزائها مع بعضها البعض ، واستغلال ما بينها لتصوير رؤوس حيوانية ونباتات ورموز تخطيطية . واستحب فنانوها تصوير إخضاع الأبطال الأسطوريين للحيوانات الضارية مثل الأسود . واعتادوا على تصوير أولئك الأبطال فى هيئات محورة مركبة من عناصر متباينة ترمز إلى قوى الطبيعة الخارقة ، كأن تجمع بين رؤوس البشر وأيديهم وبين أجسام وقرون الفحول . ونفذوا أشكالهم بخطوط عامة وزوايا حادة أحياناً ، وبخطوط لينة وزوايا منحنية حينا آخر(٢) . واستبقى بعضهم أسلوب البروكيد وزادوه ثراء بزيادة تزاحم صوره ، كما زادوه حلية بترقيش بعض صوره بنقط وخطوط متقاطعة وترصيع عيونها بعجائن ملونة(٣) ، وذلك مما يعنى أنه ما من أسلوب فنى كان يستطيع أن يجب أسلوباً آخر وإن طغى عليه وزاد شيوعاً عنه .

ثم تخففت نقوش أختام المراحل الأخيرة لعصر بداية الأسرات السومرى من تقاطع الصور : واستحبت الأشكال الممتلئة ذات الخطوط اللينة ، وحاولت أن توفر الفراغات المناسبة حولها وأن تستغل هذه الفراغات فى تسجيل نصوص قصيرة أحياناً . ومال فنانوها إلى إيثار الواقعية فى مناظرهم ، فقللوا صور الأبطال الخرافيين وأظهروا إلى جانبهم أبطالا من البشر صوروهم عراة فى أغلب أحوالهم ، واهتموا بابراز تفاصيل الشعور والقرون والأجنحة فى صورهم(٤) .

وواصلت النقوش السومرية سبيلها على رؤوس المقاطع الرمزية التى اعتاد الحكام وكبار الشخصيات أن يقتنوها فى قصورهم أو يهدوها إلى معابد أربابهم لعقد الصلة بين صفة المقاتلة فى أنفسهم وبين رعاة الحرب من أربابهم . وعلى سطوح الأوانى الحجرية والمعدنية ، ومن أمتع ما يستشهد به منها نقوش آنية طقوس

(١) See, Frankfort, *The Art and Architecture*..., 18—20, Fig. 8, pl. 11 *a*.

(٢) *Op. cit.*, Figs. 14 *a—c*, 15 *a—b*; 36 *a—b*; H. Heinrich, *Fara*, (1931), pls. 47 *a*, 65*c*, 49 f. 51 f.

(٣) Frankfort, *op. cit.*, 19, Fig. 9, pl. 11 *b*.

(٤) *Ibid.*, 36—40 Fig. 16, pl. 40.

فضية كبيرة ذات قاعدة نحاسية أهداها انتمنا حاكم لجش لمعبود مدينته ، ونقش فنانها على سطوحها بضعة مناظر لحيوانات أليفة وكاسرة تسيطر عليها نسور المعبود نين جيرسو ذات رؤوس الأسود ، ونجح كل النجاح فى التعبير عن الحركة الطبيعية لماشية مضطجعة أو باركة ترفع كل منها ساقها الأمامية وترتكز على حافر ساقها الأخرى استعداداً للنهوض(١) .

واستحب فنان العهد هذه الحركة فكررها على لوحة صغيرة من الطين المشبع بالقار ، فصور شاة سمينة (أو بقرة صغيرة) راقدة تهم بالوقوف برفع إحدى قائمتيها الأماميتين . وعبر عن حركة أخرى لطيفة فى رمز معبوده فصور نسره المهيب يطأ ظهرى أسدين ، وهو تصوير معتاد على آثار المعبود نين جيرسو ، ولكنه صور الأسدين يتطاولان برأسيهما إلى أطراف جناحى النسر لينهشاها ، على خلاف المألوف فى تصوير أمثالها ، وبهذا التحوير كفل الفنان الحيوية للوحته على الرغم من خشونة سطحها .

ولا يكاد يفضل هذين النموذجين ، فى نفس موضوعهما وعصرهما ، غير نقوش لوحة مستطيلة مكسوة برقائق النحاس ، شكل الفنان سطحها بالنقش البارز على هيئة نسر قائم مهيب برأس أسد يبسط جناحيه من عل فوق وعلين يتدابران أمامه فى ثقة لاتقل تعبيراً عن تعبير مهابته ، وتتفرع قرونهما على حافتى اللوحة فى إتقان ملحوظ(٢) .

ومارس الفنانون السومريون تعبيراتهم الفنية القصيرة على لوحات حجرية صغيرة ، مستطيلة ومربعة ، ظهرت منذ أواسط عصر بداية الأسرات وشاعت فى أواخره ، وكانت تثبت فى جدران هياكل المعابد بوصلات عن طريق فجوات صغيرة تتوسطها(٣) ، لتظل شاهداً على إرتباط أصحابها بأربابهم ، وقد سمى أغلبها بلوحات النذور ، ووجد العديد منها فى معبد إنانا فى نفر ، ومما يسمى عصر منيسلم(٤) . ويبدو أن بعضا آخر منها كانت تثبت فى جدران قاعات البيوت الخاصة باعتبارها لوحات تذكارية ولأغراض الزخرف والزينة . وماثلتها لوحات خشبية فاخرة كسيت أحياناً بالنحاس المطروق ، وشكلت بعض صورها الصغيرة بالأصداف وطعمت إطاراتها باللازورد ، وكانت من غير شك من المقتنيات الغالية فى القصور ، وتؤلف قطعاً من أثاثها الفاخر(٥) .

---

(١) E. de Sarzec, L. Heuzey, *Decouverts en Chaldee*, pl. 43.
مورتجات : المرجع السابق – لوحة ١١٣ .

(٢) Donal Hanson, *JNES*, XXII, 145 f.

(٣) Hall and Woolley, *Ur Excavations*, pl. 1, 6.

(٤) Frankfort, *op. cit.*, 32—33.

(٥) *Ibid.*, 34—35, pls. 36—37; *Syria*, XVI (1935), pl. XXVIII; t. XX (1940), pl. VI, 4; Mackay, *A Sumerian palace... at Kish*, pls. XXXV-XXXVI; Frankfort, *Oriental Institute Discoveries in Iraq*, 1933—1934, Fig. 25.

وسجلت نقوش هذه اللوحات (أو البطاقات) صوراً متنوعة من الحياة المدنية والحربية فى مجتمعها وذلك فى حدود ما سمح به ضيق مساحاتها، فرمزت بصورها إلى المحافل الخاصة وما يدور فيها من غناء ورقص وموسيقى وشراب ، وما يجرى فيها من رعاية الخدم لسادتهم. وعادة مايظهر فى حفلات الشراب رجل وامرأة متقابلين يمسك كل منهما كأس شرابه بيد وغصنا باليد الأخرى ، وتتوسطهما جرة شراب كبيرة ، ويحيط بهما الحضور والخدم والموسيقيون والراقصون (فى أعداد محدودة) فضلا عن حيوانات الأضاحى(١). ورمز له بعضها بمناظرها إلى الأعياد العامة وما يدور فيها من مباريات المصارعة والملاكمة (؟) والرقص وتسلق الأشجار . وصورت الحكام يعودون بعرباتهم المدنية تجرها أربع دواب، أو عرباتهم الحربية من ساحات القتال حيث يشرفون على إحصاء الغنائم والأسرى . وعبرت بعض المناظر عن هزائم الأعداء بتصوير قتلاهم تطؤهم عجلات الحرب ، وتصوير أسراهم جرحى متهالكين ، وملقين على الأرض مقيدين . وأكثرت من تصوير تقوى الحكام حين يشرعون فى تشييد المعابد ويتأهبون للمشاركة فى وضع لبناتها الأولى ، وتصوير تقوى الأفراد حين يتقدمون بقرابينهم أمام أربابهم ، وحين يشتركون فى أعيادهم وحين يسوقون نذورهم وأنعامهم هدايا لمعابدهم(٢) .

وظلت النصب الحجرية واللوحات الكبيرة أصلح مما عداها لإشباع رغبات الحكام فى تسجيل أخبار إنتصاراتهم وآيات تقواهم وما يعتزون به من أعمالهم ، وقد استعرضنا صوراً من مضمونها ودلالاتها حين الحديث عن مناظر المعابد ولوحة العقبان .

تقيدت أغلب النقوش السومرية السابقة بمبادىء الرسم والنقش الشائعة فى العالم القديم ، من حيث تصوير أشكالها فوق خطوط أفقية ترمز إلى الأرضية التى تقف عليها ، وتضمن استواء صفوفها ، وتفصل بينها وبين صفوف المناظر التى تصور تحتها ، (وذلك مع إستثناءات قليلة غير مقصودة لذاتها تخلى الناقش فيها عن تصوير أمثال هذه الخطوط)(٣) ، ثم من حيث تصوير وجه الإنسان وجذعه الأسفل من جانب مع تصوير عينه من أمام وتصوير كتفيه باتساعهما ، ومن حيث تصوير الأفراد يتعاقب الواحد منهم خلف الآخر حتى ولو كانوا يسيرون فى حقيقتهم فى جماعات مختلفة (مع إستثناءات قليلة أيضاً) ، ثم من حيث تصوير الحكام بأحجام تزيد عن أحجام مرؤوسيهم وأتباعهم وأولادهم أيضاً (وهى نفس المبادىء المستخدمة فى مصر القديمة أيضاً مع اختلاف النسب والأساليب) .

ولم يتخفف الفنانون السومريون من بعض هذه المبادىء إلا حين تصويرهم الكائنات الأسطورية

(١) مورتجات : المرجع السابق – ص ٨٧–٨٨ ، لوحات ٤٢–٤٩ .

(٢) E. de Sarzec-Heuzey, *op. cit.*, pl. 2 bis ; C.L. Woolley, *Ur Excavations*, II, pl. 181; G. Contenau, *Manuel...*, Fig. 357; Frankfort, *Sculpture...*, pl. 45, Nos. 105, 125 ; pl. 108 No. 188, pl. 109 No. 192; *More Sculpture*, pls. 62, 64 *b*, 65, 67 No. 327.

(٣) See, Frankfort, *The Art and Architecture*,... 19, pl. 11 *a*.

والخرافية والحيوانات والطيور ، فصوروا بعض وجوهها كاملة من الأمام ، وصوروا أشكالها يتقاطع الواحد منها مع الآخر ، كما صوروا مجموعات الجنود فى صفوف أفقية متراصة أحياناً .

واكتفت أغلب اللوحات السومرية بتصوير ملامح شخوصها البشرية بخطوطها العامة ، وقليلا ماحفلت بإظهار تفاصيل الجسم كعضلات الصدر والذراعين (فى مثل لوحة أور نانشه) . وقد يرجع طابع العمومية فى صورها إلى صغر أحجامها وصعوبة تمثيل الملامح الشخصية فيها .

بيد أنه على الرغم من بساطة خطوط هذه اللوحات ، بل وخشونتها أحياناً ، فإنها لم تعجز فى أغلب أحوالها عن إعطاء صورة واضحة عن موضوعاتها وعن هيئات أهلها وتقاليدهم فى الزى والعبادة وعما كانوا يستخدمونه فى حياتهم اليومية من أدوات لم يتبق منها فى أرضهم غير القليل النادر .

وقد مهدنا بما صورته هذه النقوش من خصائص الشخصيات الكبيرة فى الهيئات والملابس ، فى بداية حديثنا عن الجنس السومرى وموطنه الأصيل (ص ٤٤٦ — ٤٤٧) . أما عن صور الأفراد العاديين فقد كان من صورهم الطريفة ما يصور الحمالين يحملون أثقالهم على ظهورهم ويشدونها بحبال إلى جباههم(١) ، كما يفعل بعض الحمالين الشرقيين حتى اليوم . وظهر من صور حيواناتهم الأليفة كباش أفقية القرون (وجدت أمثالها فى مصر القديمة حتى عصور الدولة الوسطى) ، وأخرى ذات قرون منتصبة منفرجة ، وكباش طويلةالصوف وأبقار ذات بروز يشبه السنام فوق أعناقها (ولا تزال أمثالها موجودة حتى الآن فى بعض أقطار الشرقين الأدنى والأوسط) .

وصورت اللوحات السومرية نوعين من العربات : عربة صغيرة بعجلتين مصمتتين إلا من فتحة الدنجل(٢) ، وأخرى فاخرة بأربع عجلات مصمتة أيضاً يتكون جسمها من ثلاثة أجزاء : جزء أمامى ذى جانبين مرتفعين مفرغين تعلوه مظلة أو مظلتان ويخصص لوقوف صاحب العربة(٣) ، وجزء أوسطمربع أو مستطيل يشبه الصندوق يخصص لمرافقيه ، ثم جزء خلفى منخفض مسطح يمتد بمستوى أرضية العربة ويستخدم فى الصعود إلى العربة ولوقوف التابع حامل الرمح أو لجلوس السائس ووجهه إلى الخلف . ولا تختلف عربة الحرب عن العربة الخاصة عادة إلابخلوجزئها الأمامى من المظلة ، مع تزويدها بالأسلحة وجعاب السهام(٤) . وغالباً ما تجر العربة أربع دواب صغيرة تشبه الحمير لولا أنها طويلة الذيول بما يشبه خيول السيسى الصغيرة ، أو تجرها ثيران .

---

(١) *Op. cit*...., pl. 37 Lower.

(٢) *Ibid.*, pl. 33 *a*; *Compare* also pl. 20 *a*.

(٣) *Ibid.*; pl. 36 Upper.

(٤) *Op. cit.*, pl. 36 Lower.

فن النحت : أدت قلة المحاجر الصالحة فى جنوب بلاد النهرين إلى صغر أحجام التماثيل السومرية ونحت أغلب المعروف منها من أحجار لينة مثل الحجر الجيرى والألباستر ، مع قلة المصنوع منها من أحجار صلبة كالبازلت أو الديوريت .

وظلت تماثيل الأرباب أكبر حجماً مما سواها ، كى تعبر بضخامتها النسبية عن جلال أربابها وتدل على تقوى أصحاب الفضل فى إهدائها إلى معابدهم (وتختلف هذه التماثيل عن تماثيل العبادة الفعلية الصغيرة التى كانت تصنع عادة من مواد ثمينة أو من أخشاب تغشى برقائق ذهبية وما يشبهها) . ووجد أغلبها فى معابد منطقة ديالى فى تل أسمر وخفاجى وتل أجرب (١) . واحتفظت أرضية معبد تل أسمر (فى إشنونا القديمة) بثلاثة عشر تمثالا لأرباب وربات وحكام وكهنه ، استمر أسلوب نحتها حتى أواسط عصر بداية الأسرات السومرى(٢) . ويبدو أن الكهنة كانوا قد اكتنزوها فى أرضية معبدهم خلال إحدى مرات تجديده أو خلال فترة مضطربة خشوا فيها على مقتنياته .

ونحتت أغلب هذه التماثيل بخطوط جافة وزوايا حادة تشبه خطوط النقش السائدة فى أوائل عصر بداية الأسرات السومرى . وانصب أغلب الإهتمام فيها على تعبيرات وجوهها ، فأفرغ المثالون ما كانوا يتخيلونه من رهبة أربابهم على وجوهها ، وعبروا عن هذه الرهبة بضخامة الوجه وعرض الكتفين وشدة اتساع العينين وتحديقهما بما يحتمل أن يعبر عن وصف المعبود بأنه بصير ، أو وصف المتعبد بالانتباه والترقب لإجابة دعائه . ثم انطباقة الشفتين وكثافة شعر الرأس المجعد (المستعار) واسترساله على الكتفين أو على الصدر ، مع اتصال شعر اللحية المستطيلة بشعر الشارب واسترسال شعرها على الصدر فى تجاعيد أفقية حادة محورة تتناسب مع خطوط الأنف والشفتين وشعر الرأس . وغالباً ما يكون الجذع العلوى عاريا ،ويلتف الجذع السفلى بنقبة قصيرة ذات هدب . وقد تتشابك اليدان أمام الصدر ، أو تمسكان بكأس ، وتكون المرافق بارزة .

وتضمنت هذه المجموعة تمثالين لمعبودتين ، بدت إحداهما رشيقة القوام ممتلئة الوجه طويلة الجيد ، يستدير شعرها حول رأسها وتلتف عباءتها حول جسدها وتترك كتفها اليمنى عارية ، ولا يعيب نحت تمثالها غير شدة إتساع عينيها المستديرتين المطعمتين وبعض الحدة فى خطوط مرفقيها النحيلين .

ولايقل ميزة عنهما النصف العلوى لتمثال المعبود آبو الذى يحتمل أنه كان يمثل معها الشخصيتين الرئيستين فى طقوس الزواج المقدس(٣) .

ووضح من تماثيل الكهنة فى نفس المجموعة تمثال لكاهن حليق الرأس والشارب واللحية ، تتفق عيوب نحته مع عيوب تماثيل أربابه .

---

(١) مورتجات : : المرجع السابق – ص ١٠٢ .

(٢) Frankfort, *Sculpture of the third millennium from Tell - Asmar and Khafaje*, 1930; *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, 24, pls. 13—17.

(٣) مورتجات : المرجع السابق – ص ١٠٥–١٠٦ – لوحات ٥٩–٦٢ .

ووجدت فى الوقت نفسه تماثيل صغيرة لمتعبدين خاشعين من الرجال والنساء تعبر عن أن الفارق
اسع بينهم وبين معبوداتهم لايمكن عبوره إلا بالتذلل والخشوع والدعاء وتقديم القرابين(١).

وتخفف فن النحت منذ أواخر عصر بداية الأسرات السومرى من زواياه الحادة ، واستحب ليونة
سطوح واستدارة الأركان ، وحاول الفنانون أن يظهروا فيه طيات البطن ولغد الرقبة . وترسموا الأسلوب
اقعى فى التعبير عن الملامح الشخصية على وجوه بعض تماثيلهم ، وتفننوا فى تمثيل تصفيفات الشعر وأزياء
ياب لبعض تماثيل النساء . واستعانوا بإظهار البسمة الخفيفة على الشفاه للتخفيف من صلابة الوجوه وللاقتراب
من عالم الناس ، ولو أنهم لم ينجحوا غير نجاح قليل فى التعبير عن هذه البسمة ، أو فى التخلص من جمود
يون وتحديقها مع تطعيمها بمواد مختلفة . واحتفظت حفائر مدن تل أجرب وخفاجى ومارى بمجموعة
بية من هذه التماثيل نافست بعضها بعضاً فى التعبير عن أساليب عصرها وكفاية فنانيها وظهور الملامح السامية
ا . وقد تقرن هذه الأخيرة بتماثيل صغيرة أخرى وجدت فى تل خويرة بشمال سوريا(٢) .

واحتفظت منطقة لجش بتماثيل صغيرة جديدة تميز منها تمثال جالس للكاتب دودو بجسم ممتلىء ورأس
ليقة وابتسامة خفيفة ونقبة نصفية ، وقد جمع يديه على صدره .

وقد تعاصره عدة تماثيل متربعة لأفراد وجدت فى خفاجى وتلو وتل العبيد ، وهى ذات طابع شخصى
طيف(٣).

وأدت التماثيل المعدنية دورها فى رواج الفنون السومرية الصغرى . وتمثل أغلب ما بقى منها من مقتنيات
عابد فى رموز المعبودات ، وتماثيل النذور الحيوانية ، وقوائم المباخر ، وقواعد أوانى الدهون ، ونماذج
ربات الصغيرة ومساند المشاعل ، وأطراف الموائد(٤) ، فضلا عن بعض تماثيل الأفراد المتعبدين وحملة
رابين والنذور. وابتكر الفنانون السومريون لتحفهم تلك أشكالا خفيفة الظل من عوالم الإنسان والحيوان
النبات ، ومن أمتع مايستشهد به منها قطعة معدنية أخرجتها حفائر أور ، لعنزة (أو جدى ؟) تتطاول على
جيرة قصيرة ذات ساق محورة وفرعين يتماثلان فى أغصانهما وبراعمهما وزهورهما المعدنية ، وتطل برأسها
ا بينهما . ورصع الفنان خصل شعر العنزة الطويل بقطع من اللازورد والأصداف ثبتها بالقار على جسمها
لخشبى . وارتكزت العنزة والشجيرة على قاعدة صغيرة كفتت بمعينات صغيرة يتعاقب فيها اللونان الأحمر
الأبيض ، وصفحت أطرافها برقائق من الفضة (٥) . ولا يكاد يعيب تمثال العنزة فى منظرها الجانبى غير قصر

---

(١) مورتجات : نفس المرجع – ص ٩٦

(٢) المرجع السابق – ص ١٠٨–١١٣ ، ١١٥–١١٨ ، لوحات ٦٣–٦٨ ، ٦٩–٧٥ .

(٣) نفس المرجع : لوحات ١٠٦–١٠٨ .

(٤) Frankfort, *More Sculpture...*, pls. 54, 95; *The Art and Architecture...*, pl. 29, etc...

(٥) *Ibid.*, pl. 28 (Brit. Museum, hight, c. 50 cm.).

رقبتها بحيث تبدو رأسها مدفونة بين كتفيها ، ثم وقوفها ثابتة على مجمع حافريها وليس على طرفيهما بحيث يدث فى وقفتها وبارتفاعها وكأنها تتطاع إلى الشجيرة أو من خلالها دون الأكل من أوراقها(١).

من بقايا القصور :

ترجع إلى عصر بداية الأسرات أطلال أحد قصور حكام مدينة كيش ، وهو قصر بنى من اللبن فوق ربوة صناعية . وبقيت من أطلاله الأجزاء السفلى من جدرانه المتماسكة ، وجزء من درجه ، وقواعد بعض أعمدته . ويبدو أن درجه الصاعد على سفح الربوة كان يؤدى إلى مدخل مزخرف ، يليه فناء مكشوف ذو أساطين من الآجر يمتد الضوء منه إلى الغرف الداخلية المتصلة به ، وقامت سقوف قاعات القصر الرئيسية على أساطين مماثلة ، وزينت بعض جدرانها بلوحات سوداء من الشست طعمت بأصداف ومناظر ترمز إلى إنتصارات أصحاب القصر وجانب مما كان يجرى فى ضياعهم الزراعية من تربية الماشية والماعز وحلبها وتربية الجداء ، وقد نفذت بعض هذه الأشكال بإتقان بارع وفى حيوية لطيفة(٢).

المقـــابـــر :

لعل أمتع مايستشهد به من عادات الدفن ومحتويات المقابر أو حفر الموت الأعظم كما قال السومريون، فى عصرهم الأول ، هو ما تضمنته مقابر مدينة أور (٣) ، وهى مقابر كثيرة العدد بنيت أقبيتها باللبن تحت سطح الأرض وقرب زقورة المدينة ، وتراوحت أعداد الغرف فيها بين الواحدة والأربع ،وسقفت بعض غرفها بعقود . ومن أحدثها ومن أفضل ما بقى سليما منها مقبرة تنسب إلى عظيم يسمى مس كلام شار (أومس كلام دج) ، وسيدة تسمى شوب آد ، ولا زال الرأى متأرجحاً بين اعتبارهما من الأمراء الحكام أو من الكهنة ، وإن كان الإعتبار الأول هو الأرجح . وتضمنت هذه المقابر مادلت به على بعض عقائد الدفن عند أهلها ، وما عبرت به عن رقى الفن والصناعة ورقة أذواق فى عصرها . فقد جرت عادة أصحابها الأثرياء على دفن أتباعهم معهم ، من الجند والخدم والوصيفات والموسيقيات ، وسائقى العربات ، والثيران والحمير التى تجر العربات وتجر الزحافات الخشبية المستخدمة فى نقل الرفات . واختلفت أعداد هؤلاء الأتباع فى أكثر من ست عشرة مقبرة بين الأربعة وبين الأربعة والسبعين . ويفترض أنه كان يضحى بهم بالسم عند وفاة سادتهم ، ثم يدفنون معهم مع إبقاء جثثهم فى صورتها الدنيويةمن حيث الملبس والزينة وأدوات الحرفة، ودفن أقربهم مكانة من صاحب المقبرة معه فى حجرة دفنه ، وترتيب بقيتهم فى صفوف فيما بين مدخل المقبرة وبين مدخل حجرة الدفن . وليس ما يمكن تأكيده حتى الآن عما إذا كانت عادة دفن الأتباع هذه

(١) قارن لهذا مناظر مصرية تتضمن عنصرى الشجيرة والمنزة أيضاً ولكن بأشكال محورة أخرى :
J. Leibovitch, *ASAE*, XLVIII, 24? f.

(٢) *Field Museum Anthropology Memoirs*, I (1929).
وأنظر بقايا أطلال قصر حكم آخر فى مدينة إريدو – مجلة سومر ٣١ (١٩٥٠) .

(٣) Woolley, *Ur Excavations, The Royal Cemetery*, 1934.

قد ارتبطت بأمل أصحابها بحياة أخرى ودوا أن يصحبهم أتباعهم إليها ليقوموا على خدمتهم فيها . أم أنها ارتبطت بمجرد رغبة الأحياء فى تكريم عظمائهم عند موتهم وتحريم خدمة أتباعهم لسادة آخرين ، مع مايقتضيه ذلك من إجبار أولئك الأتباع على التظاهر بالولاء الأبدى لأرباب نعمتهم ورضاهم بالتضحية بأنفسهم من أجلهم . أم أنها عادة ارتبطت بتقاليد دينية تتصل بعقائد العبادة والآلهة أكثر مما تتصل بأصحاب المقابر أنفسهم ، كافتراض التضحية بأفراد المواكب الدينية ومنهم أصحاب المقابر أنفسهم فى أعقاب أعياد رأس السنة الزراعية والزواج المقدس الذىيقوم فيهالحاكموزوجته ، أو كبير الكهنةوكبيرة الكاهنات ، بالدور الرئيسى بعدأنيؤدى كل منهم دوره فيها ، من أجل استدراررضا الأرباب ودوام الخصب فى البلاد . ووجدت فتحات فى سقوف بعض المقابر دفعت أصحاب الفرض الثالث إلى الظن باحتمال مرور أنابيب فخارية فيها تصلها بأرضية معابد أو مقاصير مقامة فوقها(١) . وعلى أية حال فلم تستمر التضحية البشرية طويلا فى العصور التالية .

ودل ما دفن به أصحاب المقابر السومرية وأتباعهم من حلى وأدوات متنوعة على ثراء كبير . ومن خير ما تحتفظ به المتاحف الآن من هذه الحلى والأدوات خوذ فاخرة صنعت إحداها من الذهب المطروق ، وخناجر ثمينة طعمت بعض مقابضها باللازورد وكسيت أغمادها برقائق ذهبية مزخرفة ، ونصال حراب ورؤوس بلط رمزية ، ودبابيس مذهبة وحلى ذهبية من خواتم لطيفة وأقراط مستديرة وأخرى مشكلة على هيئة وريقات الزهور ، وقلائد ذات حبات أنبوبية ، ودلايات مشكلة على هيئات الزهور ووريقات الشجر ، وعلب مزخرفة للدهون العطرة ، ومجموعة ذهبية من ملقط ومثقب وملعقة دهون علقت ثلاثتها فى حلقة فضية ، وعصائب ذهبية ، ورقعة داما مطعمة ، وأباريق وصحاف نحاسية وفضية ولوحة خشبية مطعمة باللازورد والصدف صورت على أحد وجهيها مناظر حربية دقيقة ، وصورت على وجهها الآخر مناظر من الحياة المدنية لملكها ويطلق عليها اصطلاحاً إسم لواء أور .

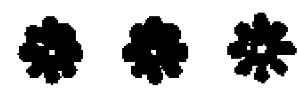
ومن أمتع أدوات الإستعمال الحرفى التى وجدت فى المقابر قيثارات مكفتة فاخرة ، شكلت مقدمة إحداها على هيئة رأس ثور ملتح بلغت حد الروعة فى تعبيراتها ودقة تفاصيلها ودلالتهاعلى يد بارعة متمكنة ، وطعم صدر صندوق القيثارة نفسها بمناظر حفل تعتبر من أرق مناظر فنون أور فى خفة الظل وجرأة التعبير . واختار فنانها شخوص الحفل من عالم الحيوان وخلع عليهم تصرفات الإنسان ، فصور ذئباً قائماً يتمنطق بحزام يثبت فيه سكينه ويقدم بين يديه مائدة حافلة بأطايب اللحوم ، ويتبعه أسد مهندم ، يحمل كأساً وقنينة شراب ، وصور داخل الحفل حماراً منهمكاً فى العزف على قيثارة يقيمها له دب كبير ، ويتقدمه نمس ينقر على دف ويهز الصلاصل ، وصور غزالة رشيقة تنتصب على قدميها لتقدم مبخرتين أو كأسين مرمريتين لمعبود بجسم عقرب(٢) . وليس ما يمكن تأكيده عما إذا كان الفنان قد اختار شخوص موضوعه لمجرد الكفاءة

(١) *See*, S. Smith, *JRAS*, 1928, 849 f.; F. Bohl, *AZ*, 1930, 83 f. ; A. Moortgat, *Tammuz*, 1949; *CAH*, vol. I,Part 2 (3rd ed.), 1971.

(٢) M. Ritten, Les animaus a attitudes humaines dans l'art de l'ancienne Mesopotamie", *Rec. Et. Semitiques*, 1938, 97 f.

وإظهار البراعة فى التعبير ، أم قصد بها نوعاً من أنواع الكاريكاتير الهادفة ، أم اختارها للدلالة على مشاركة الكائنات المختلفة فى عيد من أعياد الأرباب . وعلى أية حال فقد تكررت هذه التعبيرات على ختم من نفس العصر صور أسدا على عرش يعب من كأس يقدمها إليه وعل ، ومعه ثلاثة حمير تقوم على خدمته وإطرابه(١) . وختم آخر من تل أسمر صور أسداً وحماراً يمتصان شراباً بغابتين رفيعتين(٢) .

ولا شك فى أنه كان لعصر بداية الأسرات السومرى آدابه ، كما كانت له عقائده وفنونه ، لولا أنه لم يكتشف من نصوص هذه الآداب غير نتف نادرة(٣) . ويبدو أن أهله تناقلوها شفاهة أكثر مما توارثوها كتابة ، بحيث لم يعثر على مكتوباتها إلا بعد إنتهاء عصرهم بفترة طويلة ، وبعد أن قل استخدام اللغة السومرية كلغة حديث عامة فى العصر الأكدى وخلال عصر الإحياء السومرى وما بعده(٤) ، مما سنعرض له فى حينه .



العقائد الدينية والمعابد والزقورات السومرية :

أخذ السومريون بتعدد الأرباب والربات شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من أصحاب الديانات الوضعية القديمة . وسجلوا بعض أسماء أولئك الأرباب والربات بصيغ موجزة فى نقوشهم المبكرة ، ثم سجل خلفاؤهم لها ألقاباً عدة فى أساطير مسهبة إلتزموا فيها بصورها القديمة أحياناً ، وذكروها بصور مستحدثة أحياناً أخرى(٥).

ويفهم مما سجله هؤلاء وهؤلاء أن ديانتهم كانت ديانة طبيعية فى مجملها ، وأن فقهاءهم تخيلوا السماء والأرض فى بداية أمرهما ملتصقتين يحيط بهما محيط مائى عظيم . وكان فى أولهما إله مذكر وهو «آن» أو آنو» الذى اعتبروه الجد الأكبر للمعبودات ، وفى الثانية إلهة مؤنثة « كى » . ونتج عن إتصال هذين الزوجين ، عنصر ثالث وهو إنليل (رب) « ليل » أى رب الهوء والأنفاس والفضاء الذى تدخل بينهما وفصلهما ، ورفع أباه « آن » بسمائه إلى أعلى ، وحط بأمه « كى » إلى أسفل حيث اختلط بها ، وترتب على وجوده معها أن بدأ ظهور بقية الأرباب ومنهم من سموا باسم الأنوناكى الخمسين العظام والسبعة أصحاب المصائر ، ثم بدأ خلق النباتات والأنعام والناس .

وكان أكبر أبناء إنليل هو القمر (أو إله القمر) ننا أو ننار أو نانور ، وقيل إنه أنجبه سفاحاً بعد أن اغتصب الصبية المقدسة « ننليل » (على الرغم من ضيق مهبلها ورقة شفتيها كما قالوا) ، فأدت فعلته هذه

(١) L. Legrain, *Ur Excavations*, III (1936), pl. 20 No 384.

(٢) Frankfort, *Cylinder Seals*, 94, fig. 30.

(٣) Falkenstein, *Compte tendu...*, II, 18—19 ; A. Barton, *Miscellaneous Babylonian Inscriptions*, No. 1.

(٤) *See*, W.G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, 1960, 3 f.

(٥) See, S. N. Kramer, *Sumerian Mythology*, 1944; H. Hooke, *Babylonian and Assyrian Religion*, 1953.

إلى تجرء بقية الأرباب عليه ونعتهم إياه بالشراسة والخلاعة وأنه لاخلق له ورغبتهم فى نفيه على الرغم من أنه كان سيدهم وفى منزلة الأب منهم ، وعلى الرغم من عطفه السابق عليهم وعلى البشر(١) .

وشارك أرباب السماء والأرض والهواء فى قدم النشأة ، عند السومريين ، « إنكى » روح الماء المحيط بالسماء والأرض ، ابن « نمو » عنصر الأمومة فى المحيط الأزلى ، و زوج ننماخ السيدة العظمى التى لقبت أيضاً بلقب نينتو بمعنى السيدة الوالدة ، وقد وكل بالأعماق واتخذ مقره فى مياه العمق « آبسو » التى تخيل السومريون مركزها معبد آى ــ أبسو (أى معبد البحار) فى منطقة إريدو (أبى شهرين الحالية) أول مدينة هبطت الملكية إليها من السماء وحكم فيها أول ملكين من ملوك ما بعد الطوفان على غير مبعدة من الخليج العربى . وكان إنكى يعتبر إلها للماء وللحكمة ومقرراً لمصائر الأقطار والمدن وحافظ نواميس الحضارة فى كل مظاهرها المادية والروحية ، والموصى بمظاهر الحياة إلى أربابها مثل دوموزى الذى عهد إليه بخصوبة الأنعام وخصوبة الأرض وإشكور الذى عهد إليه بأمر الرياح .

وروى كهنة إريدو أن إنكى ظل يحتفظ بنواميس الحضارة فى أعماق آبسو بأرضهم حتى أغوته عنها إنانا ربة الزهرة وربة مدينة أوروك ، فأغرته بجمالها وشجعته على الشراب واللهو معها ، على الرغم من أنه كان منها فى منزلة الوالد ، حتى وعدها بكلمته وأعطاها نواميسه وفنون الحضارة ، فلما استرد وعيه أرسل مبعوثه وأعوانه فى إثرها ليسترجعوا منها نواميسه ويعطلوا مركبها، ولكنهم فشلوا . وقد يعبر هذا عن حادثة تحول الزعامة الحضارية من إريدو إلى أوروك ووجهة نظر كهان إريدو فى تفسيرها(٢) .

وكما أنجب إنليل القمر ، اعتقد السومريون أن القمر بدوره أنجب الشمس (أو رب الشمس) « أوتو » باعتباره زوجاً أو أخا للمعبودة الأم إنانا ربة الزهرة (أوأمها الربة نين جال) .

وتوفر لإنليل دوره فى تكييف مظاهر الطبيعة وخلقها ، فخلق الصيف « إمشى » والشتاء « إينتين » ، وخص كلا منهما بمزاياه وفوائده ، ولكنهما إختصما وتفاخرا وتنابذا ، فانحاز هو إلى جانب الشتاء وفضله بما يكون فيه من حرث ونسل وتكاثر بين بنى الإنسان والحيوان .

وكما تفاخر الصيف والشتاء ، عربد الأخوان لهار وأشنان ، رب الماشية وربة الغلال ، وتنابذا ، واعتز كل منهما بما عنده ، واحتكما إلى إنليل وإنكى ، فقضى الحكمان لصالح أشنان ربة الغلال دون أخيها(٣).

وهكذا مضى السومريون فى تخيلاتهم بما لايختلف كثيرا عما تخيله غيرهم من أصحاب الديانات الوضعية الأوائل كالمصريين والكنعانيين القدامى . فافترضوا لكل ظاهرة طبيعية ربا أو ربة ، وافترضوا لأربابهم صوراً بشرية مضخمة وحياة تماثلها حياة البشر ، تزاوجوا فيها وتناسلوا ، وتحابوا وتخاصموا ، لولا أنها

(١) Kramer, *op. cit.*, 43 f.

(٢) مورتجات :المرجع السابق — ١٨٧

(٣) صمويل كرامر : من ألواح سومر — لوحات ٥٣—٥٥ — الفصل ١٦ .

كانت حياة سرمدية ذات مقدرة مطلقة . واستقرت لأربابهم الكبار عبادات رئيسية فى مدن بعينها . فكان أكبر مراكز عبادة آن أو آنو فى أوروك كما أسلفنا حيث عرف معبده فيها باسم « أى – أنا » وأطلق إسمه على حى بأكمله(١) . واستقر أكبر مراكز عبادة إنليل فى مدينة نيبور (نفر) وسمى معبده فيها « إكور » ربما بمعنى البيت الجبلى . غير أن ذلك لم يحل دون إنتشار عبادة مثل هذين الربين مع غيرهما من الأرباب فى معابد صغرى بمدن أخرى كثيرة ، وهنا قد يلقب المعبود بلقب جديد ، أو ينسب إلى الحى الذى يوجد معبده فيه ، على نحو ما لقب إينورتا ، أحد أرباب الأعاصير والسحب الممطرة ورعاة الحرب ، وابن إنليل ، فى مدينة لجش ، بلقب « نين جيرسو » أى سيد جيرسو ، وكانت جيرسو هذه ضاحية مقدسة تجاور لجش (وسمى معبده فيها إنينو) .

وعلى نحو ما تصور السومريون لمظاهر الطبيعية أرباباً عديدين أطلقوا على كل منهم صفة « دنجر » بمعنى إله ، تخيلوا لوجوه حضارتهم أرباباً ابتدعوها ورعوا أصحابها ، مثل « نابو » رب الكتابة . وردوا إلى أولئك الأرباب فضل إنشاء مدنهم وتنظيمها ووضع شرائعها ثم جمعوا إلى هؤلاء وهؤلاء أرباباً صغاراً لعلهم كانوا يشبهون الأولياء والقديسين فيما بعد ، اتخذهم الأفراد رعاة شخصين وحماة وشفعاء لهم لدى الأرباب الكبار الذين تخيلوهم بعيدين عن مستوى دنياهم ، بعيدين عن آفاق عقولهم ولم يكن أحدهم يجد بأساً من أن يعتبر معبوده الخاص (أو معبود أسرته) « راعيه الموكل به » و « ربه وأباه المقدس الذى أنجبه » .

وعلى نحو ما تصور السومريون أربابهم بهيئات بشرية كما أسلفنا ، رمزوا إليهم أحياناً بهيئات الحيوانات والطيور ، وصوروا أغلب رموزهم الحيوانية فى هيئات مركبة ، ومن ذلك القبيل أن رمزوا إلى معبودهم نين جيرسو بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد (أو رأس لبوة) ، وكانوا إذا صوروه على هيئة بشرية جعلوا وجه الأسد شعارا لردائه أو لمقعد عرشه ، أو لموطىء قدميه .

وفى خلق البشر وأسبابه ظهرت للسومريين تقديرات طريفة تعتمد فى مجملها على الإيمان بأن الناس ما خلقوا إلا ليعبدوا الأرباب ويخدموهم ويوفروا القرابين لمعابدهم . وشاعت لهم فى هذا السبيل روايات شتى أغلبها مضطرب مختلط ، ويفهم من بعضها أن أربابهم عاشوا فى بداية خلقهم هائمين كالسوائم ، لايقدرون على شىء من أمرهم . ، حتى خلق إلههم الأكبر الأنعام من أجلهم ووكل بها « لهار » ، وأنبت الغلال ووكل بها « أشنان » (أخت لهار) ، فطعموا ونعموا ، ولكنهم لم يحسوا للشبع والرى طعما ، فاتجهوا بضراعتهم إلى المعبود الحكيم «إنكى» الذى كان حتى ذلك الحين سادرا فى مياه العمق غير عابىء بهم ، ووسطوا لديه أمه نمو (روح الأمومة فى المحيط الأزلى) فبثت ضراعتهم إليه وقالت له فيما قالت « . . قم إذن يابنى ، ولنصنع شيئاً لائقاً . لنصنع (بشرا) عبيداً للأرباب . . » فاستجاب لها وقال لها « أماه » إن الكائن الذى نطقت باسمه موجود ، فاربطى عليه صورة الآلهة (؟) . أضربى لب الطين الموجود فوق مياه العمق ، واجعلى أعوانك

(١) *cf. Sumer*, 1960, 3 f.

يكثفون الطين جيداً ، وشكلي أنت له أعضاءه وجوارحه ، وستعمل ننماخ من فوق يدك .. ، ثم قلدي مصيره يا أماه ، وستربط ننماخ عليه صورة الآلهة ، ذلك هو الإنسان ... » . وأرادت الأساطير أن تعلل خلق ناقصي التكوين بمنطقها ، فروت أن إنكي وننماخ (زوجته ؟) أسرفا ذات مرة فى الشراب ، فقبضت قبضة من طين مياه العمق (وأرادت أن تقلد أمه نمو) ، وخلقت منه ستة أنواع ، فخرجوا شواذا (ومنهم المرأة العقيم . . والمخنث) . وشاء إنكي أن يلهو بدوره ويجرب حظه فى الخلق ، فقبض قبضة من الطين وشكلها ، ولكنه فشل وصنع مخلوقاً لا روح فيه ، لايعرف الكلام ولا أكل الطعام ... (١) .

وتخيل السومريون فى بداية الخلق عصراً ذهبياً ، إنعقدت الهيمنة فيه للمعبود « إنليل » . وصورت إحدى أساطيرهم المتأخرة مظاهر ذلك العصر فقالت إنه لم يكن فى الوجود حينذاك حية أو عقرب ، ولا ضبع ولا سبع ، ولا كلب برى ولاذئب ، وما من خوف ولا فزع ، ولم يكن للإنسان منافس . وفى غابر الأزمان كانت بلاد شوبر وهمازى (فى غرب إيران ؟) ، وأرض سومر كثيرة الخيرات ، البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة ،وبلاد أورى (وسط بلاد النهرين وشمالها؟) التى حوت كل طريف ، وبلاد مارتو (بوادى العراق والشام) ، كانت كلها آمنة مطمئنة ، وجميع الكون والناس فى وحدة وألفة ، يمجدون إنليل بلسان واحد . . . » (٢) .

وتناقل السومريون الأقدمون أسماء حكامهم وأبطالهم وزعمائهم الأوائل شفاهة فى سياق الأساطير ، وخلطوا بينها وبين أسماء أربابهم ، وظلوا يحتفظون بها حتى دون خلفاؤهم أخبارهم الأسطورية التى عرفوها عنهم فى قوائم مختلطة ، وذكروا أن العمران تركز قبل الطوفان فى خمس مدن كبيرة متعاقبة ، وهى : إريدو وبادتيبيرا ، ولاراك ، وسيبار ، وشوروباك . وأضافوا أنه حكم كلا من هذه المدن على التعاقب عدد من الأرباب وأنصاف الأرباب لفترات دامت آلاف السنين حتى أغرقها الطوفان . وعندما عاد العمران إلى أرض العراق بعد انحسار الطوفان ظهرت مدن أخرى كثيرة مثل كيش ، وأوروك ، وأور ، وأداب ، ومارى .... ونسبوا أوائل الحكم فى هذه المدن إلى شخصيات أسطورية أيضاً قيل إنها عمرت هى الأخرى قروناً كثيرة ، ثم تواضعوا ونسبوا إلى بعض من عرفوهم من الحكام الفعليين قريبي العهد من عصورهم التاريخية عشرات محدودة من السنين(٣) . بيد أن مهما يكن فى هذه الأخبار الأسطورية التى تضمنتها قوائم الملوك من

---

(١) Kramer, *Sumerian Mythology*, 68 f.

كرامر : المرجع السابق – الفصل ١٣

(٢) Kramer, *From The Tablets of Sumer*, Ch. XXV; Kupper, *Les nomades en Mesopotamie*, 1957; Th. Jacobsen, *The Sumerian King List* (*Assyriologyical Studies No.* XI), 1939; E. A. Speiser, Ancient Mesopotamia, by R.C. Dentan, *The Idea of History in the Ancient Near East*, 1955, 35 f.

(٣) Mallowan, *op. cit.*, 243—244.

مبالغات واختلاقات ، فهى قدا تضمنت حقيقتين ، وهما : فكرة حدوث طوفان قديم فى أرضهم ، ثم قيام أوضاعهم السياسية على أساس وجود المدن المستقلة المتفرقة .

وسوف نعرض لتفاصيل قصة الطوفان حين الحديث عن آداب السومريين فى أواخر عصرهم بعد قليل ، وحسبنا الآن عنها أن البحوث الأثرية الحديثة كشفت فى الطبقات السفلى العتيقة لمدن أور ، وشوروباك ، وكيش، عن آثار فيضان كاسح طمس على عمرانها بطبقات من الطمى تراوح سمكها فى بعض المواضع بين نصف المتر وبين الثلاثة أمتار . ويرجع البعض هذا الطوفان إلى أوائل الألف الرابع ق.م ، بينما يرجع بعض آخر بداية عصر ما بعد الفيضان إلى قبيل استقرار السومريين بالعراق فى أوائل الألف الثالث ق.م (١).

وكما جرى فى مصر القديمة وغيرها احتفظ حكام سومر الكبار الأوائل برئاسة شئون الديانة من الناحية الرسمية باعتبارهم خلفاء أو وكلاء عن أربابهم ، ولكنهم خلعوا الممارسة الفعلية للكهنوت على أبنائهم وكبار الكهنة والأعوان من الناحية الواقعية . واندرج فى سلك المعابد عدد كبير من طوائف الكهنة والكاهنات ، أولئك الذين كانوا يتلون التراتيل والتعاويذ والدعوات ، ويقدمون القرابين ويعنون بالتماثيل ومحتويات المعابد ويترجمون عن وحى ربهم واستخاراته ، ويقيمون أعياده بأناشيدهم وموسيقاهم ورقصاتهم ، ويرأسون شعائر العبادة ويفرضون وجودهم على شعائر الموتى . واحتفظت النصوص لهؤلاء الكهنة بألقاب كثيرة كانت منها ألقاب : إن ، وجونج ، ولو ماخ ، وسنجا ، وسنكوماخ . . . إلخ ..

ويبدو أن الإقبال على عمل الاستخارات وتعرف وحى الأرباب والإحتكام إليهم فى القضايا ، والقسم فى حضرة تماثيلهم ، كان أمراً شائعاً بين الكبار والعاديين من السومريين المتدينين ، وأصبح استيحاء الوحى بذلك مورد رزق واسع لطائفة العرافين ، وهؤلاء روى خلفاؤهم عرافو العصور المتأخرة أن منهم من كانوا يمارسون مهنتهم عراة ، وأنهم تلقوا أسرار مهنتهم عن إنميدور انكى أحد الملوك المقدسين الذين روت الأساطير أنهم حكموا العراق قبل الطوفان . وصورت بعض المناظر السومرية كهنتها يؤدون وظائفهم عراة فعلا(٢).

وكالعادة ظلت أطلال المعابد الرئيسية والقصور الكبيرة أكثر بقاء من غيرها ،وجرى السومريون على عادة سابقيهم فى بناء الهياكل الدينية الرئيسية فوق مسطحات عالية ، إلى جانب بناء المعابد الأرضية العادية . واشتهرت معابد المسطحات العالية (بعد تطويرها) باسم « زقورة » وبمعنى القمة المرتفعة أو المدببة . وأطلق السومريون إسم « شاخورو » بمعنى « قاعة الإنتظار » على كل من الهيكل العلوى الذى يعلو بناء الزقورة وعلى القاعة التى تسبق قدس الأقداس فى المعابد الأرضية ، ويبدو أنهم عنوا به فى الحالة الأولى قاعة إنتظار تجلى المعبود الأكبر للمدينة فى مناسبات خاصة ، ثم عرفوها بهذه الصفة باسم « جيجونو » . وليس ما يعرف عن

---

(١) Woolley, *Excavations at Ur,* 28 f.; Martin A. Beek, *Atlas of Mesopotamia,* 1962, 12; Mallowan, *Iraq,* XXVI, 1964, 69 f., 74 f.

(٢) J. B. Pritchard, *The Ancient Near East,* Fig. 154.

هذه المناسبات الخاصة غير إشارات تضمنتها نصوص متأخرة وتحدثت فيها عن أعياد رأس السنة (الزراعية) والزواج المقدس لبعض الأرباب ، وعلى رأسهم دوموزى رب الإخصاب والرعاة ، الذى يظل حبيساً فى العالم الآخر خلال فصل الجفاف الذى يتراوح بين أسابيع وبين ستة شهور ، فتأسى عليه زوجته أو أمه ويشاركها الناس أساها بالعويل والرثاء والدعاء خلال شهر تموز قبيل بداية كل رأس سنة جديدة ، وتستمر طقوسهم حينذاك عدة أيام يتخيلون أن دوموزى قد تخلص بعدها من عالم الفناء وبعث من جديد ، وحينئذ يعلن الكهنة بداية الزواج المقدس فى هيكله، كناية عن عودة خصوبة الأرض والأنعام وبداية موسم زراعى جديد ، وهكذا وصف دوموزى فى بعض نصوصه (المتأخرة أيضاً) بأنه زوج إشتار العروس ... خالق بذرة الكباش رؤوس القطعان » كما لقب بالثور البرى. وقد قيل عن رب مدينة لجش فى مناسبة مماثلة إنه حين يهبط للزواج المقدس بقرينته يكون كالعاصفة الهادرة والطير الجارح »(١) . ولازال الباحثون يرتبون على هذه الأعياد ، صوراً وتخريجات يستوحونها من النصوص والأساطير ولكن دون أن يصلوا بها إلى حد اليقين ، فيرى بعضهم أنه ليس المعبود وحده هو الذى كان يرجى أن يتزوج زواجاً رمزيا فى عيد رأس السنة وإنما إقتضت التقاليد كذلك بأن يدخل الحاكم الأعلى فى كل عيد بكاهنة يتخيرها ممن خصصن ونذرن أنفسهن للمعبودة إنانا ربة الحب والتوالد والأمومة (وصفات أخرى) ، ضماناً لخصب التربة وخصب الأرحام ، ويستشهد أصحاب هذا التخريج بوصف إيانا تم ملك لجش الأولى أنه الزوج المحبوب للمعبودة إنانا ، وإشارة جوديا ملك لجش الثانية إلى قيامه بدور الزوج لمعبودته باو وتأديته مراسم الزواج من اغتسال وتقديم للهدايا والقرابين . ثم الاستشهاد بأغنية سومرية متأخرة نوعا تناجى العروس المقدسة فيها الملك (شوسين آخر ملوك أور) باعتباره عريسها وتذكر أنه أسر قلبها وأنها تواجهه واجفة ، ثم تخاطبه بلقب الأسد وتطلب إليه أن يحتبيها لنفسه ، وتعرض عليه أن تداله بتدليل أشهى من الشهد ، وأن يدللها بدوره ويضاجعها حتى مطلع الفجر . . . . (٢) .

ويبدو أن أعياد الزواج هذه كانت تأخذ طابع المرح (بعد أيام النواح والدعاء) ، ويجرى فيها ما يجرى فى الأفراح من ولائم ورقص وعزف وقصف ، ويدخل المحتفلون ومعهم الأغصان الخضراء وكؤوس الشراب على تمثال معبودهم الذى يمثل أحياناً يمسك كأس شرابه بين يديه هو الآخر . (وعثر فى معبد بمدينة خفاجى من أوائل العصر السومرى على أكثر من ٦٠٠ كأس مهشمة يبدو أنها كانت من مخلفات أمثال هذه الأعياد) (٣) .

ولازال اسم دوموزى باقيا فى تسمية شهر تموز الذى كانت تجرى فيه مراسم الحزن على وفاته مقرونة بموت النبات صيفا حيث الجفاف والشمس المحرقة ، بينما يحتفى بمراسم بعثة وزواجه فى شهر نيسان أول شهور

---

(١) *Op. cit.*, 30.

(٢) S. Kramer, *Tablets...*, Ch. XXIII; *Turk. Belleten*, XVI, 345 f.

(٣) Frankfort, *op. cit.*, pl. 13, p. 24, n. 25; *Sculpture of the Third Millennium...*, 1939, 45 f.

السنة البابلية . وكان من تفسير اسم دوموزى أنه الابن المخلص والثور البرى ، وكان له وجهان كرب للرعى والرعاة ورب للإخصاب ونمو النبات (١) ويمكن أن يقرن الاعتقاد فى بعثة المتجدد واعتباره ممثلا لعنصر الإخصاب فى الطبيعة وجامعا بين صفت الربوبية والبشرية بالاعتقاد فى البعث المتجدد لأوزير رب الخصب وخلوده فى مصر القديمة، وقصة أدونيس عند الفينيقيين والإغريق ، و بعث الإله بعل عند الكنعانيين .

واحتفظت مـــدن العراق بأطلال بسيطة من أبد العصر السومرى الأول ، ومنها معبد بلدة خفاجى الذى بنى وسط مساكن بلدته ، وشيد بالتخطيط المستطيل المعتاد فوق مسطح بلغ إرتفاعه نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر ، وتقدمه (فى مرحلة تجديده الحادية عشرة) فناء صغير ، وأحاطت به حجرات جانبية ضمه معها سور بيضاوى . وتقدمت هذه المجموعة ساحة كبيرة أخرى تضمنت فيما يبدو مبانى الإدارة ومساكن الكهنة وأتباع المعبد ، وأحاط بهذه الساحة وبمجموعة المعبد معا سور بيضاوى آخر كبير يحف بمدخله صرحان مرتفعان (٢) .

ومن نماذج أطلال المعابد الأخرى الباقية ، معبد فى العقير (جنوبى بغداد بنحو خمسين ميلا)(٣) ، تألف من دكة (أى مرتفع ممهد) على هيئة نصف الدائرة العلوى ، شكلت جدرانها الخارجية بمشكاوات رأسية ، ولها درجان متقابلان فى نهايتى واجهتها ، ويعلوها مسطح يؤدى إليه درج . ويعلو هذا المسطح بناء المعبد العلوى وهو مستطيل شكلت جدرانه الخارجية بمشكاوات رأسية لونت بجص أبيض . وتألف المعبد فى داخله من مقصورة رئيسية تتضمن المذبح ومائدة القرابين ويحيط بها صفان من أربع حجرات . وكسيت جدران المقصورة الداخلية بملاط أبيض رسمت عليه أفاريز ملونة من أشكال هندسية وأشكال بشرية وحيوانية ، ومنها أشكال نمور أو لبوات مرقطة رائعة التصوير بالنسبة لفنون عصرها .

واحتفظت بلدة العبيد بأطلال ثلاثة معابد متعاقبة بنى بعضها فوق أطلال بعض ، ويحتمل أن أولها وهو معبد ننخر ساج بدأه « آ – آنى – بدا » أحد ملوك أسرة أور الأولى فى عصر بداية الأسرات السومرى . وتضمنت أطلاله الباقية أجزاء بسيطة من قاعدته وجدران واجهته اللبنية ذات المشكاوات الرأسية ، ودرجاً حجرياً كان يؤدى إلى ربوته ، وعدة آثار فنية أخرى صغيرة ، وذلك مما سمح للأثرى الأستاذ وولى (٤) بتخيل صورة تقريبية لما كان عليه هذا المعبد حين إنشائه ، ولو أنها صورة مغالية بعض الشيء بالنسبة لعصرها ، فهو يتخيله فوق مرتفع (مكسو) بالآجر يؤدى إليه درج عريض من الحجر المستورد ، ويقوم على رأس الدرج مدخل ذو أعمدة ، يربض على جانبيه أسدان نحاسيان فى حجمهما الطبيعى (؟) طعمت

---

(١) فاضل عبد الواحد : عشتار ومأساة تموز– طبعة ثانية – بغداد ١٩٨٦ ومراجعه

(٢) P. Delougaz, *The temple oval at Khafaje*, Chicago, 1940.

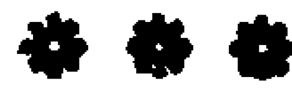
(٣) كرامر : المرجع السابق : لوحات ٣٥–٣٧ .

(٤) *JNES*, II, No. 2; and *see*, *Iraq*, V (1938), 1 f. (for a similar temple at Al-Ubaid).

عيونهما وأسنانهما باليشب والصدف ، ورفعت أسكفة الباب على أسطوانتين من جذوع النخيل طعم مسطحاهما بصفوف من الفسيفساء مثبتة بالقار ومشكلة على هيئة مثلثات ومعينات تتعاقب فيها ألوان الأحمر والأسود ولون الصدف، ويعلو الأسكفة لوحة مستطيلة صفحت بالنحاس وشكلت واجهتها بشعار إله المعبد بينما زخرفت الجدران الداخلية الرئيسية لمقصورة المعبد بنقوش بارزة تمثل أنعاماً وعقداً من أزهار مختلفة ألوانها تعلوها أفاريز من لوحات خشبية محوطة بأطر نحاسية أرضيتها عجينة سوداء طعمت بقطع دقيقة من المحار والأصداف والحجر الجيرى تمثل صفوفاً من الطير وصفوفاً من الثيران يعلو بعضها بعضاً ، وتألفت صورة كل ثور من ست أو سبع قطع من الصدف صنعت ورتبت بحيث تعبر عن تدرج مسطح جسم الحيوان . ثم صفوف لبقرات حاوب وعجول صغار كمت أفواهها حتى لا تزيح الرجال الحالبين عن ضروع أمهاتها ومناظر تعبئة اللبن وصبه بأقماع فى قدور كبيرة ، وإعداد اللبن لعمل الزبد . ويضيف وولى إلى ذلك أنه كانت تلتصق بجدران المعبد تماثيل نحاسية ، وتتضمن داخليته تماثيل حجرية ومزاهر سجل عليها مهدوها الأتقياء أسماءهم . ولو أن هذا كله فيما يبدو لا زال يحتمل الشك من حيث الصورة وربما من حيث الزمن أيضاً.

وعلى أية حال فقد صورت نقوش العصر وآثاره القليلة الباقية ، ما تضمنته معابده من كنوز فنية تناسب عهودها ، فصورت عروش الأرباب تحملها تماثيل الأسود والفحول الباركة ، وصورت موائد الطيوب والدهون تحملها تماثيل معدنية على هيئاتِ حيوانية لطيفة(١) . وذلك بطبيعة الحال فضلا عما كانت تتضمنه من تماثيل أربابها وحكام مدنها وربما كبار كهنتها أيضاً .

واعتاد بناة المعابد السومرية على أن يضعوا فى أساساتها ودائع من تماثيل ولوحات وأوان تتناسب مع أهمية المعبد ورخاء عهده وثراء الحاكم فى بلده . وعادة ما كانت هذه الودائع توضع فى صناديق من الآجر الممزوج القار ، ويكون من تماثيل الحاكم الصغيرة فيها ما يمثله يحمل قصعة ملاط على رأسه باعتباره بانى المعبد ورمزاً على اشتراكه الفعلى فى وضع أساسه(٢) . ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة « هيكل » التى لاتزال تستعمل بين رجال الدين العبرانيين والمسيحيين ، كانت سومرية الأصل وكانت تكتب إكللو أو إجاللو(e-gallu) بمعنى البيت الجليل ، ثم إنتقلت إلى العبرية وأضيفت إليها هاء التعريف وتناولها بعض التصحيف . وإذا صح ذلك إنضاف إلى بقية تأثيرات العهود السومرية على ما أتى بعدها ، على الرغم من قدم زمنها .



(١) Frankfort, *The Art and Architecture*..., Fig. 12.

(٢) جون هامرتون : تاريخ العالم – معرب بالقاهرة ، جـ٢ – شكل ص ٥٥٤ .
E. de Sarzec & Heuzey, *Découverts en Chaldée*, pl. 2 ter; 5 bis.

الفصل الخامس عشر

العصر الأكـــدى

٢٣٤٠ – ٢١٨٠ (أو ٢٣٧١؟ – ٢٢٣٠) ق . م .

كان الأكديون فرعاً من هجرات امية متوالية تكاثرت أعدادها فى بوادى العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث ق.م ، ثم إنشعبت فرو كثيرة ، فكان منها ما إنتشر فى نواحى الشام واتجهت آمال بعض جماعاته إلى مناطق الهلال الخصيب فيها ، كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة فى أواسط حوض نهر الفرات بالعراق . وتقدم أن أصحاب الشعبة الأولى عرفوا باسم أطلقه السومريون عليهم وهو « الأمو ريون » ربما بمعنى أهل الغرب (وإن ذكرت نصوص بابلية أحد آلهتهم الكبرى باسم أمورو مما يحتمل معه نسبتهم إليه) . أما جماعات الشعبة الأخرى فكان أظهر فروعها فرع « الأكديين » الذين إكتسبوا إسمهم بالإنتساب مؤخراً إلى العاصمة أكد (أو أجادة) التى أصبحت مركزاً لنشاطهم السياسى والحربى بعد فترة من استقرارهم بالعراق وبعد أن انتظمت أمورهم وعز شأنهم فيه .

وليس ما يعرف يقيناً عن تفاصيل الظروف التى هيأت لهذا الفرع من الساميين الاستقرار فى بلاد النهرين والتأثير فى مجريات أمورها ، ولكن يمكن القول إحتمالا بأنهم بدأوا دخولهم إليها عن طريق التسلل البطىء على من تقدموهم من أوائل الساميين وربما من ترجم عنهم تجاوزا باسم الجزريين ، حيث وجدت أسماء وألفاظ سامية متفرقة فى نصوص سومر منذ أواسط الألف الثالث ق.م . ومن أقدم ما أمكن ترسمه من هذه الألفاظ كلمة مكر بمعنى تاجر ، وكلمة نانجار بمعنى نجار ، فضلا عما ورد فى القوائم السومرية من تسمية بعض ملوك ما بعد الطوفان بأسماء سامية ، بل وإحتمال سبق الطوفان بملك آخر قديم سمى ألوليم وهو إسم سامى أيضاً(١) . ويبدو أن تطاحن المدن السومرية فى العراق الجنوبى من أجل الزعامة الداخلية صرف أنظارها عما كان يجرى على أطراف الفرات ، وذلك على الرغم مما ادعته نصوص زعيمها زاجيزى السومرى من أنه استطاع أن يمد فتوحه من البحر الأدنى حتى البحر الأعلى بالعراق .

وفى هذه الظروف المحتملة ، انفسح سبيل السعى أمام أهل الهجرات الجديدة الفتية فنزلوا وسط الفرات أووسط العراق على من سبقوهم من بنى عمومتهم أصحاب الدماء السامية القديمة المتناثرة ، وسيطر زعماؤهم على بضع مدن عتيقة كانت أهمها مدينة كيش صاحبة الأثر القديم فى مجريات الحوادث بين المدن السومرية

(١) See, A. Deimel, *Die Inschriften von Fara,* I, 35, III, 5 ; Salonen, *Studia Orientalia,* XI,, 1, 23 ; Falkenstein, *Compte rendu* ... , II, 13.

الكبيرة الواقعة إلى جنوبها ، فاستفادوا من حضارتها ، هي وأمثالها ، وتأقلموا عليها شيئاً فشيئاً ، ولم يكن لديهم ما يضيفونه إليها وهم أنصاف بــدو ، غير دماء فتية طموحة قدر لها فيما بعد ، كما سنرى بعد قليل ، أن تنجح في تكوين أول دولة كبيرة مركزية مستقرة في العراق ، وأن تشكل مستقبله الدولي خلال ما يقرب من قرن ونصف قرن ، واستطاعت أن تذهب بولاء الأفراد والجماعات لمدنهم وزعمائهم المحليين ، إلى الولاء للدولة في مجموعها ولحاكمها الأعلى الكبير ، ودعت إلى نوع من تعظيم أولى الأمر الكبار زكى فكرة تقديس كبار الحكام ونعتهم بنعوت الربوبية مما لم يكن له من قبل غير ظل خفيف (ص ٤٧٥) ، وإن لم يسلم الجميع بصواب هذه الفكرة على سواء . وأدخلت معها ألفاظاً ومسميات سامية وجدت سبيلها إلى لغة العقائد والأدب وأسماء الأفراد (١) ، فأدخلت إلى مجالات الديانة إسمي سين وشمش ربي القمــر والشمس ، إلى جانب إسميهما السومريين القديمين ننار وأوتو ، واسم إيا في مقابل اسم إنكي رب المياه الأزلية والحكمة السومرى ، وإسم المعبودة إشتار ربة الزهرة (وهي عشتار وعثترة وعشتروت عند الساميين الغربيين) التي شابهت إنانا السومرية . وربما عني اسم إشتار في بدايته معنى الإلهة ومعنى المقدسة ، والمنذورة للزواج المقدس(٢) . كما أدخلت معها بضع صفات ربانية مثل بعل بمعنى سيد ، وإيل (أو إل) بمعنى الإله(٣) وذلك فضلا عن لقب « شار » أو « شارو » بمعنى ملك وقد حل محل لقب لوجال السومرى القديم . وألقاب كهنوتية مثل أشيبو بمعنى كهنة الطقوس ، وعدد كبير من أسماء الأفراد منها إسم يقرب من إسم « إشماعيل» (أو يشمع إل) ونرى له دلالة بالغة الأهمية ، إذ أن ظهوره منذ أكثر من أربعة آلاف عام يدحض دعوى بعض غلاة اليهود ممن أرادوا أن يشككوا العرب الشماليين فيما تواتر عن نسبهم إلى إسماعيل عليه السلام ، بدعوى أن إسم إسماعيل لم يعرف له مثيل يسبق ظهور الإسلام بكثير ، على الرغم من ورود هذا الاسم فعلا فيما لديهم من العهد القديم .

وتعاقب على حكم كيش عدد من الرؤساء الجدد ، ثم ورث العرش عنهم أو اغتصبه منهم شخص من الساميين اشتهر باسم شروكين ، وذكر عن نفسه في نقوشه أنه نشأ من أصل متواضع ، وأنه لم يعرف أباه ، وأن أخواله استحبوا حياة المرتفعات ، وأن أمه ولدته خفية في مدينة أزوبيرانو على ضفة الفرات ثم وضعته في سلة من البوص أحكمت غطاءها بالقار وألقت بها في النهر ، فاحتمله المــاء حتى انتشله فلاح مبارك يدعى أكي وهو يعمل بالشادوف على ضفة النهر ، فاتخذه ولداً وعلمه صنعة البستاني ، ثم شملته الربة إشتار (وهي

(١) J. Gelb, *Old Akkadian Writing and Grammar*, 1952.

(٢) فاضل عبد الواحد : المرجع السابق — ومراجعة — بغداد ١٩٨٦—ص ٣٢—٣٣ .

(٣) J. Bottéro, "Les Divinites Semitique Anciennes en Mesopotamie", *La Antiche Divinita Semitiche*, Rome 1958, 17—63 ; S. N. Kramer, 5 Sumero-Akkadian Interconnections, Religious Ideas, *Recontre Assyriologique Internationale*, IX, 1960, 272—283.

عشتار عند الساميين الغربيين كما أسلفنا) بحبها ورفعت قدره (١) . ولم يقصد الرجل إظهار التواضع بهذه الرواية بقدر ما تعمد تأكيد عصاميته ورعاية الربة له ووصوله إلى اعتلاء العرش بفضل تأييدها . ومن المستبعد أن يكون قد سلم بولادته سفاحا ، وإنما قد يفسر عدم معرفته لأبيه بأن أمه كانت ممن وهبن عفافهن لربها ومعبده ، أوكبير كهنته من حيث الواقع تدليلاً على تبتلها فى خدمته وتضحيتها بعفافها فى سبيل خير مدينته . ويبدو أنه بعد أن شب عن طوقه وصل فى مدارج نجاحه الوظيفية إلى مرتبة ساقى القصر الملكى بكيش ثم وثب على عرشها فى ظروف غير معروفة .

اعتلى ذلك الرجل العرش باسم شروكين (Sharru-ken) ، أى الملك الصادق ، أو الملك الشرعى ، أو شئ من هذا القبيل (٢) ، واعتادت كتب التاريخ على أن تحور هذا الإسم إلى نطقه الإغريقى وهو سرجون وسوف نجرى فيما يلى على استخدام هذا الإسم الأخير لشيوعه على الرغم من تحريفه . ووجه الرجل عنايته منذ أيام حكمه الأولى إلى قواته المحاربة ، واستخدام الأسلحة البرونزية ، وزاد الاهتمام منذ عهده بتقوية الفرق ذات الأسلحة الخفيفة من القواسة ، وارتقت فى جيشه أساليب المبارزة الفردية ، وذلك مما يتفق مع الأصل شبه البدوى له ولبنى جلدته فى هذا الجيش .

اتخذ سرجون عاصمة جديدة قريبة من كيش عرفها التاريخ باسم أجادة (السومرى) واسم أكد (السامى) أو عمل على تجديدها ، ربما باعتبارها من المراكز الرئيسية لعبادة الربة إشتار (أو عشتار التى اعتبرها راعيته منذ صغره) ، وكان معبدها فيها يسمى « يولماش » (٣) ، ونقل إليها بلاطه ليتميز عهده عن عهود من سبقوه شكلا وموضوعاً ، ومهد لآماله الداخلية بتلقيب نفسه بلقب « ملك أرض سومر وأكد » (Sharru mat Shumeri u Akkade) بعد أن قصرت همة معاصره زاجيزى السومرى على لقب ملك سومر وحدها . ثم مهد لأطماعه الخارجية بأن ادعى لنفسه لقب « شاركبرات أربعيم » ، أى ملك الجهات (أو الأركان أو المناطق) الأربع (٤) ، وهو لقب اعتاد أسلافه أن يخصوا به سلطان أربابهم الكبار ، فانتحله لنفسه وابتغى أن يقنع به نفسه ويقنع شعبه بأنه نائب الأرباب على جهات الأرض كلها .

وطال عهد سرجون نحو أربعة وخمسين عاماً ، فاستطاع أن يحقق الكثير من آماله ، وسارت سياسته على أساس خطة مرسومة ، وبدأ بما هو أقرب إليه ، فدعم سيطرته على أصحاب الرؤوس السود ، على حد تعبير نصوصه ، ثم اتجه إلى شمال العراق حيث تقل سيطرة السومريين ، وواصل فتوحه هناك حتى بلغت

(١) L. W. King, *Chronicles concerning early Babylonian kings,* II, 86 f. ; E. A. Speiser, *ANET,* 1955, 119.

(٢) Brit. Mus. 26, 472, *cf.* J. Lewey, *Hebrew Union College Annual,* XIX, (1946), 420, 480.

(٣) Th. J. Meek, *ANET,* 165, n. 33.

(٤) وازى هذا اللقب لقب سومرى تتألف كتابته من المقاطع « آن – أوب – دا – لمو – با » ، ثم عبر الأشوريون عن مثله بلقب « شار كشتى » بمعنى ملك الكون .

جيوشه جبال زاجوراس التى تحف ببلاد النهرين وكسرت حدة الجوتيين الجبليين الأشداء بأسلحتها البرونزية .
وبعد أن أمن ظهره واستفاد من موارد المناطق الشمالية ، عاد سرجون وألقى بثقل جيوشه على المناطق الجنوبية السومرية وقد سبقته شهرته وسمعة انتصاراته إليها فخضت من شوكتها ، وشدد على زعيمها الطموح زاجيزى الذى طال عهده ، فهدم بجيشه أسوار مدينته وقسا فى معاملته حتى ذكر أحد نصوصه أنه أمر بتطويق عنقه وجره حتى بوابة إنليل (١) ، ربما ليخلع عنه ألقابه الدينية والدنيوية أمام المعبود إنليل ويخلعها على نفسه ، ثم هاجم بجيوشه بقية المدن السومرية الكبيرة من أمثال أور وإينار وغيرهما ، وبلغ بجيوشه البحر (أى الخليج العربى) وغسل سلاحه فيه ، وحق له حينذاك لقبه الذى ادعاه لنفسه وهو لقب ملك أرض سومر وأكد ، وتوافرت لدولته الموحدة منذ ذلك الحين إمكانيات بشرية وموارد مادية ضخمة لم تتهيأ للدويلات المدن السومرية أو السامية القديمة قبل عهده ، كما توافرت لها السيطرة على شرايين التجارة الرئيسية فى معظم بلاد النهرين .

وبقى لسرجون أمله الآخر ، وهو السيطرة على ما يستطيع السيطرة عليه فيما وراء حدود بلاده ، لتأمين سلامتها وتأمين سبل تجارتها الخارجية وضمان تزويدها بما ينقصها من المواد الأولية ، فضلا عن إشباع شهوة المجد الحربى عنده وحب الشهرة والرغبة فى الاستزاده من النفوذ والسلطان . فوجه جيوشه إلى التخوم الغربية لدولته ، وبدأ بالمنطقة المحيطة بدويلة مارى « وجعل فمها واحدا » (٢) أى وحد كلمتها أو وحد حكمها تحت سلطانه ، ثم وجه جيوشه إلى الحدود الغربية لدولة إلام (عيلام) ، حيث حالفها النصر ، فترتب على ذلك أن وقفت إلام كما وقفت مارى موقف الطاعة منه على حد رواية نصوصه . وأصبح لدولته بعض الإشراف على المناطق التجارية المتصلة بالخليج العربى والقريبة منه ، مثل جزيرة دلمون (جزيرة البحرين) ، وماجان التى يحتمل أنها كانت تشغل ما تشغله عمان الحالية ، وملوخا التى يحتمل وقوعها بين المنطقتين السابقتين . وكانت ثلاثتها من البلاد البحرية والساحلية ذات الخبرة بالملاحة وصناعة السفن ، فسارت سفنها على مياه أكد ، على حد قوله ، أو بمعنى آخر سارت السفن المصنوعة من أخشابها وبأيدى رجالها فى الفرات حتى جاوزت عاصمته أكد .

وأضافت نصوص سرجون ، إن حقاً وإن ادعاء ، أن سلطانه امتد حتى غابة الأرز وجبل الفضة ، وقد يعنى هذا بلوغه منطقة أمانوس المنتجة للأخشاب والفضة (إن لم يعن منطقتى لبنان وطوروس) . وذكرت أنه خاض أربعاً وثلاثين معركة وانتصر فيها (٣) . ثم نسبت إليه نصوص خلفائه أنه غزا جانيش (أوبور شخاندا – قرب جول تبة الحالية) فى كبادوكيا بآسيا الصغرى انتصاراً لجالية أكدية كانت تتعامل فيها فى الصوف والفضة وتعرضت لاضطهاد أحد الحكام المحليين فيها (وهو نورداجان ملك بورشخاندا) ، فأخذ

(١) G. A. Barton, *op. cit.*, 101 ; Leo Oppenheim, *ANET*, 267.
(٢) Brit. Mus., 26, 472 ; Oppenheim, *op. cit.*, 266.
(٣) Anno Poebel, *Historical Texts*, 1914, 175, 178 ; L. Oppenheim, *op. cit.*, 268.

سرجون بثأرها . وهاجمها جيوشه ، وقيل إن رجاله أرسلوا منها فسائل جديدة من التين والكروم والأزهار إلى بساتين عاصمته (١) . ولا ضرورة للتسليم بحرفية هذه الرواية وأشباهها ، وإن لم تخل من دلالة على ما توافر للرجل من شهرة بين خلفائه بحيث اعتبروه أهلا لكل أمر عظيم واعتبروا نهضة عهده أصلا لامتداد نفوذهم الخارجي ودليلا على قدمه . وتذكرنا نجدة سرجون فى أكد لمواطنيه فى آسيا الصغرى بنجدة المعتصم فى بغداد المجاورة لها لمن استنجدت به فى عمورية بآسيا الصغرى أيضاً — مع الفارق الزمنى الكبير بينهما .

ذاعت شهرة سرجون إلى هذه الحدود فى عالمه القديم . وذكرت نصوصه أن أهل بلاطه انتشروا فيما لا يقل عن خمسة أميال مربعة حول قصره ؛ وأن حراس قصره بلغوا ٥٤٠٠ جندى كانوا يأكلون يومياً من أسمطته (٢) . وليس من شك فى أن عهد هذا الرجل يعتبر نقطة تحول رئيسية فى تاريخ بلاد النهرين لأكثر من سبب واحد : فهو كما رأينا كان أول من عمل على توحيد أجزاء كبيرة منها تحت زعامة سياسة واحدة ، بينما لم تزد آمال سابقيه الأقربين على توحيد أرض سومر وحدها . وهو أول من ثبت دعائم أسرة سامية حاكمة قرية استمرت تعتلى العرش نحواً من قرن ونصف قرن . ويغلب على الظن أنه حدثت فى عهده محاولة من أقدم المحاولات لتقريب أسماء الشهور فى المدن العراقية من بعضها البعض تمهيداً لتوحيد التقاويم فيها وإن لم يقدر لهذه المحاولة استمرار طويل . ولا يقل أهمية عن ذلك كله أنه وبعض خلفائه الأقربين كانوا أول من حققوا لبلاد النهرين نفوذاً خارجياً سيطرت به على بعض ما يجاورها حدودها من مناطق وجماعات (٣) .

ومع ذلك كله انتهت حياة سرجون السياسية على غير ما توقعه لنفسه ، فنشبت ضده ثورات عدة ، وأيدت هذه الثورات جماهير سهل سوبارتو ، وبلغ من عنف الثوار أن حاصروا عاصمته ، ولكنه قاومهم بجيشه وشتت شملهم ثم انتقم من مدنهم. وعندما ابتغت نصوص خلفائه أن تجد تفسيرا للمتاعب التى واجهها فى خواتيم عمره ، ردتها إلى انتقام إلهى ، وذكرت أنه كان قد نكل بمدينة بابل مدينة الرب مردوك فى ثورة غضبه وأزال أساساتها الموسومة بإسمه ثم أعاد بناءها على هواه ، فغضب مردوك عليه وابتلى قومه بالمجاعة وفرق شملهم من حوله وقضى عليه بعدم الراحة (فى قبره) (٤) . ولا يعنينا من هذا التفسير الدينى إلا اعتباره صورة من تخيلات الشعوب القديمة عن أسباب زوال الدول ، وبخاصة أن عبادة مردوك لم يكن لها شأن كبير فى أيامه، وأن نصوص سرجون صورته حريصاً على التقرب من أربابه واعتبرته رئيس كهنة إشتار ، والكاهن المنتخب

---

(١) *Boghazkoi-Studien* (*Yale Oriental Series*), facs. 6 ; Albright, *JSOR*, 1923, 1 f.
ل. ديلابورت : المرجع السابق — ص ٣٣ — وروى عن سرجون أنه وصل (أى وصل نفوذه) حتى كفتارة ، وقد قربها بعض الباحثين إلى كفتورة التوراة أو كريت الحالية ، وهو أمر مشكوك فيه . G. Roux, *Ancient Iraq*, 1966, 143.

(٢) Ebeling, in *Alt. Texte zum alten Testament*, 338 ; Oppenheim, *op. cit.*, 268.

(٣) H. E. Hirsch, Die Insehriften der Konige von Agade, *AfO*, XX, 1963, 1—82.

(٤) Brit. Mus. 26, 472 ; E. Ebeling, *op. cit.*, 336 ; L. Oppenheim, *op. cit.*, 266 ; F. F. Weidner, *Archiv fur Orientforschung*, XIII (1940—1944), 236, n. 26.

للإله آنو ملك الأرض، والإنسي العظيم لإنليل . وذكرت أنه ركع ذات مرة فى صلاته أمام المعبود داجان(١)، كما نصب ابنته كاهنة لإله القمر ننار فى أور .

لم تنته القلاقل فى الدولة الأكدية بانتصارات سرجون العجوز ، وإنما استمرت فى عهود خلفائه واستنفذت بعض جهود دولتهم ، فاشتبكت جيوش ولده « ريموش » فى فترة حكمه القصيرة مع مدن أور وأوما ولجش ودير من عواصم الحضارة السومرية الأولى (٢) . وإن كان صراع جيوشه معها لم يصرفه عن أن يؤكد انتسابه إلى أرباب مدينة « كيش » السومرية القديمة ، فاستمسك بلقب « شارو – كيش شاتيم » وهو لقب وصل بينه وبين ربها « آنو » وحاشيته ، ولم يصرفه كذلك عن مواصلة جهود أبيه فى مجالات التوسع الخارجى ، فشنت جيوشه حروباً ظافرة على أرض فى عيلام (٣) . ثم واصل خليفته « مانيشتوسو » سياسته وادعت نصوصه أن جيوشه هاجمت حلفاً من إثنين وثلاثين أميراً على الشاطئ العيلامى لتأمين استغلال مناجم الفضة القريبة منه(٤).

غير أن أكبر من يقرنه التاريخ بسرجون من رجالات أسرته هو حفيده البعيد نرام سين الذى أكمل آماله بعزيمة راسخة، وتوافر له عهد حكم طويل استمر نحو ٣٦ عاماً ، وذكرت نصوصه أن مناطق نفوذ دولته اتسعت شرقاً فى إلام (عيلام) وشمالا على حدود آسيا الصغرى وجنوباً بشرق فى ماجان التى استغل رجاله محاجرها الديوريتية ، وغرباً حتى أمانوس (جبل الأرز) . وذكرت إحدى القوائم المتأخرة التى سجلها خلفاؤه أنه قبض بنفسه على مانو دانو ملك ماجان . وافترض بعض الباحثين ومنهم أولبرايت فى عام ١٩٢٠ رأيا غريباً بعيداً عن المنطق الزمنى والمنطق التاريخى زعموا فيه أن ماجان هى مصر القديمة وأن مانو دانو هو تحريف لإسم الملك منى أول ملوك عصورها التاريخية (مع أنه حكم قبل عهد نرام سين بثمانية قرون) . وعاد أولبرايت فاعتذر عن تورطه فى هذا التخريج وأصبح رأيه غير ذى موضوع(٥). وروت نصوص نرام سين أنه غلب تسعة جيوش وأسر ثلاثة ملوك وقضى على ثورة تزعمتها ضده مدينة كيش . وربما يسر للنشاط الأكدى أن يمد أطرافه إلى قرب الشام أن مصر كانت تمر حين ذاك بأواخر عصر الانتقال الأول أو بداية الدولة الوسطى ولم تكن تبغى غير أن توثق روابطها بجيرانها فى الخارج عن طريق الحضارة دون السيطرة والغلبة . وعلى أية حال فليس من ضرورة للتسليم بحرفية ما جاءت به نصوص نرام سين عن انتصاراته المتكررة أو توسعه المتصل وإنما يكفى القول أنه أحيى عهد سرجون فى نشاطه العسكرى وسمعته الخارجية ، وأن توسعه هو وجده البعيد

(١) E. Ebeling, *op. cit.*, ; L. Oppenheim, *op. cit.*, 268.

(٢) زعمت نصوصه أن ضحايا هذه المدن السومرية بلغوا ٨٠٤٠ رجلا مرة ، و ٨٩٠٠ مرة أخرى ، غير أعداد الأسرى فى المرتين

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٣٤ .

(٤) V. Scheil, *MAP*, II, 1—52 ; *RISA*, 129—31 ; G. Roux, *op. cit.*, 144.

(٥) *See*, Albright, " Mines and Naram-Sin ", *JEA*, VI, 29 f. ; A. Ungand, *Archiv fur Orientforscehung*, XIV, (1941—1944), 199 f. *and compare* : Sayce, *JEA*, VI, 296 ; Langdon, *JEA*, VII, 123 f.

قد ساعد على انتشار الصبغة الأكدية السامية فى صورها اللغوية والأدبية الجديدة ، وبنواحيها الفنية ، فى بعض المناطق المجاورة شمالا وغرباً وجنوباً بشرق ، حيث تبادلت التأثير والتأثر مع غيرها . ووجدت لوحة مدرسية تتضمن جزءاً من موضوع تاريخى باللغة الأكدية ،كما احتفظت مدينة مارى بنصوص ذات صبغة أكدية عتيقة، إلى جانب أمثلة قليلة أخرى(١) .

الفنون فى العصر الأكدى :

تنسب إلى عهد سرجون بضعة أجزاء مهشمة من نصب وجد فى سوسه ، تصوره نقوشه تحت مظلة على رأس جنوده ، وهو يجمع أعداءه الأسرى فى شبكته أمام معبودته إشتار التى تعتلى عرشها ، أى أنه يقوم بمثل ما تضمنته لوحة العقبان السومرية باسم ملكها إأناتم ومعبوده نين جرسو(٢) .

ووجد قرص من الحجر الكلسى تصور نقوشه الأميرة إن خيدو أنا ابنة سرجون وهى تصب الماء المقدس وتتقدم موكب القربان ، وكانت قد اختيرت عروساً مقدسة لمعبود أور(٣) .

وثمة جزء من نصب من الألباستر بقى مما نقش عليه صف من الأسرى العراة قيدت أذرعهم ووضعت أعناقهم فى النير ، وقد اختلفت ملامحهم بما يعبر عن تعدد جنسياتهم . وظهر السادة المنتصرون بشيلان طويلة تغطى الكتفين وتتقاطع على الصدر ، ولهم شعور ولحى كثة تكاد تكون مقدمة مبكرة للأشكال الأشورية(٤) .

وسجل أحد فنانى نرام سين انتصاره على بعض خصومه (ملوك سودزرى ولولوبو فيما وراء دجلة) من المرتفعات الشرقية على لوحة مخروطية الشكل تشبه هيئة المسلة من الحجر الرملى ويبلغ أقصى ارتفاعها مترين وأقصى عرضها متراً ، كانت قد أقيمت فى معبد الشمس فى مدينة سيبار ثم نقلت فيما بعد إلى مدينة سوسه . وتعتبر مناظرها من أمتع النقوش الأكدية المتأثرة بالفن السومرى حيوية وحركة . وقد صور الملك فيها بجسم فارع مشدود على الرغم من لحيته الطويلة الكثة ، وبقوسه المزدوج وخوذته وتاجه ذى القرون وصندله ذى الشرائط ، يسير قدماً برجاله ليهاجم بهم حصن أعدائه ، وصور مقدمى جيشه وحملة ألويته يتقدمون صاعدين معه سفح التل الذى يقوم الحصن فوقه ويتخللون أدغاله (التى عبر عنها بشجرة هرمة) ، وأبدع الفنان تصوير حركتهم الصاعدة وتصوير العمق بين صفيهم ، وأظهر مبلغ أوامر الملك يأمر بها من خلفه ، ونافخ البوق يرتكز على الأرض بيده ويشرع بوقه عالياً ليرسل صوته قوياً ملوياً ، كما صور بعض الأعداء يتساقطون من سفح التل على أم رؤوسهم ، وصور بعضاً آخر يتراجعون ويهبطون التل هبوطاً اضطرارياً عمودياً ، وكأنه أراد أن يعبر عن التباين الحركى المتصل بين ارتقاء فى جانب وبين هبوط فى جانب آخر ، ثم جعل غاية الركب قمة جبل عظيم تتوجه رموز مقدسة محورة قد ترمز إلى الثالوث الكى ثالوث القمر والشمس والزهرة .

(١) I. J. Gelb, *Material for the Assyrian Dictionary*, I, No. 172 ; *Revue d'Assyriologie*, L., 1—10.

(٢) مورتجات : المرجع السابق – ص ١٥٧–١٥٩ ، لوحات ١٢٥–٢٢٧ .

(٣) المرجع نفسه – ص ١٥٩–١٦١ ، لوحة ١٢٨ .

(٤) المرجع نفسه – ص ١٦٦ ، لوحتا ١٣٦–١٣٧ .

واكتفى فنان اللوحة بتصوير الخطوط العامة فى وجوه رجاله دون تفصيل ، فيما خلا وجه الملك ، ولكنه عوض عمومية ملامح الوجوه بالتعبير عن القوة الدافعة فى نفوس أصحابها عن طريق تمثيل صدورهم الناهضة ورؤوسهم المشرعة واختلاف المستويات بين سيقانهم خلال عملية التسلق ، وصور ثيابهم رقيقة تكاد تشف عن أجسادهم على غير العادة فى أغلب الصور العراقية القديمة (١) .

وفى النحت طبعت الروح الأكدية فنون عصرها بطابعها ، فنحت المثالون لملوكهم الكبار تماثيل تقرب من أحجامهم الطبيعية وشكلوها بالملامح السامية الصلبة الدقيقة . وكانوا قد ورثوا عن أواخر العصر السومرى الأسلوب الواقعى فهذبوه ، ومن خير ما يستشهد به من انتاجهم الفنى رأس ملكية (لعلها للملك نرام سين) صنعت من البرونز بما يقرب من الحجم الطبيعى(٢) ، تخلى فنانها عن عادة التعبير باتساع محجرى العينين وشدة تحديقهما عن شدة بأس الحكام ومهابتهم ، وعبر عن شخصية نبيلة قبل كل شىء ، فاكتفى بتمثيل العين اللوزية السامية فى حجمها الطبيعى وأرخى جفنها الأعلى قليلا ، ولانت يده فى التعبير عن انحدار صفحتى الخدين وامتلاء الشفتين ودقة عظام الأنف ، وعنى بتمثيل اللحية المرجلة ولكنه أعطاها فى مجملها ملامح اللحية الطبيعية ووصل بينها وبين شعر الفودين وشعر الشارب ، وترك خصل الشعر الطبيعى الممشطة تتهدل على الجبهة بعد أن سوى أطرافها ، ومثل فى مؤخرتها غطاء الرأس أو الخوذة الملكية ، بعصابة مجدولة ذات شريط ذهبى تبرز مقدمتها قليلا إلى الأمام على هيئة العمامة وتنعقد مؤخرتها (مع جملة الشعر) من الخلف بحلقات معدنية ، وتنسدل تحتها ضفائر صغيرة تتهدل على العنق . . .

ومارس الفنانون مهارتهم فى الحجر . وبقيت من إنتاجهم عدة تماثيل للملك مانشتوسو بن سرجون وبعض كبار رجاله تميزت بتجسيد العضلات تحت الملابس(٣) . ويضاف إليها تمثال معبودة لجالسة قد تمثل إشتار(٤) ، وتمثالان لمتعبد واقف يحمل حملا منلوراً بين ذراعيه(٥) . وبقيت من إنتاجهم كذلك عدة

---

(١) *See*, Groenewegen- Frankfort, *Arrest and Movement*, 162 f.

ورجع عن نصب أخرى ونقوش مختلفة من عهد نرام سين :

Sidney Smith, *Early History of Assyria*, 96 f. ; L. W. King, *A History of Sumer and Akkad*, 245, Fig. 59 ; *Geographical Journal*, LXV, (1925), 63 f.

ديلابورت : المرجع السابق – شكل ٢٨ و ص ١١٢ ، مورتجات : المرجع السابق – ص ١٧٨–١٨١ ، لوحتا ١٥٥–١٥٦ .

(٢) Frankfort, *op. cit.*, Pls. 42—43 ; *Annals of Archaeology and Anthropology*, Liverpool, XIX, (1932).

مورتجات : المرجع السابق – ص ١٧٨ ، لوحة ١٥٤ .

(٣) مورتجات : المرجع السابق – ص ١٧٩–١٧٣ ، لوحات ١٣٩–١٤٦ .

(٤) نفس المرجع : ص ١٥٩ ، لوحة ١٢٨ .

(٥) نفس المرجع : ص ١٥٩ ، لوحة ١٢٩ .

رؤوس حجرية اختلفت فيما بينها فى درجات الإجادة وسلامة التعبير ، ومثلت رجالا ونساء من أور ومارى وآشور ونحتت من الكلس والألباستر والديوريت(١) .

واستفادت نقوش الأختام من الأساليب الراقية التى انتهى إليها عصر بداية الأسرات السومرى ، فحافظت على الخطوط الممتلئة اللينة ، واستفادت من تنوع الموضوعات ، ولكنها تأثرت إلى جانب ذلك بروح الكفاح الملحمى فى عصرها فعبرت عن مناظر الصراع الأسطورية القديمة تعبيراً منطقياً يظهر الجهد والعزم والحركة ولا يعتمد فقط على تصوير البطش والهيئة المخيفة ، ومن ذلك أن صورت إحداها بطلها بجسم الفحل يعصر رقبة أسد بيسراه ويستعين على ذلك بالارتكاز على إحدى ركبتيه وطرف قدمه ، ولم تجد بأساً فى أن تظهر علامات الجهد واضحة على ملامحه حين يرفع الأسد بكتفيه (٢) .

وعمل تقدير الأكديين للتراث السومرى على تشجيع فنانيهم على أن ينهلوا من أساطيره وعقائده ويترجموا عنها فى نقوش الأختام تعبيراً أكثر تفصيلا من تعبيرات العصر السومرى نفسه . ومن هذا القبيل أن نقش على ختم صغير من اللازورد مشهد قتال بين ثلاثة معبودات فى جانب ، وخمسة فى جانب آخر . وقد صوروا إله الجو يستقل عربته التى تصدر عن قرقعتها أصوات الرعد ويجرها مارد ينفث اللهب من فمه (٣) ، وصوروه فى حالة غضبه يصوب سهامه على فحل السماء (٤) . وصوروا بعض مواقف أسطورة « زو » ذى الجناحين والمخالب الذى سرق ألواح القدر من ربه الأكبر إنليل (٥) . وعبروا عن هيئات تقديم القرابين أمام تماثيل المعبودات بخطوط ومناظر واضحة لطيفة (٦) . وصوروا بعض تيجان المعبودات ذات القرون بما يماثل هيئات عمائمهم المخروطية التى تشبه القراقع ، وزادوا أعداد القرون الزوجية على رؤوس أربابهم الكبار (٧).

وينسب إلى أختام العصر الأكدى وما يقاربه (فيما سبقه وما تلاه) موضوع يمكن أن تقارن تفاصيله بفكرة المصريين القدماء عن إله الشمس . فقد صور الفنانون العراقيون فى هذه الفترة معبودهم الشمسى على عرشه تنبثق الأشعة من كتفيه على هيئة ألسنة اللهب ، ويجذف بمجذاف طويل فى قارب كبير من البوص والألياف المجدولة،وتوجوا مؤخرة قاربه برأس صل كبير . وصوروا معه فى بعض مناظره أسداً بوجه

---

(١) Frankfort, *More Sculpture*, Pls. 68, 72 ; G. Contenau, *Manuel* ... , 685, Figs. 474—5 ; *Bulletin of the Fogg Museum of Art*, Harvard University, IX, (1939), 13—18.
Frankfort, *op. cit.*, Pl. 45 a (Brit. Mus., 91478).

مورتجات : المرجع السابق – لوحات ١٣١–١٣٣ .

(٢) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 45 a (Brit. Mus., 91478).

(٣) *Ibid.*, 45 b.

(٤) *Ibid.*, Pl. 46.

(٥) ديلابورت : المرجع السابق – شكل ٣٠
and See : T. Fise, " The Zu Bird " *Bull. of the Rylands' Library*, XXXI, (1948), 162 f.

(٦) Frankfort, *op. cit.*, Fig. 17 a.

(٧) *Ibid.*, Fig. 17 b.

بشرى . كما صوروه يخرج فى ساعة الشروق بهيئة بشرية من بين جبلين ، ثم صوروه فى ساعة الغروب ينحدر بجسده فى قلب جبل عميق ويرفع بإحدى يديه غصناً ، وبالأخرى سكيناً ذات حافة مشرشرة ، ومن حوله إيا رب الحكمة ، ونينورتا رب الحرب والعواصف ، ومعبودة مجنحة (١) .

وكان كل من مركب إله الشمس والصل والأسد وجبل الشروق ، واختفاء الشمس فى جبل بعيد، من عناصر ديانة الشمس فى عقائد مصر القديمة . فهل عرفها العراقيون عن المصريين ثم نقلوا تصويرها بأسلوبهم الخاص ، وربطوا بينها وبين أساطيرهم الدينية ؟ ذلك أمر محتمل ، وإن تضمنت المناظر العراقية فى الوقت ذاته عناصر أخرى تختلف عن التصورات الشمسية فى مصر ، اختلافاً ملحوظاً .

وغالباً ما شفع صناع الأختام مناظر أختامهم بنصوص قصيرة مرتبة ، وتركوا على بعض سطوحها فراغات ليسجل فيها شارى الختم إسمه (٢) . واتبعوا فى استغلال سطوح الأشكال المصورة عليها ، والخرافية منها بوجه خاص ، أسلوباً قد يقبله ذوق وينفر منه آخر ، وهو ترقيش جسومها ورؤوسها بحبيبات وخطوط وتموجات تعبر عن الشعور والمخالب وزخارف الملابس .

وتخلفت بعض وثائق المعاملات الأكدية الصغيرة ، ومن نماذجها إيصال يتحدث عن مقدار من الشعير عهد به فلاح إلى تاجر ليبيعه بإسمه فى سوق مدينة لولوبوم (قرب السليمانية وشرق كركوك الحالية) ، وسجل كاتب الإيصال صنف الشعير ووزنه بالكور(٣) .

وتقرير صغير آخر عين كاتبه فيه مقادير الغلال التى تسلمها منه شخص معين ذكره بإسمه واسم بلده ، وكان عليه أن يصرفها لعدد من الرجال والنساء والأطفال شهراً بشهر لمدى أربعة شهور ،وجعل نصيب رئيس العمال ١٢٠ كو شهرياً ، ولأربعة عمال ٦٠ كو (للواحد ؟) ، وللجاريتين ٣٠ كو ، وللولدين ٣٠ كو ، ولطفلين ٢٠ كو ، ولبنتين ٢٠ كو . ثم جمع المقادير كلها فى الشهر فأصبحت كوراً و ٢٦٠ كو (والكور يساوى ٣٠٠ كو) ، وفى الأربعة شهور ٧ كور و ١٤٠ كو(٤) .



نهاية دولـــة :

أسلفنا أنه ترتب على جهود عهد سرجون وعهد نرام سين بخاصة أن اصطبغت حضارات بعض المناطق المجاورة لأطراف العراق بصبغة ثقافية متجانسة إلى حد ما ، فوجد الخط المسمارى سبيله على المسالك التجارية

---

(١) A. Parrot, in *Studia Marina*, 117 f. ; Frankfort, *op. cit.*, Figs. 15 b, 17 b.
ديلابورت : المرجع السابق

(٢) Frankfort, *op. cit.*, 44, Pl. 45.

(٣) Th. J. Meek, *ANET*, 217.

(٤) *Ibidem.*

إلى عدد غير قليل من مراكز الاستقرار المدنى فيما يجاور العراق من أطراف شمال سوريا وجنوب آسيا الصغرى وسواحل إلام (عيلام) ، كما انتقلت معه إليها بعض مظاهر الدين العراقى وأساطيره .

غير أن الدولة الأكدية وإن نجحت فى أغراضها التوسعية والحضارية إلا أنها لم تبرأ من بذور فشلها السياسى ، ولعل أهمها تأثيراً فيها هو أن ملوكها تعمدوا محاباة العنصر الأكدى على حساب العنصر السومرى ، وأسرفوا فى تأكيد مظاهر سلطانهم الفردى ، بحيث أصبح من أعوانهم من يسمى ولده شروكين إيلى بمعنى سرجون إلهى ، وأصبح أنصار نرام سين يرمزون إليه كما لو كان إله أكد وإله بلده وصوروه بتاج الأرباب(١) على حين أصبح حكام المدن فى عهده يلقبون بخدم الملك أو عبيده (٢) . وإذا كانت محاباة العنصر الأكدى قد وجدت مبرراتها لدى الحكام فى منطقية استعانتهم ببنى جلدتهم الساميين واطمئنانهم إلى إخلاصهم ، كما برروا الحكم المركزى بما يفيد الصالح العام للدولة ، إلا أن هذا التطور أدى إلى تنمر المدن السومرية ذات الحضارة القديمة والنظام اللامركزى من حكم الأكديين ، ومحاولاتها المتكررة للإنسلاخ عن جسم الدولة منذ أواخر عهد سرجون نفسه .

غير أن ذلك كله لم يمنع الملوك الأكديين من إظهار تقواهم وتأكيد صلاتهم بمعبودات دولتهم ، سومريين وساميين ، على نحو ما ذكرنا عن سياسة سرجون،عن طريق إنشاء المعابد أو تجديدها وتوسيعها ، مثلما فعلوا مع معبد إنليل فى نيبور السومرية ، وهو المسمى إكور ، وقد تضمن إلى جانب تماثيل معبوده تماثيل أخرى لعدد من ملوك الأسرة الأكدية لتأكيد صلاتهم بمعبود المعبد من ناحية ، وتكريماً لأنفسهم فى شخوص تماثيلهم من ناحية أخرى ، وكانوا يخصصون لهذه التماثيل أوقافا للإنفاق منها على القائمين على رعايتها وتقديم القرابين أمامها . وظلت نصوص أشباه هذه التماثيل ، وما كان يصحبها من النصب المنقوشة ، مصدراً لما احتفظت به نصوص العصور العراقية المتأخرة عن حوادث العصر الأكدى وتتابع ملوكه .

لم تتأت الأخطار التى حاقت بالدولة الأكدية من داخلها فحسب ، وإنما هددتها فى الوقت نفسه أخطار حلودية تمثلت فى تحركات قبائل الجوتيين الذين لا يعرف التاريخ عنهم إلا أنهم من أهل الجبال ، ولعلها جبال زاجوراس أو المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية ، وأن من الأقاليم التى نسبوا إليها إقليم شهر زور الذى ارتبط فيما بعد باسم اللولوبى أو اللولوبيين . وقد استكانوا لجبروت الدولة الأكدية فى فترات بأسها ، وتعلموا من جيوشها أساليب الحرب المنظمة وعتادها ، ولكنهم ظلوا متنمرين لها يتحينون الفرص للانقلاب عليها . وقد تعددت المناوشات بين جماعاتهم وبينها من حين إلى آخر ، لا سيما بعد عهد نرام سين ، وكانت هذه المناوشات تنتهى بانتصاراتهم حيناً وانهزامهم حيناً آخر .

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ١٧٥ .

(٢) Frankfort, *Kingship and the Gods*, Ch. XXI ; *The Birth of Civilization*, 74.

واستمر العاملان ينخران فى جسم الدولة، الانشقاق الداخلى وتهديدات الجوتيين . واشتد الشقاق الداخلى بعد وفاة شارجالى شارى بن نرام سين أو حفيده ، بحيث تعاقب على العرش بعده أربعة ملوك فى ثلاثة أعوام ، واستقلت أوروك وتعاقب عليها هى الأخرى خمسة ملوك محليون فيما لا يزيد عن ربع القرن .

وشيئاً فشيئاً ، وفى ظل هذه الظروف ، تدفق الجوتيون على أرض الزراعة بالعراق وفرضوا وجودهم على أغلب أجزائها فى فترات الضعف الأخيرة للدولة ، وأذاقوا أهل المدن المتحضرة القديمة الأمرين من بأسهم، ووصفهم أحد الأدباء السومريين حينذاك بأنهم وحوش الجبال الذين فتكوا بالسكان واغتصبوا النساء من أزواجهم وسلبوا الأطفال من أمهاتهم ، وعملوا على فساد الحكم ونهبوا سومر ونقلوا كنوزها معهم إلى الجبال . وذلك وصف قد يتفق مع ما هو معروف عن خشونة الجماعات الجبلية ، لولا أنه يصور وجهة نظر واحدة وهى وجهة نظر خصومهم ، مما يستوجب التحفظ فى التسليم به .

ومرة أخرى شاء أهل الدين والأساطير فى نفر أن يبرروا زوال مجد أكد والأكديين فردوه إلى إثم نرام سين ورجاله فى حق إكور معبد إنليل فى نفر ، وقصوا فى رواياتهم أن إنليل كان قد أهلك كيش وأوروك ، وبارك فى سرجون ووهبه السيادة كما بارك فى أجادة (أكد) التى زاد مجدها بتدبير ربتها الحامية إنانا فحلت الحكمة فيها كما انتشر الثراء ، وبلغت أوجها فى عهد نرام سين فرفع أسوارها كالجبال وكانت أبوابها مفتوحة يأتيها المارتو وهم القوم الذين لا يعرفون الغلة ، وأهل ملوخا قوم الأرض السوداء ، كما يأتيها العيلاميون من الشرق ، والسوباريون من الشمال ، وكلهم يحمل هداياه كل شهر وفى مطلع العام ، ثم أصبحت أبواب أجادة مطروحة ساقطة ، وتركت إنانا هداياهم وحل الرعب فى (معبدها) أولماش وصبت نقمتها على المدينة فولت عنها السيادة وأصبحت خراباً يبابا ، وأخذ نرام سين ينعيها ، وكان قد عصى إنليل سبع سنوات وأذن لجنده بمهاجمة معبده إكور فنهبوه ودمروه حتى « أصبح البيت وقد تمدد كالشاب الميت المطروح ، وقطعت الغلة من الباب الذى لم تكن الغلة تنقطع عنه » ، ونهبوا نفر نفسها « فهاج إنليل وقذفهم بأهل الجبال الجوتيين فعم القحط والجوع أرض سومر كلها وتفشى فيها الرعب والغلاء والوباء وتهددت بالفناء ، وحينئذ انبرى ثمانية أرباب منهم سين وإنكى ونينورتا وأوتو ونيدابا ووعدوه بتدمير أجادة عسى أن يكشف الضر عن بقية البلاد ، وواجهوا أجادة ونطقوا بلعنة الخراب عليها ودعوا عليها بأن يعود طوبها إلى أصله (الطينى) فى ماء العمق ، وتذبح زوجاتها عوضاً عن بقراتها وتذبح أبناءها عوضاً عن أغنامها ، وينضب منها كل شئ . . . » وانتهت الرواية بتأكيد حدوث ذلك كله ، وبأن من أراد أن يسكن أجادة لم يعد يجد فيها موضعاً للسكنى ، ومن أراد النوم فيها لم يعد يجد فيها موضعاً ينام فيه (١) .

---

(١) كرامر : من ألواح سومر – ملحق ١ ، ص ٣٨٩–٣٩٤ .
Speiser, Some Factors in the Collapse of Akkad, *JAOS*, 1952, 97, 101 ; Kramer, *ANET*, 646 .
Also, Oppenheim, *Letters from Mesopotamia*, 1967, 71—7 f.

غير أن هذا التصوير لزوال الدولة الأكدية لم يمنع الكاتب السومرى من أن يعترف بالحقيقة الواقعة التى ترتبت على زوالها وهى أنه تلاها عصر لم يكن يعرف أحد فيه الملك من غير الملك ، نتيجة فيما يبدو لكثرة أدعياء الحكم وكثرة المتسيطرين من الجوتيين .

ومع توالى الأيام ، خفت حدة الجوتيين وخشونتهم رويدا رويدا ، ولم يكن أمامهم وهم غير ذوى ثقافة فكرية راقية إلا أن ينهلوا من معين الثقافة السومرية الأكدية فاصطبغوا بها وعبدوا أربابها مع أربابهم(١) ، وإن كان من المحتمل أنه توافر لهم بعض الأثر فى طبع فنون عصرهم بطابعهم الخاص (٢) . ويبدو أنهم اتخذوا مدينة كركوك واحدة من مدنهم الرئيسية ، ولكن المدن المتحضرة القديمة ظلت كارهة لهم وظلت تتحين الفرص لمناضلتهم ولا سيما فى المناطق الجنوبية البعيدة نوعاً عن حكمهم المباشر . وبدأت هذا النضال لجش وأوروك ، بل واستعاد بعض الأمراء الأكديين سلطانهم جزئياً بحيث مد أحدهم (شدزول) نفوذه إلى منطقة إشنونا قرب دجلة .

وكان نضال لجش (تلو) نضالا سلمياً اكتفت فيها بأن تستعيد للسومريين كيانهم ونشاطهم السلمى الذاتى فى الداخل وفى الخارج ، وبدأ بمسعاها ذاك فى الربع الأخير من القرن الثانى والعشرين ق . م عصر جديد يسمى اصطلاحاً باسم العصر السومرى الحديث ، أو عصر الإحياء السومرى ،وهو موضوع الفصل التالى .

---

(١) ديلابورت المرجع السابق – ص ٣٧ .

(٢) ورنجات : المراجع السابق – ص ١٩١ .

الفصل السادس عشر

عصر الاحياء السومري

(منذ عام ٢١٢٠ أو أواخر القرن ٢٢ ق.م)

النهضة فى لجش :

إستغلت لجش (أو تللو) فى نهضتها مسالك التجارة الرئيسية حولها إستغلالا واسعاً لصالحها ، وكان خير عهودها عهد ملكها التقى جوديا ، قبيل أوائل القرن الحادى والعشرين ق . م أو أواسطه ، وكان رجلا إعتز أو إكتفى فى أغلب نصوصه بلقب « إنسى » القديم الذى تلقب به حكام لجش فى عهود تبعيتهم للدولة الأكدية ، وفى عهود سيطرة الجوتيين ، ولكنه إستعاض عن الانتساب إليهم فى لقبه بالإنتساب إلى سيادة ربه نين جيرسو أى سيد جيرسو وهو الحى المقدس فى تللو ،واعتبره ملكه واعتبر نفسه إنسياً له . ثم نعتته نصوص عهده بلقب « الراعى » ، وقال فى نقوش أحد تماثيله « أنا الراعى حبيب ملكه (نين جيرسو) طال عمرى » (١) .

ولم تذكر نقوش جوذيا الحرب غير مرة واحدة مع دولة أنشان . ولكن حملت قوافل التجارة شهرته وسجلت إسمه فى شمال سوريا وفى عيلام والبحرين وعمان . واحتفظت له أرض لجش بأكثر من ستة عشر تمثالا وجزءاً من تمثال نحت أغلبها من أحجار الديوريت ، وقد تفرقت بعد الكشف عنها فى متاحف العراق واللوفر والمتحف البريطانى (٢) . وأخذت هذه التماثيل بالأسلوب الواقعى الذى بدأ نضوجه من قبل خلال العصر الأكدى ، وعبرت بخطوطها المرنة عن ملامح الجنس السومرى ذى الرأس العريضة ، وغلبت على ملامح صاحبها وهيئاته روح التقوى والتواضع الكريم ، ويبدو أن إعتبار أهل عصره نكبة الجوتيين على أرضهم غضباً من الأرباب كان له أثره فى تغليب روح التقوى فى حياتهم إبان سعيهم للتخلص من غزاتهم وتحرير بلدهم (٣) .

وأظهرت تماثيل جوديا صاحبها جالساً وواقفاً على هيئة المتعبد ، فى أحجام تقل عن حجمه الطبيعى (فيما خلا واحد منها) ، وأعوزت الجالسة منها سلامة النسب بين الجذع العلوى والجذع السفلى ، وبين الرأس والرقبة ، ولكنها لم تخل على الرغم من ذلك من حيوية أضفاها عليها صدق تمثيل ملامح وجهه العريض الحليق ، وتفاصيل حاجبيه الكثيفين واتساع ما بين أنفه وشفته وامتلاء ذقنه وبروزها ، وتفاصيل عمامته (أو قلنسوته)

(١) See, A. Parrot, *Tello, Vingt campagnes de fouilles*, (1927—1933), Paris, 1948, P. L.

(٢) *Ibid*.

(٣) Frankfort, *The Art and Architecture* ..., 47.

الصوفية الواسعة ذات الخصل ، وبساطة ثيابه ورقة أطرافها الموشاة التي عبر الفنان عنها بتموجات خفيفة وخطوط مرسلة وزوايا منفرجة . وتخلصت بعض تماثيله الواقفة الصغيرة المنحوتة من حجر الديوريت وحجر الحية (السربنتين) من قلة التناسب بين أجزائها ، وجنبته تصلب الهيئة ومثلته فى وضع طبيعى خاشع لطيف تكاد تشف عباءته الثمينة عن عضلات بدنه ، ولم يعبها بعض الشيء غير إتساع محجرى العينين واتصال الحاجبين ، وهو إتساع اتصفت به أغلب تماثيل العراق . والطريف أن من تماثيله الجالسة ما تتشابه بعض تفاصيله مع تفاصيل التماثيل المصرية فى عصور الدولة الوسطى وما تلاها ، من حيث نقش نصوص رأسية فوق الجزء الأسفل من ثوبه ، ثم من حيث نقش إسمه داخل مستطيل على كتفه ، ووضع مسطح مستطيل على ركبتيه تضمن فى إحدى المرات تصميماً لمعبد وتصوير لوحة (مسطرة) وقلم (١) .

أقيمت أغلب تماثيل جوديا فى معبد لجش الكبير ، وأقيمت فى فنائه عدة نصب ، وتركت تحت أحجار أساسه آثار صغيرة منقوشة . واتسعت سطوح تماثيل جوديا تلك ونصبه وسطوح الصولجانات ورؤوس المقامع التى أهداها إلى هذا المعبد ، وإلى بقية معابد دولته ، لنقوش سجلت مظاهر تقواه إزاء أربابه ولا سيما نين جيرسو إله لجش الذى اعتبره ربه وملكه ، واعتبر نفسه إنسياً له ، وروى كتبته فيها على لسانه إهتمامه باستيراد أحجار مختلفة الأنواع والألوان ، ومعادن مختلفة القيم وأخشاب ، عن طريق البر والنهر والبحر من أرض إلام (عيلام) وعاصمتها سرسه ، ومن ماجان وملوخا ، ومن كيماش وجبل الأرز وجبل الصنوبر ، لصالح معبد لجش بوجه خاص . وأكد أنه التزم فى تجديد هذا المعبد وبناء مقاصيره وصناعة رموز معبوده وأسلحته ما جرى به العرف القديم وما أوصى به المعبودان نين زاجا ، ونين سيكيلا (٢) .

وتحدثت نقوش الرجل عن فضل أربابه فى منع طغيان الفرات على أرضه . وروت أنه رأى ذات مرة فى رؤياه معبوده على هيئة شيخ متوج تسمو هامته إلى كبد السماء ، يحيط به أسدان وحمار رابض وشمس مشرقة ، وسيدة تمسك قلماً مع لوحة النجم السعيد ، ومعبود فى إهاب محارب ظهر كأنه يخطط تصميم معبد . واستفتى جوديا وحى أربابه (أو على الأصح إستفتى كهنتهم) فى تأويل رؤياه ، فأتاه وحى ربته نينا بأن الشيخ المتوج هو نين جيرسو ، وأن الشمس ترمز إلى ربه نين جيزيدا ، وأن السيدة ذات القلم واللوحة هى نيسابا ، وأن المعبود فى هيئة المحارب هو ننلوب ، وأن الرؤيا إيحاء له بإعادة بناء معبد نين جيرسو بعد خرابه فى عهد الفوضى ، وأما الحمار المضجع فهو جوديا نفسه ! ويبدو أن الرجل كان لا يزال بحاجة إلى آية أخرى فسوف فى الأمر حتى حل القحط بأرضه فاتجه بدعائه إلى نين جيرسو ، وأتاه نداء ربه بأنه إذا بدأت يمينه فى تأسيس معبده فلسوف ترقى الصرخة إلى السماء من أجل الرياح والأمطار ، ولسوف تسقط السماء حينئذ فيضها بعد أن يضع الرب قدمه على الجبل العالى ، جبل العاصفة ، ولسوف ينزل الفيضان من قمة مقدسة شاهقة

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 46 ; Parrot, *op. cit.*, Pl. XVI d.

(٢) G.A. Barton, *op. cit.*, 181 f., 205 f. ; L. Oppenheim, *op. cit.*, 268—269.

الارتفاع (١) . وعندما تم بناء المعبد أكدت نصوص الملك حسن معاملته لمن إشتركوا فى بنائه من رعاياه ، وأشركتهم فى ثوابه ، فتحدثت عن إنتفاء الضرب واللكز ، وقالت إنهم كانوا يعتبرون عملهم قرباناً لربهم(٢).

ولم يكن جوديا ، فيما تحدثت به عنه نصوصه ، أقل ولاء لربات مدينته منه لأربابها ، فكان من إبتهالاته للربة جاتومدو ربة لجش قوله لها : « مليكتى ، بنت السماء البهية ، يا من تجيبين الدعوات ، وترفعين الرأس ، وتهبين الحياة لأرض سومر ، أنت تعرفين ما يصلح مدينتى ، أنت مليكتى ، أنت الأم التى أسست لجش ، لا أم لى وأنت أمى ، لا أب لى وأنت أبى . . . ، جاتومدو ما ألذ (ترديد) إسمك » (٣) .

وتخلفت من مفاخر النحت من عهد جوديا مفردات أخرى ، ومنها رؤوس رجال حليقى اللحى والشوارب ورؤوس وتماثيل نساء بلغت الغاية فى بساطة خطوطها ، وسلامة تعبيراتها ، وإتقان تمثيل الحلى ووشي الملابس عليها على الرغم من قسوة أحجارها(٤) ، وتمثال قد يرجع إلى عهده أو إلى العصر الأكدى ، يجمع بين جسم فحل رابض ورأس إنسان ملتح يلتفت جانباً فى تناسق لطيف(٥) ، وبقايا أسود كبيرة ، ورأس مقمعة رمزية مذهبة شكلت سطوحها على هيئة رؤوس السباع (٦) .

وتضمنت ودائع أساسات المعابد اللجشية (لا سيما معبد نين جيرسو ومعبد إنانا) روائع معدنية صغيرة ، تميزت منها قطع على هيئة الأوتاد زودت بأشكال ربانية وملكية ، كناية فيما يبدو عما كان الملوك يرجونه لمبانى معابدهم من ثبات يتعهده الأرباب . ومن نماذج هذه الأوتاد وتد يتصل به تمثال صغير رائع لمعبود طويل الشعر واللحية يلبس قلنسوة لطيفة هرمية الشكل ، أو لولبية الشكل مائلة ، ويعتلى منصة صغيرة ويرسل ساقيه منها ، وقد احتضن الوتد بين ساقيه وبدا كأنما يهم بغرسه فى الأرض (٧) ، ثم أوتاد أخرى إحتضنها جوديا نفسه وقد حمل على رأسه سلة كان من المفروض أن تتضمن بعض أدوات البناء أو تتضمن الطين الذى كان يعتزم أن يضرب به اللبنة الأولى فى أساس المعبد (٨) .

---

(١) G.A. Barton, *op. cit.*, 214—217 ; Lambert and Tournay, *RB*, 1948, 403 f. ; *RA*, 1952, 81.

(٢) Barton, 182—183 ; Frankfort, *Kingship and the Gods*, 255.

(٣) A. Falkenstein, W. von Soden, *Sumerische und Akkadiesche Hymnen und Gebete*, Zurich, 1953, 140, 173, etc.

(٤) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 50, a–b, etc.

(٥) *Ibid*, Pl. 50 c.

(٦) Parrot, *op. cit.*, Fig. 42 h.

وانظر عن آثار أخرى من عهده : Frankfort, *op. cit.*, 49 and References.

(٧) *Ibid.*, Pl. 51 a.

(٨) Parrot, *op. cit.*, Fig. 44 ; *and See*, E. Douglas van Butren, *Foundation figurines and offerings*, Berlin, 1931.

وأدت نقوش العهد دورها فى تسجيل مفاخر الرقى الفنى خلاله ، وصور بعضها زقورات ذات ثلاثة مسطحات ، ليس من المستبعد أن إحداها كانت تقوم فى العاصمة لجش بالذات .

وجرت نقوش الأختام حينذاك على الأسلوب الأكدى ، وشاعت فيها مثلها مناظر التقرب من الآلهة ، ولكن روح التقوى غلبت فيها على مجرد الرغبة فى الإهداء إلى الأرباب . واحتفظت نقوش أحد أختام جوديا وأحد نصبه بمنظر متماثل صور راعيه نين جيزيدا يأخذ بيده ليقدمه إلى كبير الأرباب واهب الفيضان الذى إستوى على عرشه بتاجه ذى القرون ، حيث تقرب جوديا إلى مولاه بآنية ينسكب على جانبيها الماء الطهور ، وبدا فى حضرته متواضعاً وجلا يلبس ملفعة بسيطة موشاة الأطراف ويضع كفه تجاه فمه فى هيئة التوسل والدعاء وظهرت خلفه ربته بثوب بسيط رقيق ذى خطوط طولية ، وقد رفعت يديها إجلالا لربها الأكبر وتشفعاً لربيبها جوديا عنده ، وظهر من خلفها تنين خرافى مجنح بجسم أسد ورأس ثعبان وساق نسر . ونجح الفنان فى الحالين فى تمثيل ملامح شخوصه بوضوح وفى تحقيق التناسب فى صورهم وفى التمييز بين شموخ المعبود وخشوع المتعبد ورجاء الشفيع وقسوة التنين (١) .

واحتفظت إحدى لوحات عهده بتصوير ممتع لفتى وفتاة يدقان على طبل كبير فى حفل دينى . كما بقيت كأس كبيرة بإسمه صنعت من حجر الحية ، جسدت على سطوحها الخارجية بالنقش البارز هيئات حيوانات خرافية مجنحة قرناء تقف على سيقانها الخلفية وتمسك عمداً ذات مقابض تشبه مقابض السيوف ، وأفاع ضخمة قائمة متقابلة تلتف حول محور رأسى ، وقد رقشت أجسادها جميعها بقطع حجرية صغيرة وطعمت رؤوسها بمواد ملونة (٢) .

وصاحب تعمير المعابد ورقى الفنون فى عهد جوديا نشاط عمرانى ، كان من صوره الاهتمام بوسائل الرى ، وبقى من نصوص عهده ما يتحدث عن شق قناة نسبت إلى رب لجش وسميت « نين جيرسو أوشومجال » ، ويبدو أن حفرها كان عملا ذا بال بحيث أرخ به فى سنته (٣) .

وظل خلفاء جوديا يرددون ذكراه ، وساعدت كثرة تماثيله فى معبد لجش وكثرة الأوقاف المرصودة على قرابينها ، على إستمرار تبجيله أو تقديسه بعد عهده .

واحتفظت فنون لجش بمستواها الرفيع فى عهد « أورنين جيرسو » بن جوديا ، واحتفظت له أرضها ببضعة تماثيل صغيرة ممتعة تشبه تماثيل أبيه ، صوره بعضها حليق الشارب واللحية على عادة الكهان ، بينما صوره

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق — شكل ٣١ . Frankfort, *op. cit.*, 49.

(٢) *Ibid.*, Pl. 51 b (Louvre Archives Photographiques), *and See* : *Iraq*, I (1934), 60 f.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق ص ١٢٨ .

بعضها الآخر بشعر طويل ولحية لعلها لحية مستعارة . واستغل الفنانون بعض قواعد هذه التماثيل لنقش صور عدد من المتعبدين يتقدمون بقرابينهم وهم جثاة (١) .

وفى عهدى أورباba وجوديا ظهرت أوائل تماثيل الأساس من البرونز على هيئة معبود راكع ذى لحية طويلة وتاج بأربعة قرون ، وهو يدق وتداً يشبه الإسفين فى الأرض بكلتى يديه . وحمل أحد هذه التماثيل اسم جوديا نفسه ، وحمل آخر اسم حاكم سوسه فى تاريخ قريب منه . (وأبدل المعبود فيما بعد فى عهد أورنمو بشكل رجل أو امرأة يحمل سلة البناء فوق رأسه كما حذف الإسفين) (٢) .

فى أوروك :

وقع عبء الكفاح المسلح ضد الغزاة الجوتيين على أكتاف دولة أوروك . ويحتمل أن تكون نهضتها قد عاصرت فى بعض أيامها نهضة كل من لجش وأور (٣) . ولعلها قد استغلت سمعتها القديمة وبعد موقعها الجنوبى وحاولت توحيد كلمة المدن السومرية القريبة منها تحت رايتها ضد الغزاة — وظهر من أبرز حكامها أوتو خيجال الذى أعلن حرب الخلاص باسم رعاته الأرباب إنليل وإنانا وجلجميش الذين استنصرهم ، وواصلت قواته الزحف من الوركاء وكلاب لستة أيام ، وقبضت على نائبى الجوتيين فى سومر ، ثم هزمت قوات الجوتيين فى موقعة فاصلة قرب كركر ، وأسرت ملكهم تريكان وأهله بعد أن فر هارباً إلى بلدة دبروم ، وكانت نصوص أوروك قد وصفته بالأفعوان وعقرب الجبال الذى نشر العداوة والبغضاء بين أهل سومر (٤) . واستحقت أوروك بنصرها نوعاً من اعتراف أغلب المدن السومرية بزعامتها الشكلية ، لولا أن الآمال العريضة ما لبثت حتى لعبت برؤوس حكامها ، فسارعوا باتخاذ لقب الملك العريض ، ملك سومر وأكد ، قبل أن يستكملوا عدتهم له ، وشغلتهم مظاهر السلطان عن مواصلة العمل الجدى ، فانفلتت الزعامة الفعلية منهم إلى دولة أور .

النهضة فى دولة أور :

نهضت أور نهضتها ببداية أسرة حكم جديدة أسسها « أورنمو » قبيل القرن الحادى والعشرين ق . م ، أو فى منتصفه ، وعرفت اصطلاحاً باسم أسرة أور الثالثة ، وتعاقب على عرش هذه الأسرة خمسة ملوك سعوا

---

(١) Parrot, *op. cit.*, Pl. XXIII A–C.

(٢) مورتجات : المرجع السابق — ص ١٩٢ — لوحات ١٥٨ — ١٦٠ .

(٣) أنظر عن احتمال معاصرة جوديا لعهد مؤسس أسرة أور الثالثة أورنمو أو ولده شولجى :
Kramer, *Bull. of University Museum*, 1952, 22 ; *Orientalia*, XXIII, 1954, 6, n. 3.

(٤) C. J. Gadd, *A Sumerian Reading-Book*, 1924, 65—73 ; S. N. Kramer, *The Sumerians*, 1963, 325—326 ;
فاضل عبد الواحد : سومر — ١٩٧٤ ص ٤٧—٥٧ .

إلى استعادة الحكم الموحد ، واشتهر منهم إلى جانب مؤسسها أورنمو (١) ولده (شولجى أو شاخ جى) ، وبمجهود هذين الملكين بالذات خضعت كثير من المدن السومرية والأكدية لأور ، وذلك مما سمح لملوكها بأن يتلقبوا بمثل لقبى سرجون الأكدى ، أى « ملك سومر وأكد » ، و « ملك الجهات الأربع » وإن ظل هذا اللقب الأخير بخاصة لقباً تشريفياً أكثر منه لقباً فعلياً ، إذ أنه على الرغم من جهود الملكين وبعض خلفائهما فى سبيل توسيع الحدود ، وكثرة ما وجد من وثائق تحمل أسماء هؤلاء الملوك فى أمهات المدن الأخرى مثل لجش ونيبور وأوما وآشور ، واعتراف آشور فى الشمال بنفوذهم الإسمى ، وبحيث أقام أهل مدينة إشنونا معبداً فى مدينتهم نسبوه إلى ملك أور « شوسين » (٢)، كما أرسل أحد ملوك آشور هدية ثمينة إلى بورسين ملك أور القوى ، ملك الأقاليم الأربعة (٣) ، إلا أن حجم المملكة ظل أقل بكثير مما كان عليه فى العصر الأكدى .

وأضافت دولة أور بضعة تجديدات فى آفاق السياسة والتشريع ومجالات الصناعة والفن : فأثر لنظم الحكم الداخلية فيها أن مؤسسها أورنمو كان من أقدم مصدرى التشريعات المكتوبة المعروفة فى تاريخ العراق (بعد تنظيمات أوروكاجينا) حيث عثر على أجزاء من نسختين لتشريعه غلب عليهما الأسلوب السومرى وكتب إحدهما طالب فى مدينة أور ، وكتب الأخرى طالب من مدينة نفر بعد وفاة أورنمو بنحو ثلاثة قرون ، مما قد يعنى أن هذا التشريع جاوز صبغته المحلية وطبق فى مدن أخرى ، وأن فعاليته استمرت لفترة طويلة . ويبدأ كاتب التشريع باختيار المعبودين آنو وإنليل للمعبود نانار إله القمر ملكاً على مدينة أور ، ثم اختيار هذا الأخير « أورنمو » نائباً عنه أو ممثلا له يقوم مقامه على الأرض . ولعل الربط بين التشريعات وبين اختيار الآلهة وإرادتهم أو إيحاءاتهم ، وهو أمر سنراه أكثر وضوحاً فى تشريعات أخرى تالية ، كان مقصوداً لكفالة احترام بنودها وخلع الشرعية عليها فضلا عن تأكيد دور الملوك كوسطاء بين الآلهة وبين شعوبهم عن طريقها . وتضمنت المواد الأولى من تشريع أورنمو العبارات المعتادة عن سعى صاحبه إلى ضبط الموازين والمكاييل وتوحيدها ، ورغبته فى تخليص المواطنين ممن يستغلون ماشيتهم وأغنامهم ودوابهم ، وإلى أن يمنع وقوع اليتيم فريسة للثرى ووقوع الأرملة ضحية للقوى وأن لا يكون صاحب الشاقل ضحية مالك المينه (وتساوى المينه me-na, ma-na ستين شاقلا) . وكانت كل من المينه أو المينا ، والشيقل أو الشاقل ، قطعة معدنية ذات وزن معلوم يصل إلى نحو ٥٥٠ جراماً تقوم مقام العملة ، وليست منها ،وتختلف قيمتها الحقيقية باختلاف نوع معدنها .

---

(١) وهم أورنمو ، وشولجى ، وأمارسين ، وشوسين ، وإبى‌سين .
Bulletin of the University, XVII, No. 2 (1952) ; *Orientalia* (New Series), XXIII, 40 f. ; *Scientific American Bull.*, January 1953, Castellino, *AZ*, XVIII, 1957, 1—57.

(٢) S. Moscati, *The Face of the Ancient Orient*, 1960, 26.

(٣) *See*, Frankfort, *The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers of Tell-Asmar*, Chicago, 1940.

وفى تجريم الاعتداء على النفس والممتلكات ،قر قانون رنمو أأو غرامات على الجروح بآلات معينة (لا تفضى إلى الوفاة) ، فجعل غرم جرح الساق عشرة شواقل من الفضة ، وغرم كسر العظام مينه من الفضة ، وغرم قطع الأنف ثلثى مينه من الفضة ، وغرامة كسر السن شاقلين من الفضة .

وجعل التشريع العوض عن الجارية بمثلها أو عشرة شواقل من الفضة أو ما يساويها من المقتنيات ، وجعل حلوان إعادة العبد الآبق والجارية إلى مالكها شاقلين من الفضة .

ونص على أن من اقتحم حقلا مزروعاً فأفسده فعليه أن يعوض صاحبه بقيمة ما أفسده ، ومن أغرق حقلا عامداً عوض صاحبه بثلاثة كور من الشعير عن كل إكو من الأرض . ومن استأجر أرضاً لزراعتها فأهملها وأصبحت بوراً عوض صاحبها بثلاثة كور من الشعير عن كل إكو من مساحتها .

وجعل التشريع غرامة شهادة الزور ١٥ شاقلا من الفضة . وأجاز إظهار البينة عن طريق الامتحان بإلقاء المتهم فى النهر . ويبدو أن الحكمة من ذلك هى إيكال أمره إلى إله النهر إذا عجز القاضى عن إثبات التهمة عليه أو نفيها عنه ، فإن شاء الرب أنقذه وبرأه ، وإن شاء أغرقه بذنبه .

ولعل عدالة الجزاء كانت تقتضى أن يوثق المتهم ويثقل بالأحجار قبل إلقائه فى النهر بحيث يكون غارقاً لا محالة ، فإذا طفا ونجا اعتبر ذلك معجزة ودليلا على رغبة الإله فى تبرئته . وكان امتحان النهر متبعاً كذلك فيما يبدو فى إلام ومارى وقرقميش (١) . وذلك عرف يمكن مقارنته بما يأخذ به بعض البدو حتى الآن من امتحان المتهم عن طريق استخدام البشعة فإن احترق لسانه بها عند لمسها اعتبر ذلك قرينة على إجرامه ، وإن سلم لسانه كان من أدلة براءته حيث يعطل الخوف من انكشاف أمره إفراز الغدد اللعابية ويجف لعاب الريق .

وفى الأحوال الشخصية نص التشريع على أن من تزوج بكراً ثم طلقها دفع لها مينه من الفضة ، وإذا تزوجها ثيباً وطلقها دفع لها نصف مينه من الفضة ، وإذا عاشر أرملة دون عقد زواج وتركها فلا تعويض لها عنده . وألزم والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب إذا أخلف وعده له وزوجها لآخر . ونص التشريع على أن من رمى زوجة آخر بالفحشاء ثم برأها امتحان النهر غرم ثلث مينه من الفضة ، وإذا أوقعت زوجة رجلا فى حبائلها بطرق السحر فواقعها حق عليها الذبح دونه . ومن اغتصب جارية رجل آخر وكانت بكراً غرم خمسة شواقل من الفضة . ونص على أنه إذ ساوت جارية الرجل نفسها بسيدتها وأهانتها (أو أهانته) حشى فمها بالملح ونقع به (٢) . وأصبحت أغلب هذه البنود ، وهى قلة من كثرة لم يعثر عليها ، أساساً لبعض ما تلاها من تشريعات ، كما أن ما وجد منها أدى إلى رفض فكرة قديمة شائعة كانت تعتبر تشريعات حمورابى البابلى أقدم تشريعات مكتوبة فى العراق أو فى العالم بأسره .

---

(١) هورست كلنجن : حمورابى ملك بابل وعصره – مترجم ببغداد ١٩٨٧ – ص ١٤٩ .

(٢) E. Szlechter, Le Code d'Ur–Nammu, *Rev. d'Assyriologie*, 49, 1955, 169 f. ; Kramer and Gurney, *AS*, XVI, (1965), 13—19 ; J. J. Falkenstein, *Supplement to ANET*, 1969, 523—26 ; *J.C.S.*, XXII (1968—69), 66 f. ; C.J. Gadd, *CAH*, Vol. I, Part 2 B (1971), 598.

أعيد فى عهد أورنمو تسوير عاصمته ذات الهيئة البيضاوية التى أطلت على نهر الفرات بميناء ذات أرصفة واسعة ، وحماها الماء من ثلاث جهات ، وبلغت مساحتها نيفا ونصف ميل طولا ، وربع ميل عرضاً . وامتدت حولها ضواحيها وشغلت معها مساحة قدرت بنحو أربعة أميال طولا وميل ونصف عرضاً . وأطل سور المدينة من داخله على ساحة متسعة (بلغت مساحتها ٤٠٠ ياردة × ٢٠٠ ياردة) قامت فيها معابد المدينة الكبرى المخصصة للمعبود نانار وزوجته ننجال وحاشيتهما . وبقيت أجزاء لبعض هذه المعابد حتى الآن بحالة لا بأس بها .

وفى الحياة السياسية حاولت أور أن تتجنب إلى حد ما العوامل الوخيمة التى نخرت فى كيان الدولة الأكدية من قبلها نتيجة للتفرقة بين السومريين وبين الساميين وشطر أهل البلد الواحد شطرين ، فاستعانت بالعنصرين فى جيشها وفى مناصب الإدارة . وجمعت بين اللغتين السومرية والأكدية فى بعض الوثائق الرسمية والأدبية . وتسمى بعض ملوكها بأسماء سامية الصبغة مثل شوسين ، وإبى سين . ولو أن هذه السياسة لم تمنع ملوكها من انتسابهم إلى سومر وآلهتها أكثر من غيرها ، ولا من مركزة الحكم فى عاصمتهم كما فعل الأكديون من قبل ، وتغليب سياسة القصر على سياسة المعبد . فظلت هذه العاصمة تشرف على كل كبيرة وصغيرة من أمور الرى واقتصاديات المدن والأقاليم ، ويبدو أنها استعانت على ذلك باستحداث نظام يشبه نظام الوزارة ، والعناية بنظام العدائين لتبليغ أوامرها إلى ولاة أقاليمها ، واعتبرت أولئك الولاة مجرد موظفين كبار يخضعون للنقل من إقليم إلى إقليم ، ويعملون باسم الدولة فى استخدام الأيدى العاملة واحتكار التجارة الخارجية(١) .

ولم يضح ملوك أور بالهالة المقدسة التى اكتسبتها الملكية منذ أيام الدولة الأكدية وقبلها بقليل ، عن طريق ادعاء الأصل الإلهى وتقديس مهمة حماية البلاد . وكان من أكثرهم استمساكاً بها « شولجى » (ذلك الذى كان اسمه يقرأ دونجى ثم ظهر رأى جديد يقرأه شاخ – جى) (٢) ، وقد اختير كاهناً أكبر للمعبودة إنانا فى أوروك فى حياة أبيه ، وذكرت نصوصه أن الإله اختاره بنفسه (٣) ، وأطلق اسمه بعد توليه العرش على أحد شهور دولته ، ورفعه أهل بلاطه إلى مرتبة الربوبية أو ما هو قريب منها ورضى هو بها بطبيعة الحال ، فسمى بعضهم أولاده باسم « شولجى إيلى » بمعنى شولجى إلهى ، و « شولجى بانى » بمعنى شولجى الخالق ، فضلا عن « شولجى أبى » . وأقطع شولجى ابنته منطقة واسعة ، فأصبحت أميرة لها . وربط بين الميول الدينية فى بعض المدن الكبيرة وبين عقائد بلده عن طريق تكليف كل مدينة بنفقات قرابين معبد إله العاصمة شهراً على الأقل من كل عام ، ووقع أغلب الغرم فى ذلك على مدينة لجش فتكفلت بأداء القرابين أربعة أشهر كاملة .

---

(١) هورست : المرجع السابق – ص ٢٩ – ٣٠

(٢) Th. Jacobsen, *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 1947, 16 f.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص ١٨٠ .

وعبر كاتب سومرى عن رأى شولجى فى نفسه فكتب على لسانه يقول :

« أنا الملك ، كنت بطلا فى بطن أمى ، أنا شولجى ، صاحب البأس منذ مولدى ، أنا أسد ثاقب البصر ، إبن مارد ، أنا ملك أركان الدنيا الأربعة ، أنا حامى السومريين وراعيهم ، أنا بطل ، رب البلاد كلها .

أحب الخير وأقصى الشر وأمقت ألفاظ العداوة ، أنا شولجى الملك القدير ، أخضعت البلاد الثائرة وكفلت الأمان لشعبى . . . شولجى الذى توافر له بأس السماء والأرض ، ولم يكن له مثيل ، شولجى الذى رعاه رب السماء » (١) .

ولم يكن اعتداد شولجى بنفسه بغير أثر سىء على أذهان كتبة التاريخ بعد عهده ، فذكروا أنه وإن اهتم الاهتمام الشديد بمدينة إريدو التى تقع قرب شاطىء البحر ، إلا أنه استولى على ذخائر معبد إساجيلا معبد بابل ، فغضب بعل ولم يرض عن جثته (٢) .

وجرى خلفاء شولجى ومنهم ولده أمرسين على سياسته فى الاستمساك بهالة الملك المقدسة . وأثنت كاهنة من كاهنات لوكور على مولاها شوسين (الإبن الثانى لشولجى فى أوائل الألف الثانى ق . م) على ما أولاها إياه من هدايا ونعم ، وصاغت مدحها فى نشيد بدأته بوصف الملك بالطهر ، وامتدحت أمه أبيسيمتى لولادتها إياه ، ثم عددت عطاياه لها بعد أن أطرته بنشيدها ، وذكرت منها قلادة ذهبية وختما من اللازورد وخاتما ذهبيا وآخر من الفضة ، وأكدت أن تطلع الملك إليها كان أثمن لديها من هداياه ، وأضافت أن عاصمته تجثو لدى قدميه كالشبل الصغير ، وترفع أكفها تضرعا إليه ، ثم نعتته بربها وحبيبها ورب بلده وحبيب إنليل . وعندما سجل أحد الناسخين المتأخرين هذه القصيدة بقلمه حرص على أن يسبق إسم شوسين بمخصص الأرباب (٣) .

واحتفظت منطقة آور وما حولها بعدد كبير من لوحاتها المكتوبة ، ومنها ما تناول العلاقات الاقتصادية ، ومنها ما عدد القرابين والضرائب المرصودة لإله القمر ننار ، ومنها ما تناول قضايا العقارات ونقض الالتزامات (٤) . ويفهم من طريقة تأريخ أمثال هذه اللوحات أنها كانت تؤرخ بالأعوام والشهور ، وأن الأعوام ظلت تسمى بأهم حدث فيها ، وقد يكون هذا الحدث ولاية ملك جديد أو قيامه بمشروع جديد مثلما سمى العام الثامن عشر من حكم أورنمو باسم « العام الذى بسط أورنمو الملك السبيل فيه من أسفل إلى أعلى »

---

(١) S. Moscati, *op. cit.*, 38.

(٢) E. Ebeling, *op. cit.*, 336 ; *ANET*, 267.

(٣) S. N. Kramer, *ANET*, 496.

كرامر : من ألواح سومر — الفصل ٢٣ — ص ٣٦٦ — ٣٦٩ .

(٤) *Babylonica*, III, 100 f. ; C. J. Gadd, *Sumerian Reading Book*, 172—175 ; J. B. Nies, *Ur Dynasty Tablets*, 1920 .

وقد يفهم من هذا التعبير امتداد نفوذه فيه من الجنوب إلى الشمال . وقد يؤرخ العام بإنقاذ منطقة فيه من ضرر ما . وكان أصحاب الوثيقة يقسمون فيها عادة باسم الملك الحاكم ويشهدون عليها الشهود ، ويختمون عليها بأختامهم . ومن نماذج هذه الوثائق صك صغير يقول كاتبه : « ١٨٠ كوراً من الشعير هدية (أو نذراً) لونانا حاكم زيمودار ، تسلمها أورجالالِم باسم (معبد) شولجي نانا (الكائن) على ترعة دورول . شهر شيجوزكود ، عام ولاية شوسين الملك المقدس » (١) .

ثم وثيقة قرض يقول كاتبها : ١٢٠ شاقلا من الفضة ، أرباحها ٥ شواقل ، اقترضها أداكالا من أوردولازاجا ، على أن يهدها فى شهر سيج وأقسم على ذلك باسم الملك » . وبعد أن وقع ثلاثة شهود ، أرخ الكاتب لوحته بقوله : « شهر شيجوركود فى عام أنقذ الملك المقدس إبى سين ، سيمورو » . ثم ختم المستدين على الوثيقة بختمه ثلاث مرات (٢) .

وإذا حرر المتعاقدون لوحتهم خارج عاصمتهم ، أضافوا إلى إسم الشهر والعام ، إسم حاكم منطقتهم ، وربما إسم الموظف الذى يؤدى عمل القاضى فيها أيضاً (٣) .

الفنون فى عهد أسرة أور الثالثة :

صاحب التقدم السياسى فى أور نشاط معمارى وتطور فنى لم يبق للأسف من نماذجهما غير القليل . فقد بقيت من آثار معابد أور بقايا زقورة فخمة أقيمت باسم معبود القمر نانار فى عهد أورنمو على أطلال زقورة أقدم منها نسبت إلى أيام أسرة أور الأولى (٤) .

وقد شيدت فوق ربوة متسعة تنهض فى الزاوية الغربية من الحرم المقدس للمدينة وهو حرم مسور واسع ذو بوابات . وتتألف من ثلاثة مسطحات (أو طوابق) متتالية تميل أعالى قاعدتها الرباعية وجدران مسطحها الأول ميلا قليلا إلى الداخل وتواجه زواياها الجهات الأربع ، وتتعاقب المشكاوات على جوانبها ، وتتوجها مقصورة علوية . وشادوا بناءها من اللبن كعادة أسلافهم ثم كسوا جدرانها الخارجية بالآجر الأحمر المرصوص فوق ملاط من القار . وكان يؤدى إلى مسطحها الأول ثلاثة طرق صاعدة طويلة ذات درجات

---

(١) حكم شوسين فيما بين ١٩٨١–١٩٧٢ ق . م تقريباً .
TH. J. Meek, *ANET*, 217 ; L. Legrain, *R. A.*, XXX (1933), 117—125, No. 7.

(٢) يحتمل توقيت عهد إبى سين من ١٩٧٢ ق.م .
TH. J. Meek, *op. cit.*, ; J. B. Nies, *op. cit.*, No· 30.

(٣) Meek, *op..clt.*, ; Gadd, *op. cit.*, 173.

(٤) *Antiquaries Journal*, 1925; 347 f. ; 1934, Pl. XLIX ; H. Lenzen, *Die Entwicklung der Zikkurrat*, 47 f. ; L. Woolley, *Ur Excavations*, II, 1939, Pl. 31.
وأنظر سومر ١٩٦١ – ص ٥ ، يوبرتجات : المرجع السابق – ص ١٩٥ شكلا ٣٩ – ١٤٠ ، لوحة ١٦١ .

كثيرة ، طريق أوسط وطريقان جانبيان . وأكملت هذه الزقورة وزصف فناؤها فى عهد شولجى بن أورنمو ، ثم حظيت بتعديلات كثيرة حتى جددت بعد أمد طويل من إنشائها فى عهد نبو خذ نصر ثم أكملها نابو نهيد خلال العصر الكلدانى المتأخر حيث كسيت المقصورة العلوية بالطوب المزجج ذى اللون الأزرق اللامع ، وترجع بقاياها الحالية إلى ما بقى من هذا التجديد بعد تخربها فى العصر الفارسى ، ولو أن ذلك لا ينفى أنها نشأت فخمة منذ بدايتها بحيث كانت تشرف على مدينتها وترتفع مقصورتها عن أية عمارة دنيوية أو دينية فيها . ويفترض بعض الباحثين أن مسطحاتها كانت تتضمن أشجاراً غرست فى نقط متفرقة منها .

ولوحظ من التجديدات العقائدية فى معابد أور أن تماثيل معبوداتها أصبحت توضع داخل مشكاوات مرتفعة يؤدى إليها درج ، بعد أن كانت توضع فوق قواعدها أمام المشكاوات وليس داخلها (١) .

ونسب إلى عهد أورنمو معبد آخر للمعبود إنليل فى مدينته نيبور (نفر) بلغت مساحة المسطح الأول لزقورته ٥٧ × ٣٨ متراً ، وكشف عن جانب من السور المبنى باللبن الذى أحاط بها هى وبقية توابع المعبد . وشيدت زقوره للمعبودة إنانا فى الوركاء وكان تخطيطها أبسط من زقورة أور . وأعتمد بناؤها على قوالب اللبن التى يدعم طبقاتها حصير الأسل وحزم القصب ، كما استخدمت حبال البردى التى يبلغ سمكها سمك ذراع الرجل فى قنوات أفقية لتدعيم الجدران الخارجية (٢) .

وسرت رقة الطابع فى نقوش العصر ، وإن ظلت شواهدها قليلة هى الأخرى ، ومنها عدة مناظر سلسة الخطوط نقشت على نصب كبير من الحجر الجيرى أقيم باسم أورنمو بمناسبة إنشائه أحد المعابد ، وبلغ إرتفاعه الأصلى نحو ثلاثة أمتار . وتكرر تصوير الملك على وجهيه بلحية طويلة وعباءة طويلة مرسلة واسعة الأكمام وقلنسوة عريضة الحافة نصف كرية ، يقدم تسابيحه ويسكب قرابينه أمام ننار إله القمر وجامى أور وزوجته الربة ننجال وغيرهما من الأرباب أصحاب العروش والتيجان ذات القرون ، يتبعه ولى عهده أو كبير أتباعه فى وضع إبتهال خاشع حيى . ورفع بعض أولئك الأرباب بيمينه حلقة وعصا ، يحتمل أنهما من أدوات قياس المعبد فى بداية بنائه . غير أن أطرف مناظر النصب هى تصوير أورنمو ينقل بعض أدوات البناء ، وقد سلكها فى عصا رفعها على كتفه على نحو ما يحمل الراعى زاده فى عصاه ، ويتبعه تابع يعاونه فى حملها ، ثم تصوير سلم خشبى كبير فى وضع مائل مجسم خلال مرحلة من مراحل البناء ، وتصوير معبودة مجنحة تطل من بين السحب تصب ماء من قدرها كأنها ملاك (٣) . . . .

---

(١) Frankfort, *The Art and Architecture* ... , 69.

(٢) مورتجات : المرجع السابق – ص ١٩٧ .

(٣) Leo Legrain "The Stele of the flying angles", *Museum Journal*, XVIII, (1927), 75 f.

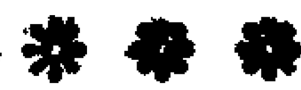
وثمة منظر على ختم يصور إبى سين ملك أور حليق اللحية برداء ذى ثنيات عريضة مزركشة يرسل أطرافه على ذراعه ويقيم بأطراف أناملة آنية دقيقة تلقاها من كاهن يواجهه فى أدب وبساطة ، أو يهديها إليه . وبدت ملامح الرجلين ، على صغر صورتيهما ، هادئة سمحة متفائلة بما يناسب الموقف أو المنظر الذى صورا فيه(١) . ووجد تمثال أساس برونزى للملك أورنمو يصوره بملامح شخصية رشيق القوام عارى الصدر يحمل بيديه آنية فوق رأسه (٢) .

وجارى فن النحت فن النقش فى تطوره.. وبقيت من نماذجه عدة رؤوس نحت بعضها من الديوريت ونحت بعضها من الألباستر ، وطعمت بعض عيونها بالمحار الأبيض واللازورد الأزرق ، مما يعنى أن الأحجار المناسبة للنحت كانت تستورد من أجله بخاصة ، وقد بذل الفنانون فيها جهداً ملحوظاً لإظهار تعبيرات الوجوه ومسطحات عظامها وهيئات الشفاه ، وتصفيفات الشعر للرجال وللنساء ، وتفاصيل أغطية الرأس التى كان منها الشال والعقال للرجل والعصابة للمرأة ، وإن ظلت العيون فيها جميعها جاحظة متسعة .

ومن أمتع ما بقى من هذه الرؤوس ، رأسان تعتبزان من روائع الفن الواقعى فى عصرهما ، إحداهما لأنثى (أو معبودة) نضرة الوجه زادت من حلاوتها نقاوة حجر المرمر الذى قدت رأسها منه ، وقد انسابت جدائل شعرها على كتفيها من تحت عصابة رأس سميكة ملفوفة . والرأس الأخرى من الفخار لرجل ملتح يرتدى عمامة هرمية لطيفة فوق رأسه (٣) .

واحتفظت أور بمقابر بعض أمرائها وأثريائها خلال عصر أسرتها الثالثة قرب مدافن عصر أسرتها الأولى غير بعيد عن ألاى خورساك إلى الجنوب الشرقى من معبد ننا الكبير(٤) . وشابهت هذه المقابر فى أسلوبها طراز المقابر القديمة التى سبقت العصر الأكدى فيها ، وتميزت عمارتها ببناء سقوف حجرات دفنها على هيئة عقود مقببة أو حنايا أو على هيئة الهرم الناقص ، مع استخدام الدبش فيها . وما من شك فى أنها كانت تتضمن ، مثلما تضمنت المقابر السابقة عنها ، ماتعبر به عن ترف حياة أصحابها ورقة أذواق عصرهم .

وكانت تسد بالآجر بعد الدفن ، ويعلوها بناء موقت لتقبل القرابين حين أداء مراسم الدفن أمام مدخل المقبرة وعلى درجاتها وفى الردهة — كما يقام فوقها بناء دائم توضع فيه التماثيل وموائد الضحايا المحروقة والماء المقدس . ويملأ فراغ القبر عادة برمل نقى أبيض ويخفى المدخل المؤدى إلى درجات القبر إلا من فتحة ضيقة فى الجدار القائم فوقها (٥) .



---

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 54 a.

(٢) مورتجات : المرجع السابق — ص ١٩٤ .

(٣) *Op. cit.*, Pl. 54 b–c.

(٤) مورتجات : المرجع السابق — ص ٢٠٢ .

(٥) نفس المرجع — ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، شكل ٤٦ ، ولوحة ١٦٣ .

من الأدب السومرى

احتفظت ألواح الألف الثانى ق . م وما بعده بآداب سومرية الصبغة والأسلوب ، نسخها أصحابها عن أصول قديمة ، وصعب تحديد عهود هذه الأصول تحديداً مقنعاً ، ولهذا لا نرى من بأس فى أن نستشهد هنا بعدد منها خلال الحديث عن عصر إحياء الحضارة السومرية باعتباره عصر بلوغها ذروة نضوجها ، دون أن ينفى ذلك احتمال تأليف بعضها قبله بكثير واحتمال تأليف بعضها بعده بقليل . وتضمنت تلك الآداب قصصاً وملاحم وأساطير ومحاورات دنيوية ودينية ، كانت من أشهرها قصة الطوفان ، وملاحم إينمركار ، ولوجال بندا ، ومغامرات جلجميش ، ونزول الربة إنانا إلى العالم السفلى ، ومحاورة الفلاح والراعى ، ومحاورة الصيف والشتاء ، . . . ، وذلك فضلا عن أمثال سائرة ، ونصوص تعليمية تصور حياة الدراسة وتصور مواد التدريس . واشتركت هذه وتلك مع غيرها من الآداب القديمة فى ملامح عامة ، مثل غلبة الطابع الدينى عليها ، وكثرة استخدامها الرمز للتعبير عن الفكرة والحادثة ، وكثرة التكرار اللفظى الذى يناسب الإلقاء والإنشاد أكثر مما يلائم القراءة ، وصعوبة التمييز فيها بين ما هو شعر وبين ما هو نثر . ثم تميزت من ناحيتها بخصائص معينة ظهرت فيها أكثر مما ظهرت فى غيرها ، ومنها بداية بعض قصصها ومحاوراتها بمخلص يمهد لها ، أو بمقدمة ميثولوجية تكسبها نوعاً من القداسة .

تخلف من قصة الطوفان السومرية أقلها (١) وصور هذا القليل زمناً بعيداً خلق فيه آن وإنليل وإنكى ونينهورساج البشر « أصحاب الرؤوس السود » ، والنباتات والحيوانات ، وتكاثر الخلق والكائنات ونزلت الملكية من السماء إلى الأرض ، حيث بدأ العمران من خمس مدن أشرف الإله آن (أو إنليل) على إنشائها فى مواضع طاهرة وسماها بأسمائها ، وهى : إريدو وبادتبرا ولاراك وسيبار وشوروباك ، وخصصها لعبادة خمسة من الأرباب والربات . ثم قضى بأن يغمر الفيضان الأرض لأمور لم تحتفظ بها السطور الباقية من القصة ، وأعلن قضاءه فى مجلس الأرباب ، فدب الذعر فى قلوبهم لا سيما ننتو وإنانا ، وقلوب الملوك المقدسين . وكان أشدهم اهتماماً به المعبود إنكى الحكيم رب مياه الأعماق ، وملك صالح يدعى زيوسدرا . وأراد إنكى أن يخبر زيوسدرا باليوم الموعود بطريق غير مباشر ، فأوحى إليه بأن يقف بجوار جدار مقدس وأن يستمع منه إلى صوته ، وأتاه الصوت قائلا : « سوف ألقى إليك كلمتى ، فاستمع لأمرى . بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة ويقضى على سلالة البشر . ذاك قرار مجلس الأرباب ، وقضاء آن وإنليل . . . » . ويبدو أنه نصحه بأن يبنى سفينة كبيرة وينقل إليها ما تستطيع أن تحتمله من المخلوقات . . . ، فصدع بأمره وعمل بنصيحته (٢) .

---

(١) بقى من ألواحها ثلث لوح وجد فى نفر ، كتب فى العصر البابلى عن أصل سومرى قديم .

(٢) Kramer, *ANET*, 43 f. (and references) ; M. Civil, The Sumerian flood Story, *Atrahasis*, 1969 ; W.G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, Oxford, 1960, 92 f. ; Civil et Biggs, *RA*, LX, 1—5 ; R.D., Biggs, *ANET*, 1969, 594—5.

وفى اليوم الموعود هبت الأعاصير هبة عنيفة وأطاحت بالعواصم ومراكز العبادة وصحبها فيضان كاسح ، واستمر ذلك سبعة أيام وسبع ليال ، اكتسح الفيضان الأرض فيها ، ودفع السفينة قدماً . . .

وبعد فترة ما بزغ المعبود أوتو رب الشمس فأنار السماء والأرض ، وفتح زيوسدرا فتحة فى جدار سفينته وتطلع منها فرأى أشعة أنوار ربه ، وعلم بصفحه ، فركع وضحى من أجله بفحل وشاة : كما استرضى بقية الأرباب الكبار .

ونادى آن وإنليل : « نسمة السماء . . . نسمة الأرض » ، فظهرت الخضرة على الأرض من جديد ونما النبات ، ووهب الرب الأكبر زيوسدرا حياة سرمدية ، فعاش فى أرض العبور أرض دلمون ، دار الشروق على البحر ، وكان خلوده سبباً فى الحفاظ على النبات وعلى سلالة البشر والاحتفاظ بأسمائهم .

ويحتمل من سياق لوح صغير أن زيوسدرا كان قد تلقى الحكمة عن أبيه شوروباك أحد ملوك ما قبل الطوفان ، وورد فى وصاياه أنه شوروباك بن وبر توتو ، وكان من قوله لولده : نصيحة أقدمها لك فتقبل نصيحتى ، وكلمة أقولها لك ، فأعرها سمعك ، لا تهمل وصيتى ولا تتعد كلمتى . وقوله : لا ينبغى اقتناء حمار مزعج النهيق ، ولا ينبغى زراعة حقل على الطريق (١) .

* * *

وحظى جلجميش ملك أوروك وسيد حى كلاب حيث تقوم زقورة الإله آنو(٢)، بنصيب كبير من القصص السومرى ، وترتب على كثرة ما كتب عنه أن ظهرت له صورتان ، صورة احتفظت له بشجاعته وجرأته ولكنها لم تأب أن تعترف بتسليمه بالأمر الواقع حين يتبين عجزه أمام عدوه ، وصورة أخرى جعلته مغامراً مغواراً لا يهن له عزم ولا يشق له غبار مهما واجهه من المصاعب .

وظهر جلجميش فى صورته الأولى حاكماً على مدينة أوروك ولكنه كان بمدينته أقل منزلة من أجا ملك كيش التى أكدت الأساطير السومرية أنها كانت أول مدينة نزلتها الملكية بعد الطوفان ، وربما كان تابعاً له ، ويبدو أن أجا هذا اشتط ذات مرة فى طلب الجزى منه ، فثارت نفس جلجميش وابتغى أن يرفع النير عن بلده ، فجمع شيوخ المدينة ودعاهم إلى امتشاق السلاح ضد كيش ، ولكنهم آثروا السلامة مع الخضوع ولم يستجيبوا له . فلم ييأس وأعاد الكرة على جمهور شعبه فاستجاب الناس لدعوته وهللوا له وعز عليهم أن تخضع مدينتهم لعدو ، وفيها إنانا معبد آنو الذى نزل من السماء وأقامه الأرباب الكبار بأنفسهم حتى أصبحت جدرانه تلامس السحاب .

---

(١) ذكرت النصوص الاغريقية للعصور المتأخرة مرادف زيوسدرا باسم Xisouthros واعتبرته خلفا للملك Otiartes — تحريفا للاسمين القديمين .

(٢) كرامر : من الواح سومر — لوحتا ٦١ — ٦٢ ، ص ٤٣٤ — ٤٣٥ .

واشتدت عزيمة جلجميش بتأييد شعبه ، فنادى على تابعه وصديقه إنكيدو أن يدع أدوات الفلاحة جانباً ويمتشق سلاح الحرب ، وبلغ ذلك سمع أجا ملك كيش فخرج بجيوشه وحاصر أوروك . واستنفر جلجميش من رجاله من يستطيع مواجهة أجا ، فنفر له بطل يدعى بير هور توري ، ولكنه ما كاد يخرج من بوابة المدينة حتى تكاثر الأعداء عليه وأسروه واقتادوه إلى ملكهم فلم يهن عزمه أمامه واستمر يشيد بمولاه جلجميش وشجاعته .

وصعد جلجميش على أسوار المدينة فخشى عليه رجاله ، وخرج تابعه إنكيدو يرقب البوابة . ولما رأى جلجميش عقم المقاومة وكثرة العدو سلم بالأمر الواقع ، فنادى أجا وامتدحه وعظمه ، مداراة له وخضوعاً للأمر الواقع ، فرق له قلبه ورفع الحصار عن مدينته وشكره على أدبه وأمنه على بلده .

سجلت هذه الأسطورة على إحدى عشرة لوحة صغيرة فى فترة ما من الألف الثانى ق . م ، ورأى ياكوبسن وكرامر فى استشارة جلجميش لجماعة الشيوخ ثم جمهور الشعب نوعاً من أساليب الديموقراطية القديمة واعتبرا الجماعتين أشبه ببرلمان من مجلسين للشيوخ والشباب (١) . ولو أنه ليس من ضرورة للأخذ بحرفية هذا التخريج لأن القصة لا تحتمله .

وظهر جلجميش فى صورته الأخرى يتحدى الموت ويحاول أن ينتصر عليه باكتساب شهرة فذة تخلد ذكره . وتخير مجال هذه الشهرة فى أرض الأحياء أرض الأرز « هوروم » ليأتى ببعض أشجار أرزها إلى أوروك رغم أنف حارسها المخيف هواوا .

واستفتى جلجميش أوتو رب الشمس وصاحب هذه الأرض فيما انتواه ، وصور له قلقه من البقاء فى مدينة يموت الإنسان فيها ويفنى دون ذكر يخلده ، فأشفق أوتو عليه من وعورة الطريق ومخاوفه ، ولكنه بكى واستعطفه ، فرق له واعتبر دموعه قرباناً له ووعده العون .

واصطحب جلجميش صديقه وتابعه إنكيدو ، وجمع خمسين متطوعاً من الشبان الأعزاب الذين لا أم لهم ولا دار ، حتى لا يشغلهم عن مهمتهم شاغل من الأهل وتسهل عليهم المغامرة . وقطع معهم الجبال السبعة التى تفصل بين أوروك وبين الأرض المرعودة ولما بلغوها حاول صديقه إنكيدو أن يثنيه عن دخولها وخوفه أهوالها ، وذكره بحزن أمه عليه إن لقى حتفه فيها ، فأقسم بأبيه وأمه أنه لن يتراجع حتى يقاتل ذلك الكائن هواوا سواء أكان بشراً أم إلهاً . وذكرت القصص أبا جلجميش باسم لوجال باندا وذكرت أمه باسم نينسون ، وكانت أكثر احتفاء بها فوصفتها بالحكمة ودللتها النصوص الأشورية المتأخرة باسم نيسونا . وواصل جلجميش مغامرته حتى بلغ قصر هواوا الأرزى ، وبعد أن قطع سبع شجرات وتركها إلى رجاله ، اقتحم قاعة هواوا وهدده فيها ثم مال إلى أن يعفو عنه بعد أن ظهر عليه ، ولكن إنكيدو خوفه عاقبة العفو عنه وشجعه على قتله

(١) T. H. Jacobsen, "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia", *JNES*, 1945 ; Kramer, *American Journal of Archaeology*, 1949.

وقطع رقبته . وليس من المستبعد أن هواوا هذا كان إسماً رمزياً لزعيم أو جماعة جبلية أو عملت على حرمان العراقيين من الحصول على أشجار الأرز من غابات لبنان واحتكرته دونهم فنسبت الأسطورة تحطيم هذا الاحتكار وأهله إلى مجهود بطلها العظيم جلجميش ، ربما تعويضاً له عن الاعتراف بالأمر الواقع من أن الحياة الأبدية التي كان يسعى إليها هي احتكار للآلهة الكبار وحدهم وقد حجبوا أمرها عمن عداهم ، وأن الأعمال الجليلة هي التي تخلد ذكرى عظماء البشر حتى وإن بلغوا مرتبة أنصاف الآلهة .

واحتفظت الألواح السومرية بأسطورتين أخريين قصيرتين لمقاتلة الأبطال لكائنات خرافية شريرة ، تضمنت أولاهما مقدمة قصة جلجميش وإنكيدو . وكان بطلها المعبود إنكى الذى أراد أن يثأر من الوحش كور لاختطافه الربة إرشكيجال واغتنامه إياها لنفسه فى عالمه السفلى ، فتتبعه فى قاربه ، وأخذ كور يرشق سفينة إنكى بالأحجار ويضرب قاعدتها ويسلط مياه البحر على مقدمتها ، ولم تعرف نهاية هذه الأسطورة ولكن يبدو أن إنكى انتصر فيها وأيد انتصاره بتحكمه فى مياه الأعماق وتسميته بإله آبسو (١) .

وكان بطل الأسطورة الثانية « نينورتا » رب الرياح الجنوبية وابن إنليل (ربّ الهواء) ونماخ التى لقبت بلقب « نن خرساج » ربما بمعنى ربة الجبل ، وكان خصمه هو « أسج » شيطان المرض القاطن فى كور ، فتغلب عليه بعد جهد كبير ؛ ولكن حدث بعد أن قضى عليه أن طغت المياه (المالحة ؟) الحبيسة تحت كور على سطح الأرض وغطت على مياه الأنهار ، وأشاعت القحط ، وظلت كذلك حتى عمل نينورتا على تكديس الأحجار فوق كور وجعل منها سداً حجز به تلك المياه العظمى ، وصرف ما غمر البلاد منها إلى نهر دجلة (؟) وأزاح عن البلاد ما أصابها من كرب ومجاعة (٢) . ومن طبعات الأختام التى صورت قتال الأبطال للكائنات الخرافية ختم من أور صور البطل فيه بهيئة بشرية وصور مساعده على هيئة رجل برأس ثور .

وطرق السومريون فن الحوار الذى يقوم على التفاخر ، وعادة ما يكون طرفاه إثنين من الأرباب أو من الحيوانات أو من الأشجار ، أو يقوم على التقاضى أمام معبود أو عدد من الأرباب (٣) . ومن نماذجه حوار اشترك فيه أربعة : أوتو رب الشمس وأخته إنانا ورب الرعاة دوموزى ورب الزارعين إنكيمدو . وهو حوار يبدو أن مؤلفه أراد أن يعبر به عن فصل من فصول الصراع الدائم فى العراق بين أهل البادية وأهل الحضر ، واضطرار الزارعين إلى قبول الرعاة فى أرضهم عن تراض فى بعض الأحيان وعلى مضض فى أغلب الأحيان . ولا يخلو الجزء الباقى من هذا الحوار من تكرار وسذاجة ، ولكنه لا يخلو من طرافة على أية حال ، ويمكن تلخيصه على النحو التالى :

(١) كرامر : من ألواح سومر – الفصل ٢٠ – ص ٢٨٤ – ٢٨٦ .

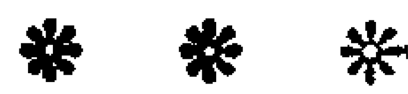
(٢) نفس المرجع : ص ٢٨٦ – ٢٨٩ .

(٣) L. Woolley, *Ur Excavations, The Royal Cemetery*, 359.

(٤) See, J.J.A. Van Dijk, *La Sagesse Sumero-Accadienne*, 31 f. ; W.G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, 1969, 150 f.

تقدم الراعى والفلاح لخطبة العذراء إنانا ، وكما يحدث أحياناً من مفاتحة الفتاة فى أمر المتقدم لخطبتها رغبها أخوها أوتو فى قبول الراعى دوموزى وأغراها بكثرة ما لديه من اللبن والشحم والدسم ، فأبت إلا زواج الفلاح ، وقالت لأخيها لن يتزوجنى الراعى ويطوينى فى ثوبه المصنوع من صوف الغنم الخشن ، وسيتزوجنى الفلاح الذى ينمى النبات ويزرع الحبوب ، ويملأ مخازن الغلال بها .

وهنا تقدم الراعى بنفسه إليها واستنكر منها أن تفضل الفلاح عليه ، وأخذ يثبت لها أن الفلاح ما امتلك شيئاً إلا وكان عند الراعى ما يقابله ، فلديه شاته البيضاء التى تقابل ثوبه الأبيض ، وعنده اللبن الأصفر الذى يقابل جعته الفاخرة ، والجبن الذى يقابل خبزه . . . الخ ، وادعى أنه يستطيع أن يعول الفلاح بفتات موائده ، ويبدو أنها اقتنعت برأيه ومالت إليه . فتشجع وواجه الفلاح وبدأه بالمشاجرة فاتقى الفلاح شره ولاينه ودعاه إلى أن يترك أغنامه ترعى فى حقوله وترتوى من قنواته ، فلانت شدة الراعى بدوره ومال إلى مصادقته ودعاه إلى عرسه لا سيما بعد أن عرض عليه أن يهدى عروسه بعض خيراته . ولم تخل أيام الزوجين من خلافات تتفاخر فيها إنانا بنبل أسرتها وتعيب عليه تشرد أسرته ، وفترات من التراضى تحن فيها إلى معاشرته فتتزين له وتعانقه .



صور الأدباء السومريون عالم الموتى « كور » باعتباره عالم الظلام والمخاوف وعالماً لا رجعة منه (١) . وحملت كلمة كور معانى كثيرة ومنها معانى الجبل والقطر الأجنبى والمتاهة والفراغ الكائن بين سطح الأرض وبين المحيط الأزلى (٢) . ومما يستشهد به عن عالم الموتى أسطورة عرفت اصطلاحاً باسم « نزول إنانا إلى العالم السفلى » (٣) .

وتروى الأسطورة أن إنانا اشتاقت إلى أن ترى ملك أختها الكبرى إرشكيجال ربة العالم السفلى ، فتركت دنيا الأرض والسماء ، وهجرت معابدها ، ولكنها لم تنس فتنتها وزينتها فاكتحلت بكحل يسمى « دعه يأتى ، دعه يأتى » وأصلحت هندامها ، وتزينت بحليها الفاخرة وكانت منها قلادة تسمى « تعال يا رجل ، تعال . . . » وتحصنت برموزها السحرية السبعة واصطحبت تابعها الأمين « ننشوبر » إلى بوابة العالم السفلى ، ولكنها تخوفت مما عساها تلقاه فى ذلك العالم المجهول لا سيما من أختها اللدود ربة الموت والظلام ، فأوصت تابعها بأن يترقب عودتها ثلاثة أيام فإن لم تعد إليه ملأ السماء صياحاً ، واستصرخ الأرباب لإنقاذها .

وعندما اقتربت إنانا من قصر اللازورد عند مدخل العالم السفلى بدأت بأسلوب التعاظم وخاطبت الحارس بجفاء وأمرته بفتح بابه وإلا فعلت به الأفاعيل . وذكرت له أنها « إنانا من مشرق الشمس » ، فرد عليها بمثل

(١) Kramer, *JCS*, II, (1948), 60 f. ; *ANET*, 41 f.

(٢) كرامر : من ألواح سومر – ص ٢٦١ ، ٢٨٢ .

(٣) Kramer, *JOS*, XV, (1951), 1—17.

لهجتها وقال لها « إذا كنت إنانا من مشرق الشمس ، فلم أتيت إذن إلى أرض لا رجعة منها ، وطريق لم يعد منه مسافر ، وكيف طاوعك قلبك على ذلك ؟ » ، فادعت أنها علمت بمقتل زوج أختها الكبرى ، السيد جوجالانا ، وأنها تود أن تحضر مراسم جنازته ، فاستأذنها فى أن يبلغ الأمر لمولاته ، ولما قص لمولاته قصتها ووصفها لها عرفتها وتخوفت أن تنافسها فى سلطانها ، فأمرته بأن يفتح لها مزاليج العالم السفلى السبعة وأن يجعلها تنحنى فى حضرتها ، فأطاع أمرها ، وأدخل إنانا ، وكانت كلما دخلت باباً جردوها من أحد رموزها وحليها ، فإذا سألتهم عن سر ذلك قالوا لها « اصمتى إنانا فتقاليد العالم السفلى قد استقرت ، فلا تناقشى مراسيمها » ، حتى إذا بلغت البوابة السابعة نزعوا عنها ثوبها ، وأدخلوها على أختها التى استوت على عرشها فانحنت أمامها عارية ، ولم يلبث أعوانها القضاة السبعة (وهم فريق من الأنوناكى) أن صوبوا نحوها نظرات الموت وقالوا كلمتهم بصرخة التجريم التى تعذب الروح ، فسقطت صريعة ، فأخذوا جثتها وعلقوها فى مسمار . . . !(١)

ومرت ثلاثة أيام على مصرعها ، فعمل تابعها بوصيتها فارتدى ثياب الحزن والفقر وملأ السماء نحيباً من أجلها ، واتجه إلى المعبود إنليل وبكى عنده وقال له فيما قال : أيها الوالد إنليل ، لاتترك إبنتك تهلك فى العالم السفلى ، لاتدع معدنك الطيب يعلوه الغبار ، لاتدع لازوردك الحر يتفتت . . . » ، فقابله إنليل ببرود ورد عليه بما يفهم منه أنها هى التى اختارت مصيرها بنفسها ولم يجبرها أحد على النزول إلى العالم السفلى .

وأعاد التابع الكرة على المعبود ننار رب القمر فلقى منه مثلما لقى من إنليل ، فاتجه إلى إنكى رب الحكمة ووجد عنده بغيته ، فخلق إنكى معبودين من درن قلامة ظفره المصبوغ باللون الأحمر ، ووهب أحدهما طعام الحياة وأوصاه بأن ينثره على جسد إنانا ستين مرة ، ووهب ثانيهما ماء الحياة وأوصاه أن يسكبه فوق جسدها ستين مرة حتى تعود إلى الحياة . وأكد عليهما ألا يقربا نبات العالم السفلى ولا ماءه ، فصدع الرسولان بما أمرهما به ، وبذلك استخلصا جثة الملكة من مسمارها ونثرا عليها طعام الحياة وماءها فاستعادت إنانا حياتها ، وتأهبت للصعود من العالم السفلى ، ولكن الأنوناكى اشترطوا لخروجها أن تخضع للعرف القاضى بألا يخرج أحد من عالم الظلام دون تقديم بديل عنه ، فرضخت مرغمة واصطحبها زبانية الموت ضماناً لوعدها ، فقصدت بهم مدينة أوما ثم مدينة باد تيبيرا إبتغاء التضحية بربيهما ، ولكن هذين أظهرا لها الخضوع والتذلل حتى انصرفت عنهما واتجهت إلى كلاب دار زوجها دوموزى ، وبدلاً من أن ينزل هذا لزوجته اعتلى عرشه ، فحرضت الشياطين عليه وصوبت نحوه نظرة الموت ونطقت ضده بصرخة التجريم قائلة « أما هذا فخذوه » فأخذه الشياطين وأوثقوه بالقيود وانهالوا عليه بالسياط والفؤوس . وبكى دوموزى حتى اخضر وجهه وتضرع أخيراً إلى أخ زوجته أوتو رب الشمس أن يعينه وذكره بأنه هو الذى يزود بيت أمه بالزبد ويزود بيت ننجال باللبن .

---

(١) Edward Chiera, *Revue d'Assyriologie*, XXXIV, 93 f. ; S.N. Kramer, *op. cit.*, 52 f. ; *Journal of the Cuneiform Studies*, V, 1951.

كرامر : من ألواح سومر – الفصل ١٩ – لوحة ٦٣ .

(٢) نفس المرجع – لوحة ٧٠ ، ص ٣٢٤ .

فاستجاب له بعد لأى وغير له هيئته حتى أنكرتها أخته كشتن – أنا التى خبأته فى حظيرة للماشية ولكن الشياطين اهتدوا إليه وضربوه وأخذوه معهم إلى عالم الموتى . وتعددت الإضافات والتعديلات على القصة لاسيما بالنسبة لفترة بقائه فى العالم السفلى التى اختلفت الروايات فى تقديرها بين ثلاثة أيام ، وبين ثلاثين يوما ، وبين نصف عام حيث تطوعت أخته الوفية كشتن – أنا بأن تحل محله خلال نصف العام الآخر فاستحقت التقدير بخلاف زوجته إنانا التى أودت به لمصلحتها (١) .

وظل النواح يتكرر عليه فى ذكرى وفاته حتى حرمته التوراة وقال عنه النبي حزقيال حوالي عام ٥٩٠ ق.م إنه لأمر بغيض .

وصورت إحدى لوحات قصة جلجميش محظورات العالم السفلى ، فى حديث جلجميش لصديقه وتابعه إنكيدو حين تطوع للنزول إلى العالم السفلى ليستنقذ منه هديتين أهدتهما إليه الربة إنانا ، فأوصاه بألا يرتدى ثياباً نظيفة وألا يتعطر وألا يأخذ معه عصا الرماية ولا يلبس نعلا ولا يقبل زوجته أو يضربها ولا يقبل ولده أو يضربه ، وكل ذلك حتى لايستثير شياطين العالم السفلى ضده . ولكن إنكيدو تهاون وارتكب المحظور فأطبق عالم الموتى عليه وعجز عن الصعود منه . وعندئذ استنجد صديقه جلجميش برب الحكمة إنكى لينقذه ، فأمر أوتو إله الشمس أن يثقب ثقباً فى العالم السفلى وأن يسمح لشبح إنكيدو بالنفاذ منه ، ففعل . وعندما خرج الشبح عانقه جلجميش وأخذ يسأله عما شهده فى العالم السفلى عن مصير الموتى الذين خلفوا من ورائهم ذرية من ابن واحد إلى سبعة أبناء ، وعن مصير شهداء الحرب والذى لم يدفن والذى حرم من القربان . . . إلخ .

وصور أحد الألواح السومرية مصير أورنمو ملك أور حين نزل العالم السفلى « كور » فاسترضى أربابه السبعة الكبار بالقرابين ، كلا منهم فى قصره ، وترضى كاتبهم ، واستقر فى قصره حيث رحب الموتى به ، وحيث زاره جلجميش الذى غدا بعد قاضيا فى العالم السفلى ولقنه مراسم العالم الآخر ، ولكن ما انقضت سبعة أيام ثم عشرة حتى حن أورنمو إلى مدينته التى لم يكمل أسوارها ، وإلى قصره الذى تركه دون تطهير ، وإلى زوجته وولده ، وأخذ يتسمع نحيب بلاد سومر عليه وينتحب لبكائها (٢) .

عرفت دور العلم عند السومريين باسم بيوت الألواح « أى – دبا » سواء فى ذلك إن كانت دوراً للتعليم فعلا أم كانت مجرد خزائن للكتب (مع شىء من التجوز فى التعبير عن الألواح باسم الكتب) . وكان المشرف عليها يدعى أوميا ، أى الخبير ، ويلقب بلقب أبى الدار إذا كان معلما ، ويشاركه فى إشرافه على تلاميذه وعقابهم عريف أو أكثر . ولم يعثر بعد على مبان يمكن القطع باعتبارها مدارس فعلية ، وكل

---

(١) Ebeling, *Tod und Leben*, 49 ; Falkenstein, *Bibliotheca Orientalis*, XXII, 1965, 279—283 ; *BASOR*, 1966, 31 ;

فاضل عبد الواحد : عشتار ومأساة تموز – بغداد ١٩٨٦ – ص ١٢٩ – ١٣١ .

(٢) كرامر : المرجع السابق – ص ٢٦٢ .

ما يمكن تقديمه في هذا السبيل ، معلقاً على الإحتمال وحده ، عدة بيوت وجدت في كل من مدن نيبور ، وسيبار (أبو حبة قرب بغداد) ، وأور ، وتل حرمل (قرب إشنونا) ، قد تكون بيوت معلمين أو مدارس ، لأنها تميزت عما سواها بكثرة ألواح الكتابة التي وجدت فيها ، ثم حجرتان في بيت بمدينة ماري (تل الحريري) اشتملتا على صفوف من المصاطب مختلفة السعة بنيت من الآجر ، تتسع الواحدة منها لشخص أو شخصين أو أربعة أشخاص ، وقد تكونان مكتباً أو مدرسة .

ولما كان الخط المسماري خطا معقداً في أشكاله الاصطلاحية وفي تعبيراته ، كان من الطبيعي أن يستهلك التلميذ في تجويده سنوات طويلة ، يتعلم خلالها ما يناسب سنه من صيغ الرسائل وقصائد المعبودات والمقطوعات الأدبية والأسطورية المناسبة ، وعدداً من المفردات التي تتناول مطالب بيئته وخصائصها ، كأسماء الوظائف وأسماء الحيوانات وأسماء الأشجار والنباتات ، وأسماء المعادن والأحجار ، وهلم جرا(١) . ووجدت لوحة في تل حرمل تتضمن أسماء مئات من الأشجار والقصب والمواد ومنها حوالى مائة إسم لطيور خصص كل منها في نهايته بصورة طائر . وكان إسم مؤلفها أو ناسخها هو : أرا – إيمتي ، وقد سجل اسمه فيها وقدم له بأسماء عدد من الأرباب رعاة المعرفة والآداب كما لو كانوا قد شاركوه كتابته بايحاءاتهم فقال : نيدابا – خاى – جشتن – أنا – أرا – إيمتي بن نوزم لبسى الكاتب كتبوه .

وقدم صمويل كرامر نصاً مسمارياً وصف تلميذ فيه طرفاً من حياته المدرسية بناء على أسئلة وجهت إليه(٢) ، ويفهم من ترجمة كرامر للنص أن التلميذ كان يبكر فيأخذ من أمه رغيفين ، وينطلق إلى المدرسة متردداً وهو يحسب للعريف ألف حساب ، وعند دخوله يحرص على تحية المعلم ، ثم يستظهر لوحه في فترة الصباح ، وبعد أن يتناول غذاءه ، يكتب لوحه الجديد أو يستكمله ، وفي العصر يتلقى درسه المكتوب ، وبعد الانصراف يعود إلى داره فيطلع أباه على درسه وعلى ما استظهره في يومه . غير أن مجهوده لم يكن يعفيه من أذى الضرب في المدرسة جزاء الثرثرة وكثرة الحركة أو جزاء الهرب أو لرداءة خطه . ولم يكن لمثله إلا أن يلجأ إلى أقصر الطرق ، فأشار على أبيه بدعوة المعلم في داره ومهاداته ، فاستجاب الأب وأكرم المعلم وكساه وأهداه . ويفعل الاسترضاء فعله ، فما أن يعيد الولد قراءة ألواحه أمام معلمه حتى يستبشر المعلم ويعلن رضاه عنه ويبرر هذا الرضا بما تبينه من طاعته وعمله بإرشاداته ويبشره بمستقبل باسم يتفوق فيه على أقرانه بعد أن أصبح من مريدى المعرفة .

* * *

(١) نفس المرجع : ص ٤٧ .

(٢) نفس المرجع – الفصل الثاني – لوحتا ١١ – ١٢ .

وبغير أن نفسد جمال الصورة التى رسمناها للآداب السومرية ، لا بأس من أن نضيف إليها حقيقة واقعة ، وهى أن ما استشهدنا به منها يمثل إنتاجها الرقيق وحده ، أما غثها فكثير . وفيما بين الغث والثمين وقع أدب دينى أسطورى صور كيد الأرباب السومريين بعضهم لبعض وإسفاف بعضهم مع بعض وذلك مما يمكن تعليله بأن السومريين الأوائل عاشوا لفترات طويلة أمام الطبيعة وجها لوجه ، ووجدوها طبيعة صاخبة بهيمية غير متميزة ، فألصقوا نفس الصفات بأربابها ، ثم تعدوا هذه المرحلة من التفكير بعد أن تهذبت حضارتهم ، ولكنهم لم ينسوا تماماً تصورات أجدادهم الأولى ، فأورثوها لأحفادهم . وقد مر بنا من صورها كيف تخيلوا القمر ولد سفاحاً ، وكيف اغتصبت إنانا ألواح القدر من إنكى . وصورت أسطورة لهم شدة حسد المعبود إنكى للمعبود إنليل على إجماع الناس على عبادته بلسان واحد ، الأمر الذى أدى به إلى أن أشاع الوقيعة بينهم وبين ربهم إنليل ، وبلبل ألسنتهم ، وذلك على الرغم من أن إنكى الحسود هذا كان يوصف بالذات بأنه حكيم الأرباب . وربط صمويل نوح كرامر بين هذه الأسطورة وبين ما رواه العبرانيون عن قصة برج بابل ووحدة الألسن القديمة ثم بلبلتها فيه نتيجة لغيرة ألوهيم من طموح الإنسان ليكون شبيها بإلهه .

وصورت أسطورة أخرى المعبودة إنانا ، بعد نزولها من السماء ، على هيئة بغى مقدسة أدركها التعب فنامت تحت شجرة فى بستان بأرض شوبر (فى غرب إيران) ، فغافلها البستانى وقبلها وضاجعها ثم هرب منها إلى بلاد سومر بلاد إخوته أصحاب الرؤوس السود ، واحتمى بعمرانها . فصبت إنانا نقمتها على بلده وسلطت عليها عواصف مدمرة وملأت آبارها بالدم .

وأضافت أسطورة ثالثة عن بداية الخلق فى جنة تلمون ، أن إنكى رب الحكمة ضاجع ننخرساج وأنجب منها فتاة ، ثم طمع فى إبنته منها واستولدها حفيدة ، وضاجع الحفيدة واستولدها هى الأخرى ، وظل كذلك حتى نبهت ننخرساج الزوجة الجدة حفيدتها الرابعة ألا تستسلم لجدها حتى يمهرها بنوعين من النباتات ، فأتاها بالمهر ونكحها هى الأخرى . وهنا سلمت الجدة بالأمر الواقع ، وانتوت الإنتقام ، واستخدمت النباتين فى توليد ثمانية أنواع جديدة من النباتات ، وكان لها هدف معين منها . فلما رأى الجد النهم النبت الجديد طمع فيه وأكله ، فلعنته ننخرساج وهجرته . ولما أصابه السقم وأوشك على الهلاك ، جد فى البحث عن زوجته الغاضبة ولم يدله عليها غير ثعلب . ولما كانت حكيمة ، كما تقول الأسطورة وضعته بين وركيها وأخرجت من مواطن دائه تسعة أولاد (١) ، بعد أن استعبر بنتيجة ما فعل .

(١) Kramer, *From the Tablets* ... , Ch. XI, XXV ; *BASOR*, 1945, (Supl. No. 1) ; *ANET*, 37 f. ; Th. Jacobsen (j.a.), *The Intellectual Adventures of the Ancient Man*, 157 f.

نهاية أور :

تعرضت دولة أور فى أواسط القرن العشرين ق.م لهزتين عنيفتين ، صدرتا عن طائفتين طموحتين وهما أنصاف الإلاميين، والأموريون . أما الإلاميون (أو العيلاميون) ومن خالطوهم وتأثروا بهم فهم جيرانها القدماء فى شرقها وجنوبها الشرقى ، وكثيراً ماصادمتهم وتصادموا معها ، وناوأتهم حتى أخضعت بعض جماعاتهم لسلطانها أحيانا . ولكن حدث لأمر ما أن انبعثت فيهم روح جديدة شجعتهم على مد سلطانهم على جزء من دولة أور . وناوأ الأموريون الدولة من غربها ، والأموريون هم أولئك الفروع من الساميين الذين إنتشروا فى باديتى الشـــام والعراق فى أواسط الألف الثالث ق.م وامتدوا حتى غربى الفرات الأوسط حيث غلبوا على من سماهم السومريون القدماء « مارتو » (أى الغربيين) وعرفهم بنو عمومتهم الأكديون باسمهم هذا وهو « الأموريين » ، وهو إسم سبق أنه يؤدى نفس المعنى القديم أى الغربيين وإن كان أحد معبوداتهم الكبرى قد سمى أمورو مما يحمل على الظن بسنبتهم إلى إسمه(١) . وكان قرب مناطق الأموريين من صحراوات شبه الجزيرة العربية يزودهم من حين إلى آخر بهجرات من بنى عمومتهم البدو الساميين ، وهذه قد تنطوى فى ظلهم حينا ، وقد تغلب بعض جماعاتهم على أمرها حينا آخر ، ولكنها كانت تجدد دماءهم وحيويتهم فى أغلب الأحيان . وظلت ضفاف الفرات وخيراتها الطبيعية والحضارية مطمعاً للأموريين القريبين منها حتى توافرت لهم أسباب هجرة كبيرة قوية ، وهى أسباب يصعب تحديد تفاصيلها ، ولكنها لاتخرج فى أغلب الظن عن إحتمال فرارهم من اشتداد موجات الجفاف الطويلة فى أرضهم ، أو إرتفاع نسبة التكاثر الداخلى فى قبائلهم ، أو ظهور زعامات قوية طموحة بين صفوفهم ، ثم إحساس أقرب جماعاتهم من أرض العراق بتخلخل قبضة أواخر ملوك أور على أطراف دولتهم لاسيما بعد أن انشغلوا بضغط الإلاميين على مشارفها الشرقية . وانهارت أغلب احتكاراتهم التجارية ، وسنحت الفرص أمام أمراء المدن للمبادرات الفردية .

وسيطر الأموريون فى بداية تغلبهم على مناطق الحواف . ومن كبرى المدن التى مدوا نفوذهم إليها مدينة مارى بين نهر الخابور ونهر الفرات ، وكانت لأهلها صلة قديمة بالعنصر السامى . وبدأ حكام المدن يوازنون بين الولاء للغزاة وبين الولاء لعرش أور . وكان من هؤلاء أمير سامى الأصل يدعى إشبى إرا ، من حكام مارى ، أخذ يظهر الولاء للفريقين حتى يتكشف له الفريق الغالب منهما فينضم إليه ويأخذ من ثم يعمل لمـــا فيه مصلحته . وصورت هذه الأوضاع رسالة أرسلها « إبى سين » آخر ملوك أور إلى قائد من قادته يدعى « بوزور نوموشدا » تولى حكم مدينة كازاللو (وهى مدينة غير معروفة قد تقع شرقى دجلة)(٢) ، عاب عليه فيها تردده فى مهاجمة رجل مارى « إشبى إرا » ، بعد أن تلقى من هذا القائد رسالة أخبره فيها أن إشبى إرا بث عيونه حوله ، وأنه لن يستطيع مغادرة أرضه إلا بعد أن يزاح خطره عنه . . . ورد إبى سين أسباب المحنة إلى القضاء والقدر وإرادة الأرباب وفساد الدولة ، فقال لقائده : « قضى إنليل بالشر على سومر وهبط عدوها من أرض . . . وتولى زعامة البلاد . وترك إنليل الملكية لإشبى إرا الرجل الوضيع

(١) See, Edward, *Die Zweite Zwischenzeit Babylonien*, 1957 ; Kupper, *Les Nomades en Mesopotamie*, 1957.

(٢) هورست كلنجل : حمورابى ملك بابل وعصره – مترجم ببغداد ١٩٨٧ – ص ٣٢ .

غير السومرى . وسجدت سومر فى مجمع الأرباب ، وقضى إنليل أنه طالمـــا بقى أهل السوء فيها فلسوف يدمر إشبى إرا رجل مارى بنيانها ويكتسح أرضها (١) .

ويبدو أن إشبى إرا استمر فى خداعه وادعى الغيرة على مدن أخرى غير مارى ، فنقل نشاطه إلى مدينة نيبور ثم إلى مدينة « إسين » إلى الجنوب منها بنحو ثلاثين كيلو متر . ومن هناك أرسل إلى إبى سين يدعى أنه سوف يدافع عن المدينتين ويطلب المدد منه لهذا الغرض ، ولكن الملك السومرى ظل على سوء الظن به ، فانتهزها إشبى إرا وكشف القناع عن أطماعه وسيطر على المدينتين لصالحه واتخذ ثانيتهما عاصمة له ، فى نفس الوقت الذى إندفع فيه حلفاؤه الساميون إلى قلب العراق وسيطروا على سهل سربار (٢) .

واعترف الملك السومرى إبى سين فى رسالته إلى قائده بهذه الحقيقة المرة ، وحاول معه محاولته الأخيرة ، فتنبأ له بأنه إن ضل وجرى مجرى المنحازين إلى الساميين فلن يقدره العدو قدره ، ودعاه من ثم إلى التزام جادة الصواب ، وبشره بأن الأمورى لن يبلغ مأربه ، لأن إنليل سوف يكشف الغمة ويرسل جماعات جديدة من بلدو مارتو يفسدون عليه أمره ، وقد يهاجمه العيلاميون أيضاً ، وحين ذاك تستفيد سومر من تنافس الخصوم وتستعيد مجدها القديم .

وشيئاً فشيئاً انقطع التأريخ باسم إبى سين السومرى فى مدينة بعد أخرى (مثل مدن إشنونا ولحش وأوما ..) مما يعنى إنسلاخها عنه أو وقوعها فى يد عدوه . وسواء تقدم الإلاميون حينذاك من تلقاء أنفسهم ، أم استنجد بهم إبى سين (ضد أمير أمورى يدعى نابلانوم) كما يعتقد ياكوبسن ، فقد استغلوا الظرف لمصلحتهم ومدوا سلطانهم حتى مدينة لارسا التى قامت على مقربة من أور وقامت على أطلالها بلدة سنكرة الحالية ، وكانت مركزاً من مراكز عبادة الشمس ، وعرف معبد إله الشمس فيها باسم إبابار . وكان المنتفع بهذه الخطوة (كادرموباك) ملك منطقة إيموتبال وهى منطقة فى شرق دجلة قريبة من الحدود الإيرانية ، جرت فى حكامها دماء إلامية ، وكان يتلقب بلقب أدا إيموتبال بمعنى والدها . وبعد أن سيطر على لارسا لقب نفسه بلقب أدا الغرب وعين ولده وردسين ملكا عليها حتى خلفه أخوه ريم سين الذى طال حكمه أكثر من ستين عاما(٣) .

وكان لسقوط أوربين فكى الكماشة ، حينذاك ، واقتسام مجدها وأملاكها بين خصومها العيلاميين وبين الأموريين ، بـــل وبين جماعات جبلية دعت النصوص أصحابها باسم السوباريين (٤) نتيجة فيما يبدو

---

(١) Kramer, *ANET*, 480—481 ; A. Falkenstein, *ZA*, XLIX, (1949), 59 f.

(٢) See, Jacobsen, *Journal of Cuneiform Studies*, VII (2), 1953,39 ; F.A. Ali, *Archic Orientalni*, XXXIII, 1965, 520—540.

(٣) هوورست : المرجع السابق — ص ٣٦

(٤) *See, ANET*, 460.

لسيطرتهم على مناطق سوبار (أو سوبارتو) ، دوى كبير فى نفوس أهلها ونفوس السومريين بكافة . ونظم شاعر سومرى خبر دمار أور (بعد فترة من حدوثه) فى قصيدة ، واعتبره دماراً لسومر كلها (١) .

وبدأ الشاعر قصيدته بقوله : « فارق الفحل مقره وتفرق قطيعه مع الرياح » وقصد بالفحل هنا إله أور . ثم عدد أسماء المدن السومرية الكبرى وذكر أن أربابها وربابتها فعلوا فعلة إله أور ، فهجر إنليل نيبور وتفرق قطيعه . . . ، وهجرت إنانا أوروك ، وهجر إنكى إريدو . . . ، وهلم جرا ، ثم أخذ ينعى مصائر المدن وينعى تساقط لبنات مساكنها ، وبدأها بمدينة أور . . . ، ثم إنتقل إلى وصف قرار الأرباب بدمارها وسفك دماء أهلها ، وكيف أنه (أى الشاعر) آثر ألا يتركها على الرغم مما أصابها ، وأنه أخذ يسكب دموع عينيه لربه آن ، ويبتهل لربه إنليل ، ولكن ما من سميع ولا مجيب . واستمر نحيب الناس . . . . ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى الذين حطمتهم الرماح والمقامع ، وظلوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم ، أما من نجوا فقد ذلوا وجاعوا حتى تخلت الأم عن إبنتها ، وهجر الأب ولده ، وفارقت الزوجة زوجها . . .

ونعت الربة نينجال بدورها الدمار الذى لحق بداخل المدينة وخارجها ، وقالت : . . . . تراكم الوحل فى أنهار مدينتى ، وأصبحت كأنها جحور الثعالب ، وما عاد الماء يجرى فيها . وهجرها عمالها ، ولم يتبق غلال فى حقول بلدى وهجرها مزارعوها ، . . . وأصبحت أجمات النخيل والكروم بعسلها ونبيذها (جرداء) كقمة الجبل (؟) ، . . . ضاعت مدينتى ولم أعد ملكتها ، وتحولت دارى إلى أطلال ، وقامت مدينة غير المدينة ودار غير الدار ، ياويلتى ، أين أجلس وأين أقف ؟ . أنا نينجال طردت من دارى ولم يعد لى مقر ، وغدوت شريدة فى مدينة غريبة . .

ورد الشاعر على نحيب ربته نينجال بنحيب مثله ، قائلا : مليكتى ، أصبح فؤادك كالمساء ، فكيف تعيشين ؟ أيتها السيدة العادلة التى تخربت مدينتها كيف تعيشين ؟ . . . ، دموعك أصبحت دموعا غريبة ، فالبلد لم يعد يذرف الدموع . . . ، وإلى متى ياترى ستظلين غريبة بجوار مدينتك ؟ ثم تمنى لها أن تؤوب إلى ديارها أوبة الفحل إلى حظيرته ، والشاة إلى قطيعها ، والطفل إلى مهده ، ودعا لها بأن يقضى لها آن ملك الأرباب بالأمان ؛ ويمنحها إنليل ملك الدنيا الحظ (السعيد) حتى تعود أور إلى حالها من أجلها ، وتمارس فيها سلطانها .

ويرى ياكوبسن أن تأليف القصيدة لا يتأخر أكثر من سبعين عاما أو ثمانين عاماً بعد تدمير أور ، بينما يستبعد كرامر مثل هذا التحديد ويكتفى بافتراض تأليفها فيما بين إنتهاء عصر أور وبين العصر الكاسى .

(١) Th. Jacobsen, *AJSL*, LVIII, 219 f. ; M. Mitzel, *Orientalia* (*New Series*), XIV (1945), 185 f. ; XV, 46 f. ; *See*, Kramer, *op. cit.*, 455 ; *also*, *ANET*, 1969, 611—619.

ه . كلنجل : المرجع السابق — ص ٢٣ .

النهضة الثالثة فى عصر إسين– ولارسا :

كان من الطبيعى أن يتنافس الأموريون والعيلاميون وأنصارهم على السلطان فى العراق ، فاستمرت المنازعات سجالا بينهما ، وسمح هذا لبعض مدن العراق القديمة بأن تستأنف سيرها الحضارى على غفلة من هؤلاء وهؤلاء ، وشجعها على ذلك أن الأموريين أنفسهم احتضنوا الحضارة السومرية الأكدية فى العاصمة « إسين » وسمحوا لها بالنمو فى مدنها القديمة ، ولم يصروا على إرغام هذه المدن على الانضواء معهم فى وحدة سياسية دائمة على الرغم من تلقب ملوكهم باللقب العريض المألوف لقب « ملك سومر وأكد » .

ويبدو أن الإلاميين أو العيلاميين اتخذوا من جانبهم خطوة مماثلة ، فتركوا لمدينة « لارسا » استقلالها الذاتى ، واكتفوا بأن ولوا عليها أمراء من بيتهم المالك ، وحمل بعض أولئك الأمراء كنيات سامية مما قد يعنى أنهم بدورهم قد اختلطوا بالساميين العراقيين وتعايشوا معهم . وإن ظلت الأطماع السياسية تلعب برؤوسهم فى مقابل أطماع الأموريين .

ومع هذه السياسة من الأموريين والإلاميين دلت نصوص هؤلاء وهؤلاء على اهتمام زعمائهم المقيمين فى إسين ولارسا ، بالعمائر الدينية القديمة ، وذلك مثل تجديد زقورة أور فى عهدى إشمى داجان ملك إسين وعهد وردسين ملك لارسا ، وتعيين إشمى داجان ابنته إناناتم كبيرة لكاهنات ننا (أو ننار) رب القمر السومرى .

وكشف عن ضاحية سكنية لمدينة أور بلغ اتساعها نحو عشرة آلاف ياردة مربعة ،شيدت مساكنها فى عصر إسين – لارسا ، وهى بيوت بنيت قواعدها من الآجر وأقيمت بقية جدرانها من اللبن ، ولم تختلف فيما بينها إلا من حيث مساحاتها . فالمنزل المتسع منها كان ذا فناء داخلى مرصوف بقوالب الآجر يتلقى الضوء والهواء من كوة كبيرة بطنف السقف العلوى للطابق الأول ، وتنفتح عليه غرف الجلوس وغرف الضيافة ، وتتفرع منه ملحقات الدار الصغيرة ، ويبدأ من إحدى زواياه الدرج المؤدى إلى الطابق العلوى . وجرت العادة على أن تسكن الأسرة فى هذا الطابق العلوى الذى تطل شرفاته الخشبية الداخلية على الفناء وتعتمد على أساطين خشبية أيضاً ترتكز قواعدها على أرضيته . وتميزت بعض المساكن بمقاصير للعبادة الخاصة ، وتضمنت بعضها مقابر أهلها تحت مقاصيرها أو تحت أرضية إحدى حجراتها السفلية . أما الطرقات فكانت ضيقة غير مرصوفة تتناثر فيها هياكل العبادة الصغيرة التى لا يزيد بنيانها أحياناً عن قاعة واحدة أو قاعتين(١).

---

(١) *Antiquaries Journal*, VII, Pls. 41—42 ; XI (1931), 359 f.

تشريع إشنونــا(١) :

انتعشت دويلات المدن العراقية شيئاً فشيئاً من جديد وعاش بعضها بعد سقوط أور بفترة طويلة ، وساعدها على ذلك أن نهضتها كانت نهضة فكرية أكثر منها نهضة عدائية أو توسعية ، الأمر الذى صرف عنها غضب إسين ولارسا . وكان من أنشطها دويلة مدينة إشنونا التى يقوم على بعض أنقاضها الآن تل أسمر فى منطقة ديالى على الطريق التجارى بين العراق وبين إلام . وكانت فيما يبدو أكثر ميلا إلى السامية منها إلى السومرية على الرغم من موقعها ، واعتبرت تشباك إلهها الأكبر ، واتسع نشاطها إلى قرب كركوك . وخير ما يذكر لحكامها هو خروجهم بتشريع مكتوب فى أوائل القرن التاسع عشر ق.م أو قبلها بقليل . ووجدت بعض لوحاته فى شادوبوم وهى تل (أبى) حرمل شرق بغداد وقد غلب عليها الأسلوب الأكدى . ويعتبر هذا التشريع هو الثانى من نوعه بعد البداية التى قام بها أور نمو ملك أور ، أو هو الثالث بعد المحاولة الإدارية التى قام بها أوروكاجينا فى لجش . وبقيت منه إحدى وستون مادة عالجت أهم جوانب الحياة فى عصرها وشهدت بالكفاية التشريعية لأصحابها ، فاهتمت طائفة منها بتحديد أسعار الأقوات الضرورية مثل الشعير والزيت والملح ، فجعلت كور الشعير (= ٣٠٠ لتر) بشاقل فضة ، وسعرت الثلاث « قا » من أحسن صنوف الزيوت بشاقل فضة ، وكورى الملح بشاقل فضة ، والقا من زيت السمسم الفاخر بثلاث سيات من الشعير ، إلخ . ولعلها قامت بذلك مقام التسعيرة الجبرية .

واهتمت مجموعة ثانية بتعيين (الحد الأدنى ؟) لأجور العربات والقوارب ومن يعملون عليها ، والحد (الأدنى ؟) لأجور العمال الزراعيين . فجعلت أجرة العربة بثيرانها وسائقها طوال اليوم بانا و ٤ سيات من الشعير ، أو ثلث شاقل فضة . وجعلت أجرة نقل حولة كور بالقارب ٢ قو شعير ، وأجرة المراكبى سبة وقو من الشعير على أن يعمل على قاربه طوال اليوم ، وجعلت إيجار المكارى وحماره طوال اليوم سيتين من الشعير أو وزن ١٢ حبة من الفضة ، وجعلت أجرة الأجير فى الشهر شاقلا من الفضة وبانا من الشعير (٦٠ لترا) ، إلخ . فى حين شددت العقوبة أو الغرامة على العامل المتوانى عن أداء عمله .

واهتمت مجموعة ثالثة بتحديد العقوبات على جرائم عصرها وعلى الأضرار التى تلحق بالغير ، وجمعت فى ذلك بين القصاص والغرامة فرضيت بالقتل عقاباً للقاتل ، ولكنها أقرت مبدأ التعويض عن الجروح التى لاتؤدى إلى الوفاة ولو لم تتأت عن أداة ما . فقضت على من عض أنف شخص أو اقتلع عينه بأن يدفع غرامة قدرها مينه من الفضة (وكانت فى تشريع أور ثلثى مينه فقط مما يعنى الرغبة فى تشديد الجزاء) ، وقضت على من كسرسنا لآخر أو قدمه أو قطع أذنه بأن يدفع نصف مينه من الفضة . وقضت على من صفع وجه آخر وشوهه بأن يدفع له عشرة شواقل من الفضة . وألقت مسئولية ما يأتيه العبد أو الفحل أو الكلب على كاهل صاحبه .

---

(١) نسب A. Goetze التشريع إلى الملك بلالا ما (مجلة سومر ١٩٤٨) ثم عدل عن هذه التسمية واكتفى بنسبة التشريع إلى مدينته وترجم طه باقر بنود هذا التشريع فى الجزء الثانى من المجلد الرابع لمجلة سومر ١٩٤٨ – ص ١٦٥ إلخ – وأنظر أيضاً سومر ١٩٦١ – هورست كلنجل : المرجع السابق – ص ٩٠ .

See, A. Goetze, *The Eshnunna Law*, 1956 ; *ANET*, 1969, 161 f. ; Gadd, *CAH*, Vol. II, Part 1, 1973, 187 f.

وعنيت مجموعة رابعة من تشريع إشنونا بتنظيم العلاقات الأسرية والمعاملات الخاصة . فاشترطت بنودها رضا الوالدين على زواج ابنتهما ، وذكرت أن من أغوى فتاة على معاشرته دون أن يعقد عليها أمام والديها لن تصبح زوجته ولو أقامت فى داره حولا كاملا . وأخذت بما قررته أور من أنه إذا تعاقد رجل مع شاب على تزويجه ابنته فى مقابل خدمته(؟) ثم زوجها لغيره وجب عليه أن يرد له ضعف ما أخذه منه، وإذا توفى أحدهما قبل الزواج عاد نصيب كل منهما إلى صاحبه . ونصت على حق المحارب الذى يؤسر مدافعاً أو غازياً وينقل إلى ديار أعدائه ، فى أن يسترد زوجته حين عودته ولو تزوجت غيره وأنجبت منه خلال غيابه عنها ، ولكنها حرمت هذا الحق على من فارق بلده كارها له أو آبقا من سيده . وجعلت القتل عقاباً للزوجة الزانية وعقاباً لمن يغتصب فتاة مخطوبة . . . ، ونصت على أنه على من طلق زوجته ذات الأولاد (دون ذنب أتته ؟) وتزوج غيرها أن يفارق الدار وما فيها هو ومن أراد أن يتبعه من أهل داره ، وفى هذا سبق من التشريعات العراقية القديمة لكفالة حقوق الزوجة الحاضنة عما تطلعت إليه بعض القوانين المعاصرة .

ووضعت بنود المعاملات مبدء الشفعة ، فاعترفت بأن الإخوة أحق بشراء نصيب أخيهم من الميراث إذا أراد بيعه ، وبأن من باع داراً أصبح أحق بشرائها ثانية لو باعها مشتريها .

وحددت أرباح القروض معدنية كانت أم عينية فجعلت ربح الشاقل من الفضة سلساً وست حبات ، وجعلت ربح كور الشعير بانا وأربع سيات من نفس نوعه .

وفى العقوبات فرض التشريع عشرة شواقل من الفضة على من يضبط نهاراً فى حقل رجل من الموشكينو أو فى داره،والموشكينو هم أهل الطبقات العادية من الأحرار ويبدو أنها عنت منهم من يعملون لصالح القصور الملكية والمعابد بخاصة . وفرضت الإعدام على من يضبط ليلا فى حقل رجل من الموشكينو أو فى داره . ولعل التشديد فى عقوبة سارق الليل ترجع إلى أنه قد لا يتورع عن ارتكاب جريمة القتل متستراً بالظلام ولا يكتفى بالسرقة .

غير أن كل المكاسب التشريعية كانت لأحرار إشنونا (أو يلو (م) ، حتى الفقراء منهم (موشكينو(م) دون العبيد (اردو) والإماء (امتو) الذين أهدرت كافة حقوقهم . فقد حرصت مجموعة خامسة من التشريع نفسه على تأكيد حقوق القصور الملكية والمعابد والسادة فيما يمتلكون من العبيد والجوارى والعقارات ، فحرمت على الرقيق والإماء الموسومين بأسماء سادتهم أن يجتازوا بوابة إشنونا دون إذن سادتهم ، وأكدت حق السادة فى امتلاك أبناء جواريهم ولو رباهم غيرهم ، وحرمت على أى من العبد والجارية أن يتاجر لحسابه وتوعدت من يتعامل معه ، أى أنها اعتبرت العبد لا يملك شيئاً ، وأنه هو وما يملكه ملك لسيده . وإن دعانا الحياد التاريخى إلى الاعتراف بأن هذه النظرة إلى طبقة الأرقاء والعبيد لم تكن غريبة تماماً عن نظرة معظم الشعوب القديمة المعاصرة لها .

وهكذا تناولت بنود تشريع إشنونا أغلب مشكلات الحياة فى عصرها ، وتحتمل بداية عمران شادوبم أو حرمل التى وجدت بها أغلب لوحاتها والتى تبعد نحو ستة أميال إلى شرق بغداد ، فى منتصف الألف الثالث ق.م ، ولكن ترجع أهم مبانيها ولوحاتها الباقية إلى النصف الأول من الألف الثانى ق.م . ومن هذه المبانى معبد مسطح يتألف من مدخل وساحة ومقصورة تقع كلها على محور واحد . وأطلال قصر متسع ، ومعابد أخرى صغيرة ، وعدة بيوت وجدت فيها ألواح ذات صبغة تعليمية مما يوحى بانتماء بعضها إلى مدرسة ، وذلك فضلا على لوحات القانون سالف الذكر . أما من حيث الطابع الثقافى فقد جمعت آداب إشنونا (أو أسمر وحرمل) بين الثقافتين السومرية والسامية وغلبت الأخيرة ، ووجدت لها لوحات للأساوبين ، كما وجدت منها لوحات كتبت نصوصها باللغتين(١) ، وذلك على العكس من مدن أخرى سومرية النشأة ظلت مستمسكة بثقافتها القديمة مثل نيبور .

تشريع إسين :

يبدو أن صدور تشريع إشنونا (وتشريع أور من قبله) شجع مدناً عراقية أخرى على تجميع شتات أعرافها وقوانينها والإضافة إليها وتنظيمها وتسجيلها . فخرجت إسين كبرى عواصم الأموريين بتشريع مكتوب فى عهد لبت إشتار (أو لبت عشتار) خامس ملوكها فى أواخر النصف الأول من القرن ١٩ ق.م ، أى بعد تشريع إشنونا بنحو نصف قرن(٢) . وربما سجل رجاله هذا التشريع على نصب حجرى كبير لم يعثر عليه بعد ، وسجلوا نسخاً أخرى منه على ألواح طينية صغيرة عثر منها على سبع لوحات تفاوتت فى مدى اكتمالها وأعداد سطورها ، وتضمنت فى مجملها ثمانى وثلاثين مادة تحتمل أنها ألفت ما بين الخمس والنصف من مواد التشريع .(٣)

اتخذ لبت إشتار فى مقدمة تشريعه لقب ملك سومر وأكد ونسب اختياره إلى المعبودين الكبيرين آنو وإنليل ، واعتبر نفسه ولداً لإنليل ، ووصف نفسه بأنه الراعى الحكيم . ولكنه عقب على ذلك بأنه راع متواضع وأنه مزارع ، وأكد رعايته للمدن السومرية العتيقة نيبور وأور وإريدو وأوروك ، وافتخر بأن ربه وهبه إمارة البلاد ليحق الحق فيها ويعمل على إسعاد السومريين والأكديين جميعهم ، ويقاوم الفساد والقلاقل بقوة السلاح . ثم أكد أنه استوحى تشريعه من الرب أوتو (رب الشمس) والرب إنليل ، وأقر كلماتهما المقدسة . وذلك قول فسرناه من قبل بالرغبة فى كفالة الشرعية والاحترام والنفاذ للتشريعات .

(١) See, Sumer, II, 19 f. ; III, 48 f. ; IV, 52 f., 63 f., 137 f. ; V, 34 f. ; VI, 4 f. ; 39 f. ; VII, 28 f. ; 126 f. ; XI, Pls. I–XVI, XVI, XIII, 65 f.

(٢) وسبق تشريع حمورابى البابلى بنحو قرن ونصف قرن .

(٣) عثر على ست لوحات فى نيبور ، نقلت منها إلى متحف الجامعة بلندن . ويحتفظ متحف اللوفر باللوحة السابعة ولكن مصدرها غير معروف .

See, Francis Steele, "The Code of Libit Ishtar", *AJA*, LII (1948), 425 f. ; Szlechter, *RA*, 1957, 57 f. ; 177 f. ; 1958, 74 f. ; S.N. Kramer, *ANET*, 159 f., *The Sumerians*, 1963, 336 f.

هورست كلنجل : المرجع السابق – ص ٨٩ ؛ طه باقر : قانون لبت عشتار – سومر – المجلد الرابع – الجزء الثانى – ص ٤ وما بعدها .

أنه ثم ذكر ابتغى أن يحرر أبناء مدن سومر وأكد وبناتها من الرق الذى فرض عليهم . وليس فى تشريع لبت إشتار ما ينص صراحة على نوعية هذا التحرير إن كان تحريرا لرق المدينين ، أم هو فتح لأبواب التحرر من الرق بوجه عام ، أم هو تقليل من واجبات الخدمة (بين ١٠ و ١٦ يوماً) ، وفقاً للحالة الاجتماعية بالنسبة للطوائف الدنيا . وليس فيما بقى منه غير قليل يمكن ربطه بدعوة تحرير الرق التى تعهد بها ، ولكنه على قلته يعتبر مفخرة لزمانه ، فقد عالج بعض ما أهملته التشريعات السابقة له من النظر إلى مصلحة الرقيق وأباح للعبد أن يحرر نفسه إذا دفع لسيده ضعف ما اشتراه به (وهو ما يقرب من نظام المكاتبة فى الشريعة الإسلامية) ولكنه فرض على من آوى عبداً آبقاً فى داره شهراً أن يعوض أصحابه عنه عبداً آخر أو يدفع عنه خمسة عشر شاقلا من الفضة ، وكان قد صدر لهذا النص الجزائى شبيه فى تشريع أور بالنسبة للجارية .

وشهدت ألواح إسين باستجابة أصحابها لدعوة ملكهم ، ومن أطرف حالات العتق التى صورتها قصة لزوجين أعتقا جاريتهما وحرما على أولادهما أن يسترقوها ، وسمحا لها بالبقاء فى دارهما حيث هى(١) .

وفى المعاملات تناولت بنود التشريع الباقية أجور المراكب ، وبعض حالات الملكية والمواريث وبعض حالات التعويض . فنصت بنود الملكية على أنه إذا جاورت أرض بور منزلا عامراً ، وأنذر صاحب المنزل صاحبها بخوفه من أن يعتدى معتد على منزله عن طريقها ، ثم سرق منزله فعلا ، وجب على صاحب الأرض أن يعوضه عما سرق منه . ونصت على أنه إذا عجز مالك أو مالكة عن دفع ضرائب أرضه (الحكومية ؟) ، وسددها شخص آخر ثلاثة أعوام حق لهذا الأخير أن ينتفع بها دون حق الاعتراض من المنتفع الأصلى بها .

وتعدى التشريع تعويضات الإضرار بالبشر إلى تعويضات أصحاب حيوانات الإيجار عن الأضرار التى تصيب حيواناتهم . فمن استأجر ثوراً وقطع أنفه (من حيث يوضع المقود) دفع لصاحبه ثلث ثمنه ، فإذا فقأ عينه دفع نصف ثمنه ، وإذا كسر قرنه أو قطع ذيله دفع ربع ثمنه . وجعل غرامة اقتلاع شجرة من بستان ثلاثين شاقلا .

وفى الأحوال الشخصية نصت تنظيمات الأسرة على أنه إذا أنجب زوج أولاداً من جاريته وحررها ، لا يحق لأولادها أن يشاركوا أبناءه من زوجته الشرعية فى ميراثهم منه . وعلى العكس من ذلك إذا اتخذ رجل لنفسه حظية « ولو من الميدان العام » ، مع عقم زوجته ، وجب عليه أن ينفق على حظيته وأن يورث أولادها منه ، ولكن ليس له أن يسكنها فى داره ما دامت حليلته على قيد الحياة فيها (وفى ذلك بعض التقدير لكرامة الزوجة الشرعية ومراعاة مشاعرها كعاقرا محرومة) . فإذا هجر رجل زوجته وبنى بغيرها ، تعين عليه أن يستمر فى الإنفاق عليها ما دامت باقية فى داره .

---

(١) Revue d'Assyriologie et d'Archeologie orientale, XIV.

ديلابورت : بلاد ما بين النهرين — ص ٨١ .

وانظر كرامر : المرجع السابق — ص ١٢٣ — ١٢٧ .

ويحتمل من بعض الوثائق القضائية أن المحاكم كانت تأخذ بما يشبه نظام المحلفين ، فقد تحدثت إحدى هذه الوثائق عن ثلاثة رجال : حلاق وبستانى وشخص ثالث لم تذكر مهنته ، قتلوا أحد موظفى المعابد ، وبلغ من فجورهم أن أخبروا زوجة القتيل بجريمتهم ، ولكنها لسبب ما لم تبلغ الأمر إلى السلطات المسئولة . وعندما ترامى خبر الجريمة إلى أسماع الملك أور نينورتا ملك إسين أحال القضية إلى مجمع المواطنين فى مدينة نيبور . وفى المحكمة طالب تسعة بإعدام القتلة والمرأة أيضاً ، وكان منهم صياد طيور وفخرانى وحاجب وبستانى . . ، ولكن وقف إثنان آخران ، موظف بمعبد وبستانى ، وتساءلا عن جريرة المرأة ، وقالا إنها لم تشترك فى القتل، ويحتمل أنهما بررا سكوتها بأن زوجها لم يكن يقوم بإعالتها . ويبدو أن المحكمة أخذت بهذا الرأى واكتفت بإعدام القتلة (١) . وهذا إن صح يعنى أنه لم يكن من بأس فى الأخذ برأى القلة ما دام صائباً ، وأنه لم يكن من بأس فى الاستنارة برأى العقلاء من العامة فضلا عن الخاصة فى شئون القضاء ، وكل من المبدأين مقبول ، وكان ثانيهما معمولا به فى مصر القديمة .

وروت التفاويم العراقية قصة طريفة عن تاسع ملوك إسين « إرا إميتى » ، فذكرت أنه اختار بستانياً يدعى « بعل ابنى » واعتبره بديلا له واطمأن إليه فرفعه على العرش وألبسه تاجه . ويحتمل حدوث هذا خلال قيام الملك بشعيرة دينية بمناسبة خسوف القمر الذى يعتبر نذير شؤم للحكام(٢) . ولكن حدث أن زهقت روح الملك فجأة وهو يزدرد ثريداً ساخناً ، فاستغل البستانى الموقف لصالحه واستمسك بالعرش وحكم البلاد حكماً فعاياً .



فى لارسا :

لم تتخلف العاصمة الكبيرة الثانية « لارسا » عن ركب عصرها ، فتوسعت فى استخدام الكتابة لتسجيل أغلب أمورها اليومية ، شأنها شأن المدن المتحضرة فى عصرها ، ومن عقودها الطريفة الباقية وثيقة بين راع وبين صاحب ماشية عهد إليه بتربية ٤٤٦ رأساً من الأغنام والماشية ، فتعهد له من ناحيته بأن يعوضه عما يفقده منها ، وأقسم على تعهده باسم ملك عصره (وردسين فى الربع الثانى من القرن ١٨ ق . م) ، ثم وقع على الوثيقة بخاتمه ستة توقيعات ، وشهد عليه فيها سبعة شهود ، ثم أرخها الكاتب بعام بناء السور العظيم (وهو العام العاشر من حكم وردسين)(٣) .

---

(١) Edward Chiera, *Old Babylonian Contracts*, No. 173. But, *See*, Th. Jacobsen, *Analecta Biblica*, XII (1959) 133 f. ; J. J. Finkelstein, *ANET*, 1969, 542.

(٢) Ebbeling, *op. cit.*, 336 ; and *See*, Ungand, *Orientalia* (N.S.), XII (1943), 194 f. ; Labat, *Le Caractére Religieux de la Royauté Assyrobabylonienne*, Paris, 1939, 104 f. ; Frankfort, *Kingship and the Gods*, Chicago, 1947, 263 f.

(٣) Th. J. Meek, *ANET*, 218 (*Also*, *AJSL*, XXXIII, 203 f., No. 3).

ووثيقة أخرى ، استأجر مالك بها عاملا يدعى « سين اشمانى » (أى سين إسمعنى) ، حولا كاملا ، وحدد له فيها أجره السنوى ستة شواقل من الفضة ، دفع له أربعة منها مقدماً ، وأشهد الكاتب عليه فيها ثلاثة شهود ، ثم أرخها بيوم محدد وشهر محدد من العام الثلاثين لهزيمة إسين ، على حد قوله(١) .

وكان المتسبب فى هزيمة إسين التى ذكرها هذا التاريخ هو ريم سين ملك لارسا فى العام التاسع والعشرين من حكمه ، بعد فترة تنافس شديد بين أسرته الحاكمة وبين ملوكها ، وكان انتصاره عليها حاسماً ملمراً لم يترك لها بعده غير استقلال داخلى ضئيل ، وظل رجال دولته يؤرخون بذكراه نحو ثلاثين عاماً(٢) .

وثمة لوحة تضمنت على وجهها تمريناً تعليمياً قام على أساس تدوين عدد من البنود القانونية التى يحتمل ردها إلى عصر إسين — ولارسا أو ما بعده ، وإن صعب تحديد صاحب الفضل فى تشريعها(٣) . ومنها أنه إذا ضرب رجل امرأة حرة فأجهضها عن غير قصد، غرم عشرة شواقل فضة، فإذا أجهضها عامداً غرم ضعف ذلك (أى ٢٠ شاقلا) . وإذا تنصل ولد من أبويه بالتبنى وجهر بذلك أمامهما حرم من إرثهما وجاز لهما بيعه بيع الرقيق . وإذا استغنى أبوان عن ولدهما (المتبنى) تنازلا له عن بعض أملاكهما . وإذا أغرى رجل فتاة حرة فى الطريق واغتصبها ولم يكن أبواها على علم بخروجها إلى الطرقات ، جاز لهما أن يلزماه بتزوجها . فإذا كان خروجها عن رضا منهما ، وأنكر الذى اغتصبها علمه بأنها من الحرائر وأقسم على ذلك أمام بوابة المعبد برئ .

فى الفــن :

صاحب الرقى الفكرى فى عصر إسين — لارسا ، نشاط فنى محلى فى النقش والنحت ، وتمثلت شواهد النقش حينذاك فى لوحات ملونة من الطين المحروق قامت على مذابح المعابد (وشابهت لوحات القديسين فى أديرة العصور الوسطى) ، وتوضع بحيث تواجه المتعبد وتقوم أمامه مقام تمثال معبوده ، ولذلك ظهرت هيئاتها بارزة مجسمة وشكلت بتصوير أمامى وليس جانبياً كالمعتاد . وعبرت هذه اللوحات عن هيئات المعبودات ورموزهم ، فصور بعضها إله الشمس تخرج الأشعة من ساعديه . وصور بعضها ربة الموت على هيئة فتاة عارية بوجه ممتلئ حلو قوى الشكيمة وساقى طائر كاسر ومخالبه ، وكان أصحابها يرمزون إليها بجانب صورتها البشرية بهيئة البومة التى تطوف فى الليل دون أن يسمع لها صوت(٤) .

واحتفظ بعض الأفراد فى بيوتهم بلوحات مماثلة ولكنها صغيرة ، يحتمل أنهم كانوا يقيمونها فوق مذابحهم

---

(١) Meek, *op. cit.*, 219 (P. Koschaker und A. Ungand, *Hammurabi Gesetz.*, Nr. 1676).

(٢) *See, ANET*, 219, n. 39.

(٣) Finkelstein, *JAOS*, 1966, 357 f. ; *ANET*, 1969, 525—6, and 545.

(٤) Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, Pl. 56, P. 56 ; *Archiv. f. Orientforschung*, XII, 128 f.

الأسرية ، ويصورون فيها هيئة المعبود الذى يتبركون بصورته ويعتبرونه راعى أسرتهم ، مثل المعبودة نينتو ربة الولادة(١) ، والمعبودة جولا التى رمزوا إليها بهيئة كلبة ترضع أجراءها(٢) ، وذلك إلى جانب لوحات أخرى ذات طابع دنيوى تخدم غرض الزحرف(٣) .

واشتركت اللوحات والتماثيل الصغيرة فى تمثيل مردة مخيفين قد يرمزون إلى الكائنات الخرافية التى روت قصص الخليقة السومرية أنها عاشت فى الهوة الأولى أو المحيط البدائى ، وكانت ذات طبائع مزدوجة وخلقات مركبة ، بحيث قد يمثل أحدها بوجهين أو بأربعة وجوه ، أو يمثل بما يجمع إليه خصائص الذكر والأنثى ، أو خصائص الإنسان والحيوان . . . . . .(٤)

ولم يحل وجود لوحات العبادة تلك دون إقامة التماثيل المعتادة للمعبودات والملوك وكبار الكهنة ، أو نذور المتعبدين فى ساحات المعابد ومقاصيرها وعند مداخلها . وتفاوتت هذه التماثيل فى مادتها ومدى اتقانها ، فصنعت من الصلصال والجص والحجر والمعدن(٥) . ومن أمتع ما بقى منها فى المعابد تمثال دقيق لكلبة (تشبه فصيلة البولدوج) تحمل آنية فوق ظهرها وتلتفت برأسها ، ومثل الفنان شعر رأسها وتهدل أذنيها وطيات عنقها وتفاصيل مخالبها تمثيلا صادقاً بارعاً ، وسجل على بدنها إهداء من سومو إيلو ملك لارسا إلى إحدى معبودات لجش(٦) . وتجرى مجرى هذا التمثال الصغير من حيث الاتقان عدة أوان نقشت سطوحها بأشكال حيوانية وجسمت رؤوس حيواناتها وأطلت مقدماتها من زوايا الآنية وطعمت عيونها تطعيما بارعاً(٧) .

واحتفظت مدن إيسن ولارسا وإشنونا ومارى وآشور بنماذج من فنون عصرها . وتعتبر فنون مارى أمتعها أسلوباً وتعبيراً ، وكانت كذلك منذ عصر الإحياء السومرى ، ويبدو أن قربها من مواطن الحضارة الشامية كفل لها ثروة متنوعة من أساليب الفنون الشامية والعراقية فى آن واحد ، فتخير فنانوها ما يناسب أذواقهم من الجانبين ، وظلوا أميل إلى إيثار المذهب الواقعى والأسلوب السلس وطابع السماحة فى فنهم ، وذلك حيث لاتخلو أكثر تماثيلهم غلظة من ملامح الطيبة والوداعة(٨) . وتجلت فى تماثيلهم بوجه عام طراوة

---

(١) Frankfort, Pl. 58 C ; *JENS*, 1944, 198 f.

(٢) *Ibid.*, *op. cit.*, Pl. 59 A.

(٣) *Ibid.*, Pl. 59 B–C.

(٤) *Ibid.*, Pls. 58 A–B, 66.

(٥) *Syria*, XIX, 1938, Pl. X ; Frankfort, Lloyd, and Jacobsen, *The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers of Tell Asmar*, 1940, 206—214, and Figs. 108—122.

ل . ديلابورت : المرجع السابق – ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٦) Frankfort, *The Art and Architecture* ... , Pl. 67 B.

(٧) *Ibid.*, Pl. 67 A ; *Encyclopedie Photographique de l'Art*, I, 248—249.

(٨) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 61 A–B.

مستحبة فى تشكيل خطوط الأجزاء العارية من الجسم وتشكيل طيات الثياب وزركشاتها(١) . وتأثرت تماثيل المعبودات بروح البساطة نفسها ، فبقى منها تمثال لمعبودة لا تكاد بملامح وجهها واسترسال شعرها وطراز ثوبها وصورة قلادتها تختلف عن هيئات سيدات شمال سوريا الحاليات فى شيء كثير ، وقد ضمت إلى صدرها آنية أسطوانية صغيرة اتصلت فتحتها السفلى بجسم تمثالها ، ويحتمل أن الماء كان يصلها عن طريق أنبوبة فى ظهره ويندفع منها إلى حوض تطل عليه ، بما يشبه تماثيل النافورات(٢) .

وظلت تماثيل آشور من أخشن تماثيل عصرها(٣) ، بينما ظلت تماثيل إشنونا بين بين(٤) .

واحتفظت كل من إشنونا وماري بأطلال من قصور حكامها ، ويرجع قصر إشنونا إلى عصر تبعيتها لدولة أور الثالثة ، ويبدو أنه تضمن إلى جانب مقر صاحبه إدارات الحكم الرئيسية فى إمارته ، وكان من طابقين ، ويمضى مدخله إلى ممر جانبي مسور طويل يتعين على الداخل أن يسلكه قبل أن يصل إلى الفناء الداخلى الكبير ، ثم يقطع هذا الفناء على طريق ممهد بالطين قبل أن يبلغ مجلس الأمير ، وذلك بما يكفل الأمان لصاحب القصر ويسمح لحراسه بمراقبة الداخلين إليه . وقام فى طرف القصر معبدان ، معبد صغير ، وآخر كبير أقامه حكام القصر باسم شوسين ملك أور فى عهد تبعيتهم له ، ثم ضموه إلى قصرهم بعد أن ضعف شأن دولته(٥) .

وسوف نخصص لحضارة دويلة ماري فصلا خاصاً فيما بعد ضمن حضارات بلاد الشام . وكفل لقصرها الملكي شهرته الخاصة ، اتساع مساحته ورسوم جدرانه وكثرة ملحقاته وكثرة الألواح المكتوبة التى عثر عليها فى ديوان سجلاته(٦) . فقد شغل القصر نحو ستة أفدنة ، وتضمن مائتين وستين حجرة بجدران مرسومة ملونة أخذت مناظرها بما أخذ به فن النحت فى عهدها من واقعية الملامح وسلاسة الخطوط وحيوية الطابع وبساطة الأداء وتفاصيل الأزياء ، فصورت مناظر حربية وأسطورية وقصصية ودينية لم يبق منها للأسف غير أجزاء يسيرة ، وأحاطت بها إطارات ضيقة تتألف من شجيرات وكائنات خيرة وأخرى مخيفة ، وإطارات زخرفية ذات وحدات لولبية تشبه مثيلاتها فى الفن الإيجى . ولا تزال أكثر مناظر القصر حيوية مناظر مواكب القرابين وتصور رجالا بوجوه نحيفة دقيقة ولحى طبيعية قصيرة يغطون رؤوسهم بقلانس بعضها مرتفع يشبه القاووق ، وبعضها عريض منخفض بشرائط بيضاء يشبه البيريه ، وبعضها يشبه الطواقى

(١) (تمثالا بوزور عشتار وإدو إلو) . *op. cit.*, Pls. 60, 61 C.

(٢) *Ibid.*, Pl. 62, P. 58.

(٣) W. Andrae, *Das wiederstehends Assur*, 1938, 88 f., Taf. 44.

(٤) G. Contenau, *Manuel* ... , 801—3, Figs. 559—61.

(٥) *Op. cit.*, P. 52, Fig. 19 ; Frankfort, Lloyde nd Jacobsen, *The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers of Tell Asmar*, Pl. I.

(٦) A. Parrot, *Mari, 1945, 1953* ; C.F. Jean, *Six Compagnes de Foulles a Mari* ... , Paris, 1952.

الصوفية التى يلبسها أهل الجبال . ويرتدون ثياباً مقفولة بحلقات واسعة تحت الرقبة ، وعباءات زركشت أطرافها بأهداب تشبه ريش الطيور أو فلوس السمك ... ، ويسوق بعضهم ثيرانا كسيت أطراف قرونها بحليات معدنية وتدلت على جباهها حليات هلالية ، وعبر الرسام عن تجعدات جلودها وشعور رؤوسها تعبيراً بارعاً بألوان متدرجة إكتفى فيها كلها باللون الأسود ومشتقاته .

واحتفظت لوحة مسمارية من أواسط الألف الثانى ق.م بنموذج لما كانت عليه عمارة المدن السومرية خلال عصر إسين – لارسا ، أو بعده بقليل ، فى هيئة تخطيط أو خارطة لمدينة نيبور (نفر) السومرية التى نسبها أهلها إلى معبودهم الأكبر إنليل ، فسموها « إنليل كى » أى مقره . وهى خارطة كتبت أبعادها بالأرقام وبوحدة الجار القياسية (وتعادل إثنى عشر قدما) ، وسجلت عليها بياناتها المختصرة باصطلاحات سومرية وأكدية . وصورت نيبور قريبة من موارد الماء والزراعة يحد نهر الفرات (بورانون) جنوبها الغربى وتحد شمالها الغربى قناة ، ويحيط بها سور كبير تنفتح فى ضلعه الجنوبى ثلاث بوابات سجلت بأسماء : البوابة السامية ، والبوابة العظيمة ، وبوابة الأنجاس (؟) (كاجال موسو كاتم) . وتنفتح فى ضلعه الجنوبى ثلاث بوابات أيضاً سميت بأسماء : بوابة إله القمر (كاجال نانا) ، وبوابة أوروك (وتقع أوروك إلى الجنوب الشرقى من نيبور) ، والبوابة المواجهة لمدينة أور . وتضمن الضلع الشمالى للسور بوابة واحدة سميت « بوابة نرجال » (حاكم العالم السفلى) . وحف بالمدينة خندقان ، خندق (خريتم) يوازى سورها الجنوبى الغربى ، وآخر يوازى سورها الجنوبى الشرقى . وصور داخل المدينة بيوت على هيئة مستطيلات متفاوتة السعة ، وبستان كبير ، ومعبدان على أقل تقدير ، معبد « إكور » (بمعنى البيت الجبلى) ، ومعبد « كى – أور » ، فضلا عن معبد آخر يقع فى ضاحية المدينة خارج سورها يسمى إشماخ بمعنى المعبد الشامخ(١).

والخلاصة ، أن الهجرات التى نزلت بلاد النهرين منذ أوائل الألف الثانى ق.م ، والهجرات الأمورية منها بخاصة ، لم تكن شراكلها على العراق ، وإنما كانت خيراً له فى بعض أمرها ، وكان خير ما فيها هو أن الهجرات الأمورية منها جددت دماء الساميين فى أرض العراق وجددت حيويتهم ، ولم تحل دون نشاط مختلف المدن القديمة وازدهارها فى ظلها ، ومن هذه المدن فيما رأينا ، مدن إشنونا وإسين ومارى ، وإلى حد ما مدينة لارسا ، ثم مدينة أخرى استفادت من تنافس المدينتين إسين ولارسا وإضعاف ثانيتهما لأولاهما ، وقدر لها أن تغطى بشهرتها على شهرة مدن العراق كلها فى عصرها . وتلك هى مدينة بابل موضوع البحث التالى .



(١) كرامر : من الواح سومر – لوحة ٨٠ . شكل ٨١ . ملحق ١ ص ٣٩٥ – ٤٠١ .

الفصل السابع عشر

دولة بابل الأولى (او العصر البابلى القديم)

(١٨٨٠ (؟) – ١٥٩٥ ق.م)

ألف عصب هذه الدولة جماعات ممن أسلفنا ذكرهم من الأموريين الذين إنتشروا بين المدن المتحضرة فى العراق واستقروا فيها وولوا حكم بعضها . وكانت بابل قبل زعامتهم لها بلدة عادية عرفها السومريون باسم « كدنجيرا » ، فأحالوها إلى حاضرة كبيرة وأحسنوا إستغلال موقعها الاستراتيجي والاقتصادى المتميز لقيامها فى منطقة خصبة يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات فى أواسط العراق ، حيث يتيسر الرى المباشر والرى بالوساطة ، وتجود فيها الغلال ، وإن تطلبت وفرة إنتاجها بذل الرعاية الدائمة لقنوات الرى والتقليل من ملوحة الأرض التى لايكاد يقاومها غير زراعة الشعير ، والتى تترك فيما بينها مساحات جافة تستخدم للرعى(١) واشتهرت هذه الحاضرة باسم بابل أو بابلا ، وهو اسم يصعب تأكيد معناه وإن كان الشائع هو تقريبه إلى باب إيليم ، أو باب إل ، أى باب الإله ، ويرى أصحاب هذه الترجمة أنها كانت قريبة مما تدل عليه التسمية السومرية « كدنجيرا » التى استمرت تستخدم إلى جانبها مع مترادفات أخرى مستحدثة(٢) . وتقع أطلال المدينة حالياً جنوب غرب مدينة بغداد على فرع من الجانب الشرقى للفرات ، وتدل على طبوغرافيتها خمس ربوات بجوار الحله تحتفظ الشمالية منها باسم بابل . ونسب البابليون مدناً أخرى إلى بقية أربابهم ، مثل كارشمش بمعنى حصن الشمس أو مدينة الشمس ، ونور أداد رب الحرب والعواصف .

وانتشرت بين أسماء الساميين الذين عمروا هذه المدينة وانتسبوا إليها وماحولها ، أسماء مركبة ظهرت بوادرها بين الأموريين منذ أيام الأكديين وزادت منذ تكوين دولة إسين ، وشاع فى عدد كبير منها إسم إيل (أو إل) الذى تداخل إسمه فى إسم المدينة المجددة بابل ، مرادفا لإسم الإله (وإسم الله حيث بقى فى مثل أسماء إسرائيل واسماعيل وجبرائيل وعزرائيل وميكائيل) . ومن أسماء البابليين طائفة ذات دلالات رقيقة تدل على إحساس الواحد منهم بقربه من ربه مثل « إيلوشو أبو شو » بمعنى إلهه أبوه (ويرادف المقطع « شو » الضمير « هو » فى اللغة العربية ، وربما كان ينطق بمثل نطقه . أى بضم الشين وفتح الراو ، ويرادفه فى ذلك الضمير « سو » فى اللغة المصرية القديمة ولعله كان ينطق مثل نطقه إيضا) . و « إيليا أبى » بمعنى إلهى أبى ، و « إيلو شو ابنيشو » بمعنى إلهه الذى بناه (أو سواه) ، و « جيميل إيليشو » بمعنى هدية أو عطية إلهه ، و « إيلى دورى » بمعنى إلهى حصنى ، و « إيلى إشمأنى » ربما بمعنى إلهى إسمعنى ، وإيلى أمورو بمعنى

(1) See, Th. Bauer, *Die Ostkanaanaer* : C.F. Jean, in *Studia Mariana*, 63 f.

هـ . كلنجل : المرجع السابق – ص ١٩ – ٢١ .

(٢) يختلف هذا التفسير اللغوى بطبيعة الحال عما ورد فى بعض انساب سفر التكوين فى العهد القديم من ان اسمها دعى بابل لان الرب هناك بلبل لسان كل الارض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الارض . (تكوين ١١ : ١ – ٩) .

إلهى أمورو ، و « إيلى إمدى » بمعنى إلهى سندى (لإمرأة) . وذلك فضلا عن الاسماء المركبة التى تداخل فيها إسم رب القمر السامى سين ، والتى عرفتها بلاد العراق قبل ذلك بزمن طويل وقبيل عصر الأكديين .

اعتلى زعماء الساميين عرش دولة بابل منذ عام ١٨٨٠ ق.م تقريباً ، وتعاقب منهم خمسة ملوك فيما يسمى العصر البابلى القديم ، وهم : سومو أبوم ؛ وسومو إيل ، وسابو ، وأب إيل سين ، وسين مو باليط . وقد عملوا على تفاوت فى مجهوداتهم ، على تحصين مدينتهم وتنشيط اقتصادياتها وإعدادها للمشاركة بدورها فى قيادة بلاد النهرين .

ولكن لم يخل الميدان السياسى فى العراق لنهضة البابليين وقوة إسين ولارسا فحسب ، وإنما شاركتهم فيه حينذاك نهضات أخرى إقليمية فى كل من أشور ومارى وإشنونا. ويبدو أنها اقترنت باستيطان أسر حاكمة جديدة سامية أو أمورية الأصل أيضاً فيها ، كما عاصرت وتعاملت مع دويلات كنعانية قامت فى نفس الوقت على أطراف بلاد الشام فى مثل قطنة وحلب ويمخد وماسواها مما سوف تكون له دراسته الخاصة فى بحث حضارات الشام .

وبدأت دولة آشور (مرحلة عصرها القديم) بعهد ملكها إيلوشوما فى أوائل القرن ١٩ ق.م أو نحوها . وزادت أهميتها فى عهد ولده شمشى أداد الذى انتفع باحتكار الطرق التجارية المتعاملة مع إمارات آسيا الصغرى فى معدن القصدير ومنتجات أخرى . وتغلب لفترة ما على دويلة مارى . مما سوف نستكمل خبره بعد قليل .

ومارست إشنونا أسلوبا مماثلا فى نهضتها حين استقل بها أمير سامى الأصل يدعى إبق أداد الثانى وتوسع هو وولده حتى أعالى نهر الخابور وتحالف ثانيهما مع دولة إلام .

وترقبت كل هذه القوى نتائج الصراع بين المدينتين الكبيرتين المتنافستين إسين – ولارسا ، وسوف نكتفى بموقف ملوك بابل الذين اشتبك جيش أولهم سومو أبوم مع جيش آشور (فى عهد إيلوشوما) ولكن لم ينته القتال بينهما إلى نتيجة حاسمة . وإن كان الملك البابلى قد عمل بعده على تحصين عاصمته بسور جديد من اللبن إتقاء للمفاجآت ، وأزاد رجاله خطوطهم الدفاعية فشادوا سوراً آخر فى إحدى ضواحى العاصمة ، كما أزادوا ظهيرها الزراعى فضموا إليها منطقة خصبة تدعى دلبات تبعد عنها بنحو سبعة وعشرين كيلومتر .

وعندما إزدادت سمعة بابل اعترفت منطقة سيبار (أبو حبة) بسلطانها اعترافاً جزئياً وأقسمت وثائقها باسم ملك بابل فى نصوصها المكتوبة . كما خضعت لنفوذها مدينة كيش بعد حرب طويلة تعاونت عليها فيها

مع دولة لارسا . وانهزمت أمامها جيوش منطقة كازاللو . . . ولو أن خضوع هذه المناطق القديمة لحكم الأسرة البابلية لم يكن دائماً خضوعاً مخلصاً أو مطلقاً ، فحاولت كيش أن ترفع النير عنها فى عهد سومو أبوم نفسه ، وذكر ملكها أنه لم يبق لديه بعد كفاح دام ثمانى سنوات غير ثلاثمائة جندى ، ولكنه واصل الجهاد معهم حتى استرد لبلده سيادته .

وتجدد النزاع بين بابل وبين دويلات المدن الخاضعة لها فى عهد ثانى ملوكها ، مما لا نود التفصيل فيه ، الا أن ملكها أزاد سورها بعد انتصاره على خصومه وتوسعت جيوشه فى فتوحها الإقليمية حتى سيطرت على إقليم أكد كله وسيطرت على عدة أجزاء من أرض سومر . ووجدت بابل فى دولة لارسا وأسرتها الحاكمة نصف الإلامية أكبر منافس لها ، بينما أصبحت دولة إسين فريسة للفريقين ، يقتطع ملوك لارسا بعض أجزائها حينا ، ويقتطع البابليون بعض أجزائها حينا آخر . وظلت الحال كذلك حتى ولى حكم بابل سادس ملوكها وأكثرهم شهرة وهو حورابى .

عهـد حمـورابى(١) :

بدأ حكمه حوالى ١٧٢٨ ق.م (فى عرف أصحاب التأريخ المختصر ،أوبين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٥٠ فى رأى آخر) ، وطال عهده ثلاثة وأربعين عاماً قدر له فيها أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة إلى عاصمة دولة كبيرة ذات إمكانيات متعددة وأملاك واسعة وشهرة ضخمة . وبدأ مواد تشريعه التى خلدت اسمه فى التاريخ منذ العام الثانى من حكمه ، وخلد كتبته هذه البداية فى تسمية عامها باسم عام « إقرار (حمورابى) العدالة فى الأرض »(٢)، وإن لم تكتمل هذه التشريعات إلا بعد ذلك بسنوات عدة (أنظر فيما بعد) .

واستهدف الرجل منذ سنوات حكمه الأولى ضرورة توحيد أغلب بلاد النهرين تحت طاعته سواء بالسياسة أم بالحرب ، مع إقصاء النفوذ شبه الإلامى عن جنوب العراق . وبدت منه فى سبيل تحقيق هذا الهدف حنكة لاتقل عن حنكة سرجون الأكدى سامى الأصل مثله . فسجلت له حولياته أخبار جهوده فى إخضاع مدن كثيرة مثل أوروك وإسين ومالجى ورابيكوم وغيرها ، ولعله أراد بانتصاراته عليها الانتفاع بمواردها المادية وأن يذيع شهرته أمامه، وأن يحد من نفوذ أعنف منافسيه ريم سين ذى الأصل الإلامى وآخر ملوك لارسا عليها حتى يتفرغ له . وكان ريم سين كفئاً لمشاكل عهده بحيث ظل يناوىء حمورابى حتى العام الثلاثين من حكمه ، وبحيث كتب أحد أعوان ملك دويلة مارى رسالة إلى ملكه يكشف له فيها عن أوضاع العراق ، قائلا له : « ليس هناك ملك واحد يمكن أن يقال عنه إنه أقوى الجميع ، فإن عشرة أو خمسة عشر حاكماً يتبعون حمورابى (ملك) بابل ، ومثل هذا العدد يتبعون ريم سين (ملك لارسا) ، ومثلهم يتبعون إبعل بى إيل (ملك) إشنونا . . . الخ »(٣).

---

(١)حمورابى هو النطق الشائع لاسم هذا الملك وإن افترض بعض المستشرقين احتمال تحريفه عن خمورابى أو عموربى .

(٢) A. Ungand, "Datenlisten", in *Reallexiklon der Assyriology*, II, 187 f., Nr. 2.

(٣) Dossin, *Syria*, XIX, 177 f.

وبدأ حمورابى بسياسة التحالف والتعايش السلمى مع الدويلات والمدن القرية دون الإصرار على إخضاعها أو على أقل تقدير حتى تسنح له فرصة إخضاعها . ويذكر من هذا القبيل تحالفه مع القوى المتاخمة لحدوده والتى يود أن يأمنها على ظهره وينتفع بصلاتها مع قوى أخرى بعيدة ، وذلك مثلما فعل مع ملوك آشور ومارى وإشنونا ومالها من صلات بدول حلب وتمخد وإلام . وكان حريصا على أن تظل له اليد العليا فى كل تحالف ، وعلى أن يأخذ أكثر مما يعطى ، فيطلب الإمدادات العسكرية من حلفائه ويضن عليهم بعسكره حتى إذا ما ضعف أحدهم تحت ضغط أعدائه تقدم هو بقواته وسيطر على بلده ، مثلما فعل مع مارى وإشنونا بخاصة(١) . وهو ما كان يعتبر من حسن التدبير من وجهة نظر أنصاره ، ويعتبر سمة للغدر من وجهة نظر خصومه . وكان من سياسته هدم أسوار المدن التى لايأمنها ، وتقوية أسوار المدن الموالية له فى المناطق الاستراتيجية الحساسة (وسميت بعض هذه الأسوار بأسماء أرباب مدنها)(٢)، والعمل على رعاية تماثيل معبودات المدن التابعة والخاضعة بعد الاستيلاء عليها ، حتى تكون سبيلا لولاء مشاعر أتباعها . وكان من ذلك أن ذكر أحد نصوصه أنه أعلى كلمة الربة إنانا فى نينوى وأعاد لمدينة أشور حصانتها(٣) . أو لتحملها جيوشه معها باعتبارها موالية لها حين تعاود غزو مناطقها فتيسر لها مهمتها . وكانت رعاية هذه التماثيل تستتبع رعاية من يخدمونها من كهنتها وكاهناتها وإحياء أعيادها فى معابد بابل نفسها(٤) .

وشيئاً فشيئاً إطمأن حمورابى إلى متانة موقفه وسلامة ظهره ، وتفرغ من ثم لملك لارسا وحلفائه ، فمال ميزان القوى إلى جانبه منذ العام الثلاثين من حكمه ، حتى فر ريم سين إلى منطقة إموتبال مسقط رأس أسرته ، وتتبعته الجيوش البابلية إليها ، ثم واصلت انتصاراتها فيما يليها من أرض إلام وسيطرت على جزء منها . ويبدو أن الأمر كان كذلك فيما بين البابليين وبين إشنونا وسوبارتو ، بحيث رددت حوليات حمورابى ذكر اسميهما مرات كثيرة وعمله على إغراق أراضى إشنونا بعد تخريب سدود المياه فيها . وعندما آتت جهود حمورابى وجيوشه ثمارها ، استقرت زعامة دولته فى العراق فاعترفت بنفوذها آشور فى الشمال وإن لم تنطو تماماً تحت سلطانها . ومارى فى الغرب ، كما خضعت لها أغلب المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية .

وكان من الطبيعى أن يلازم الاهتمام بالحروب فى عهده اهتمام آخر برضا آلهة دولته الساميين والسومريين الذين رد إليهم تأييده ونصره ، وبخاصة آنو وإنليل ومردوك . وتمثل هذا الاهتمام فى عهده كما تمثل فى عهود من سبقوه ولحقوا به من الملوك ، فى إنشاء المعابد وتجديدها وزيادة تماثيلها والاحتفاء بأعيادها وأوقافها ورعاية كهنتها وكاهناتها(٥).

---

(١) Albright, *ANET*, 482 ; C. Jean, *Archives Royales de Mari*, II, No. 22.

ه . كلنجل : المرجع السابق – ص ٤٣ – ٤٤ ."

(٢) A. Ungand, *op. cit.*, Nos. 19, 20, 21, 25.

(٣) *See, ANET*, 165.

(٤) Leonard W. King, *The Letters and Inscriptions of Hammurabi*, Nos. 34, 45.

(٥) Ungand, *op. cit.*, Nos. 3, 4, 5, 12, 13, 14, 16, 17, 18, 29, 43, 36 ...

واحتفظت حولياته باسم نهر صغير شقه رجاله أو أزادوا أتساعه وامتداده ، وقالت عنه « نهر حورابي (واهب) الخير للناس ، حبيب آنو وإنليل ، الذى غذى نيبور واريدو وأور ولارسا وأوروك وإسين بمورد رى دائم » ، وكان يبدأ من الفرات أسفل كيش ويمتد حتى الخليج العربي(١).

تشريعات حورابي :

لم تعتمد شهرة حورابي على فتوحاته ومنشآته ورعايته لاقتصاديات بلده بقدرما اعتمدت على التشريعات الإدارية والقانونية المتنوعة التي بدأ بإصدارها منذ العام الثاني من حكمه وحتى أواخر أيامه كما أسلفنا . وحلها كتبته على عدة نصب ولوحات اشهر منها نصب حجرى كبير من الديوريت جمع بين شكل اللوحة وشكل المسلة المحورة (وبلغ أقصى ارتفاعه الباقي ٢٢٥ سم ، وأقصى عرضه فى أسفله ١٩٠ سم ، وأقصى عرضه فى أعلاه ١٦٥ سم) ، ولعله أقيم أصلا فى معبد شمش فى سيبار أو فى معبد مردوك فى بابل . وظهر الملك فى جزئه العلوى يتلقى السلطة والإذن بإصدار تشريعاته من رب الشمس والعدل « شمش » بتاجه ذى القرون والأشعة التى تخرج من كتفيه ، وهو جالس يعتلى عرشه فى مهابة ويقبض على رمزى عصا الرعى وخيط القياس التقليدين كما يمد يده بخاتم وصولجان ، بينما وقف الملك أمامه برداء كهنوتى طويل وقلنسوة عريضة يرفع يده اليمنى إجلالا لمولاه ورموزه . ونقشت نصوص النصب بخط مسمارى دقيق . وكان العيلاميون (أو الإلاميون) قد استولوا عليه فى أواخر القرن الثانى عشر ق.م ونقلوه مع غيره من الأسلاب الثمينة إلى عاصمتهم سوسه (فى عهد ملكهم شوترك ناخونتى) نكاية فى أصحابها العراقيين الذين سبق لهم أن انتصروا على أسلافهم. ثم أزالوا نحو ٢٨ سطرا من سطوره ليسجلوا نصر ملكهم مكانها — ولكنهم لم يتموا هذا العمل ربما اتقاء اللعنات التى صبها صاحبه على من يمحو كلماته . ونقل النصب بعد العثور عليه من ثلاثة أجزاء فى عام ١٩٠١ إلى متحف اللوفر فى باريس حيث تعرف على كنه محتواه V Schell وترجم بعض عباراته . وعوضت نقص بعض أجزاء النصب نصوص تسع قطع حجرية صغيرة لمسلتين أو ثلاثة ، وبضع لوحات من الصلصال نسخت فيما بعد فى نينوى(٢).

لم تعد تشريعات حورابي تعتبر هى الأولى من نوعها فى تاريخ بلاد النهرين كما كان يظن من قبل ، حيث سبقتها كما تقدم ثلاث محاولات للتشريع ولتدوين نصوص العرف القديم وتقنينه ، فى أور ، وإشنونا ، وإسين (وإصلاحات لجش احتمالا) ، ولم تكن مرة أخرى بنت عهدها ولا جديدة كلها ولا اصدرت فى سنة واحدة ، وإنما تضمنت كثيراً مما سبقها من نصوص الأعراف الاجتماعية واللوائح الادارية ونصوص التقنين ، وأبقت بعضها على حاله ، وعدلت بعضها الآخر وزادت عليه ، واكتسبت بعض شهرتها بناء على

(١) ل . ديلابورت : بلاد ما بين النهرين — ص ١٢٩ .

(٢) R. de Vaux, *RB*, 53 (1946), 328 f. ; Meek, The Code of Hammurabi, *ANET*, 1966, 163 f. ; Driver and Miles, *The Babylonian Laws*, I-II, 1952-55 ; R. Borger, *Babylonisch Assyrische Lesestucke*, Roma 1963.

محمود الأمين : قوانين حمورابي — مجلة كلية الآداب — بغداد ١٩٦١ .

فوزى رشيد : الشرائع العراقية القديمة — بغداد ١٩٧٩ .

نقشها على أكبر سجل قديم عثر عليه حتى الآن احتفظ بقوانين عهده والعهود التي سبقته . وأغلب الظن أنه تولى تجميع هذه التشريعات في أواخر عهد حمورابي عدد ما من رجاله القانونيين والمؤرخين والإداريين أغفلت النصوص أسماءهم ونحلت فضلهم إلى مليكهم بل وجعلتها من وحي ربه إليه ، وهو مسلك كثيراً ما تكررت أمثاله في العصور القديمة بل والعصور الحديثة أيضاً .

تألفت المواد الباقية من تشريعات حمورابي من ٢٨٢ مادة تناولت أهم أمور القضاء والأمن ، وحقوق المدنيين والمحاربين ، ومسئولياتهم في المجتمع ، ونظمت شروط عدد من المعاملات والعقود ، وتوسعت في الأحوال الشخصية بما تتضمنه من تقاليد الزواج والطلاق والمواريث والتبني ، وتحدثت عن الاعتداءات على النفس والمال والقصاص والتعويضات ، وأجور المهنيين ومسئولياتهم . وتضمنت خلال هذا في ثناياها أحكاماً راقية يتقبلها المنطق في كل عصر ، وأحكاماً أخرى يصعب قبولها إلا بمنطق الحياة في عصرها . ولم تخل أغلب بنودها من تكرار وتناقض نتيجة لإصدارها متفرقة وعلى فترات متعددة وإدخال بعض التعديلات عليها . ويرى بعض الباحثين في ترتيب بنود هذه التشريعات مايسمح بتقسيمها إلى ثلاث مجموعات : مجموعة تتضمن البنود ١ـ٥ وتتعلق بأمور القضاء والتقاضي وأصول المرافعات . ومجموعة ثانية تتألف من البنود ٦ ـ ١٢٦ وتتضمن قانون الأموال أو المعاملات . ثم مجموعة ثالثة تتألف من البنود ١٢٧ ـ ٢٨٢ وتتضمن قوانين الأسرة أو الأحوال الشخصية . غير أن هذا التقسيم يشوبه شيء من الافتعال ويصعب تتبعه حرفياً ، ومماثله في هذا تقسيم آخر يفترض في تشريع حمورابي ست مجموعات متمايزة . وتعبر الأرقام التي وضعت بين قوسين فيما يلي عن أرقام بنود التشريع كما جرى التعارف عليها .

ومن مختارات هذا التشريع الراقية في شئون التقاضي والقضاء ، أنه أيما مواطن اتهم مواطناً آخر بجريمة يعاقب عليها بالإعدام ثم لم تثبت عليه قتل عوضاً عنه . وإذا اتهمه بجريمة يعاقب عليها بالتغريم ، ثم لم تثبت عليه دفع غرامتها . وقد ينطوي هذا تحت مايعبر الآن عنه بمكافحة البلاغات الكاذبة وأحكام رد الشرف . ونصت على أنه أيما قاض أصدر حكمه في قضية ودونه ووقع عليه ثم زور فيه لغرض ما وثبت ذلك عليه ، أقيل من منصبه وحرمت عليه مناصب القضاء ، ودفع مايوازي اثنتي عشرة مرة من قيمة الشيء الذي زور فيه . وفي ذلك ما فيه من مكافحة الرشوة في القضاء وهي شر البلية (١ـ٥) .

وتضمنت بعض مبادئها الراقية في مسئولية الدولة عن شئون الأمن وحقوق المواطنين عليها ، أنه إذا سرق مواطن ولم يتيسر القبض على سارقه واسترجاع المسروقات ، عوضته مدينته وحاكم منطقته عما سرق منه بعد أن يعلنه ويؤكد صحة دعواه أمام تمثال معبوده ويثبته أمام رجال الإدارة في بلدته (٢٣) . وإذا قتل مواطن ولم تتيسر معرفة قاتله والاقتصاص منه تعاونت المدينة وحاكم الإقليم على دفع دية إلى أهله مقدارها مينه من الفضة (٢٤) . وإذا شب حريق في دار مواطن وكلف آخر بإطفائه فاستغل وجوده في الدار واختلس

بعض متاعها ، ألقى به فى النار(٢٥). وتقرر فى الوقت ذاته أنه إذا ما ادعى شخص فقد متاعه أمام تمثال معبوده وطالب منطقته بتعويض عنه ثم تبين كذب ادعائه غرم بما يوازى ضعف قيمة ادعائه .

ومن مبادئها الراقية كذلك فى إقرار حقوق المحاربين فى مقابل مسئولياتهم ، أنه إذا افتدى ممول محارباً أو متعهداً بالجيش من الأسر وأعانه على العودة إلى بلده ، رد المحارب فديته من أملاكه المنقولة ، فإن لم يستطع تولاها عنه بيت رب مدينته (أى حصل عليها من دخل معبده) ، فإن لم يتيسر ذلك تولت الدولة سدادها عنه (٣٢) ، حتى لايضطر إلى التضحية بالأملاك العقارية التى تقطعها الدولة له فى سبيل افتداء نفسه . وكان إقطاع المحارب يسمى كو ، وقد يتألف من حقل أو بستان أو دار ، أو يضم الاثنين أو الثلاثة جميعها ويدفع عنه صاحبه ضريبة سنوية ويورث حق الانتفاع به لولده الأكبر ، على ألا يحق له أن يبيعه أو يرهنه أو يورثه لزوجته أو لابنته ، ويمكن أن ينزع منه هذا الإقطاع بأمر ملكى ويوهب لشخص آخر .

وإذا استشهد محارب آلت أملاكه إلى ولده (٢٨) ، فإذا كان ولده صغيراً تولت أمه إدارتها نيابة عنه إن استطاعت ، وربته من ريعها نظير انتفاعها بثلث إيرادها (٢٩) . فإذا لم يكن له ولد ، وآلت إقطاعيته إلى شخص آخر ، ثم ظهر أنه حى وعاد إلى بلده حق له أن يسترد اقطاعيته (٢٧) .

وفى الأحوال الشخصية أو الأسرية ، أضافت تشريعات حورابى إلى ما نصت عليه تشريعات سابقة من إلزام والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب إليه إذا ما رفضه بعد قبوله ، حق والد الخطيبة فى الاحتفاظ بهدايا الخطيب إليها إن عدل هو من تلقاء نفسه عن إتمام الخطبة وتزوج بأخرى (١٥٩) .

وتضمنت هذه التشريعات إمكان تضامن الزوجين برضائهما فى المسئولية عن سداد الديون التى تبرم بعد الزواج ، وليس مما قبله — لاسيما إذا ما نص على عدم التزام أحدهما بها فى عقد القران (١٥١—١٥٣) .

وأخذت تشريعات حورابى بمثل نص إشنونا من حيث حق المحارب الذى يؤسر فى ديار الأعداء فى أن يسترد زوجته إذا عاد إلى بلده ، ولو كانت فى فراش زوج جديد حتى وإن أنجبت منه (١٣٥) . وحرمت هذا الحق على من فارق بلده كارها له (١٣٦) . وزادت فحتمت على زوجة الأسير أن تلزم داره ما دام فيها ما يكفيها (١٣٣) ، وألا تلجأ إلى فراش آخر وإلا رجمت وألقى بها فى النهر (١٣٣ب) . فإذا لم يكن لديها ما يقيم أودها فلا بأس عليها فيما فعلت (١٤٣) .

وأحاطت تشريعات حورابى أفراد الأسرة وتقاليدها بضماناتها وعقوباتها ، وزادت على ما نصت عليه تشريعات أور وإسين فى حقوق الزوجة الشرعية ، فأباحت لها وللزوجة الكاهنة بخاصة ، أن تسترد جاريتها التى وهبتها لزوجها وتعيدها إلى الرق (١٤٥ — ١٤٧) إذا كانت أنجبت منه إن تبينت منها تطلعاً إلى مساواة نفسها بها ، كما أباحت لها بيعها إن كانت غير ذات ولد ، حتى ولو كانت أثيرة عند زوجها . وقد قرر

رجل فى عهد سين موبالليط والد حورابى ، فى عقد زواجه ، أن على زوجته الثانية أن تغسل قدمى زوجته الأولى وأن تحمل لها مقعدها حتى ولو شاءت أن تذهب به إلى معبد مردوك(١) وهو قرار شكلى فى أغلب الظن . وأكدت التشريعات حق الزوجة فى استرداد مالها من شرقتم (أو شريقتو) فى بيت الزوجية ، وهى مخصصاتها الشخصية التى تزوجت بها من ثروة أبيها ويمكن أن تعهد بها كأمانة إلى زوجها لاستثمارها أو للمعاونة فى النفقات بما يشبه الدوطة عند بعض الشعوب المعاصرة — حين طلاقها — ما لم تكن ناشزاً . وأضافت إلى شرقتم المطلقة ذات الأولاد القصر نصف أملاك زوجها لتستغله فى تربية أبنائها حتى يبلغوا رشدهم ثم تجتزىء منه نصيباً تستعين به على زواج جديد إن استحبت فراقهم (١٣٧) . وأضافت إلى شرقتم المطلقة العاقر نفقة أو تعويضاً يبلغ مينه من الفضة بالنسبة للطبقات العليا وثلث مينه بالنسبة لأهل الطبقات العادية (١٣٨ — ١٤٠) . ويبدو أنه لم يكن من الضرورى أن يلتزم كل مطلق ومطلقة بهذه المبادىء ، وكان الأمر يتوقف على ظروف الطلاق ومدى التراضى به بين المطلقين ومقدار ثرائهما(٢) .

وإذا طلبت المرأة الانفصال عن زوجها وامتنعت عليه وثبت لأعضاء مجلس المدينة إضراره بها وهجره لها ، طلقت منه واستردت مخصصاتها . ولكن إذا ثبت تجنبها عليه وعلى بيتها حرمت من مخصصاتها وألقيت فى النهر (١٤٢ — ١٤٣) .

وردت التشريعات مخصصات الزوجة المتوفاة ذات الأولاد على أولادها (١٦٢) ، وجعلت شرقتم الزوجة العاقر المتوفاة من حق أبيها بعد أن يسترد زوجها منها قيمة هباته وهداياه إليها حين عرسها . وحين نتدبر أحكام الشريقتو هذه نرى أن المشرع قد غطى بها كل حالاتها ، ودل بذلك على عقلية تقنينية واعية .

وجعلت التشريعات للزوج حق الوصية أو الهبة لزوجته دون اعتراض من أبنائه ، وسمحت لها بأن تتنازل عن جزء من هذه الهبة لأولادها ، ولكن دون الغرباء (١٥٠) ، واعترفت بحقها فى أن تلزم بيت زوجها المتوفى إلا إذا أرادت أن تتركه لتتزوج وحينذاك يكون لها حق الخروج بمخصصاتها دون هباته وهدايا عرسها (١٧٢) بعد أن يتحرى المسئولون تركة زوجها الأول ونصيب أبنائه منها . وقضى المشرع على من أشار بإصبع الاتهام إلى كاهنة أو إلى زوجة غيره دون بينة أكيدة ، بضربه وحلق نصف شعره فى ساحة القضاء تشهيراً بافترائه عليها (١٢٧) ، فإذا إتهم زوج زوجته بفاحشة ولم يقدم بينة واضحة على فجورها ، كفاها أن تقسم على طهرها أمام معبودها وتعود إلى دار زوجها (١٣١) وهو ما أقرت الشريعة الإسلامية بما يشبهه مع تجديدات تتفق مع روح دينها . وإذا تزوج رجل على زوجته نظراً لمرضها ، فليس له أن يطلقها أو يخرجها من داره أو يمنع الإنفاق عليها (١٤٨) .

---

(١) Paul Dhorme, *Choix des Textes Religieux Assyro-Babyloniens,* No. XIX.

كوك : دراسات فى القانون البابلى (مترجم) .

(٢) ديلابورت : المرجع السابق — ص ٩٢ .

وفى مقابل هذه الضمانات التى كفلتها التشريعات للزوجة ، ألزمتها بواجبات زوجها وبيتها ، بحيث إذا شكاها زوجها أمام مجلس المدينة وإتضح إهمالها لواجباتها الزوجية ولكن تبين الأعضاء فيها خيرا — منحوها فرصة لمراجعة نفسها . فإن قصرت حرموها من مخصصاتها وسمحوا لزوجها بأن يتزوج عليها ويستبقيها فى داره إن شاء ويلزمها بخدمته (١٤١) . فإن تبينوا نشوزها وإضرارها بزوجها رجمت والقى بها فى النهر (١٤٣) . فإن ثبت عليها الزنا أمروا بتقييدها هى ومن زنى بها وإلقائهما فى النهر ، إلا إذا عفا عنها زوجها وعفا الملك بالتالى عن عشيقها (١٢٩) . فإذا تآمرت زوجة على قتل زوجها من أجل عشيقها ، أعدمت على الوتد(١٥٣)

وفصلت التشريعات صلات الأولاد بأبويهم وحقوقهم فى المواريث . فجعلت من حق كل ولد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج به ، فإن مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه ، أفرد له إخوته قيمة مهر تناسب ثروة أبيه قبل أن يقتسموا ميراثه (١٦٦) . وكفلت نفس الأمر بالنسبة للابنة ومخصصاتها . . . ، بحيث إذا مات أب دون أن يزوج ابنته ودون أن يفرد لها مخصصات مسجلة أفرد لها إخوتها مخصصاتها المناسبة من ميراثه (١٧٨ — ١٧٩) . وقيدت حق الوالد فى حرمان ولده بحكم القضاة فى مدى عصيانه ، فإن أدانوه أنذروه ، فإن لم يرتدع وعاود الإساءة إلى أبيه وافقوا على حرمانه . وإن تبينوا براءته حموه من أبيه (١٦٨ — ١٦٩) . وجعلت للأبناء الذكور حصصاً متساوية فى ميراث أبيهم ومخصصات أمهم ، إلا إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية (١٦٥) . وجعلت للإبنة كاهنة كانت أم مدنية أم خنثى (؟) حق استغلال ما يعادل ثلث نصيب أخيها على أن تبقى الرقبة لإخوتها ولا يحق لها أن تتصرف فيها (١٨١) ، وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه ، فإن لم يفعل قام إخوتها بإدارته والإنفاق عليها من ريعه . فإن قصروا فى ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء ولكن دون أن يكون لها حق بيعه أو استخدامه فى سداد دين شخص ما ، وعلى أن تؤول الرقبة فى أملاكها بعد وفاتها إلى إخوتها . . واستثنيت من عملت بالكهانة العليا فى معبد مردوك رب بابل فسمح لها بان تستغل حصتها كما تشاء ، وتهبها لمن تشاء بشرط الا ترث حقوقاً إقطاعية ، حتى لا تنتقل إلى أسرة غير أسرتها (١٨٢) .

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين ، فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحريتهم ، فإذا مات عنها زوجها استردت مخصصاتها ، وإذا كانت ذات ولد قاسمت مولى زوجها المقتنيات التى شاركت زوجها فيها بعد زواجها به ، واحتفظت بنصفها من أجل أولادها (١٧٥ و ١٧٦) . وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته ، فإذا اعترف بهم شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه بشرط أن يتركوا لولده الشرعى البكر حق اختيار نصيبه بنفسه (١٧٠) . وإن لم يعترف صراحة ببنوتهم حرموا من ميراثه . مع حرمان إخوتهم الشرعيين من استرقاقهم (١٧١) .

ونظمت التشريعات أمور التبنى . فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولداً له ويورثه فإن فعل واعترف به ولداً ، ثم تنكر له ربيبه وكان لقيطاً وأبى أبوته وتطلع إلى اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسانه الذى

نطق بالمنكر فى حق من رباه ، أو سملت إحدى عينيه أو قطعت أذنه . وحرمت انسحاب الربيب إذا تبناه صانع ورباه وعلمه صنعته . ولكنها من ناحية أخرى أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا عرفهما ولم يكن متبنيه قد اعترف به ولداً له ، كما أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا لم يعلمه متبنيه الصانع حرفته . واشترطت على من يتبنى طفلا ثم يستغنى عنه بعد أن ينجب أولاداً من صلبه ، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين وأن يهبه ما يساوى ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المنقولة (١٨٥ — ١٩٣) . وإذا اقتصرت فعلة ربيب الكاهنة المتزوجة على إنكار أمومتها قص نصف شعر رأسه وطيف به فى البلدة . وإذا اقتصرت على إنكار أبوة الزوج قص شعره قصة العبيد وأقصى عن البيت (١) .

ونصت التشريعات على أن من باع جاريته أم بعض أولاده أو أجرها (أم أعارها ؟) لآخر فى سبيل توفير الضرائب المستحقة عليه ، حق له أن يستردها من شاريها أو مستأجرها بنفس ما أداه فى مقابلها (١١٩) . وحفظت مكانة الزوجة الشرعية إزاء الجارية ، تمثل ما قلمنا لها بك وبأن نصت على أنه إذا وهبت زوجة زوجها جارية لتعوضه عن عدم الإنجاب منها وتغنيه عن التزوج بأخرى علمانية ليست من أسرتها ، فأنجبها وشجعها ذلك على أن تعتبر نفسها نداً لها حق للزوجة أن تعيدها إلى الرق وتبيعها (إن استطاعت) . فإن كانت قد حملت منه أو ولدت له دمغتها بميسم العبودية وأبقتها فى دارها من أجل أولادها (١٤٥ — ١٤٧) .

وأباح المشرع ثلاثة أيام للمشاورة فى شراء العبد أو الجارية ، وشهراً يستطيع المشترى أن يعيد العبد خلاله إلى بائعه ويسترد ثمنه إذا تبين أنه مصاب بصرع ، فإذا انقضى الشهر كان مالكاً له مسئولا عن الدعاوى التى تقام بشأنه . ونصت على أنه إذا اشترى رجل عبدا أو أمة من بلد غريب ثم عاد إلى بلده وتبين له أن العبد ملك لمواطن آخر من أهل بلده ، وطالبه به سيده ، وجب تسليمه إليه دون تعويض . فإذا كان العبد من بلد آخر دفع فيه سيده ما دفعه فيه مشتريه واسترده . فإذا أنكر العبد تبعيته لسيده ثم ثبتت التبعية عليه صلمت أذنه (٢٧٨ — ٢٨٢) .

وقضت التشريعات على من ضرب أباه بقطع يده (١٩٥) ، وعلى من ضاجع أمه بعد وفاة أبيه بأن تحرق معها (١٥٧) ، وعلى من ضاجع زوجة أبيه الأرمل ذات الأولاد باستبعاده من أسرته (١٥٨) ، وقضت بالنفى على من يضاجع إبنته (١٥٤) ، وبالهلاك غرقاً على من يضاجع زوجة إبنه بعد دخوله بها (١٥٥) . وكان فى اقتراف هذه الأوضاع الشاذة ما ينم عن تفشى الفساد فى المجتمع .

ويبدو أن توسع الدولة البابلية وما أدى إليه من ضم الأراضى الخاضعة لها باسم التاج قد زاد من فرص المنح والاستئجار وكثرة استخدام الأيدى العاملة ، كما أن اتساع مجالات التجارة الداخلية والخارجية قد زاد من فرص الوساطة والتعامل بالصكوك التى قام التعامل فيها بالفضة أكثر من الذهب

(١) هـ . كلنجل : المرجع السابق — ص ١٧٩ .

وفى شئون الزراعة قضيت بعض بنود التشريعات أنه إذا استأجر مزارع حقلا ليزرعه حبا ولم يزرعه ، أدى لصاحبه حبا يعادل ما أنتجه حقل جاره (٤٢ – ٤٣) . وإذا شاركه فيه وأهمل بعضه اعتبر الجزء المهمل من نصيبه (٦١) . ومن اقتلع شجرة من بستان جاره دون موافقته غرم نصف مينه من الفضة .

وتوسعت التشريعات البابلية فى أمور القروض والمشاركة والأمانات والوكالة فى قوافل التجارة . وجعلت تدوين عقودها وشهادة الشهود عليها ، أساساً لحق التقاضى بشأنها (١٩٩) وعينت متوسط أرباح القروض (١٢٢ – ١٢٣) بالخمس (٨٨ +) واشترطت أداءها بنفس المكاييل والأوزان التى أقرضت بها (٩٤) . (فكانت فائدة كور الغلة ٦٠ قو ، وفائدة شاقل الفضة سدس شاقل وست سيات) ، ولو أن بعض لوحات القروض الفعلية من نفس العصر قد دلت على زيادة أرباح القروض ونقصانها عن هذه النسبة فى مناسبات خاصة . وتمثلت حالات النقص فيما كانت تقرضه المعابد والادارات الحكومية فى بعض الحالات إلى مايوازي ١٢٪ ، بينما ارتفعت نسبة الفائدة فى حالات أخرى إلى الثلث .

وظهر فى بعض العقود ماينم عن إمكان رهن (جهود ؟) الأبناء والبنات والزوجات فى مقابل الدين ، وربما إمكان بيع الابن والتنازل عنه أيضاً . وجعل التشريع الحد الأقصى لاسترقاق المدين ثلاث سنوات يجب تسريحه بعدها (١١٧) . وقد يعنى السماح برهن أفراد الأسرة أن ثراء الدولة وكبار الملاك لم يقترن بالضرورة برخاء عام تستفيد منه الطبقات العادية ، وهو ما سوف يظهر أكثر وضوحا فيما بعد فى التشريعات الأشورية .

وكان من تجديدات تشريعات حمورابى تحديد أجور الأطباء ومراعاة الحالة الطبقية والاقتصادية للمرضى حيث حدد أجر العملية فى البدن أو فى العين بالنسبة للثرى بعشرة شواقل ، وبالنسبة للشخص العادى بخمسة شواقل ، وبالنسبة للعبد بشاقلين يتحملهما عنه سيده (٢١٥ – ٢١٧) . وحدد أجر العلاج العادى وجبر العظام بالنسبة للطبقات الثلاث بخمسة شواقل وثلاثة وشاقلين على التوالى (٢٢٠ – ٢٢٣) . ولم تغفل حدود أجور علاج الحيوانات وتعويضاتها (٢٢٤ – ٢٢٥) .

كانت هذه هى أهم المعالم الطيبة فى تشريعات عهد حمورابى ، أما أهم ما يؤخذ عليها من وجهة نظر التشريعات السماوية والعصر الحاضر على أقل تقدير ، فهو أنها لم تجعل لأحكامها صفة التعميم دائماً ، وأقرت بالتفاوت فى الحقوق المدنية والعقوبات بين طبقات السادة « أويلو (م) » ، والعامة من الأحرار « مشكينو (م) » والعبيد « وردو (م) » ، كما أخذت الأبناء أحيانا بجرائر الآباء . فهى وإن استحدثت على سبيل المثال مبدأ العين بالعين والسن بالسن (١٩٦) والولد بالولد ، إلا أنها قصرت تطبيق هذا القصاص على أفراد الطبقة الواحدة ، ولمصلحة الطبقات العليا خاصة ، بينما اكتفت بالتعويض المادى جزاء لاعتداء أحد أفراد هذه الطبقات على فرد من طبقة أخرى أقل منزلة من طبقته . فجعلت عقوبة فقء عين العامى أو كسر عظمه نصف

مينه من الفضة . وجزاءهما بالنسبة للعبد نصف ثمنه . وإذا صفع رجل رجلا أرقى منزله منه جلد ستين جلدة علناً ، ولكنه إذا صفع رجلا من طبقته دفع مينه من الفضة ، وإذا صفع عامى عامياً آخر دفع عشر شواقل من الفضة . وجعلت غرامة إجهاض المرأة من الخاصة عشرة شواقل فإذا ماتت قتلت إبنة قاتلها ، وغرامة إجهاض المرأة من العامة خمسة شواقل ، فإذا ماتت ففديتها نصف مينه من الفضة ، وغرامة إجهاض الأمة شاقلين ، فإذا ماتت ففديتها ثلث مينه من الفضة (١٩٦ — ٢١٤) . وقضت بتغريم من يختلس شيئاً من مقتنيات المعبد أو الدولة ثلاثين مثلا لما اختلسه ، فإن اختلسه من « موشكينوم » دفع عشرة أمثاله ، فإن كان معدما قتل (٨) .أى أنها فرقت بين عقوبة سارق المعبد والدولة ، وبين عقوبة سارق المواطن العادى، وجعلت الإعدام جزاء المفلس فى الحالتين . وألزمت الأبناء أحياناً بجرائر آبائهم ، فإذا أهمل معمارى فى عمله وانهار المنزل الذى بناه على إبن صاحبه قتل إبنه ، وإذا أجهض رجل سيدة من طبقته أو من الخاصة فماتت قتلت إبنته (٢١٠) كما سبق ذكره .

واصطبغت أغلب مواد تشريعات حمورابى بالشدة فى مواجهة الإضرار بمصالح الدولة والاعتداءات على النفس والمال فجعلت الإعدام عقوبة لعدد من الجرائم المنكرة التى تستوجب القتل فعلا — مثل التآمر على مصالح الدولة وأمنها والوقوف فى سبيل تنفيذ أوامرها ، كإيواء ثائر أو مجرم هارب ،أو التكتم على مؤامرات قطاع الطرق (١٠٩) ، أو التهرب من خدمة الجيش ولو عن طريق تقديم بديل ،وعقوبة للضابط الذى أباح مثل هذا الإبدال أو تكتم أمره (٣٣) . ولكنها زادت فقضت بالإعدام كذلك جزاء لجرائم أخرى لايخلو منها أى مجتمع فجعلته عقوبة للاعتداء على أملاك المعابد وأملاك القصر . وجعلته عقوبة لمن يعجز عن رد المسروقات ودفع التعويضات عنها ، وعقوبة لمن يسم عبدا بغير ميسم سيده وبدون علمه (٢٢٦ ، ٢٢٧) ، وعقوبة لخطف الأطفال ، وإخفاء العبيد ، ونقب الدور (٢١) ، وعقوبة لمن يتجر فى المسروقات ، ومن يدعى ملكيته لأشياء ثم يثبت تدليسه ويتبين أنها مسروقة (٩ — ١١) ، وعقوبة للكاهنة التى تفتح حانة أو تتردد عليها لتسكر فيها (١١٠) ، وكانت حانات الشراب منتشرة وتديرها نساء لسن على مستوى جيد من السمعة ، وعقوبة للمعمارى الذى يتسبب إهماله فى إنهيار منزل على صاحبه (٢٢٩) . وجعلته عقوبة للرؤساء الإداريين إذا حرموا محاربا مما أنعم الملك عليه به ، أو اغتصبوا متاع داره أثناء غيابه أو أجروها لصالحهم أو تخلوا عنها لصاحب نفوذ فى ساحة القضاء (٣٤) ، وحرمت عليهم شراءها وإلا خسروا ما اشتروها به (٣٥) .

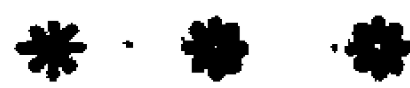
وتضمنت التشريعات أنه إذا اتهم مواطن مواطناً آخر بالاشتغال بالسحر ، وبدا بعض الاحتمال فى هذا الاتهام كان على المدعى عليه أن يلقى بنفسه فى النهر فإذا إبتلعه الماء ورثه الآخر ، وإذا نجا أعدم من اتهمه وآلت أملاكه إليه . وقضت بأنه إذا أدت العملية الجراحية بسلاح برونزى إلى وفاة مريض حر أو أدى

فتح دمل فى إحدى عينيه إلى ذهاب نورها قطعت يد الطبيب (ولعل ذلك كان مشروطاً بإهمال الطبيب وإن لم ينص عليه صراحة) ، فإذا كان المريض عبداً عوض الطبيب سيده عن حياته بعبد مثله ، وعن عينه بنصف ثمنه من الفضة (٢١٧ — ٢٢٠) .

وربما قارب هذا قطع ثدى المرضعة إذا عهد إليها بإرضاع طفل فمات عندها (لأنها أهملته) وأرضعت طفلا آخر دون إخطار والديه (١٩٤) . وكان الإرضاع حرفة ويدوم لسنتين أو ثلاث ، يكتب به عقد وتخصص فيه قيمة الأجر . وتجرى على البيطرى غرامة مادية على موت الحيوان . وإذا قام حلاق بإزالة قصة العبيد لأحد الأرقاء بدون موافقة سيده قطعت يده (٢٢٦ — ٢٢٧) .

وإذا التمسنا بعض العذر لشدة الأحكام البابلية فليس من المستبعد أن تكون للتخويف ومنع الجريمة قبل وقوعها ، أكثر مما هى للتطبيق الحرفى ، أو تكون قد ارتبطت بتعاليم دينية متشددة إلى حد ما ، أو تكون رد فعل لشيوع الفساد فى مجتمعها وفيما قبل عهدها لاسيما بالنسبة لما أرادت منعه من الحالات الشاذة للعلاقات غير المشروعة بين أفراد الأسر .

وعاب بعض المستشرقين ماورد فى التشريعات البابلية السامية من قصاص العين بالعين والسن بالسن . . ، ورجم الزناة أحيانا ، واعتبروا كل ذلك انعكاسا لعادة الأخذ بالثأر وشدة القسوة لدى البدو الساميين ، وكثيراً ماعنوا بهم المسلمين بالذات . ويكفى فى دحض هذا التخصيص المقصود أحيانا سن مبدء القصاص فى التوراة فى كل من سفر الخروج (٢١ : ٢٣ — ٢٥) ، وسفر اللاويين (٢٤ : ١٩ — ٢٠) ، وسفر التثنية (١٩ : ٢١) . وكذا سن عقاب الرجم لبعض الحالات فى سفر التثنية (٢٢ : ٢٣ — ٢٤) ، وكل ذلك فيما سبق أخذ العصور الإسلامية به (فى مثل سورة المائدة آية ٤٥) بعدة قرون ، وبما يعنى أن أحكامها وجدت مبرراتها ودواعى استمرارها .



وصف حورابى نفسه فى مقدمة تشريعاته بما اعتاد الملوك القدماء أن يصفوا به أنفسهم ، من أمور متقاربة أو متعارضة ، وذلك من حيث الصلة بالأرباب وتقواهم ، وإظهار الفضل وتقدير الواجب ، ومن حيث إظهار المسالمة وحب التعمير والافتخار بالقوة والجبروت . واعتبر حورابى شمش رب الشمس وقاضى العدالة معبوده الحامى ، وادعى البنوة للمعبود سين ، كما رفع من شأن المعبود مردوك . وإذا كان هذا الملك لم يظهر فى مناظر نصب تشريعه بشارات الربوبية مثل التاج والقرون ، إلا أنه وصف نفسه بأنه إله بين الملوك ، وأنه أول الملوك وزعيمهم والخالد بينهم ، وأنه الملك الحكيم الكامل منقذ شعبه من البأساء ، وأنه طرق جهات العالم الأربع ، وفتح كذا وأخضع كذا ، وأنه سليل سامو لائيل ، والوريث الجبار لسين موباليط ، البذرة الأزلية للملكة شمش بابل . وأنه الملك الذى نشر النور على سومر وأكد وأخضع

الجهات الأربع ، محبوب إشتار ، من دعاه مردوك لإسباغ العدالة على الناس وتوفير القيادة الخفية للبلاد فنشر الحق والعدل وعم الرخاء . وإذا كان قد استحب أن يشتهر بروح التقى وإقرار السلام إلا أنه حرص كذلك على أن يبدأ تشريعاته بتمجيد انتصاراته الحربية وأمجاده التوسعية . وكان من آثار هذه السمعة الغالية التي ادعاها لنفسه أو ادعاها له أتباعه أن سمى بعض رعاياه أبناءهم باسم حمورابى إيلو بمعنى حمورابى إله (أو هو الإله) . ولكنه وصف نفسه إلى جانب ذلك بأنه الأمير التقى ، وأن الأرباب تخيروه لإصلاح أحوال الناس ، وأنه المطيع للإله شمش العظيم ، وأنه كثير الدعاء للأرباب ، ويعرف الرب أداد تضرعه ، وأنه لم يهمل رعاية أصحاب الرؤوس السود الذين عهد بهم إليه رباه إنليل ومردوك ، وأن ربه مردوك أمره بأن يرشد الناس إلى الطريق القويم ويحق الحق والعدالة ويدونها بلغة البلاد ، فاستعان بأمر شمش القاضى الأعظم للسماء والأرض ، وذلل الصعاب للناس ، وكان أشبه بوالد لهم ، ووضع أهل سومر وأكد فى حوزته حتى سعدوا بحمايته وأظلهم بحكمه ، ثم رجا أن تدوم عدالته وتنتشر فى البلاد كلها بإذن مولاه مردوك ، ودعا الملوك الذين سوف يعقبونه إلى أن يتبعوا أسلوب حكمه ، ودعا كل مظلوم إلى أن يذهب بنفسه إلى نصب تشريعاته ويقرأها بعناية ويتمعن حكمته فيها حتى تستبين له قضيته ويهدأ باله ، واستعدى أربابه على كل من يمحو هذه التشريعات أو يغير فيها .

هذا ويضيف اللغويون أن هذه التشريعات لم تعبر عن نضج العقلية التشريعية فى عصرها فحسب ، وإنما عبرت كذلك عن دور الإكمال فى الأسلوب اللغوى البابلى الذى أصبح من بعد نموذجاً كلاسيكيا للكتابات الراقية فى العراق كله .

لم تكن تشريعات الرجل وليدة عهدها وحده كما سبق القول ، ولم تكن فريدة فى نوعها ، وربما لم تكن تجديداتها من وضع حمورابى نفسه بالضرورة على أساس ما أسلفناه من أن بعض التاريخ القديم وبعض التاريخ الحديث أيضاً تاريخ غير عادل أحيانا حين ينسب خير الأعمال إلى الملوك والرؤساء ويغفل ذكر من شقوا فى سبيلها من الرعية . ومع ذلك فقد كانت تشريعات عهده جديرة بشخصيته ، ويبدو أنه ظل معنياً بتطبيقها وظل يتدخل فى كثير من الشئون الإدارية بنفسه (١) وكان يصدر الأحكام فى بعض قضاياها ويحيل بعضاً آخر إلى محاكم خاصة ، فتضمنت إحدى اللوحات الباقية من عهده أمراً منه بافتداء أسير على حساب معبد مدينته قال فيه « وأما بخصوص إمانينوم الذى أسره العدو ، فتصرف عشر مينات من الفضة من معبد سين إلى مموله (الذى افتداه) »(٢) . وسمع حمورابى بارتشاء بعض موظفيه ، فأرسل مندوباً من عنده للتحقق من الأمر وسماع أقوال الشهود والتحرز على الرشوة ، ثم إرسال المتهمين والشهود إليه(٣) . وكثيراً ما تضمنت

---

(١) أنظر عن رسائل حمورابى :

L. W. King, *The Letters and Inscriptions of Hammurabi* ; Harper, *Letters and Inscriptions of Hammurabi* ; A. Ungand, *Briefe Konig Hammurabis*.

(٢) *Yale Oriental Series*, *t.* II, No. 32.

(٣) L. W. King, *op. cit.*, No. 11.

رسائله إلى عماله أوامره بالتحقيق فى سرقات ومظالم سمع بها(١) ، وأوامر أخرى بالتشديد على الملتزمين المتباطئين فى تأدية الضرائب التى التزموا بها وإرسالها إليه مع التحفظ على أملاكهم إن إمتنعوا عن السداد(٢) . وذلك فضلا عن أوامره إلى حكام الأقاليم بتنفيذ الخدمات العامة فى أقاليمهم ، مثل حفر الترع وتطهيرها ، والإشراف على تجميع العمال والأهالى للقيام بها(٣) . غير أنه يبدو أن صفة العمومية التى أكدها حورابى لتشريعاته لم تمنع قضاة عاصمته من أن يعترفوا بحق قضاة الأقاليم فى تطبيقها بما يناسب أحوال أقاليمهم ، أو هى على الأقل لم تجعلهم يصرون على مركزية القضاء فى العاصمة ، بحيث شهدت إحدى لوحاتهم القضائية برفضهم نظر قضية كان المدعى عليه فيها من أهل سيبار ، وتحويلهم إياها إلى قضاء سيبار بالذات(٤) .

ولا يستبعد أن من أسباب حرص حورابى على تدوين كل قوانين عصره ، رغبته فى أن تتولى هيئة الموظفين المدنيين الخاضعة له خضوعاً كاملا ، تطبيقها وفق نصوصها ، وحتى لايكون للكهنة حجة فى الإستئثار بتفسير القانون وإصدار الأحكام أو تأويلها(٥) . وربما ترتب على ذلك أن المعابد لم تعد تسمى بالضرورة دور العدل ، وتولت الدولة بنفسها كل ما يختص بإقامة العدالة حتى بالنسبة للأماكن المقدسة .

فى الفنـــون :

تأثر الفن فى عهد حورابى بنهضة عصره ، وكان من الطبيعى أن تظهر آيات رقية فى تماثيل الملك نفسه وفى صوره . وبقيت رأس جرانيتية يرجح أنها تمثل رأسه ، وضحت فيها الملامح السامية النبيلة التى ظهرت من قبل خلال العصر الأكدى القديم ، ونجح فنانها النجاح كله فى تمثيل نحافة وجه صاحبها ومستويات عظام الخدين ودقة تمثيل ركن العين ومسطحات الجفنين وخطوط الشفتين وتعبيرهما عن شخصية صلبة مجربة(٦) .

وعبر النقش عن جانب التقوى فى شخصية حورابى فى صورته أمام ربه شمش فى الجزء العلوى من النصب الحجرى الكبير الذى سجلت تشريعاته عليه . فصوره واقفاً بعباءة محبوكة إنسابت خطوطها المشدودة مع خطوط جسده ، يحيى مولاه برفع يده ويواجهه فى هيئة المقدر لجلاله ، ولكنها مواجهة كريمة تشبه مواجهة الوزير لمليكه . وصور المعبود شمش نفسه أقرب إلى عالم الدنيا منه إلى عالم الخيال ، لولا لحيته شديدة الكثافة والطول ، وتاجه الطريف ذو الأربعة أزواج من القرون ، وألسنة اللهب التى تشع من كتفيه . وصوره

---

(١) *Op.cit*, 3, 12, 18, 24, 30, 73, 74.

(٢) *Ibid.*, Nos. 16, 30, 33. (٣) *Ibid.*, Nos. 5, 26.

(٤) ديلابورت : المرجع السابق ـ ص ١١٩ .

(٥) كاميل طومسون : فى تاريخ العالم (هامزتون) ـ معرب بالقاهرة : الفصل الثامن عشر ـ ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥

(٦) توجد الرأس بمتحف اللوفر ـ ويبلغ ارتفاعها نحو ١٥ سم .

See, Frankfort, *The Art and Architecture* ... , Pl. 163.

يمسك بالعصا والحلقة رمزى العدالة ، وكأنه مع حورابي أشبه برجلين متحدث ومستمع ؛ وإن بدت شفتاهما مطبقتين . واستطاع الفنان أن يوازي بين جنسة المعبود وبين وقفة الملك ؛ بالجمع بين استقامة جذع الإله واستقامة عصاه وبين استقامة جسم الملك(١) . (تراجع أيضاً ص ٥٢٩) .

وثمة تمثال برونزى صغير ذهب إلى أبعد من ذلك فى تمثيل العلاقة بين الإنسان وربه ، وهو لشيخ ربعة يركع على ركبته اليمنى ويقيم اليسرى ؛ ويضم مجمع ثوبه بيده اليسرى ويجمع أصابع يمناه ويقربها من شفتيه كأنه يدعو بها أو يتمنى . والطريف أن نفس حركة اليد على الفم لا زال يؤديها بعض المسلمين حين الدعاء خلال الاستماع إلى أذان الصلاة . . وقد عبرت شفتا صاحب التمثال عن استبشاره باستجابة ربه لأمنيته . ولا يخلو التمثال من عيوب يسيرة تتمثل فى اتساع العينين وقلة تناسق الجزء الأسفل من الساق مع بقية الجسم ، ولكنه فى مجمله رائع التعبير . وغشى وجهه ويداه برقائق ذهبية ، وثمة احتمال بتمثيله للملك حورابى نفسه . وقد تكررت هيئته نقشاً على قاعدته وسجل معه نص يذكر إهداءه إلى المعبود أمورو (من أجل حياة حورابى) (٢) .

وكشفت البحوث الأثرية عن أطلال متفرقة من أحياء مدينة بابل فى عهد حورابى ؛ قامت فوقها مبانى قرى القصر وتل عمران والمركز الحالية . وشيدت بيوتها على نسق البيوت التى سبقت عهده ، فبنيت أساساتها ومداميكها السفلى من الآجر ؛ بينما شيدت مداميكها العليا من قوالب اللبن العادية . وكشفت الأبحاث كذلك عن أطلال بعض أحياء مدينة أكد من العهد نفسه ؛ ويفهم منها أنها خضعت لتخطيط منظم وتميز فيها طريق مقدس يؤدى إلى معبد إشتار (عشتار) ووازته بضعة شوارع رئيسية تعامدت عليها شوارع أخرى(٣) .

وارتفع شأن مردوك معبود بابل بارتفاع شأن مدينته ، وكان يعتبر من قبل ولداً للمعبود إنكى ، ثم تعمد البابليون تعظيم شأنه ليكفلوا لمدينتهم زعامة دينية إلى جانب زعامتها السياسية ،وبحيث تنافس المدن الدينية الأخرى القديمة ؛ فنسبوا إليه هزيمة التنين تيامة (رمز ملوحة البحر وأخطاره) وأضافوا أن انتصاره هذا جعل الآلهة الكبار يمنحونه حق تقرير المصائر ، وخلع عليه رب الحكمة إيا حكمته واسمه ، وقال « فليسم إيا مثلى » ، ثم خاطبه قائلا « أى بنى ، ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت أيضاً » (٤) . ومثل مردوك فى صوره المتأخرة بأذنين كبيرتين ترمزان إلى أنه « السميع » ، وكثيراً ما صور تحت قدميه وحش خرافى راقد يرمز إلى تيامة بعد أن أخضعها وذللها .

• • •

(١) *Cf.* H. A. Croenewegen–H. Frankfort, *Arrest and Movement* ..., 168 f.

(٢) فى متحف اللوفر – وارتفاعه نحو ٢٠ سم .
See, Frankfort, *The Art and Architecture* ..., Pl. 64.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٤٩ – ٥٠ .

(٤) ديلابورت : المرجع السابق ص ١٧١ – ١٧٢ .

تعاقب بعد حمورابى خمسة ملوك على عرش بابل ، شهدت أيامهم صوراً مختلفة من الحرب والسلام . واحتفظت حوليات ولده « سمسو إيلونا » ببعض هذه الصور ، فذكرت من مشروعات عهده الإصلاحية أنه أعفى سومر وأكد من الضرائب فى العام التالى لحكمه ، وقد يعنى ذلك أنه أعفى المموليين من متأخرات الضرائب بمناسبة اعتلائه العرش . ثم ذكرت نفس الحوليات من صور القلاقل فى عهده ما يدل على أعداء عديدين ، وملك مغتصب شرير ، وهدم أسوار وبناء أسوار ، وعصيان أقطار كثيرة ، ووجود جيش أمورى وجيش كاسى ، وجعله ذلك يقول فى نصوص العام العشرين من حكمه « فى هذا الوقت عادانى الجميع من سومر وأكد . وفى غضون سنة واحدة شهرت السلاح فعلياً ثمانى مرات ، وحولت معاقل أعدائى إلى خرائب . وصارت البلاد كلها تعيش وفقاً لأوامرى » (١) . ورددت نصوص أخرى متأخرة عن عهده أسماء بعض خصومه ، ومنهم رجل تسمى باسم ريم سين الثانى ملك لارسا القديم رغبة فى استعادة مجده وجمع حوله حلفاً من المدن الكبيرة التى عز عليها خضوعها لبابل ؛ مثل أوروك وإيسين ، فضلا عن منطقته الأصلية منطقة إيموتيبال ، ولكن دارت الدائرة عليه وعلى حلفائه ، وقيل إن الجيوش البابلية قبضت عليه حياً فى قصره . وخصم عنيف آخر يدعى إليما إيلوم أو إيلوما عيلوم حكم أرض البحر وهى مناطق المناقع المستصلحة قرب مصبى دجلة والفرات ، وقد حاربته جيوش سمسو إيلونا ولكن بغير نتيجة حاسمة ، فاستمر خطره فى عهد أبيشو أو أبيعشوش البابلى الذى حاول أن يستعين على هزيمته ببناء سد على نهر دجلة يعوق تقدمه أو يغرق أرضه ، فنجح رجاله فى بناء السد كما روت الحوليات ولكنهم فشلوا فى الانتصار على خصمه (راجع فيما بعد) . وربما ظهرت فى نفس الوقت تقريباً جماعات هانا فى منطقة مارى وحمل أحد حكامها اسم كاشتيلناش مما قد يوحى بأنه كاسى الأصل (٢) .

تلك صورة مصغرة للقلاقل التى واجهت خلفاء حمورابى ، وما لبثت البلاد أن تعرضت بعدها لأخطار أشد وأعنف ، وهى أخطار ندع مناقشة أسبابها ونتائجها إلى ما بعد كلمة قصيرة عن أثر العصر البابلى فى التراث الأدبى لبلاد النهرين .

---

(١) ه . كلنجل : المرجع السابق - ص ٤٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠ .

من الأدب البابلي

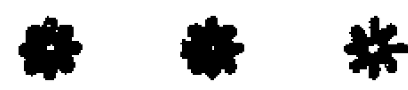
استفادت الحضارة البابلية من مخلفات السومريين والأكديين اللغوية والأدبية ، على نحو ما استفادت من تراثهم التشريعي ، ثم أضافت إلهاما ناسب عصرها وأذواق أهلها ، وكان أصحابها أسعد حظاً من أسلافهم الأكديين أصحاب الثقافة السامية القديمة ، فالأكديون كانوا ينحتون فى الصخر عندما كتبوا لغتهم السامية بالكتابة المسمارية ، وهذا لم يترك لهم مجالا واسعاً للخروج بأدب سامى متميز ، أما البابليون فقد وجدوا الأرض ممهدة بمجهودات سومرية وسامية خليطة . وكان من تجديداتهم فى الكتابة أن أدخلوا فى نصوصها المسمارية علامات للتعبير عن أصوات لم تكن متميزة ، ومنها التعبير بعلامتين متمايزتين عن كل من الجيم والقاف . وبدأوا فى تصنيف قوائم لغوية تجمع بين كلمات سومرية قديمة ومترادفاتها السامية . وعمل كتابهم على تسجيل بعض أسماء الحيوانات والنباتات فى قوائم متصلة ، وسجلوا بعض القصص والأساطير السومرية والسامية الكبيرة بأسلوبهم الخاص .

أساطير نشأة الوجــود

انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومرى عن أصول الخلق المادى والمعنوى فى دنياهم ، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود جعلوا ربهم مردوك قطب الدائرة فيها ، ونافسوا بها نظريات السومريين أنفسهم ، وضمنوها ما تواتر إليهم عن نشأة الحضارة الأولى عند مجمع البحرين ، وما سبقها من خواء وعماء ووحشية ، وما صاحبها من تحديات مضنية بين الأجيال المتتابعة فى سبيل التغلب على أخطار البحر والتحكم فى جبروت النهر ، وفى سبيل التحول من الركود إلى النشاط ، ومن الفوضى إلى الاستقرار ، وضمنوها ما تواتر إليهم عن فاعلية السحر القديم ، ووجود نوع من الشورى بين أصحاب الرأى القدماء حتى إذا ما اتفق رأيهم على زعيم أسلموا له أمرهم وعهدوا إليه بمقدراتهم .

وخرجت النظرية مهوشة مطولة يكثر فيها التكرار وتتعدد فيها الأسماء ، كالعادة فى النصوص القديمة . ولكن يمكن الخروج من عناصرها المهذبة ، بأنهم ردوا أصول الأشياء إلى ماء أزلى اختلط عذبه بمالحه ، ومثل العذوبة فيه آبسو وهو مذكر ، ومثلث الملوحة فيه تيامة وهى أنثى . وعنونوا نظريتهم بمقطعها الأول الذى يقول « إنوما إليش » بمعنى « حينما فى العلا » . واسترسلت الفقرة الأولى منها قائلة : « حينما فى العلا لم يكن للسماء ذكر ، وفى الدنا لم يكن للأرض إسم ،ولم يكن من شئ غير آبسو والدهم (رب المياه العذبة) وتيامة أمهم (ربة المياه المالحة) » . وافترضت النظرية نشأة أجيال الأرباب فى جوف ماء البحر (تيامة) جيلا بعد جيل ، وكان كل جيل منهم يفوق من سبقه ، حتى انعقدت ألوية الحكمة بينهم للإله « إيا » الملقب بلقب « نوديمو » . ولكن حكمة أولئك الأرباب لم تحل دون شدة صخبهم وسعيهم إلى التبديل والتغيير ، الأمر الذى أقلق أباهم آبسو وجعله يهم بالقضاء عليهم ، رغم معارضة أمهم تيامة التى قالت « وكيف نقضى على

من خلقناهم بأنفسنا ؟ إن مسلكهم معيب حقاً ولكنه شيء متوقع » . ثم ألقى « إيا » النعاس على آبسو وقتله وأفناه فى نفسه وبنى بيته فيما كان يشغله (إى - آبسو) وعاش فيه هو وزوجته ، وأنجبا ولدهما « مردوك » الذى فاقت قدرته كل الحدود . وهنا عاودت تيامة ذكرى زوجها المضحى به ، فانقلبت على أحفادها وسلطت عليهم الكواسر والزواحف والمخاوف . واستعانت عليهم بإله قديم يدعى « كنجو » ، أغرته بنفسها وعهدت إليه بألواح القدر . وعجز الأرباب متفرقين ومجتمعين أمام هذين الحليفين ، سواء بالمداهنة أم بالعنف ، حتى تخيروا من بينهم « مردوك » لقيادة الحرب ضدها وفوضوه السلطة المطلقة وخلعوا عليه قدراتهم وأسرار أسمائهم وارتضوه ملكاً عليهم . وقد تعدد لقاؤه مع تيامة بالسحر تارة وبالحرب أخرى ، حتى تصيدها بشبكة وأطلق عليها ريح السموم فملأت جوفها ونفختها ، فقيدها وذبحها ، واندار على حليفها كنجو واسترد منه ألواح القدر وختمها بخاتمه واستودعها فى مكنون صدره . ثم عاد إلى تيامة فبقرها وقسمها نصفين ، مثل نصفى صدفة البحر ، وجعل نصفها الأعلى سماء ونصفها الأسفل أرضاً ، وعين فى السماء حرساً وتظم ماءها وعين مواضع الأرباب فيها . وأرسى الأرض وجبالها والدجلة والفرات وفجر العيون والينابيع . ويبدو أن العناصر الرئيسية التى ترمز إلى عنف صراع الأجيال ومشاكل الطبيعة فى هذه الأسطورة كانت تمثل فى احتفالات رأس السنة ، حيث يتقمص الملك شخص مردوك بطلها الأخير ، مع ما يقام فيها من مراسم دينية أخرى(١) .



توسع البابليون فيما روته الأساطير السومرية عن خلق الإنسان وعلاقته بأربابه فى بداية الخلق والنشأة ، وضمنته فى قصة أتراخاسيس الذى قد يعنى إسمه معنى « فائق الإدراك (أو الحكمة) » . ويفهم منها أن عالم السماء والأرض كان قاصراً على طوائف الأرباب بمراتبهم المختلفة ، حيث وقع غرم العمل فى إصلاح الأرض وزراعتها لإعالة الجميع على أكتاف طائفة منهم تسمى إججى ، حتى ناءت هذه الطائفة عشقة العمل أربعين عاماً ، ثم جمعت أمرها وحملت المشاعل وتظاهرت معلنة احتجاجها أمام قصر الإله الأعظم إنليل . واستفتى إنليل بطانته من مجمع الأرباب ، واستقر رأيهم على خلق الإنسان كى يحمل النير عوضاً عنهم ويخدم المعبودات ويكد من أجل إقامة معابدها وتوفير قرابينها .

وعملا بمشورة إيا رب الحكمة ، عهد الآلهة إلى الربة الأم ننتو التى لقبت بلقب مامى (أو ماما) بأن تخلق الإنسان الأول « لوللو » ، وأعانها إيا فأعد لها الطين النقى الطاهر ومارس عدداً من الشعائر حين إعداده - ولأمر ما ذبح الآلهة فى هذه المناسبة واحداً منهم يدعى وإيلا ربما لشخصه كما روت القصة ، أو لأنه كان أشدهم ذنباً فى تحريض طائفة الإججى على العصيان كما روت قصة سومرية عن ذبيحها كنجو . وتفلت ننتو

(١) Lapat, *Le poeme Babylonien de la Creation*, 1935 ; A. Heidel, *The Babylonian Genesis*, 1942 : E. A. Speiser, *ANET*, 60 f. ; A. K. Grayson, *Ibid.*, 501 f. ; M. E. Eliade, *Myth and Reality*, 1963, 5 f.

على الطين ومزجته بلحم الضحية ودمه ، وعاونها إيا ، وشكلت من الطين سبعة ذكور وسبع إناث ، وقدرت تسعة شهور لحمل الإناث . وبين دقات الطبول وقراءة التعاويذ خرج الإنسان الحي ، وأتاها الأرباب يقبلون قدميها عرفاناً بجميلها ، واستحقت أن توصف لذلك بسيدة الآلهة « بليت إيلى » .

وانقضى بعد ذلك ألف ومائتان من الأعوام تكاثر الناس فيها ، واشتد صخبهم حتى ضاق إنليل بضجيجهم فأمر نمتار بأن يبتليهم بالأوبئة والأوجاع ليقلل أعدادهم ، ولم ينقذهم من الفناء غير الرب إيا وفائق الحكمة اتراخاسيس اللذين قر رأيهما على استمالة نمتار بالقرابين من « طحين وخبز مقدد » عسى أن « تخجله الهدية فيرفع يده عن العالمين » ونجحت الحيلة وخف البلاء .

وبعد ألف ومائتي عام أخرى تضخمت شرور الناس ، فقرر إنليل أن يبتليهم بالقحط والمجاعة ، وأمر أداد بأن يحبس المطر وأن يرسل الرياح جافة حسوما ، واستمر هذا لست سنوات فجفت الأرض وهزل البشر وقلت المواليد وأكل الناس أولادهم . وهنا استرضى إيا وأتراخاسيس أداد بقربان من طحين وخبز مقدد حتى لان جانبه وسمح بقليل من الطل والندى ، وعمل إيا من ناحيته على أن يفتح ثغرة لمياه الأعماق فتدفقت تروى الأرض وتحيي أهلها . وبلغ استياء إنليل مداه لفشل خططه ، وقر رأيه أن على أن يغرق كل الخلق بما أرادوا أن يحيوا به . وأمر بطوفان كاسح (أبوبو فى البابلية وأماورو فى السومرية) — وأخذ المواثيق على الأرباب أن يعاونوه على إحداثه .

واشتركت القصة فى رواية أحداث الطوفان مع قصة جلجميش التالية دراسة أحداثها — كما تشابهت إلى حد ما مع بعض قصص التوراة (سفر التكوين ٦ : ١—٢٢) فى تصوير غضب الإله على البشر وابتلائه إياهم ثم عقابه لهم بالطوفان . ولكن ذهب القرآن الكريم مذهباً آخر فى تصوير ما أدى إلى الطوفان وتصوير بعض أحداثه (فى سور : نوح والأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر) .

جلجميش وقصة الطوفان :

هذه أشهر الأساطير التى روى البابليون فى ثناياها قصة الطوفان القديمة بعد أن عدلوا فيها وأضافوا إليها وغيروا بعض مسمياتها . وتخلفت من الصياغة البابلية لهذه الأسطورة ألواح مبعثرة قليلة أمكن تصحيح قصتها واستكمالها من ألواح أخرى مرادفة لها وأكثر تفصيلا منها كتبت بعدها باللغات الأشورية والحورية والحيثية(١) . وبهذا أمكن تكوين صورة عامة لها يفهم منها أن جلجميش كان حاكماً على مدينة أوروك ، أحبه شمش وحباه آنو وإنليل وإيا بنضرة الشباب وبسطة الجسم وجمال الصورة والقوة الخارقة والحكمة السابغة والنظرة الثاقبة

(١) See, *ANET*, 90, 163, 172 ; A. Heidel, *The Gilgamesh Epic and the Old Testament Parallels*, 1946 ; Ephraim Speiser, *ANET*, 72 f.

حتى أصبح إنساناً مثالياً ، أو على حد تعبير الأسطورة حتى أصبح به ثلثان من الربوبية وثلث من البشرية ، وقد اهتم بمدينته وأسوارها كما اهتم ببلاطه وفخامته ورفاهيته ؛ فدب الحسد منه في نفوس معاصريه ، وشكوه إلى أربابهم ؛ وادعوا أنه يسخر أبناءهم ويحتبي عذاراهم ونساءهم ؛ فاستجاب الأرباب لشكواهم وابتغوا أن يعيدوا السلام والطمأنينة إلى أرض أوروك التي أرسى الحكماء السبعة بنيانها (وهم سبعة حكماء أسطوريون نسبت القصص إليهم تأسيس وتحضير أقدم مدن في الوجود العراقي) (١) . وأمر آنو الربة أرورو أن تخلق من الطين إنساناً ينافس جلجميش قوة واقتداراً حتى تهبط عزيمته حسداً منه فينصرف طغيانه عن شعبه . وأتمت أرورو أمرها وغسلت يديها وقبضت قبضة من طين البراري وتفلت عليها وخلقت منها غلاماً دعي إنكيدو (أو إنجيدو) عظيم البأس ، له قوة الأسود وسرعة الطير ، وفيه قبس من روح آنو ونينورتا ، ولكنه نشأ على الرغم من قوته أشعر غير ذي فطنة ولا حكمة ، فمال إلى مصاحبة الغزلان آكلات العشب دون الناس ، وشاركها مرعاها وموارد شربها ، وعزف عن طعام الناس وموارد شربهم . وبلغ من إخلاصه لحيواناته أن تتبع شباك الصيادين فأتلفها ، وتتبع حفرهم فردمها . فاشتكاه صائد إلى أبيه الشيخ ، فوجهه أبوه إلى جلجميش وتنبأ له أنه سوف يستأسر إنكيدو عن طريق أنثى ، فلما أعاد شكواه على جلجميش أوصاه بالفعل بأن يغويه بغانية جميلة ، ففعل ما أوصاه به وارتحل بها ثلاثة أيام حتى بلغا البرية التي يعيش فيها ، وتربصا به يومين حتى خرج بحيواناته يسقيها . واستطاعت الأنثى أن تلفه بجمالها . فكشفت له عن مفاتنها وخلعت له ملابسها وفرشتها له ، ونجحت فيما فشل فيه غيرها ، فاستجاب لها إنكيدو وقضى معها ستة أيام وسبع ليال ، ولما أفاق بعدها التفت إلى البرية وحيواناتها ، ولكن الحيوانات التي أحبته لفطرته وطهره ما أن رأت وجهه بعد الخطيئة حتى ازورت عنه وهجرته ، فأدرك دنسه واشتد به عذاب النفس والحزن واليأس . ولكن المرأة شغلته بحديثها المعسول وأوهمته أنه أصبح حكيماً وحرضته على أن يواجه جلجميش ويستحوذ على مدينته أوروك وملكه العريض وينتقل من حياة البراري إلى جوار مقر آنو وإشتار (عشتار) وحياة المدنية . فاستجاب إنكيدو للمرأة مرة أخرى ووصل معها إلى أوروك . وهنا تواردت الرؤى على جلجميش ، ورأى فيما يرى النائم روح آنو تجلت في السماء على هيئة كوكب ونزلت عليه فحاول أن يرفعها أو يحركها ففشل ، وتجمع أهل أوروك حولها وقبلوا قدمها . ولما أفاق جلجميش قص رؤياه على أمه الحكيمة نينسون ، فنبأته بنبأ إنكيدو وتنبأت له بأنه سيميل إليه كما يميل إلى أنثى . ثم رأى في رؤيا أخرى أن قومه ثبتوا فأساً في الأرض وتجمعوا حولها ، فاتجه إليها بدوره ، ولما أعاد الرؤيا على أمه فسرتها له بنفس تأويلها الأول .

وقضى إنكيدو مع غانيته ستة أيام وسبع ليال أخرى كاد ينسى نفسه فيها ، فأثارت المرأة عزيمته ثانية وألبسته ثياباً جديدة ، وخرجت تشده كأنها أمه إلى أماكن الرعاة ليستعيد نخوته بينهم ، فحن هناك إلى رضاعة لبن البراري ، وعندما قدم إليه طعامهم وشرابهم ما درى كيف يطعمه ويشربه ، فراضته المرأة عليه حتى اعتاده واستساغ الشراب العنيف وأسرف فيه ، وأزال شعر بدنه واعتاد الطيوب ، وأصبح يذود عن أغنام

(١) H. Zimmern, *AZ*, XXXV (1923), 151 f.

الرعاة ويصيد السباع . ثم أتى البرية رجل يستصرخه ضد جلجميش الذى استولى على زوجته ، فاستثارت الغانية والناس همته حتى خرج إلى أوروك وهناك تجمع الناس حوله ورأوا فيه كفئاً لجلجميش وإن كان أقصر قامة منه .

وتلاقى البطلان فى سوق المدينة وتصارعا مصارعة عنيفة ، واستطاع جلجميش أن ينتصر على خصمه ، ثم رق كل منهما للآخر وصادقه وأصبح كل منهما أحب إلى صديقه من نفسه ، حتى كان يوم رأى فيه جلجميش صديقه دامع العين كسير الفؤاد ، فلما سأله عما به شكا له الإعياء والمرض ، فاعتزم جلجميش أن يدفع عنه الملل ويشركه فى مغامرة مثيرة ، وعرض عليه أن ينطلقا إلى حيث يعيش هواوا ويتعاونا على قتله عسى أن يذهب النحس عن الأرض بهلاكه ، وهنا قصت الألواح مغامرة الصديقين فى صورة قريبة من صورتها السومرية القديمة مع تعديلات يسيرة وتعبيرات تناسب آفاق المعرفة فى عصرها ، وكان من ذلك أن ذكرت جبل الأرز فى أرض الأحياء التى اتجها إليها بإسمه الكنعانى المعروف للساميين وهو جبل حرمون الذى ذكرت نصوص أوجاريت فى الشام أن معبوداتها تستقر فوقه . ثم كان من أمتع ما جاءت به قول جلجميش لصديقه وهو يرد على مخاوفه من لقاء هواوا « من يستطيع أن يعاند السماء يا صديقى ؟ ليس من مخلد تحت الشمس غير الأرباب ، أما البشر فأيامهم معدودات . . . ، وأنت هنا تخشى الموت ؟ ، فأين بطولتك الفذة إذن ؟ أولى بك أن تهيب بى أن تقدم ولا تخف ، فإذا سقطت صريعاً تركت لنفسى سمعة طيبة ، وقال عنى خلفائى من أهل بيتى سقط جلجميش بعد أن تحدى هواوا » .

وأضافت النسخ الأشورية للقصة أن جلجميش بعد أن نجح فى إقناع شيوخ بلده بمغامرته التفتوا إلى إنكيدو وقالوا له « نحن أعضاء المجلس أمناك على الملك ، فأعده سالما إلينا » . والتفت جلجميش إلى صديقه وقال له هيا بنا إلى القصر الكبير (إجالمه) وإلى حضرة الملكة العظيمة نينسون . وعندما قص عليها ما عزم عليه فزعت وارتدت رداءها الكهنوتى وصعدت الدرج وعلت السور وطلعت إلى السطح وحرقت البخور فتصاعد عبيره عالياً لربها شمش ثم رفعت يديها إلى معبودها وقالت تخاطبه : لم وهبتنى جلجميش ولدا ؟ ولم جعلت هذا الإبن القلق من نصيبى .؟

ثم إنتهت الألواح إلى ماإنتهت إليه القصة السومرية من قتل هواوا (أو خمبابا) ، وأضافت أن جلجميش إنتشى بعد النصر واغتسل وعقص شعره وأرسل ضفيرته خلف ظهره واستبدل ثيابه وارتدى عباءة ذات أهداب ، فلمحته الربة إشتار (عشتار) وشغفت به حبا وابتغته زوجاً لها ومنته بأمانى كثيرة ووعدته بملك عريض . فاستهان بعرضها وذكرها بغرامياتها المتقلبة وكيف أحبت دوموزى فى صباها ثم غدرت به ، وكيف أحبت طائراً ثم كسرت جناحه ، وكيف عشقت أسداً وحفرت له سبع حفر بعد سبع حفر ، وكيف أحبت محارباً وراعياً ، بل وأحبت بستانى القصر ، ثم غدرت بمن أحبها منهم ومسخت منهم من استعصم عليها . فلما واجه جلجميش هذه الربة الحسناء بحقيقتها انقلب حبها له إلى حقد شديد وشكته إلى والديها فى السماء

(آنو وأنتو) ودعت أباها إلى أن يرسل عليه فحل السماء ليقتله ، وتوعدته إن لم يفعل بأن تفتح أبواب العالم السفلى فيخرج أمواته ويفتكون بالأحياء ، فاستجاب لها أبوها وأرسل معها فحلا من السماء بعذاب شديد صبه على مدينة أوروك، وأخذ يفتك بالمئات منها فى كل خوار . وأراد انكيدو أن يفتدى صديقه فتصدى للفحل ونجا من حفره بعد أن سقط فى إحداها ، ثم تعاون هو وجلجميش على ذبحه وقدما قلبه قربانا إلى شمش ، فجن جنون إشتار وصبت اللعنات على أوروك وحرضت الكاهنات على أهلها . فتصدى لها إنكيدو وتوعدها بأن يفعل بها مثل ما فعل بالفحل ؛ وأفسد هو وصديقه خطتها وكان يوم إنتصارهما عليها يوماً مشهوداً ، خرجت العازفات فيه ينشدن بإيعاز من جلجميش : من هو أعظم المغاوير قدراً ؟ من هو أعظم الناس قدراً ؟ فيرد الناس وراءهن : ذاك هو جلجميش أعظم المغاوير قدراً ، ذاك جلجميش أعظم الناس شهرة . وتلك صورة من هتاف الأنصار للبطل تربط الماضى بالحاضر .

وانقلب حال السماء وأربابها ، فاجتمع آنو وإنليل وشمش ، وانقسموا فريقين : آنو وإنليل فى جانب وقد اعتزما الفتك بإنكيدو لإهانته إشتار ، واشتراكه فى قتل هواوا وقتل الفحل ، وشمش فى جانب آخر وقد أصر على حماية الصديقين واعترف بأنهما قتلا هواوا والفحل بأمره . . . . ، وانتصر رأى آنو وإنليل وابتليا إنكيدو بداء عضال لا يرتجى البرء منه . واسترسلت الأسطورة فى وصف أسف جلجميش على صديقه ، وخوف إنكيدو من عالم الفناء وأهواله ، وتبرمه بما لحق به ، حتى أتاه صوت شمش من السماء بعتاب رقيق ، ذكره فيه بفضل ربه عليه حين وهبه القوة والبأس من قبل ، وحين حباه بصداقته للبطل جلجميش ، وحين أيده بنصره فى مغامراته القديمة ، فقرت نفس إنكيدو ورضى بنصيبه وتحولت لعناته إلى دعوات ، ولكن ظلت الرؤى تتوارد عليه وتدفعه إلى أن يتذكر العالم الآخر رغم أنفه ، حيث الدار التى لم يتركها شخص دخلها ، وحيث الطريق التى لارجعة منها ، وحيث الظلام الأبدى الذى عز النور على أهله ، وحيث الطعام طين وتراب ، وحيث لايجد الموتى ما يتدثرون به سوى أجنحة كأجنحة الطيور ، وحيث تحيا ملكة العالم الآخر إرشكيجال وحيث تركع أمامها كاتبتها بلت سرى تقرأ لها لوحها المكتوب ، وقد رآها إنكيدو فى منامه ترفع رأسها وتتطلع إليه وتقول من أتى بهذا الشخص هنا ؟ فأدرك أنها النهاية ، واشتد به المرض وظل يعانى سكرات الموت عشرة أيام (أو إثنى عشر يوماً) ، فلما أحس دنو أجله دعا جلجميش وودعه وأفضى إليه بأسفه على أنه لم يمت شهيداً فى معركة وأن عليه أن يموت على فراشه . ولما قضى نحبه بكاه جلجميش وظل يندبه بحرقة ووفاء ، وأبنه ونعى صفاته وشجاعته بعبارات ينفطر لها الفؤاد ، ثم فاق إلى نفسه وتخيل نفسه يلقى مصير إنكيدو فطارت نفسه شعاعاً وكره الموت ، واعتزم أن يلجأ إلى جده الأكبر الحكيم أوتانبشتيم (أو وتنابشتو ، أو أوتونبشتم) بن وبر توتو ، (وهو نوح البابلى ، فى بابل زيوسدرا السومرى ، وقابله فيما بعد Xisouthros فى النصوص الإغريقية) (١) ، علّه يجد عنده سر الحياة . وانطلق من ثم يقطع

(١) *ANET*, 88, n. 143 (*Cf.*, Jacobsen, *The Sumerian Kings List* (1939), 76—77, n. 34, and *for his father* : *Ibid.*, 75—76, n. 32 ; *ANET*, 594 ; Civil et Biggs, *RA*, LX, 1966, 1—5.

البرارى والقفار حتى بلغ جبلا يسمى جبل ماشو تتصاعد قمته إلى عنان السماء وتصل جذوره إلى العالم السفلى ، ولقى حارسه وكان له وجه عقرب ، فخوفه الحاوس أهوال الطريق ولكنه لم ينثن عن عزمه وظل يقطع مفازاته ويتخطى أهواله حتى لقد ناداه شمش من علاه : إلى أين جلجميش ؟ إرجع فلن تجد الحياة التى تسعى إليها . . ، فأجابه : وهل بعد أن أقطع البرارى أضع رأسى فى قلب الأرض وأنام أبد الدهر ؟ دع ناظرى يمتلئان بنورك دائماً فإن الظلمة تتشتت أمام النور . . . . .

واستمر جلجميش فى طريقه ، وقابل صاحبة حانة تدعى سيدورى روى لها قصته وقصة صديقه الذى اختطفه الموت بعد أن سقطت دودة من أنفه وتحول إلى طين ، على حد قوله ، فلم يستطعم الحياة من بعده ، فردت عليه بأن الموت نهاية كل حى وأن للإنسان أن ينعم بحياته ويطعم ويشرب ويلبس ويمرح ، وأنه ليس من سبيل إلى حياه الخلود التى يبتغيها ، وأنه يفصل بينه وبين أوتا نبشتيم بحر لم يعبره إنسان ، وأنه لن يستطيع عبوره بغير مساعدة نوتى فظيع يدعى سورسونابو . وكأنما أراد القصاص أن يبين أن الرؤية الصحيحة قد تتوافر عند صاحبة حانة وتغيب عن جلجميش بعد أن ألهته عنها شدة رغبته فى استمرار الحياة .

وقد ورد فى الأسطورة ما يقول : أين تذهب جلجميش ؟ إن الحياة التى تبتغيها لن تجدها ، فقد استأثر بها الآلهة ، وقضوا بالموت على البشر ،فا ملأ بطنك واستمتع بكل يوم وكن فرحا ليل نهار ، وارقص وتجمل بالثياب النظيفة ، اغسل رأسك ، واسبح فى الماء وتعلق بالطفل الذى يتعلق بيدك ، واسعد زوجتك بين ذراعيك » . وقابل جلجميش النوتى وحاوره وراضاه حتى اصطحبه معه فى قاربه ، وركبا الموج شهراً وثمانية عشر يوماً إلى أن بلغا مياه الأعماق . وخرج جلجميش إلى جزيرة جده أوتانبشتيم (أو وتنابشتو) وقابله ورأى فيه صورة من نفسه وقص عليه قصته ورجاه أن يدله على سر الخلود ، ولكن جده أراد أن يزيده خبرة بأحداث الماضى البعيد قبل أن يلبى رجاءه ، فقص عليه قصة الطوفان القديم ، قائلا له :

« سأكشف لك جلجميش سراً ، وهو سر ربانى . شوروباك مدينة تعرفها تقع على ضفة الفرات ، هى مدينة عتيقة عاش الأرباب فيها ، وعندما أرادت مشيئتهم إحداث الطوفان ، كان بينهم أرباب سومريون ومنهم آنو أبوهم ، والشجاع إنليل مستشارهم ، ومساعدهم نينورتا ، وإنوجيه متولى أمر قنواتهم . وكان معهم كذلك معبود سامى خيروهو رب الحكمة إيا الذى حزبه الأمر ولكنه لم يشأ أن يفشى سر الآلهة جهرة، فجعل أوتا نبشتيم يرى فى منامه ما يحذره من الطوفان ، ولما لم يدرك هذا الأخير مغزى رؤياه وتطلع إلى تفسيرها ألقى إيا حديثه إلى كوخه بطريق غير مباشر قائلا : ياكوخ البوص ، يا جدار ويا جدار ؛ ياكوخ البوص ، يا جدار وياجدار ، أصيخوا ورددوا :

يارجل شوروباك يا إبن وبرتوتو .
اهدم الدار وإبن سفينة . دع أملاكك وانقذ حياتك . . .
إرحل بها وخذ بذرة كل حى . . .
إجعل عرضها مثل طولها . . .

ففهمت وقلت مولاى إيا أمرت سيدى وسأكون أهلا لحمل الرسالة ، ولكن بم أجيب أهل المدينة وشيوخها ؟ فقال إيا ، قل لهم إنى سمعت أن إنليل غير راض عنى ، ولهذا لن أبقى فى مدينتكم ولن أطرق أرض إنليل — ولسوف أذهب إلى الأعماق وأعيش مع مولاى إيا — ولسوف يبارك لكم فى الطير والأسماك ويجعل الأرض تؤتى أكلها ، ذلك الذى يأمر فى ظلمة الليل باخضرار اليابس — ولسوف يرسل عليكم مطراً من الغلال (وكلمة الغلال تورية عن الهلاك لاشتراكهما فى اللفظ) . . . وبعد أن تعلم الحكيم من ربه كيف يصنع السفينة من البوص والأخشاب على الرغم من أنه لم تكن له معرفة سابقة بصناعتها ، قال : وعند الفجر تجمع الناس حولى ، وحمل الصغار القار ، وحمل الكبار كل الضروريات ، وفى اليوم الخامس أتممت إطار السفينة ، وكانت سعة أرضها فداناً كاملا ، وارتفاع جدرانها ١٢٠ ذراعاً . . . ، وجعلت لها سبعة مسطحات أى قسمتها ستة أقسام وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء . . . وأكرمت من عملوا معى . . ، واكتملت السفينة فى اليوم السابع وأنزلوها الماء ، وحملتها بكل ما عندى ، وما أملك من فضة وذهب ، وحملتها بصنوف الأحياء كلهم ، وأخذت معى كل عائلتى وأقربائى ، وحيوانات البرارى ، وكل الصناع .

وحدد « شمش » وقتاً معيناً لى قائلا : عندما يرسل من يبعث القلق بالليل ، رذاذاً من المن ، إرحل بسفينتك وأغلق مدخلها . وحان الوقت . . وتطلعت إلى الجو ، فوجدته معتما ، فغلقت السفينة ، وعهدت بها إلى النوتى بوزور أمورى . وظهرت غمامة سوداء فى الفجر ، رعد فيها أداد ، وتقدمها شولات وهانيش رسولين فوق السهل والجبل ، وحطم إراجال المساند (التى تسند السماء) ، وخرج نينورتا فجعل الترع تفيض ، وحمل الأنوناكيون المشاعل وجعلوا الأرض تتوهج بها ، وبلغ غضب أداد السماوات ، وأحال النور إلى ظلمة ، وهبت عاصفة الجنوب يوماً كاملا بسرعة عنيفة فنسفت الجبال ، واقتلعت الناس ، فخشى الأرباب عاقبة الطوفان وأجفلوا وصعدوا إلى سماء آنو (أعلى السماوات) وتجمعوا كالكلاب حين تقبع بجوار الجدران ، وصرخت إشتار صرخة أنثى تلد ، وولولت صاحبة الصوت الشجى قائلة : ضاعت الأيام الخوالى هباء لأنى أخطأت فى مجمع الأرباب ؛ ولكن كيف أخطىء فى مجمعهم وأعلن حرباً لفناء الناس وأنا التى وهبتهم الحياة ، فتكاثروا كأسماك البحر . . » وبكى الأنوناكيون معها .

واستمرت أعاصير الطوفان ستة أيام (وست) ليالى واكتسحت الأرض كما تكتسحها عاصفة الجنوب وفى اليوم السابع هبطت العاصفة وهدأ البحر وتوقف الطوفان . وتطلعت إلى الجو ، فإذا سكون شامل والناس قد تحولوا إلى طين ، وأصبحت الأرضيات فى مستوى السقوف . ففتحت منفذاً ، وسقط الضوء على وجهى ، فسجدت وبكيت ، وتطلعت أتلمس خطوط الساحل على مدى البحر هنا وهناك ، وبدت يابسة . والتصقت السفينة (نسرات نابشتم أى منقذة الحياة) بجبل نيزير(١) فاحتجزها ، يوما ويومين وثلاثة

---

(١) تعددت المحاولات للتعرف على هذا الجبل فى منطقة كردستان قرب السليمانية ، وجنوبى الزاب الأصغر ، وحيث يوجد بير أمر جدروون أو بير إه نيه جدروون ، أو جبل أرارات أو جرديان فى أرمينيا — ولكن بغير دليل قاطع .

وأربعة وخمسة وستة أيام ولم يدعها تتحرك . وفى اليوم السابع أطلقت حمامة ، فذهبت وعادت وعز عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه ، وأرسلت سنونو فذهب وعاد حين لم يجد موضعاً ظاهراً يحط عليه ، فأرسلت غراباً فذهب ورأى الماء يتناقص فأكل وعب ودار ولم يعد . وحينذاك واجهت الجهات الأربع وضحيت — وسكبت قربانا فوق قمة الجبل ، ونصبت ١٤ قدراً ، وعندما شم الأرباب الرائحة تجمعوا كالطيور حول الأضاحى . ثم وصلت العظيمة (إشتار) ورفعت حليها العظيمة التى أهداها لها آنو ، وقالت : أيها الأرباب ، بحق هذا اللازورد حول عنقى ، سوف أذكر هذه الأيام ولن تغيب عنى ذكراها . ادعوا الأرباب إلى الأضاحى ولكن لاتدعوا إنليل الذى سبب الطوفان وأهلك شعبى . وبعد فترة وصل إنليل فلما رأى السفينة غضب وقال : هل نجت نفس وما كان لبشر أن يبقى ؟ فأجاب نينورتا ، ومن غير إيا يفشى الخطط وهو العليم بكل شىء ؟ .

وهنا قال إيا لإنليل العظيم : يا حكيم الأرباب يابطل ، كيف تهور وتأمر بالطوفان ؟ — إنما تقع الخطيئة على مرتكبها ، وعلى الباغى تدور الدوائر ، كن رحيما وإلا قطع . . . ، كن صبوراً وإلا أقصى . . .

أما كان يخرج أسد فيقلل الناس عوضاً عن الفيضان ؟

أما كان يخرج ذئب فيقلل الناس عوضاً عن الفيضان ؟

أما كانت تحدث مجاعة فتقلل الناس عوضاً عن الفيضان ؟

لست أنا من يفشى سر الأرباب الكبار . لقد جعلت أتراخا سيس (حكيم الحكماء أى أوتانبشتيم) يرى رؤيا كشف فيها سر الأرباب ، فاقض فيه إذن !

(ولا يبعد أن الراوى أراد أن يعبر بمثل التساؤلات السابقة عما فى ذهنه أو فى عصره عن حكمة ربه فى إرسال الطوفان الذى أوشك أن يهلك كل البشر) .

وعند ذاك خرج إنليل من السفينة وأمسك يدى وأخرجنى وأخرج زوجتى وجعلها تركع بجانبى ، ووقف بيننا ولمس جبهتينا ليباركنا ، وقال : لم يعد أوتانبشتيم بشراً ، سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب ، وسيستقر بعيداً عند مصاب الأنهار . فرفعنى الأرباب إلى مصاب الأنهار . ولكن أنت (ياجلجميش) من سيجمع لك الأرباب لينهوك الحياة ؟ قم لاتنم . . . » .

وانقضت ستة أيام وسبع ليال ، وجلجميش قابع وقد غلبه النعاس . فقال أوتانبشتيم لزوجته : « أنظرى إلى هذا البطل الذى يبحث عن الحياة ، لقد استولى عليه النعاس . . . » فقالت له زوجته : « إلمسه لعله يصحو ويعود من حيث أتى » . ولكنه قال لها : « إن الإنسان من طبعه الخداع ، ولسوف يحاول أن يخدعك (أى ينكر أنه نام) ، فقومى إخبزى فطائر وضعيها فوق يافوخه ، وعلمى على الجدار (عدد) الأيام التى نامها » . فخبزت سبع فطائر ووضعتها فوق رأسه (يوماً بعد يوم) ، وعلمت (عدد) الأيام على الجدار ،

نجفت الفطيرة الأولى ، وفسدت الثانية ، وعفنت الثالثة ، وابيضت الرابعة ، واخضرت الخامسة ، وظلت السادسة كما هي ، وعندما وضعت له السابعة صحا وقال لجده : « الواقع أنه قلما ينتابنى النعاس ، وحالما تلمسنى أصحو » . فقال جده : « قم جلجميش وعد الفطائر ولاحظ ما صارت إليه . . . » . وأسقط فى يد جلجميش وعلم بعزم جده على ترحيله ، فقال له : « وما عساى أفعل وأين أذهب وقد خمدت أطرافى ، وفى حجرة نومى يستقر الموت وأينما ذهبت فهو الموت . . ؟ » .

واستدعى أوتانبشتيم نوتيه وأمره بأن يأخذ جلجميش إلى البحيرة ليزيل أوساخه ويحمل المساء عنه أدران جلده وحتى يظهر بهاء جسده ، وأوصاه بأن يزوده بثوب وعمامة جديدين ويساعده على العودة إلى بلده . فنفذ النوتى ما أمره به واستعد للابحار بجلجميش ، ولكن زوجة أوتانبشتيم قالت له بحنان الجدة على حفيدها : « وما عساك معطيه وهو عائد إلى بلده ؟ » فاستدعاه وقال له سوف أعهد إليك بسر ربانى ، نباتا سوف يخزك شوكه مثل الورد (ينبت فى غور البحر) ، ما أن تحرزه حتى تتجدد حياتك . فما سمع جلجميش قوله حتى ربط أحجارا إلى قدميه وغاص بها فى المساء حتى رأى النبات واقتلعه ووخزه شوكه ، ثم حل الأحجار فطفا ، وقال للنوتى « سوف آخذ هذا النبات إلى أوروك وأسميه رجوع الشيخ إلى صباه وسوف آكله بنفسى » .

وبعد ثلاثين مرحلة رأى جلجميش بئراً صافية فأراد أن يتبرد فيها ، ونزل المساء ، ولكن أفعى شمت النبات فاختطفته واختفت به . وربما أراد راوى القصة بذكر اختطاف الحية لسر الأبدية أن يفسر به قدرتها على تجديد جلدها وشبابها الظاهرى كلما أدركها الهرم ولحق البلى بجلدها . وقعد جلجميش يبكى ويندب حظه . . ثم رضخ للأمر الواقع واصطحب الملاح ودعاه إلى زيارة أوروك ، ووصفها له بأن مساحة مساكنها تبلغ ساراً ، وتمتد بساتينها ساراً ، وتمتد حدودها ساراً...وهكذا انتهت القصة إلى مايفيد بأن سنة الموت جارية منذ الأزل وحتى الأبد على كل حى ،وأنه لم يغيرها الا بطالأن أتى جلجميش بالأعاجيب فى سبيل تغييرها ، وأن الخلود اقتصر على الآلهة ولم ينله من البشر غير أوتانبشتيم الذى يكاد يرادف الخضر عليه السلام فى الأقاصيص العربيةالشعبية ، فضلا عن مرادفته للنبى نوح ، وإن كانت القصة العراقية القديمة قد أشركت معه زوجته أيضاً فى نعمة الخلود .

صعود إيتانا إلى السماء :

ورث البابليون عن السومريين من أساطير العبرة التى استخدمت حوار الحيوانات والطيور للتعبير عن فكرتها ، أسطورة ملك من ملوك كيش القدماء كان يدعى إيتانا ويلقب بالراعى(١) ، ثم صاغوها بأسلوبهم فخرجت تصور حكمة القدر فى المنع والعطاء ، وتصور عواقب البغى والصلاح ، وتصور سداد حكمة الصغير عن رأى الكبير أحياناً ، وتصور أمل البشرية القديم الجديد فى إرتقاء الجو إلى عالم السماء .

(١) Th. Jacobsen, *The Sumerian Kings List*, 1939, 80—81 ; Frankfort, *Cylinder Seals*, 1939, 139f.

كان إيتانا من أوائل من نزلت الملكية عليهم من السماء بعد الطوفان ، وقد أوتى من كل شيء فيما خلا نعمة الولد ، وعلم من تنبؤات الكهان أنه لا علاج لعقمه إلا بنبات الإنجاب ، وأنه لا وجود لهذا النبات إلا فى السماء السابعة سماء آنو ، ولمـا طال تضرعه لربه شمش كى يهبه إسما (أى ولداً) يخلد ذكره ، اتخذه شمش أداة لتنفيذ قضاء قديم ، ودله على نسر عجوز مهيض الجناح مثلوب المخالب منبوذ فى حفرة عميقة ، وأمره بأن يعينه حتى يسترد قواه علّه يحمله معه إلى السماء حيث توجد طلبته .

وكانت قصة النسر أنه تآخى مع أفعوان وعقد معه أغلظ الإيمان على الإخلاص ، وأشهدا معا رب الشمس على أن من خان العهد سوف يضل طريقه وتسد الجبال سبيله . وعاشا متجاورين ، الأفعوان فى ساق شجرة والنسر فى قمتها ، وأنجب كل منهما ولداً . وكان للأفعوان نصيب مما يصيده النسر ، وللنسر نصيب مما يصيده الأفعوان . حتى كان يوم دب فيه دبيب الشر فى قلب النسر العجوز فقال لولده إنه يشتهى أن يفترس إبن الثعبان ثم يهجر الأرض ويتخذ سكنه فى السماء . وهنا ذكره ولده الصغير الأريب بقسمه ، وحذره من إنتقام ربه ، ولكنه لم يرعو وأتم جريمته . وعندما عاد الثعبان وافتقد ولده اتجه بشكواه إلى شمش فاستجاب له ربه الذى عز عليه أن يحنث النسر بقسمه باسمه ، ووعده بأن ييسر له قتل ثور برى بين الجبال ، وأن عليه أن يبقر بطنه ويختبىء فيه . حتى إذا حط النسر عليه ليأكله تمكن منه وفعل به ما يشتهيه . وحدث ما رسمه شمش ، واتخذ الثعبان مخبأة فى جوف الثور ، وعندما حطت عقبان السماء على الفريسة أقبل النسر معها يسعى إلى نصيبه ، فنهاه ولده الحكيم وحذره أن تكون مكيدة ، ولكنه لم يرعو وإكتفى بأن دار حول جثة الثور عدة مرات حتى استيقن من أنه لا وجود لعدوه الأفعوان بجواره ، ثم ولج بطن الثور يريد أطايبها ، وهنا تمكن الأفعوان منه ، فانهار الغادر الجبان باكياً مستعطفاً ، ولكن الأفعوان واجهه بأنه لامفر من تنفيذ قضاء شمش فيه ، ونتف ريشه وكسر جناحيه وثلم مخالبه ورماه فى حفرة ليلقى حتفه فيها . وحينذاك أعلن النسر توبته لربه ، ولكن لم تفارقه حيلته ، فنادى ربه قائلا : إذا ألقيتنى ها هنا فمن ذا الذى يعتبر بانتقامك منى ؟ أنقذ حياتى ، ولأشيعن ذكرك وقدرتك للأبد » . فأجابه شمش بقوله « أنت شرير ، وقد أسأت إلى ، والآن دعوتنى ، ولن ألبى دعوتك (فى التو) ، ولكنى سوف أرسل إليك فيما بعد من يأخذ بيدك » .

سمع إيتانا هذه القصة من النسر بعد أن عثر عليه كسيراً فى حفرته ،وقص عليه هو الآخر قصته،ثم أطعمه ورعاه حتى استرد قوته واستوى جناحاه . وعندما اعتزم الصعود إلى السماء ، طلب النسر منه أن يلاصقه صدراً لصدر ، وأن يضم ساعديه حول وسطه ويستمسك بريشه ، ثم أقلع به . ولمـا علا به فى أجواء السماء قال له : تطلع ياصديقى إلى الأرض كيف تحولت إلى مجرد ربوة ، وكيف يبدو البحر وكأنه مجرد جدول . وطفق كلما ارتقى به عالياً نبهه إلى ملاحظة الأرض والبحر وكيف يتناقصان تدريجياً فى مجال الرؤية ، حتى أصبح البحر العريض فى هيئة الدلو وتناقص بعد ذلك إلى هيئة سلة الخبز ثم إختفى عن النظر تماما هو الأرض (وتلك ملاحظات بارعة من القصاص بغير شك) . ولمـا أوشكا بلوغ المنتهى ، اختلفت الروايات فى مصيرهما ، فروت إحداها أنهما بلغا سماء آنو ووقفا عند مدخلها وأديا التحية ثم صمتت .

بينما روت أخرى أن النسر أجفل عندها وارتعد وهوى بحمله سريعاً مرحلة إثر مرحلة حتى سقطا على الأرض ، أرض آنو ، من حيث طمعا أن يدخلا فى سمائه (١) .

وأخذت بجوار الحيوانات والزواحف والطيور أقاصيص أخرى ، بعضها سومرى محور ، وبعضها بابلى مستحدث . وكانت منها أقصوصة ألاعيب الثعلب ذلك الذى تطلع إلى ربه إنليل ووعده بأنه سوف يضحى له بكل عائلته ويصلى له إن هو وهبه قروناً ، ثم مكر بذئب وكلب ، وتحاكموا جميعاً وتفاخروا أمام ربهم(٢) (على عادة الأساطير السومرية القديمة فى التحاكم أمام الأرباب وأولى الرأى) . وقصة الثعلب والسيسى . ثم محاورة الأثلة والنخلة ذات المقدمة الميثولوجية السومرية ، وتفاخرهما فى قصر أول ملوك ما بعد الطوفان، على أيهما أنفع وأبهى . ومحاورة الصفصافة وشجرة الغار(٣) ، فى صورة ظهرت لها أشباهها فى كثير من الآداب القديمة ، مثل الأدب المصرى القديم . وتضمنت الآداب البابلية عدداً من الأمثال والعبارات المرحة جمعت بين الحكمة وبين الفكاهة .

وعلى أية حال فإنما يتضح من سياق الأساطير البابلية السابقة ، شيء قريب مما عقبنا به على الأساطير السومرية ، وهو أن براعة أهلها فى التخيل والرمز لم تستطع أن تجنبهم الاعتراف بنوازع السوء فى بعض أربابهم ، أو فى عناصر بيئتهم والأرباب المتحكمين فيها بمعنى أصح ، فأب يريد أن يدمر أولاده وإيا يقتل جده ، وتيامة تحارب أحفادها ، ثم تلقى حتفها على يد واحد منهم . وفى قصة جلجميش رأينا كيف حقدت إشتار على جلجميش وصديقه وكيف أجبرت أباها على أن يرسل فحلا على الأرض بعذاب شديد . وفى قصة الطوفان رأينا كيف أنكر بعض الأرباب أفعال بعض آخر ، وفى قصة أخرى يسرق رب الطير « زو » ألواح القدر من أربابها فيجمعون أمرهم على الإنتقام منه وتثور ثائرتهم ضده (مثلما استولت إنانا السومرية على ألواح القدر بالخديعة من إنكى فى الزمن القديم) . وزادت أساطير الدين فصورت «سين» رب القمر البابلى يعشق إحدى بقراته فينقلب ثوراً وينكحها سراً . وصورت آنو إله السماء يطرد إبنته « لاماشتو » من السماء إلى الأرض لسوء سلوكها . وقد تكون فى هذه وتلك رموز دينية أو قومية لا ندركها ، ولكنها لا تخلو على أية حال مما يدل على أن الآداب فى كل عصر لا تبرأ من الغث إلى جانب الثمين ، وعلى أن عوامل الصراع والعنف فى البيئة العراقية القديمة أثرت فى تصورات الساميين كما أثرت من قبل فى تصورات السومريين وإن أصبحت فى عهودهم المتحضرة أخف أثراً بكثير(٤) .

---

(١) S. Langdon, *Babylonica,* XII (1931), 1 f. ; E. Ebeling, *A.f.O.,* XIV (1944), 278 f. ; E.A. Speiser, Akkadian Myths and Epics, *ANET,* 114 f. ; R. Williams, *Phoenix,* X (1956), 70 f.

(٢) Lambert, *op. cit.,* 186 f. and References.

(٣) *Ibid.,* 151 f., 164 f., 175 f., 221 f. ; R. D. Biggs, *ANET,* 592 ; Saggs, *The Greatness that was Babylon,* 444 f.

(٤) *See,* Langdon, *Semitic Mythology,* 97 ; Landsberger, *JNES,* XIV, 14 ; *Babylonian Inscriptions* ... , IV, 126 ; Lambert, *op. cit.,* 5 f.

ومع ضخامة الدور الذى قامت به بابل الأولى فى تاريخ العراق وحضارته إلا أن ما عثر عليه حتى الآن من آثارها لازال أقل بكثير مما كان يتوقع منها ، بل وأقل نوعا مما جادت به أرض مدن تاريخية أخرى مثل لارسا وأور وسيبار ونيبور وكيش . وعاق اتساع البحث الأثرى فى أرض بابل ارتفاع مستوى المياه الجوفية فيها ، وكثافة رواسب الطمى بها وكثرة تغير مجرى نهر الفرات وقنواته حولها — ولم تكن المعرفة التاريخية بها فى بعض العصور الكلاسيكية أفضل من ذلك بكثير ، حتى لقد أغفل المؤرخ هيرودوت فى القرن الخامس ق.م اسم حورابى أكبر ملوكها الأوائل إلى أن أحياه العثور على نصب تشريعاته وقراءة بنودها فى أوائل القرن الحالى .



الفصل الثامن عشر

العصر الكاسى (أو الكاشى)

(١٥٨٠ – أواخر القرن ١٢ ق.م)

تمهيـــد :

تعرض الشرق الأدنى منذ ما قبل عهد حمورابى فى أوائل الألف الثانى ق.م لأخطار جماعات هندوآرية تدفقت على أطرافه من أواسط آسيا وأقدمت على مثل ما أقدمت عليه هجرات وغزوات الهكسوس إلى الشام ومصر القديمة ، من حيث بدايتها على هيئة تسللات قبلية بسيطة تتابعت على أجيال طويلة ، ثم أعقبتها هجرات عنيفة بقضها وقضيضها تفرقت فيما وجدت سبيلها ميسراً إليه من مناطق آسيا الصغرى وشمال بلاد النهرين وشمالها الغربى ومن الشام ثم شمال مصر . وقد تقدم كيف عرفها التاريخ بعد استقرارها فى كل بلد من هذه البلاد باسم خاص ، فعرف أهلها فى آسيا الصغرى باسم الخاتيين (ثم باسم الحيثيين) ، وعرفهم فى المناطق الشمالية الغربية من نهر الفرات باسم الحوريين (أو الخوريين) ، وعرفهم فى مرتفعات بلاد النهرين باسم الكاسيين (أو الكاشيين) ، وكان الإسم الأخير فيما يحتمل إسماً لجماعات آسيانية قديمة نزلوا عليها وأدمجوها تحت نفوذهم . وقل مايعرف عن المقر الأول أوالموطن الأول للكاسيين الأصليين ، وثمة آراء تردهم إلى المرتفعات الشرقية ، وتنسب اسمهم إلى إسم معبودهم كاشو ، وتربط بينهم وبين جماعات متأخرة عنهم فى الزمن ذكرها بطلميوس الجغرافى باسم Kossaeans وذكرها غيره باسم Kissians (١) .

وأحست دولة بابل بتسللات الكاسيين والحوريين والخاتيين أيضاً ، ولكن أقربهم خطراً عليها كانوا الكاسيين الذين أدوا فى مرتفعات العراق دور الجوتيين القدماء . واستطاعت جيوش حمورابى وجيوش خلفه سمسو إيلونا أن ترد خطرهم ، فانكسرت حدتهم إلى حين ، واكتفوا بالتسلل السلمى البطىء إلى مدن العراق المتحضرة وعملوا فيها أجراء مرتزقة ، بينما ظلت قبائلهم الكثيفة الطامعة فى الخيرات والسيطرة تتربص بدولة بابل الدوائر . وأحاطت الدوائر ببابل من عاملين : عامل داخلى وآخر خارجى . فقد انشق على الدولة فى الداخل أهل مناطقها الجنوبية ، وكانوا فيما يبدو خليطاً من ذرارى السومريين ومن قبائل أمورية مهاجرة ، وعمل هؤلاء شيئاً فشيئاً على استصلاح أراضى المناقع القريبة من مصاب النهرين ليكون لهم منها موطن جديد ، وكونوا لأنفسهم دولة ناشئة عرفها التاريخ باسم دولة البحر (أو أرض أوروكوج) نظراً لقربها من سواحل الخليج العربى ، وظهر خطرهم كدولة فيما مر بنا منذ أواخر عهد سمسو إيلونا البابلى ، وربما نجحوا فى ضم

(١) cf. Sidney Smith, *Alalakh and Chronology,* 21 f. ; R. Girshman, *Iran,* Pelican Series, 65.
فيصل الوائلى : الكاشيون .

نيبور المدينة الدينية القديمة إلى حوزتهم ، فحاربت جيوش سمسو إيلونا جيوش ملكهم إيليما إيلوم مرتين بغير نتيجة حاسمة . واستمر خطر هذا الملك الأخير في عهد إبيشوم البابلي (خليفة سمسو إيلونا) الذي حاول أن يستعين على هزيمة جيشه بإقامة سد في مجرى نهر دجلة يؤدي إلى إفاضة مائه أو ماء فيضانه على دولته ، ولكنه فشل في الإنتصار عليه(١) . وهكذا استمرت عوامل الشقاق الداخلي تعمل عملها في تفتيت جسم الدولة البابلية .

وبدأ الخطر الخارجي على دولة بابل من قبل الخاتيين (الحيثيين) الذين تكررت اعتداءاتهم على حدودها القريبة منهم ، ثم ازدادت غاراتهم شدة عليها بتقادم عهدها وتفاقم مشاكلها الداخلية حتى استطاعوا في عهد ملكهم مورسيل (أو مرسيلي) الأول أن يحتلوا عاصمتها نفسها وغنموا كنوزها ودمروها تدميراً هائلا حوالي عام ١٥٩٥ ق.م ، وقضوا على استقلالها في عهد ملكها الحادي عشر (سمسو ديتانا)(٢) ، ولا زالت بعض آثار تدميرهم ماثلة حتى الآن . وحاول الخاتيون أن يمتلوا في جنوب بلاد النهرين ، ولكن وقفت في سبيلهم دولة البحر الناشئة وكسرت شرتهم لاسيما بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين وطنهم . ولهذا لم يجد التاريخ بأساً من أن يحتفظ لهذه الدولة (دولة البحر) بذكرى طيبة فأطلق على أسرتها الحاكمة اصطلاحاً أسرة بابل الثانية .

ولم تطل إقامة الخاتيين (الحيثيين) في بابل ، ونزحوا عنها بعد أن أضعفوا شأنها في عالم الحرب والسياسة . وربما تركوا فيها حامية قليلة ، فخلا المجال للخصمين الآخرين ، دولة البحر والكاسيين . وكانت دولة البحر أسبق إلى الاستفادة من الوضع القائم ، وشجعها أنها ساهمت في تخفيف قبضة الخاتيين على بابل . . . ولكن المهمة كانت فوق طاقتها ، ولم يطل أمد استقرارها هي الأخرى ، واضطرت إلى أن تواجه أطماع الكاسيين الذين مالت كفة النصر إلى جانبهم في عهد زعيمهم جانداش الذي أعلن نفسه ملكاً على بابل والأركان (أو الأقاليم) الأربعة وسومر وأكد ، وبدأت منذ ذلك الحين أسرة مالكة جديدة عرفت اصطلاحاً باسم أسرة بابل الثالثة .

واستمرت دولة البحر قائمة لبعض الوقت في بداية عصر الكاسيين ، ونسبت الحوليات إلى أحد ملوكها الأواخر « إيا جيل » مهاجمته لأرض عيلام ، ولكن الكاسيين استمروا يوجهون هجماتهم عليها حتى قضوا على استقلالها .

ساد الكاسيون جزءاً كبيراً من العراق ، ولكن أعدادهم كانت قليلة ، وحضارتهم القومية كانت خشنة ضئيلة ، فاكتفوا بأن جعلوا أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة بين السكان الأصليين وانتفعوا بحضارة بلاد النهرين وقلدوا فنونها في مبانيهم ومعابدهم وتماثيلهم ، واعتبروا اللغة البابلية السامية لغة الكتابة الراقية إلى جانب لغتهم الخاصة . وكان كل ما أضافوه إلى حضارة بلاد النهرين هو أنهم أدخلوا إليها سلالات جديدة من خيول سهوب آسيا طغت شيئاً فشيئاً على سلالة السيسى القديمة وأنواع الحمير الجبلية ، وغيروا

(١) *See*, *ANET*, 271; Ebeling, *AOT*, 337.

(٢) *ANET*, 271.

بعض وحدات الأوزان والمقاييس (شأنهم شأن الهكسوس فى مصر) . وكان من التطورات اليسيرة التى لحقت بصناعة الأختام الأسطوانية فى عصرهم كثرة صناعتها من اليشب وبداية صناعتها من العقيق اليمانى وكثرة تسجيل دعوات التعبد وتمجيد الأرباب عليها على حساب صور الأشخاص والأشياء . ثم دخلت صناعة الحديد إلى العراق فى النصف الأخير من عصرهم .

وأرخ الكتبة الكاسيون بسنوات حكم ملوكهم(١) ، بعد أن كان أهل العراق يؤرخون بالأحداث الرئيسية أكثر من غيرها . وشاد بعض ملوكهم مدناً جديدة نسبوا بعضها إلى أنفسهم ، وأخصها مدينة دور كوريجالزو أى مدينته أو حصنه ، وهى عقرقوف الحالية التى تبعد عن بغداد بنحو عشرين ميلا (٢) .

وجرى الملوك الكاسيون على السياسة القديمة فى منح الإقطاعيات العقارية للمقربين إليهم من العسكريين والمدنيين ويبدو أنهم حرروا ملكيتها بحيث أصبحت أشبه بالأملاك الخاصة لأصحابها ، لاسيما بالنسبة لأفراد الطبقة الكاسية الحاكمة . ومن الوثائق الطريفة التى احتفظت بأسلوب منح الإقطاعيات والإعفاءات فى عصرهم هبة سجلها ملك كاسى يدعى « مليشيباك » باسم إبنته وإبنه ، ومنح كلا منهما بمقتضاها إقطاعية واسعة فى أرض البحر بعد أن استصلحها أعوانه وأعدوها للزراعة وأنشأوا فيها قرى جديدة . وشفع الملك تفاصيل هذه الهبة بإعفائها من التكاليف التى تفرضها دولته على مناطقها الزراعية ، وهى تكاليف عرفتها بلاد النهرين قبل عهده بعصور طويلة ، ويفهم من قراراته بشأنها أن الدولة كانت تحصل على جزء من باكورة المحاصيل الزراعية ، وتستخدم مواشى الإقطاعيات لمصلحة أراضيها الزراعية الخاصة حين تشاء ، وتسخر العمال الزراعيين فى خدمة المرافق الملكية والمرافق العامة مثل شق الترع وتطهيرها وتشييد جسورها وقطع الحشائش المائية والأعشاب البرية ، وهى إجراءات اعتادت عليها أغلب الحكومات القديمة .

واتسعت الصبغة الإقطاعية فى الدولة إلى حد يمكن اعتبارها معه ممثلة للعصور الوسطى البابلية ، وكان من مظاهرها بين الطبقات العادية توارث الحرف بين أسر وطوائف معينة ، يذكر الشخص فيها فى نصوصه باسمه واسم أبيه ثم ينسب إلى حرفته ، وذلك مما سمح بتتبع أصول بعض الأسر الحرفية فيها لبضعة أجيال ، وكانت منها أسر للكتبة ارتبطت بالمعابد أكثر مما ارتبطت بغيرها وكان لها الفضل فى نسخ كثير من الألواح الدينية والأدبية القديمة (٣) .

وعبد الكاسيون أرباب بلاد النهرين إلى جانب أربابهم القوميين ، بأسمائهم القديمة أحياناً وبمسميات آرية أحياناً أخرى (٤) . واعتز أحدهم (أجوم) بأنه أرجع تمثال مردوك وتمثال زوجته زربانيتوم من دولة

---

(١) cf. Albert, T. Clay, *Documents from the temple archrives of Nippur dated in the reigns of Cassite Rulers*, 1926; A. Poebel, *Assyriological Studies*, 15.

(٢) *Iraq*, Supplement, 1944, 1945, *Iraq*, VIII (1946), 73 f.

(٣) Lambert, *op. cit.*, 13.

(٤) Sabatino Moscati, *The Face of the Ancient Orient*, 1961, 154.

هانا بعد أن اغتصبتهما خلال فترة الفوضى التى عمت بلاد النهرين فى أعقاب الغزو الحاتى ، وأعادهما إلى إساجيل بابل فى احتفال مهيب (١) .

واتبع الملوك الكاسيون سياسة ملوك العالم القديم فى اكتساب ولاء كبار رجال الدين وتأكيد القربى من الأرباب عن طريق منح الهبات والإقطاعيات للمعابد وإعفائها من الضرائب ، وكانوا يمنحون بعض هذه الهبات من خزائنهم ويسجل كتبتهم تفاصيلها على نصب حجرية صغيرة تسمى كودورو ، إلى جانب تسجيلها على ألواح الطمى العادية . واستغل الفنانون سطوح هذه النصب لتصوير هيئات ملوكهم أصحاب الفضل فى منح الإقطاعيات ، تصويراً مختصراً حيناً ، وتصويراً يفسر ملامحهم وملابسهم وأغطية رؤوسهم حيناً آخر (٢) . كما استغلوها لتصوير رموز أربابهم الذين أشهدوا على منحها ووضعوها تحت رعايتهم . ومن هذه الرموز رموز حيوانية تصرف الفنانون فى تشكيل صورها ، ورموز أخرى معمارية صورت واجهات الهياكل والمقاصير البدائية ، وذلك مما جعل منها مصدراً من مصادر المعرفة بعمارة المعابد الأولى . وزاد بعض الفنانين فضمنوا نقوش هذه النصب مناظر أسطورية كانوا يستهدفونها لذاتها ومضمونها حيناً ، ويستغلونها لغرض الزخرف وملء الفراغ وإظهار البراعة فى التخيل والتصور حيناً آخر .

وتابع الكاسيون عادة الغزاة محبي الاستقرار فى اتخاذ رعاية المعابد ستارا ينسى الناس أصلهم الدخيل القديم . فأصلحوا معابد بابلية كثيرة وأعادوا بناءها ، وبقيت من آثار معابدهم الجديدة أطلال زقورة ضخمة بجانب قصر الحكم فى عاصمتهم دور كوريجالزو (عقرقوف قرب بغداد) ، أدت إليها ثلاثة طرق صاعدة ذات درجات ، على مثال زقورة أور(٣) . وأطلال معبد فى الوركاء للمعبودة إنانا يؤرخ عهده بأواسط القرن الخامس عشر ق.م(٤) .

وانضافت إلى عمارة المعابد فى عصرهم تطورات وتجديدات تناولت محاور مقاصيرها الرئيسية وتشكيل الواجهات الخارجية . فامتازت عمارة معبد الوركاء بتدعيم أركانه الخارجية بأكتاف ذات مستويين لم تمارسها بلاد النهرين إلا قبيل عصورها التاريخية ثم هجرتها . وإمتازت بعض الدخلات والمشكاوات الخارجية للمعبد نفسه بتحوير زخارفها تحويراً محدثاً عن طريق إستغلال بطونها فى بناء تماثيل أرباب وربات من قوالب اللبن بحيث تبرز من جسم البناء نفسه ، مع تشكيل رأس كل معبود وجذعه الأعلى تشكيلا كاملا والإكتفاء بتشكيل الخطوط العامة لبقية جسمه على هيئة الثوب الطويل المحبوك ، وتشكيل لبنات هذا الثوب بما يرمز إلى مدرجات الجبال بالنسبة للأرباب وتموجات الماء بالنسبة للربات . واستغل بناء المعبد المسطحات الفاصلة

(١) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – ص ٥٢

(٢) Frankfort, *The Art* and *Architecture*..., pl. 71.

(٣) أنظر سومر ١٩٦١ *Ibid.*, 63; *Iraq*, 1944, 1945, 1946.

(٤) Frankfort, *op. cit.*, Fig. 23.

بين كل دخلة أو مشكاة وأخرى لتشكيل زخرف مستحدث على هيئة خطى زجزاج رأسين متقابلين يعبران عن سلسولى ماء ويصبان فوق جبلين (؟) ، وأحاط المشكاوات بأطر علوية وسفلية تعاقبت فيها حليات على هيئة الأقراص والدوائر . وكان ذلك كله بدعاً فى عمارة بلاد النهرين(١) . وأضافت العمائر المدنية الكاسية تجديداً آخر تمثل فى بناء صفات ذات أعمدة حول أفنيتها الكبيرة ، وظهر لها ما يماثلها فى عمائر الحيثيين فى بلاد الأناضول . وذعت هذه الظواهر والتجديدات فى العمائر الدينية والمدنية إلى احتمال دخول الكاسيين بفكرتها من بيئاتهم الأصيلة القديمة(٢) .

ولم تخل الفنون التشكيلية الكاسية ، من نماذج طيبة وإن كانت قليلة للغاية ، ومن هذه النماذج رأس صغيرة للبوة من الطين المحروق(٣) يعتبر من روائع الفن القديم فى تمثيل شرطة العين وتجويفها وتكوين الفم والأنف والتعبير عن شعيرات الوجه ، بخطوط بسيطة متمكنة . ورأس صغيرة من الطين المحروق الملون أيضاً(٤) ، لرجل مثلته بأنف أقنى بعض الشيء ، وأجادت التعبير عن بروز شفته العليا عن السفلى ، وعن تصفيف شعره .



سارت العلاقات الخارجية السلمية للدولة الكاسية فى نطاق عادى محدود . فسارت قوافلها التجارية فى مساراتها التقليدية مع بلاد الشام ومصر ، وكانت النصوص المصرية قد ذكرت إسم بابل مرتين على الأقل خلال عصور الدولة الحديثة حتى عهد تحوتمس الثالث(٥) ، ثم أغفلته ، ربما بعد إنتقال أزمة الحكم إلى الكاسيين ، واستخدمت بدله كلمة سنجار لمدلول يتسع عن المدلول الإقليمى لكلمة بابل (كما تذكرت إسم جبل سنجار ، وهو جبل يقع غربى الموصل)(٦) . واكتست العلاقات المصرية البابلية بطابع الصداقة الشخصية خلال القرن الرابع عشر ق.م . وتمخضت هذه الصداقة عن مصاهرة البيتين الحاكمين أكثر من مرة ، ومما يذكر فى هذا زواج أمنحوتب الثالث بابنة الملك البابلى كاردونياش وطمعه فيما بعد فى الزواج من بنت أخيها كادشمان خاربى (أو كادشمان إنليل) ، مع ضنه فى الوقت نفسه بتزويجه إحدى بناته أو إحدى

(١) *Erster vorl. Bericht…, Uruk-Warka*, 1929, 30 f.; Frankfort, *op. cit.*, pl. 70 *A*.

(٢) *Ibid.*, 64.

(٣) *Ibid.*, pl. 70 C. — وارتفاعها نحو ٥ سم .

(٤) *Ibid.*, pl. 70 *B*. — وارتفاعها نحو ٧ سم .

(٥) وذكره أحد النصوص المصرية باسم ببر (ولم تكن الحروف الهجائية المصرية تتضمن حرف اللام وإنما تعبر عنه بالنون والراء أو بإحديهما) .

See, Urk., IV, 668, 12.

(٦) Gauthier, *Dict. Géog.*, II, 20 f.; Meyer, *Festschrift fur Ebers*, 63 f.; Muller, *Egyptian Researches*, II, 92.

وتميز اسم سنجار هنا عن اسم يماثله ورد فى نصوص تحوتمس الثالث كذلك للدلالة عن منطقة فى شمال قادش قرب نهر العاصى .

أميرات بيته الفرعونى المالك . وعندما اضطرب حبل الأمن بين الأموريين والكنعانيين فى الشام خلال عهد الفرعون المصرى آخناتون ، وتأثرت المتاجر البابلية بفوضى الطريق فى أرض كنعان ، لم يجد الملك الكاسى البابلى غير الفرعون المصرى يستصرخه لتأمين تجارته ويقول له « كنعان أرضك ... وأمراؤها مواليك » وأرسل له مع رسالته هدية ثلاث مينات من اللازورد وخمسة جياد وخمس عربات (١) .

وظل الكاسيون يؤلفون الطبقة الحاكمة فى قلب العراق ما يقرب من خمسة قرون (من أوائل القرن ١٦ إلى أواخر القرن ١٢ ق.م) ، ولم يجد المؤرخون بأساً فى أن يعتبروا أسرتهم ، فيما أسلفنا ، الأسرة البابلية الثالثة ، على الرغم من أنهم كانوا أغراباً فى أصلهم عن بابل . ولكن لم يخلص لهم أمر بلاد النهرين تماماً خلال قرونهم الخمسة ، ففضلاً عن دولة البحر التى نازعتهم السيادة على المناطق الجنوبية فى بداية عصرهم حتى تغلبوا عليها ، تحكم الأشوريون فى المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من نهر دجلة ، وتحكم الحوريون فى المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر الفرات ، بغير حدود صريحة فاصلة بين إمتداد هؤلاء أو هؤلاء . ثم ظهر بعدهم الميتانيون .

مع آشور :

يرد تاريخ آشور مفصلا فى فصل تال من هذا الكتاب ، ويكفى أن نجتزىء الآن منه مايعاصر الكاسيين ولم تكن آشور ذات شأن كبير فى بداية الأمر ، بحيث اقتطع الحوريون جزءاً من أرضها ، وعاملها الكاسيون على حذر . وحدث أن تصاهر البيتان الحاكمان فى آشور وبابل لبعض الوقت ، فتزوج الملك البابلى (كاروندداش) من إبنة الملك الأشورى (أشور أو باللبط) ، وجعل ولدهما ولى عهده ، فعز على الأمراء الكاسيين أن يسرى الدم الأشورى فى عروق وريث عرشهم ويصبح ذلك سبباً لتدخل الأشوريين فى شئون دولتهم ، فاغتالوا ولى العهد وولوا غيره مكانه . ولا تعنينا هذه المصاهرة وذاك الاغتيال من حيث هما حادثان فرديان ، ولكن تعنينا دلالتهما على عدم توافر الثقة بين الدولتين . وحدث أن خرج الأشوريون عن نطاقهم الإقليمى ، وأوفدوا سفارة إلى الفرعون المصرى آخناتون ، فاحتج الملك البابلى على هذه الجرأة وكتب إلى الفرعون المصرى بأنه لم يكن يحق للأشوريين أن يتصلوا به اتصالا مباشراً وأنه لا يزال يعتبرهم من أتباعه . ويضيف ديلابورت أن الملك الأشورى كان قد غار من إهداء الفرعون إلى توسراتا الميتانى عشرين وزنة من الذهب ، وتساءل عن سبب عدم حظوته بمثل هذه المعاملة .

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٥٥ .

مع الحوريين (أو الخوريين) :

يعتبر الحوريون أو الخوريون فرعا من الهجرات التي ارتبطت مواطنهم الأولى بالمرتفعات ، وإن صعب تحديد أصولهم الجنسية واللغوية تحديداً مرضيا حتى الآن . وغالباً ما أرتجع تعريفهم الشائع إلى تعبيرات خور ، وخور — ردو ، و خور — رو م ، الخ . ومن أهم المناطق التي نسب الباحثون المحدثون نشأتهم إليها أوركيش (أو أوركيس) قرب أراضي الجوتيين القدماء ، مع افتراض صلة ما بين لغتهم وبين لغة المناطق المحيطة ببحيرة فان والتي شغلت جزءا منها فيما بعد دولة نايرى وأورارتو ، حيث تشابه اثنان على الأقل من معبوداتها مع معبودين حوريين وهما تيشوب وشيميجى . وتعددت الفروض بالتالى لإرجاع ظهور الحوريين فى العراق وما حوله إلى مايعاصر أواخر العصر السومرى القديم (فى القرن ٢٣ ق.م) ، أو إلى عصر الإحياء السومرى (فى القرون ٢١ — ١٩ ق.م) ، ولكن دون ترجيح لأيهما(١) . ثم تأكد كيانهم الاجتماعى فيما عاصر دولة بابل الأولى ، ودولة مارى ، ودولة آشور فى عصرها القديم . وظهرت بعض مسمياتهم ومعتقداتهم فعلا فى نصوص مارى ومصادر خاتى (أوالحيثيين) ، وذلك مما يحتمل معه إرجاع وضوح هجراتهم إلى المشرق إلى القرن ١٨ ق.م أو ماهو قريب منه(٢) . وحينما تخلخل شأن هذه الدول نسبياً واحدة بعد أخرى انفسح المجال أمام الحوريين للانتشار فى بلاد النهرين حتى أرانجا (كركوك) ، ونوزى (يورجان تبة) جنوب شرق نينوى ، كما امتدوا غربا فى المناطق السورية حيث شاركوا الجماعات السامية فى ألالاخ ويمخد (حلب وتل العطشانة) ووضحت الصبغة الحورية هناك خلال القرن ١٧ ق.م(٣) . ولو أن هذا الامتداد كان فيما يغلب على الظن امتدادا تجاريا وتسربا سلميا يرتبط بالنفوذ الاقتصادى والحضارى أكثر مما يرتبط بالنفوذ الحربى أو السياسى . وقد اختلطت عقائدهم بعقائد سومر وأكد من ناحية ، وعقائد الشام من ناحية أخرى ، وكتبوا لغتهم الحورية بالخط المسمارى العراقى القديم ولم يكونوا بغير أثر فى الحياة العامة للجانبين .

وكان من أهم المعبودات الحورية تيشوب رب الجو والرعد والعواصف المطرة ، وزوجته خبا أوخبات ، وشيميجى رب الشمس ، وأوشوم رب القمر ، وشاوش (أو شاوشكا) ربة الزهرة .

---

(١) cf. E.A. Speiser, *Introduction to Hurrian*, New Haven, 1940, 1941; I. J. Gelb, *Hurrians and Subarians*, Chicago, 1944; A. Goetze, *JNES*, II, 1946, 168; ; S. Smith, *Antiquity*, XVI, No. 64, 1942, 321; A. Parrot, *RA*, 42, 1948, 170.

(٢) See S. Moscatti, *op cit.*, 189; Thureau-Dangin *RA*, 1939, 1 f.; A. Pohl, Khurriti, *Encyclopaedia Cattolica*, VI, Citta del Vaticano, 1951, coll. 15511—12.

(٣) D. J. Guterbock, in *Cahiers d'Histoire Mondiale*, II, 2, 1954; A. H. Gardiner, *AEO*, 1947, I, 185.

وعرف المصريون القدماء أقرب مناطق الحوريين إليهم بمترادفات : نهرى ، ونهرن ، ونهرينا(١) ، وعرف البابليون المنطقة نفسها باسم « ماتونخريما » (وماتونارِيما) . وليس ما يعرف إن كان الاسم المصرى « نهرينا » ومرادفه البابلى « نخريما » ، يدلان على معنى « أرض النهر » ، أى على (بعض) أرض الفرات ، أم يدلان على صيغة التثنية لنهرين معينين ويعنيان بذلك ما يمتد بين نهر الفرات وبين فرعه نهر الخابور . وعلى أية حال فقد عنت النصوص المصرية بكلمة نهرن ومترادفاتها أراضى تمتد حول ضفتى الفرات .

مع الميتـــان :

وفدت على الحوريين وافدة جديدة من بنى عمومتهم الهندوآريين من أواسط آسيا خلال القرن السادس عشر ق.م . وعرف هؤلاء الوافدون باسم متن ومايتنى أو الميتان والميتانيين ، وذكرت النصوص المصرية بلادهم باسم « تاومتن » واسم « خاسوبت متن » ، أى أراضى متن ، وبرارى (أو أقطار) متن . وقد أخذوا بالنظام الفيدرالى الذى إعتاده أغلب الهندوآريين ذوى الأصول القبلية أو الرعوية ، وهو نظام كان يجعل السيادة فى أيدى طبقة أرستقراطية من النبلاء الفرسان المحاربين يتميزون باستخدام الخيول والعربات الحربية ويسمون « ماريانو » ، ويعتبرون أنفسهم أقراناً بعضهم لبعض ويعتبرون ملكهم رأس أقرانه .

واشـــتهر من أسمـــاء ملوكهم : شوتارنا (١ — ٣)، وشوشتتانار ، وأرتاتاما، وتوشراتا ، . . . إلخ . وذكرت النصوص المصرية أقدم ملوكهم المعروفين باسم شوشاتار .

كما ذكرت من أسمـــاء الأميرات والأمراء ذوى الأصـــول الحورية والهندوآرية الخليطة تادوخيا ، وجيلوخيا ، وعبدوخيا ، إلخ .

واتخذ الميتانيون عاصمتهم فى مدينة تسمى واسوكانى (أو اشركانى) ، وهى مدينة صعب تحديد مكان أطلالها وإن ذهب الظن إلى تقريبها إلى تل الفخارية على نهر الخابور قرب رأس العين شرقى تل حلف وحران . وعملوا على أن يسودوا الحوريين ، وربما نجحوا فى ذلك منذ أوائل القرن ١٥ ق . م وجعلوا أغلبهم من رعاياهم ، كما دفعوا فريقاً منهم إلى أطراف الشام حيث تضمنت الرسائل المسمارية لأمراء جنوب الشام المرسلة إلى البلاط الفرعونى فيما بعد أسماء قريبة من الأسماء الحورية وأخرى تجمع بين الحورية والسامية .

واحتفظ الحوريون والميتانيون بخاصة من المعبودات الهندوآرية بالمعبودات إندرا ، وفارونا ، وميترا ، وسوما ، وقايا ، وتيشوب ، وهبة ربة الشمس أيضاً ، ولكنهم كالعادة جمعوا إليهم بعض معبودات بلاد النهرين ، لا سيما إشتار التى صورتها الأساطير تناصر الخير وتقف فى وجه مارد شرير يدعى خيدامو ، كما جمعوا بين الخط المسمارى والأسلوب الحورى والمفردات الميتانية .

---

(١) *Urk. IV*, 697, 3—4, *Wb*. II, 286, 11 ; *ZAeS, LXIX*, 24 f.; Davies, *Tombs of Two Officials,* pl. 28; *Urk. IV.*, 891, 8; 710, 4, 15; 711, 5; Papyrus Anastasi, IV, 15, 4.; Gardiner, *op. cit.*, I, 171 f.

واتسع نفوذ الميتان فى مثل ما انتشر الحوريون فيه من أواسط العراق والشام ، من-أرانجا شرقاً إلى ألالاخ غرباً ، وضغطوا لفترة ما على نشاط جيرانهم الأشوريين والحاتيين . وربما جرى الاصطلاح على تسمية أراضيهم والمناطق الخاضعة لها باسم خانى جالبات وتسمية المملكة بعد اتحادها بمملكة ميتانى ، فضلاً على وجود جماعات من فرسانها الماريانو فى قوات دويلات أخرى ، وهو ما أغرى دولة الميتان إلى التطلع على أن يكون لها ضلع فى زعامة الشرق ، فنازعت مصر فى زعامتها التى حققتها لنفسها منذ عهد تحوتمس الأول فى أوائل دولتها الحديثة حين امتد نفوذها فيا بين الشلال الرابع جنوباً وبين ضفاف الفرات شمالا بشرق منذ أواخر القرن ١٦ ق. م. ومر بنا فى ص ٢٢٩ وما بعدها كيف تجرأ الميتان على تنفيذ أطماعهم ، فألبوا بعض ولاة الشام على المصريين منذ أواخر عهد الملكة المصرية حاتشبسوت وخلال أوائل عهد الفرعون تحوتمس الثالث ، وكيف تصدت لهم جيوش هذا الفرعون فى عدة مواقع وأفسدت مشاريعهم ومشاريع حلفائهم ، وكيف استمرت العلاقات بين الدولتين ، مصر والميتان ، علاقات عدائية حتى نهاية عهد الفرعون أمنحوتب الثانى ، ثم مالت كل منهما إلى سياسة التقارب . وليس من المستبعد أن يكون التقارب قد بدأ من ناحية الميتان بعد أن أحسوا باستيقاظ الأشوريين فى شرقهم واستعداد الحاتيين (الحيثيين) فى شمالهم الغربى ، وتمخض التقارب بين الدولتين عن مصاهرة بيتيهما الحاكمين منذ عهد الفرعون المصرى تحوتمس الرابع ، ثم فى عهد ولده أمنحوتب الثالث ، وعهد حفيده آخناتون . واستقرت حينذاك صداقة الدولتين ، وراسل حكامهما بعضهم بعضاً بلفظ الأخوة ، واعتاد كل منهم على أن يسأل الآخر فى رسائله عن أهله وداره وخيوله وأتباعه . وتسامح المصريون مع ديانة أصدقائهم ، ولم ير أمنحوتب الثالث بأساً فى أن يتقبل فى قصره تمثالين صغيرين للمعبودين العراقيين شمش وإشتار أرسلها الملك الميتانى مع إبنته عروس أمنحوتب لتستعين ببركتهما على إقرار حبها فى قلبه ، فضلا على ٣١٧ من النساء والخدم . ولم يجد الفرعون بأساً كذلك فى أن يتقبل تمثالا آخر لإشتار أتاه هدية من صديقه الملك الميتانى ليتبرك به فى مرضه . ويبدو أنه كانت لبلاد النهرين فى جملتها شهرة خاصة فى الطب والسحر تعادل شهرة مصر فيهما ، إذ تكررت نفس الظاهرة مع الحيثيين فى عصر لاحق لهذا العصر ، وطلب الملك الحاتى (الحيثى) موتاللو من معاصره البابلى أن يوفد إليه طبيباً وساحراً ، وإن كان قد طلب نفس الطلب من مصر أيضاً فأرسلت إليه تمثالا لمعبودها رب الشفاء خنسو ومعه كاهن ملازم له . وليس من المستبعد حين يتم الكشف عن عاصمة الميتان القديمة أن يتضح مدى تأثر إنتاجهم الفنى بالفن المصرى القديم . وتتميز من آثارهم المعروفة حتى الآن أوان فخارية لطيفة ذات صبغة صفراء وخطوط سوداء غليظة ورسوم تخطيطية بيضاء . وقد عثر على نماذج منها فى مناطق عدة مثل : نوزى وأشور ونينوى وتل حلف وتل العطشانة (١) .

---

(١) I. J. Gelb, *op.; cit.*, Gelb-and Others, *Nuzi Personal Names*, 1943; R.T. O'Callaghan, New Light on the Maryannu as Chariot-Warrior, *JKF*, I, 3, 1950, 309 f. ; P.E. Dumont, *JAO S*, 67 (1947), 251—252; P. Thieme, *ibid.*, 80 (1960), 306—315.

وعلى أية حال ، فقد ظلت دول الهلال الخصيب تتطلع إلى مصر خلال هذه العهود على أنها أكبر دول الشرق كله ، بحكم ضخامة إمكانياتها المادية والبشرية والفكرية ، وأسلفنا فى بحثنا للتاريخ المصرى (ص ٢٣٨) كيف ظل ملوك هذا الشرق وأمراؤه يرجون فرعون مصر أن يفيض عليهم من ذهبها نظير هداياهم من الأرقاء والجوارى والمركبات والجياد والأحجار الكريمة ، تساوى فى ذلك ملوك الميتان وملوك بابل وملوك آشور ، فضلا عن أمراء الشام وحكام قبرص . وكيف أنه على الرغم من ترحيب ملوك الشرق وأمرائه بمصاهرة أمنحوتب الثالث المصرى ، ظل ضنيناً عليهم بأميرات بيته ، بحجة أنه لم يسبق أن تزوجت أميرة مصرية بشخص أجنبى .

لم يطل أمد السلام الذى حققه الميتان لأنفسهم ، فبدأ الخاتيون ينافسونهم فى المنطقة الشامية العراقية التى تلى الأناضول وتمتد فيما بين الفرات وبين ساحل البحر المتوسط ، وكان لهم ضلع ذات مرة فى إزاحة أحد الملوك الميتان عن عرشه وتنصيب أحد عملائهم وصياً على وريث العرش الصغير . وظلت الحال مائعة بين الدولتين حتى ولى عرش الخاتيين ملكهم الطموح سوبيلوليوما فهاجم بجيوشه أرض الميتان ولكن ملكهم توشراتا استعان بصهره الفرعون المصرى أمنحوتب الثالث فأعانه بجيوش ردت الخاتيين على أدبارهم ، واحتجز الملك الميتانى عربة وخيولا من الغنائم لصهره أمنحوتب المصرى ، وبعض الحلى لأخته (زوجة أمنحوتب) (١) . ثم شغلت مصر مشاكلها الخاصة عن حليفتها ، وعمل الملك الخاتى من ناحيته على تأليب بعض الأمراء الميتان على ملكهم وعلى استمالة ود الأشوريين فى نضاله معهم ، ثم ضرب ضربته فهاجم بجيوشه عاصمة الميتان وكاد أن يقضى على دولتهم لولا أن شغلته عنهم ثورة فى أملاك دولته بشمال الشام ، وعندما انسحب بجيوشه من العراق ، استغل أصدقاؤه الأشوريون تخلخل الموقف لصالحهم ، فاتبعوا طريقته واستمالوا بعض الأمراء الميتان إلى صفوفهم ، وهاجموا العاصمة الميتانية واستردوا منها كنوزاً كان الميتان قد اغتصبوها من أرضهم ، ولكن آشور كانت على الرغم من ذلك لا تزال فى بداية نهضتها ولهذا لم تستمر فى الشوط إلى نهايته . وعادت أزمة الموقف السياسى إلى أيدى الخاتيين وساعدهم ان اغتيل خصمهم الميتانى العنيد توشراتا ، فأجبروا ولده ماتى وازا أو كورتى وازا على عقد معاهدة معهم اعترف فيها بخضوعه لهم على الرغم من أنه كان زوجاً لإبنة الملك الخاتى . وما لبثت دولة الميتان حتى توارت من مسرح الحرب والسياسة حوالى عام ١٣٦٥ ق . م (٢) ، وتشتت أهلها الآريون فى نواحى الأناضول وسواحل الشام ، ولم يعودوا يعرفون باسم الميتان وإنما بالإسم القديم اسم « الحوريين » أو « الخوريين » ، وكان لهم أثر لا ينكر فى نقل ثقافة بلاد النهرين وأساطيرها إلى المناطق التى نزلوها سواء حين قوتهم أم حين تفرقهم .

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٢) L. Delaporte, *Les Hittites*, 93 f. ; A. Goetze, Der Hethiterreich, in *Der Alte Orient*, 1928, 26 f.; *ANET*, 205 — 206, 218.

الأفول حتى نهاية الأسرة البابلية السابعة :

لم تستفد دولة بابل الكاسية كثيراً بزوال الضغط الميتانى عن حدودها ، بل على العكس من ذلك وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام قوتين ناهضتين طموحتين ، وهما دولة آشور ودولة الحاتيين ، فضلا عن دولة إلام (عيلام) منافستها العتيدة .

واستعرضت بابل عضلاتها مع إلام ، وتحدت كل منهما الأخرى ، وروى أن الملك العيلامى تحدى معاصره البابلى كوريجالزو تحدياً شخصياً ، وقال له « أقبل ، ندخل المعركة . . . أنت وأنا » ، وحالف الحظ البابلى فتقدم بجيوشه حتى العاصمة العيلامية سوسه ، وشجعه هذا النصر على أن يجرب حظه مع آشور ، ولكنه فشل معها . وظلت كفة النصر متأرجحة بين بابل وبين جارتيها إلام وآشور فطورا يسود الهدوء ، وطوراً يغلب البابليون وطوراً يغلبون ، على حين أدى انشغال الحاتيين بمنافسة المصريين تارة ومنافسة الأشوريين تارة أخرى ، إلى بقاء علاقات الود الظاهرى قائمة بينهم وبين البابليين ، بحيث طلب الملك الحاتى (الحيثى) خاتوسيلى ذات مرة من حليفه البابلى (كادشمان إنليل الثالث ؟) أن يتعاون معه فى مهاجمة عدو مشترك ، قد يكون من الأشوريين أو من الهجرات الآرامية بدأت حينذاك تهدد سبل التجارة بين الدولتين .

وعلى أية حال ، فسوف نوجز هذه الوجوه المختلفة للعلاقات بين بابل وبين جيرانها ، فى أن بابل فقدت روحها الجريئة الخلاقة فى أغلب عهود الكاسيين ، وسارت أمورها رتيبة مقلدة فى أغلب أحوالها ، فيما خلال هزات قليلة متباعدة ، كان أعنفها بالنسبة لبابل مهاجمة جيوش الملك الأشورى توكلتى نينورتا الأول لها وتدميرها إياها وسلبها كنوزها . وبرر الكتبة الأشوريون هذه القسوة بادعائهم أن أرباب المدن البابلية كانوا قد هجروها استياء من مسلك كاشتيلياش ملك بابل ولعنوها . ثم رحبوا بالفاتح الأشورى الذى انتقم لهم بتأديب مدنهم (١) ، (وهذا هو منطق المنتصر فى كل زمان ، مع تغيير ألفاظه بما يتناسب مع عصره) . ولكن ما لبث البابليون حتى أخذوا بثأرهم من آشور وحاصروا عاصمتها عقب اغتيال ملكها الفاتح العنيف توكلتى نينورتا فى أواخر القرن ١٣ ق . م .

وكان احتدام التنافس بين بابل وبين آشور فرصة الإلاميين ، فشددوا الضغط على جنوب العراق وهاجموا بابل نفسها ، وطالت اشتباكاتهم معها حتى دمروها أكثر من تدمير الأشوريين لها ، وقضوا على الحكم الكاسى فيها فى أواخر القرن الثانى عشر ق . م وغنموا ما بقى من كنوزها ونقلوا أغلب آثارها الفنية إلى عاصمتهم سوسه ، سواء حباً فى الغنم والنهب ، أو لحرمانها من كل ما يذكرها بأيام مجدها ، وكان من هذه الآثار ما يتعلق بملوك قدماء أحرزوا النصر عليها ، مثل : نصب سرجون الأكدى ، ونصب نرام سين ، وعمود (أو مسلة) مانيشتوسو ، ونصب تشريعات حمورابى الذى ظل فى عاصمتهم حتى عثر عليه فى أوائل

---

(١) See, *Af. O. XVIII*, 33 f.; 42 ; *MAOG*, XII, 2, 7, 23 f.

القرن الحالى ، ونصب أخرى كاسية وغير كاسية كثيرة ، يغلب على الظن أنهم أجبروا الأسرى البابليين على نقلها بأنفسهم رغم ضخامتها وشدة ثقلها .

غير أن بابل ذات الماضى المجيد لم تكن لتموت بسهولة ، وإن ترنحت طويلا تحت ضربات خصومها ، فتحاملت حتى نهضت وتزعمها ملوك ناضلوا فى سبيل تحرير أرضهم من ربقة السيطرة الإلامية ، وعرفت أسرتهم اصطلاحاً باسم الأسرة البابلية الرابعة ، ومدت جيوش أشهر ملوكهم نبو خذ روسر (نبو خذ نصر الأول) (١) جناحيها شرقاً للانتقام من الإلاميين وغرباً لإرهاب بقايا الأموريين وخلفائهم الأراميين ، لولا أن هذه النهضة البابلية لم يطل أمدها ، وتعرضت بابل مرة أخرى لهزات عنيفة أتتها من قبل دولة آشور التى نضج كيانها فى المرحلة الثانية من عصرها الوسيط ، وهزات أخرى أتتها من قبل الأراميين الذين فرضوا وجودهم على العراق فرضاً .

وشقت بابل طريقها على وهن ، بالحرب تارة وبالمهادنة والمصاهرة والرضا بالأمر الواقع تارة أخرى ، حتى بلغ عرشها أحد الأراميين فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ق . م ، واستطاع أن يصاهر معاصره الملك الأشورى ويضمن مهادنته ، ولكنه لم يستطع أن يكفل الأمن الداخلى فى دولته . وأحدثت التحركات الأرامية القبلية الداخلية كثيراً من الاضطراب حتى تعاقبت ثلاث أسر حاكمة (من الخامسة إلى السابعة) فى نحو نصف قرن ، وكانت الأسرة الثامنة التى تلتها أفضل حظاً فى طول أمد حكمها ، ولكن كان عليها أن تنتظر مصيرها المحتوم على أيدى الأشوريين فى عصرهم الحديث ، مما سنعرض لذكره مرة أخرى فى سياق الفصل التاسع عشر .



من الحياة الفكرية فى العصر الكاسى :

اتضحت ظاهرة جديرة بالتسجيل بالنسبة لحضارة أهل العراق منذ أواسط الألف الثانى ق . م أو منذ ما قبلها بقليل ، وهى انتشار خطهم المسمارى وأساليبهم السامية وطريقتهم فى الكتابة على ألواح الطين ، انتشاراً واسعاً بفضل البابليين أولا ثم الحوريين والميتانيين والكاسيين ، فى المراسلات الدبلوماسية لأغلب مناطق الشام ومناطق آسيا الصغرى ، وذلك بحيث لم يتميز عن خطهم وأسلوبهم حينذاك غير خط مصر القديمة وأسلوبها . واستمر الحال كذلك حتى بعد أن ضعف شأن البابليين والحوريين والميتانيين والكاسيين بفترة طويلة ، وذلك مما يعنى أن الكتابة بالخط المسمارى والأسلوب البابلى أصبحت مجرد تقليد لا يرتبط بالضرورة بسمعة أصحابه الأصليين ، وكان شأنها فى ذلك يشبه ما أصبحت عليه اللغة الفرنسية حين غدت لغة الدبلوماسية الأوروبية إبان ازدهار ملكيتها وامبراطوريتها ثم استمرت كذلك حتى الحرب العالمية الثانية بعد أن انكمشت سمعة فرنسا وزعامتها بوقت طويل .

(١) See, W.J. Hinke, *A new boundary stone of Nebuchadnezzar I*, Philadelphia, 1907.

وعلى الرغم من سعي الإلاميين المتصل لإضعاف بابل ونجاحهم فيما هدفوا إليه من تحطيمها ، ظهر التشابه بين كتابتهم وكتابتها منذ أواخر القرن الثاني عشر ق . م ، أي منذ أن حطموا عاصمتها ، وإن كانوا قد قللوا عدد الرموز المسمارية إلى ما يزيد قليلا عن المائة ، وظلت هذه الرموز حتى العهد الأخميني يتشابه نحو خمسها مع كتابة بابل ، أي حتى استخدمت فيها الحروف الهجائية (١) .

ونشأ بعض الظن بظهور إسم العراق في أواخر العصر الكاسي ، عن طريق تقريبه من كلمة أريقا التي ظهرت في النصوص خلال القرن الثاني عشر ق . م . ولكن لا زال الجدل واسعاً بشأن هذا الإسم ، وتميل بعض الآراء إلى اعتباره إسما سومرياً دارجاً يعني الموطن ، بينما تميل آراء أخرى إلى اعتباره إسماً إيراني الأصل قريب الصلة بكلمة إيراك (على وزن إيران) ويعني معنى السهل أو البلاد السفلى (في مقابل مرتفعات إيران) ، أما العرب فقد قربوه إلى معنى الجرف أو السهل وبخاصة في مناطقه الجنوبية (٢) .

ويذكر لصيغ التراسل الإدارية في عصر الكاسيين تعبير الرئيس فيها عن نفسه بلفظ الأب ، وتعبير الزميل أو الصديق عن صديقه بلفظ الأخ (٣) ، ولو أن ذلك لم يمنع تزلف المرؤوسين إلى رؤسائهم وتعبيرهم عن شدة خضوعهم لهم في رسائلهم ، ومن ذلك أن وصف حاكم إقليم نفسه في رسالة إلى ملكه بأنه التراب الذي يطؤه (٤) .

أخرج كتبة العصر الكاسي قوائم لفظية بكلمات كاسية وما يقابلها من المفردات البابلية ، أي مما يقوم مقام القواميس المقارنة (المتواضعة) ويجري مجرى قوائم المفردات السامية – السومرية القديمة . أما من حيث انتاجهم الأدبي بمعناه الصريح ، فقد ظل أدباً مقلداً غير مبتدع ، اعتبروا الأصول البابلية فيه نماذج كلاسيكية تحتذى ، وترتب على تقديرهم لهذه الأصول أن أدوا للتراث العراقي مأثرة جليلة ، ألا وهي نشاط بعض المعلمين والمتأدبين منهم بنسخ لوحات الأدب القديمة ، والبابلية منها بخاصة ، سواء بأمر الحكام ولمصلحة مكتباتهم ، أم لتلبية مطالب هواة الأدب القديم في عصرهم . وقد أصبح لهذا النشاط أثره فيما بعد عصرهم في تزويد المكتبات الأشورية الكبيرة بنماذج تحتذى للنسخ ، كان الكتبة الأشوريون يحتفظون في عناوين نسخها الجديدة بأسماء ناسخيها الكاسيين القدامى ، فيقولون مثلا : « محاورة الثعلب » عن إبني مردوك بن لودومونونا ، معلم . . . ، و « محاورة الصفصافة وفقاً (للوحة) أورنانا ، معلم . . . » . . . وهلم جرا (٥) .

---

(١) راجع منس في الفصل ٣٥ من موسوعة جون هامرتون : تاريخ العالم – مترجم بالقاهرة .

(٢) راجع كذلك : طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – جـ١ – ص ٧٦ .

(٣) *The Babylonian Expedition of the University of Pennsylvania, Cuneiform Texts*, XVII, 76.

(٤) *Ibid.*, 24.

(٥) *J. of Cuneiform Studies*, II, 1 f. and 112 f.; W.G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, 1960, 13, 164, 186.

وفى إنتاجه الخاص القليل ، استخدم الأدب الحاسى أسلوباً يختلف عن لغة الحديث فى عصره ، استعاره الأدباء من لغة العصر البابلى الأول ، وضمنوه كلمات سامية ظهرت قبله أيضاً (١) .

لأمجدن رب الحكمة :

عبر الأدب الكاسى عن حياة القلق والمحن التى عاشها أهله فى نهاية عصرهم ، بتوجعات ومنظومات غلبت عليها نغمة الشك والحزن ، وإن انتهت فى أغلب أحوالها بالخضوع للأمر الواقع ، والتسليم بحكمة الرب فيما يبتلى به عباده من سراء ومن ضراء . ولم يكن هذا الاتجاه جديداً تماما على آداب بلاد النهرين ، فقد خرجت بمثله عهود الأزمات حين انهيار دولة أور ، وخلال عهود القلق التى انتهى بها عصر إسين — لارسا ، ولكنه أصبح أظهر وأشد مرارة فى العصر الكاسى .

ومما يستشهد به فى هذا السبيل ، منظومة طويلة لسرى لاقى فى حياته ما لاقاه أيوب فى عصره ، نعمة قصيرة وضراء طويلة ، ثم أبل أخيراً بعد أن عز عليه الدواء . وأكد الرجل فى توجعاته ما يعنى أن المؤمن مصاب وأن القدر إذا انحط بكلكله على إنسان حطمه ، أو على حد قوله عن ربه « ثقلت يده على فلم أحتملها » ولم تحتفظ مقدمة منظومته بعنوانها ، ولكن يفهم مما بقى منها أنها اشتهرت باسم « لود — لول بل — نميقى » وبما يعنى « لأمجدن رب الحكمة » (٢) .

وصور الرجل فى بدايتها مكانته الأولى حين كان ذا لقب وجاه وأسرة ومزارع وأتباع ، وتحدث عن تقواه إزاء الأرباب وإخلاصه للملك ، وحسن معاملاته لقومه . ثم صور كيف انقلب ذلك كله إلى عكسه ، فذهب الجاه وتمرد الأتباع وتنكر الأصدقاء ونضبت العافية وكلح وجه الدنيا وادلهم ، فعاش عيشة السوائم ، وهجره ربه ومكن الناس منه فحطموه وسحقوه دون ذنب يعرفه . وقال وهو يعترف بعجزه عن فهم حكمة الغيب وتصاريف القدر : « هديت بالدى إلى شعائر الرب ، ودعوت قومى إلى تمجيد الربة ، ومجدت الملك كما مجدت الرب . ووجهت الناس إلى إجلال القصر . وظننت أن هذا يرضى الإله ، ولكن يبدو أن ما يظنه المرء صواباً قد يكون مسيئاً لربه ، وما يتراءى للإنسان قبحه قد يكون حسناً عند ربه . فمن ذا الذى يدرك إرادة أرباب السماء ؟ ومن ذا الذى يدرك تدبير آلهة الأعماق ؟ وأين عرف الناس سبيل الرب حقاً ؟ إن من عاش الأمس مات اليوم وفى برهة هلك وفجأة انسحق . يهلل الناس ويفرحون حيناً ، وفجأة ينوحون كالنادبات . تتغير أحوالهم ما بين فتحة ساق وانطباقها ؛ يجوعون فيغلون كأنهم جثث هامدة ، ويشبعون فيزاحمون أربابهم . فى السراء يتطاولون إلى السماء ، وفى الضراء يهوون إلى الجحيم . لقد عجزت (وأيم الحق) عن كنه هذه الأمور وما أدركت مغزاها » (٣) .

---

(١) *Op. cit.*' 14.

(٢) R. H. Pfeiffer, *ANET*, 434, f. ; R.D. Biggs, *ibid.*, 1969, 596—600; and *sec*. Lambert, *op. cit.*, 21 f.

(٣) Tablet I, 29 – 48.,

وقارن هذا بتوجع سومرى قديم امام ربه : *ANET*, 19.

واسترسل الرجل فى توجعاته ؛ ولكنه أنهى شكاواه بما جعله تمجد رب الحكمة ، إذ تواردت الرؤى عليه ، وتجلى له فيها رسل ربه الأكبر . فحملوا له أنباء عفوه ، ثم تجلى له ربه مردوك بنفسه فبارك وشفى علته فى النفس والبدن وجعله يوقن بحكمته فى بلائه وبأن العقبى للأخيار مهما تواردت عليهم المصائب .

بين يائس وواعظ :

هذه قصيدة أخرى ضمنها ناظمها وجهتى نظر فى تصاريف القدر وحظوظ البشر ، وأجرى أفكارها على لسان صديقين . صديق برح به وعانى ألواناً من العذاب . وأخذ يتكلم باسم الواقع ويعبر عن مرارته ، ويبحث عن يسمع له ويتفهم بعض من شكواه . وصديق آخر مجامل متفائل يتكلم باسم الدين ويدعو إلى الصبر وإلى الثقة بعدالة الرب . ناء أولهما بزمانه الذى يبجل الثرى اللئيم ، وليس فيه من يأخذ بيد المستقيم ، وتساءل : « هل (ترى إلى) الأسد الفاتك الذى ينعم بأكل خير اللحوم يقدم قرباناً وبخوراً لربته ليهدئ غضبها (ويجعلها تناصره) ؟ » . فيرد الآخر بقوله « إنه عدو القطيع . ذلك الأسد الذى نوهت به ، وتذكر أنه من أجل زئير الأسد تحفر له الحفر ، وذاك الذى تقول إنه احتبى بالثروة وتكدست خيراته ، قد يهلكه الحاكم ويجعله طعاماً للنار فى وقته المعلوم ، فهل تريد أن تسلك سبيلهم ؟ أجمل بك أن تتوخى رضا الرب . » . وهنا يقول الأول : « منذ طفولتى بحثت عن تدبير الرب . وفى خشوع وتقوى تلمست الربة ، ومع ذلك حملت بأنواع السخرة دون فائدة . وأعطانى الرب حرماناً عوضاً عن الغنى » . فيجيب الآخر : « لقد أبيت الحق ، وضللت عن تدبير الرب ؛ ولا تحسبن أن إرادة الإله تسير وفق رغبة نفسك ، فإنما الطهر الحقيقى للربة هو الذى أهملته . . . . وأمر الرب والربة لم يبلغ منك القلب » ، الخ(١) .

التابع الساخر :

قريب من الضياع السابق الذى تاه الناس فيه بين الخطأ وبين الصواب ؛ ورأى الإنسان الشر فيه فى موضع الإحسان ، والإحسان فيه فى موضع الإساءة ، حوار ساخر أجوف بين سيد وعبده ، صور الشك فى القيم الاجتماعية السائدة ، وجعل العبد صوت سيده . والسيد أسير تملق خادمه . وصور لكل شئ وجهين ؛ كلاهما مقنع ولكنه مغرض . ويبدأ الحوار بقول السيد فى تعاظم : « عبدى ، إصغ إلى » . فيرد العبد مطيعاً : « لبيك مولاى ، لبيك » . ويقول السيد متحمساً : « أعد لى العربة فوراً فلسوف أنطلق إلى القصر » . ويجيب التابع محبذاً « انطلق مولاى انطلق ؛ فلسوف يتحقق لك كل ما ترجوه ، وسوف يكون الملك حفياً بك » . فلا يلبث السيد أن ينكص قائلا : « كلا عبدى . لن أذهب إطلاقاً » . . . فيطاوعه التابع قائلا فى تخابث « لا تركب يا مولاى . لا تركب . فقد يرغمك (الملك) على سلوك طريق لا تعرفه ؛ ويريك صنوفاً من الشقاء بالليل والنهار » .

---

(١) R.H. Pefeiffer, *op. cit.*, 429 f. ; *Recueil Edward Dhorme*, Paris, 1951, 685 f. ; Biggs, *ANET*, 1969, 602 – 604.

ويسترسل السيد والتابع فى اقتراحات أخرى ، لا يلبث كل منهما حتى ينقضها بنفس الإكمان الذى قبلها به. ومنها أن يقول السيد : « لسوف أقدم معروفاً لبلدى » فيجيب التابع : « إفعل سيدى إفعل ، فمن فعل معروفاً لبلده وضعت أعماله فى دائرة مردوك » . وهنا ينكص السيد قائلا : « كلا يا عبدى لن أفعل معروفاً لبلدى » . فيجد الخادم الرد جاهزاً ويقول : « لا تفعل سيدى لا تفعل ، وانطلق إلى الخرائب وتجس خلالها ، وانظر إلى جماجم الأعالى والأسافل ، فلن تفرق فيها بين خير وآثم » . ويقول السيد : « لسوف أحب امرأة » ، فيجيب التابع على عادته « نعم أحب مولاى ، أحب ، فمن أحب نسى السقم والهم » . ولكن الرجل لا تفارقه روح التردد فيقول : « كلا ، عبدى ، لن أحب امرأة » ، ولا تفارق العبد الحجة لتبرير تردد سيده فيقول : « لا تحب مولاى ، لا تحب ، فالمرأة بئر (عميق) ، خنجر حاد النصل يحز فى عنق الرجل » .

وبعد أن يدور الرجل وظله فى حلقة مفرغة لا يعرفان معها ما يحسن فعله وما لا ينبغى عمله ، يسأل السيد : « وأين إذن الصواب يا عبدى ؟ » فيجيب العبد : « هو أن تدق عنقى وعنقك ، ثم يلقيا معاً فى النهر . » ، وهنا تملكت روح الجبن والأثرة السيد فقال : « كلا عبدى ، لسوف أقتلك أنت وأرسلك أولا » ، فأجابه العبد وهو مطمئن إلى عجز سيده عن البقاء بدونه عجزه عن التفكير وعن التنفيذ بمفرده : « وهل يستطيع مولاى أن يعيش أياماً ثلاثة بدونى ؟ » (١) .

* * *

(١) E. A. Speiser, "The case of the obliging servant", *JCS*, VIII (1954), No. 3; W.G. Lambert, *op. cit.*, 139 f.; R.D. Biggs, *ANET*, 1969, 600—601.

الفصل التاسع عشر

دولة آشور

أ ــ المراحل الأولى :

بدأت آشور فى أقدم عصورها الأولى فيما يمتد بين نهرى الزاب الأكبر والزاب الأصغر ، وأطلت على نهر دجلة بضفتيه ، وتكون أغلبها من تلال وهضاب جيرية وفرت لها أحجار البناء ، كما قلل ارتفاعها من حرارة المناخ ، ولم تعدم أمطاراً مناسبة ، وانتفعت بسهول خصبة متفرقه على ضفتى دجلة وحول أربيل وكركوك . واشترك فى إسم آشور كل من أرضها وعاصمتها ومعبودها الأكبر وسكانها الأوائل ، مع تحويره فى التشكيل والنطق بين كل حالة وأخرى ، مثل : أشور وأشور ، وذكرت الألواح المسمارية أرضها باسم « مات أشور » وهذه قد تكون ذات صلة بالتسمية السومرية A.Usar ، كما ذكرت أهلها باسم أشوريو . وغلبت على آشور الصبغة السامية فى أغلب عهودها ، وإن اختلطت بجنسيات أخرى انتشرت فى المرتفعات المحيطة بها شمالا وشرقاً وشمالا بغرب . وانتشرت عبادة ربها أشور عن طريق الجاليات التجارية حتى أعالى دجلة وآسيا الصغرى بحيث تداخل إسمه فى أسماء بعض الأفراد فى منطقة كبادوكيا . ووردت تسمية آشور فى بعض النصوص الآرامية بلفظ آثور . وذكرتها النصوص المصرية باسم « إسر » و « إسور » .

فى العصر العتيق :

عاصرت العاصمة أشور التى قامت فوق ربوة صخرية تحف بها مياه دجلة والتى قامت على أنقاضها قلعة الشرقاط الحالية ، أواخر عصر بداية الأسرات السومرى ، وتعاملت دويلات مدنها القديمة مع السومريين ومن تلاهم من الأكديين وانتفعت بحضارة هؤلاء وهؤلاء . لا سيما قواعد الكتابة المسمارية ، وخلطت بين فنونهم وبين فنونها المحلية البسيطة . واعترفت بنفوذهم فى عهود قوتهم ، ولعلهم سلكوها حينذاك فيمن سموهم السوباريين (وأهل سبارتو . والسوبارتو) . ثم اتضحت أسماء ملوك آشور الموحدة منذ القرن الحادى والعشرين ق . م أو منذ ما قبله بقليل ، وفيما يعاصر دولة أور الثالثة (٢) ، وامتاز منهم حينذاك بوزور أشور (الأول) ، وشروكين (سرجون) الأول : وهو اسم سامى الصبغة . ويسمى عصر أولئك الملوك اصطلاحاً باسم العصر الأشورى العتيق ، وقد امتدت فيه اتصالات آشور وتجارتها شيئاً فشيئا حتى بلغت آسيا الصغرى .

---

(١) أنظر أيضاً : طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ــ جـ١ .

(٢) See, *Revue d'Assyriologie*, VIII, 142 ; E. Ebeling, in *Altorientalische Texte zum alten Testament*, 2 n. ed., edited by H. Grossmann, 1926, 333-f. ; E. F. Weinder "Die grosse Konigsliste aus Assur", *Archiv fur Orientforschung*, III (1926), 66 f.

فى العصر الأشورى القديم :

بدأ الأشوريون وجهاً آخر من تاريخهم فى اواخر القرن التاسع عشر ق . م او اوائل القرن الثامن عشر ق . م ، وبدأت بينهم أسرة حكم جديدة يسمى عصرها اصطلاحاً باسم العصر الأشورى القديم ، وهى أسرة زادت الصبغة السامية فى بعض أسماء ملوكها أكثر مما كانت عليه فى العصر العتيق مثل : إيلوشوما ، وشمشى أداد ، ويشمع أداد . . . ، وعاصرت عهود مارى وإسين– ولارسا ثم، نشأة دولة بابل . واحتفظت أرضها ببضعة نماذج لفن النحت فى عصرها اتصفت فى مجملها بالخشونة وظهر أصحابها بالنقبة القصيرة دون العباءات الطويلة المعروفة للخاصة فى بقية بلاد العراق (١) .

وحاول الأشوريون أن يكون لهم شأن فى أحداث عصرهم فاشتبكت جيوش ملكهم إيلوشوما مع جيوش مؤسس الأسرة البابلية (سوم أبوم) (٢) ، ولكن بغير نتيجة حاسمة . ثم مضت كل من الدولتين فى طريقها ، حتى حاول الملك الأشورى شمشى أداد (١٧٢٦–١٦٩٤) (٣) أن يحقق لدولته كياناً ينافس به دولة البابليين . واتخذ نينوى عاصمة لأول مرة ، واتسع غرباً وسيطر على دويلة مارى كما أشرنا من قبل وولى عليها ولى عهده يشمع أداد (أو يسمخ أداد) الذى وطد نفوذه بمصاهرة أمير قطنة الذى فتح أمامه طرق التجارة مع سوريا إلى أن قاومه زمرى ليم ابن ملك مارى المخلوع والذى صاهر بدوره أمير حلب وتعاون معه ومع أمير يمخد حتى طرد خصمه واسترجع عرش أبيه . وروت نصوص شمشى أداد الأشورى أنه تلقى فى عاصمته جزى ملوك توكريش وملوك القطر الأعلى ، وأنه أقام نصباً باسمه العظيم فى منطقة لبنان (لا– آب – آ – آن) على شاطئ البحر الكبير ، وإذا صحت روايته الأخيرة هذه كان توسعه هو أقدم توسع أشورى معروف فى بلاد الشام(٤) . وربما عادت إلى هذه الفترة بضعة نصوص وجدت فى كبادوكيا بآسيا الصغرى وكتبت باللهجة الأشورية القديمة (٥) .

ولكن ما لبث هذا الفاتح الأشورى حتى اعترف مضطراً بنفوذ معاصره الكبير حمورابى البابلى وأرخ رجاله وثائقهم باسمه إلى جانب إسمه (٦) . . . ، واستفادت آشور حينذاك بالفن البابلى فى أساليب النحت ونقوش الأختام (٧) ، واستعار كهنتها بعض صفات مردوك رب بابل وخلعوها على معبودهم أشور ، وأضافوا

---

(١) W. Anderae, *Das Wiedererstehende Assur*, 1938, 88, Taf. 44.

(٢) *See*, *ANET*, 267.

(٣) A. Poepel, *JNES* (1943), 85 f.

(٤) B. Meissner, "Die Inschriften der altassyrischen Koenige,", *Altorientalische Bibliothek*, I, 1926, 24 f. ; *ANET*, 274.

(٥) *JNES*, XIV, 17 ; *BIN*, IV, 26...

(٦) Delaporte, *Catalogue des Cylindres*, 1910, p. XXXVI, n. 1.

(٧) *Ibid.* ; Frankfort, *The Art and Architecture*..., 65.

أن مردوك كان قد خصص من أجله منذ الأزل آلهة الأقاليم الأربعة حتى تمجدوه ولا يتهرب من عبادته أحد (١) ، واعتبروا إشتار (عشتار) زوجة له ولقبوها بلقب بعليت بمعنى السيدة أو الربة أو الملكة ، وخلعوا عليها طابع الحرب وصوروها بقوس وسيف (٢) .

واستردت آشور كيانها المتفرد بعد سقوط أسرة بابل الأولى ، ولكن ظل دورها ثانوياً فى أحداث عصرها وفيما يوازى أغلب العصر الكاسى . وذكرتها النصوص المصرية لأول مرة فى القرن الخامس عشر ق.م باسم « إسور » خلال عهد الفرعون تحوتمس الثالث وذكرت أن أميرها أهدى إليه كميةمن اللازورد الحر وأحجاراً كريمة أخرى (٣) . ولم يكن الأشوريون أسعد حظاً مع الميتانيين الذين توسعوا فى أرضهم حتى كركوك خلال القرن الخامس عشر . ولهذا اكتفوا حينذاك بنظام دويلات المدن .

واحتفظت مدينة نوزى (أرابخا إلى الشرق من كركوك) بعدد من لوحات التبنى والوصايا والبيوع قد تكون أشورية أو حورية كتبت باللغة الأكدية وتحتمل نسبتها إلى أواسط الألف الثانى ق . م ، ويتعهد المتبنى فيها عادة بضمان نصيب ربيبه فى تركته ، بحيث يصبح وريثه الشرعى والمسئول عن تماثيل معبودات أسرته ، إن لم ينجب ولداً من صلبه ، فإن أنجب ولداً حقت الأولوية للإبن الشرعى وحق له أن يتولى رعاية تماثيل معبودات أسرته ، وهنا قد يجعل الموصى لولده الشرعى سهمين من التركة ولربيبه سهماً واحداً ، أو يجعل لكل منهما سهماً بشرط أن يختار الإبن الشرعى نصيبه بنفسه . ولما كانت التشريعات العراقية لم تسمح بوراثة البنت للأملاك العقارية ، قد يتبنى الرجل زوج ابنته الوحيدة ويحفظ لها ممتلكاته العقارية عن طريقه ، وهنا يحذره فى وثيقة التبنى بحرمانه من التبنى والإرث إذا طلقها ، فضلاً عن تغريمه بغرامة كبيرة (تبلغ عادة مينه من الذهب ومينه من الفضة) . وقد يستهدف التبنى رغبة التصرف فى أملاك الانتفاع (المقطعة ؟) عن طريق التوريث ، وهنا قد يكون التبنى صورياً كذلك يتحايل به صاحب الأرض على بيع أرضه (المقطعة ؟) لشخص آخر من غير أسرته ، فيتبناه ويهبه أرضه ، ولكنه يحفظ حقه عنده بأن يشترط عليه من جهة أخرى أن يتولى إصلاحها لحسابه ، ويفرض عليه شرطاً جزائياً إن أخل بتعهداته نحوه ، وغالباً ما يكون أجر الإصلاح والشرط الجزائى هما ثمن الأرض (٤) . وقد يتقبل الرجل ممن يتبناهم هدايا توازى قيمة ما سوف يرثونه منه مؤخراً بناء على تبنيه لهم (٥) . والطريف أن المجتمع الإغريقى قد لجأ إلى ما يشبه هذه الإجراءات بعد قرون طويلة من بدء الأشوريين بها ليتحايل على تقاليد عدم توريث العقار للإبنة وعدم بيعه لفرد من خارج العائلة .

---

(١) Sidney Smith, *Early History of Assyria*, 1928, 122 f.

(٢) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

(٣) *Urk.*, IV, 668, *6* ; 671, 8.

(٤) Meek, *ANET*, 197–198, 219–220, *and references*

(٥) كونتينو (ج) : الحياة اليومية فى بلاد بابل وآشور – معرب ببغداد ١٩٧٨ – ص ٣٨ .

ب – فى العصر الأشورى الوسيط :

ظل الأشوريون على مهادنتهم الظاهرية للبابليين والكاسيين والميتانيين على التعاقب ، حتى تعرضت دولة الميتان لهجمات عنيفة من جيرانها الخاتيين (الحيثيين) خلال القرن الرابع عشر ق . م ، وبدأت تضعف تحت ضرباتهم وتخسر سلطانها شيئاً فشيئاً ، ففاقت آشور إلى نفسها وظهرت فيها أسرة حاكمة جديدة فى الربع الثانى من القرن الرابع عشر ق . م ، يسمى عصرها اصطلاحاً باسم العصر الأشورى الوسيط . واستطاعت هذه الأسرة أن تحالف الخاتيين ضد الميتان ، وانتقمت لنفسها من هؤلاء الأخارى بهجمات سريعة مخربة (تراجع ص ٥٠٠) ، واستطاعت فى الوقت نفسه أن ترتبط بالأسرة البابلية (الكاسية) برباط المصاهرة ، وعلى أساس علاقات الند للند ، وأصبحت ضلعاً فى مشكلات وراثة العرش فى بابل نفسها . ولكن البابليين تقبلوا نشاطها على حذر ، وقد أسلفنا بعض شواهد هذا الحذر حين قتلوا ولى العهد ذى الدم الأشورى من ناحية الأم ،وحين أوفد الأشوريون سفارتهم إلى الفرعون المصرى آخناتون فاحتج البابليون الكاسيون على جرأتهم وأصر ملكهم على أنهم لا يزالون من أتباعه (راجع ص ٥٠٠) .

وانفسح السبيل أمام الأشوريين بعد انهيار دولة الميتان تحت ضغط الحيثيين فى عام ١٣٦٥ ق . م ، فبرزت بينهم أسماء ضخمة لم يحتفظ التاريخ منها للأسف بغير أسماء الملوك كعادته ، ومن أوائلهم أشور أو باللبط الأول (١٣٦٣–١٣٢٨ ق . م) (١) .

وشهدت آشور تحت زعامتهم مرحلتين للتوسع :

المرحلة الأولى للنهضة الوسيطة :

وقد استمرت خلال القرن الثالث عشر ق . م . وقدرت آشور فيها بأس جيرانها الخاتيين الأشداء ونفوذهم فى أعالى الشام ، فاكتفت بالتوسع فى منطقة الجزيرة وتدعيم حدودها القريبة . وكشفت عن وجه العداء لبابل فهاجمتها جيوشها وخربت أرضها أكثر من مرة ، واحتلتها فى إحدى المرات . وذهبت آمال بعض ملوكها إلى حد العمل على توحيد بلاد النهرين تحت سلطانهم . فتلقبوا باللقب القديم لقب « ملك سومر وأكد وكان أشهرهم شلمانصر الأول (١٢٦٦–١٢٤٣ ق . م) . وولده توكلتى نينورتا الأول (١٢٤٣–١٢١٠ ق.م) اللذين عملت آشور فى عهديهما على كبح جماح الهجرات الآرامية البدوية على حدودها . وكانت بوادى الشام والعراق قد شهدت تحركات بدوية سامية جديدة منذ أواسط الألف الثانى قبل ميلاد المسيح ، واتجهت هذه التحركات بأطماعها ناحية الهلال الخصيب منذ القرن الرابع عشر ، ووضحت تجمعاتها القبلية حينذاك فى ناحية الفرات الأوسط شرقاً وفى أواسط سوريا وشرقها غرباً . وأشارت النصوص الأشورية (والمصرية) إلى قبائلها فى مجموعها باسم الأخلامو واسم السوتو . وذكرت نصوص الملك الأشورى أريك دين إيلو انتصاره

---

(١) *See also*, Lucenbill, *Anc. Records*, I, 73.

على الفريقين فى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الثالث عشر ق . م (١) . وكانت قبائلهم قد تعدت الفرات حينذاك ، ويبدو أنها حملت معها إلى العراق بعض العبرانيين المستضعفين ، إذ ظهرت فى لوحات نوزى القريبة من أشور أسماء عبرية الصبغة مثل هامانا وإيليا (٢) ، وتضمن بعضها عقود استرقاق عبرت عن الطريقة التى تسلل العبرانيون بها إلى أرض العراق واستقروا فيها ، فقالت إحداها : « برغبته دخل مار إدجلات العبرى من أرض آشور ، (دار) تهب تيلا ، باعتباره عبداً » ، وشهد على هذه اللوحة كاتبها وأحد عشر شاهداً (٣) . وقالت أخرى : « برغبتها دخلت سين بالطى العبرية دار تهب تيلا باعتبارها أمة ، فإذا نقضت عهدها ودخلت بيت سيد آخر ، فقأ سيدها عينها وباعها »

ولم يقنع المهاجرون الساميون طويلا بالحياة القبلية ولم يكتفوا بالتسلل إلى مواطن الحضارة والخصب والعمران ، وإنما أخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً فى إمارات ، وعرفتهم النصوص الأشورية حينذاك باسم الأراميين إلى جانب إسمى الأخلامو والسوتو القديمين . ولعلهم طمعوا فى شغل ما شغله الميتان من قبل فى شمال شرق سوريا وغرب الفرات ، لولا أن نازعهم فيهما كل من الأشوريين وبقايا الحيثيين . ومثل الأشوريين فى هذا النزاع كما قدمنا كل من شلمانصر الأول الذى روت نصوصه قتال جيوشه للأخلامو والأراميين وبقايا الحيثيين أيضاً ، ثم ولده توكلتى نينورتا الذى روت نصوصه أنه هاجم مارى وأرض خانا (عنات) وأرض راكيبو وجبال الأخلامو . وتكررت الحروب فى عهد أشور رش إيشى ضد الأخلامو ، ولكن استمرت هجرات الأراميين تترى ولم تنقطع (٤) .

من الفنون الأشورية الوسيطة :

أكد الفن الأشورى فى هذه المرحلة الأولى من العصر الوسيط أسلوبه الخاص فى التعبير عن عقائد قومه ، وعن طابع النقش والعمارة بعد أن هضم عدة عناصر استعارها من جيرانه ، لا سيما الميتان الذين كانوا واسطة حضارية لنقل فنون الشام ومصر إلى العراق . فمن التعبيرات الخاصة بهذه المرحلة أن قللت النقوش الأشورية تصوير الأرباب بصورة البشر واكتفت بالرمز إليهم برموز مادية ومعنوية . ومن هذا القبيل تصوير الملك توكلتى نينورتا ساعياً محيياً ، وجاثياً داعياً ، أمام مائدة يعلوها شكل مستطيل يشبه الشراع العريض يرمز إلى المعبود « نوسكو » (٥) . وتصوير ملك آخر يتقبل خضوع أتباعه على حين تطل عليه من عل عدة رموز مقدسة يتميز منها كفا المعبود أشور تبرزان من بين السحب وتمسك إحداهما قوساً دلالة على طابع الحرب فيه ،

(١) Speiser, *ASOR*, X (1930), No. 56.

(٢) E. Chiera, *Joint Epedition with the Iraq Museum at Nuzi*, 1934, N. 459.

(٣) *Ibid.*, No. 452 ; Ebeling, *MAOG*, VII (1933), 88.

(٤) Dupont-Sommer, *Les Araméens*, Paris, 1949, 17.

(٥) Frankfort, *The Art and Architecture*..., Pl. 73 B.

وتمتد الأخرى مبسوطة ناحية الملك كأنما تباركه وتعبر عن رعاية صاحبها له (١) . ثم ملك ثالث صور هو وجنوده فى ساحة القتال يظل عليه قرص يشرع قوساً ، يرمز إلى المعبود آشور المحارب ، ومن حوله ذرات مطر تتساقط من السحب وتمثل الجانب الخير للمعبود نفسه (٢) . وليس ما يعرف عما إذا كان صدوف الأشوريين فى مثل هذه المناظر عن تجسيد أربابهم بصور محسوسة يدل على إمعانهم فى تعظيمهم ، أم كان نتيجة لنزعة طوطمية طرأت عليهم (٣) .

وجرى الفنانون على الاتجاه نفسه فى نقوش مناظر التعبد على الأختام ، فقللوا من تصوير الأرباب فيها ، واكتفوا فى أغلب الأحيان بتصوير التعبد أمام واجهات المعابد ومقاصيرها وزقوراتها ، أو على الأكثر أمام تماثيل الرموز الحيوانية وغير الحيوانية لمعبوداتها (٤) . وذلك فى نفس الوقت الذى أزادوا فيه تصوير قتال الكائنات الخرافية ومناظر الصيد والحيوانات والأشجار ، مع شئ من العناية بتفاصيل عضلات الإنسان والحيوانات ، وتفاصيل الشعور والأجنحة . ونجحوا فى التعبير عن مظهر الغضب وقوة الافتراس فى هذه الكائنات فخلعوا عليها حيوية مقبولة . وأحاطوا بعض صورها بأطر زخرفية ، وأرفقوا القليل منها بنصوص أفقية (٥) .

ومارس الفنانون بضعة عناصر فنية جديدة انتقلت إليهم عن طريق الميتان كذلك ثم طوروها ، وتمثلت فيما يرى هنرى فرانكفورت فى أربعة عناصر عقائدية وزخرفية ومعمارية ، كان منها أن جروا على الرمز إلى بعض أربابهم ، أرباب الحرب وحماة الملكية ، بهيئة قرص مجنح (٦) ، انتقل إليهم فيما يغلب على الظن من مصر القديمة عن طريق الميتان أو السوريين . وأكثروا من تصوير شجرة الحياة المقدسة ، وتصوير الكائنات الخرافية ذات الشوشة على رأسها . ويرى فرانكفورت أنهما عنصران دخلا الفن الأشورى خلال سيطرة الميتان على (جزء من) آشور ، ويتمثل مجهود الأشوريين فى تطوير العنصر الأول منهما فى اعتبار شجرة الحياة عنصراً زخرفياً خالصاً فى رسومهم ونقوشهم (٧) (على الرغم من وضوح دور الشجر فى عائدهم الدينية بحيث كانو يقيمون فى عيد رأس السنة ساق شجرة عارياً ويثبتون فيه أوراقاً وثماراً معدنية)(٨) .

---

(١) *Ibid.*, Pl. 73 A.

(٢) W. Andrea, *Coloured Ceramics from Assur*, Pl. 8.

(٣) *See*, Frankfort, *op. cit.*, 66.

(٤) *Zeitschrift fur Assyriologie*, XIV, 36 f., 43, Abb., 35–38, 46 ; A. Moortgat, *Vorderasiatische Rollsiegel*, Nr. 591, 592 ; Frankfort, *op. cit.*, 24 A–B.

(٥) Frankfort, *op. cit.*, 72, Pls. 75–76.

(٦) Frankfort, *Cylinder Seals*, 1939, Fig. 59 ; *The Art and Architecture*..., 66, 67, 71 ; O. Weber, *Altorientalische Segel Bilder*, Nr. 36 A.

(٧) Frankfort, *op. cit*, 67–68 (*after* Helene J. Kantor).

(٨) Sidney Smith, *Early History of Assyria*, 123.

ومارس الأشوريون مهارتهم فى صناعة الخزف وزخارفه ، وهذه يحتمل أنها خرجت من مصر بعد أن بلغت ذروتها فى أيام الدولة الوسطى وانتشرت منها إلى كريت وردوس وسوريا ثم العراق منذ عصر الهكسوس والهجرات الآرية ، وهو عصر تخلخلت فيه الحواجز الدولية التقليدية . ويرى فرانكفورت أن تجديد الأشوريين فى هذه الصناعة يتمثل فى استخدام الخزف لتكسية الجدران (١) . ولكننا نضيف أن المصريين القدماء استخدموه لنفس الغرض فى تكسية جدران بعض حجرات ودهاليز الجزء الأسفل من الهرم المدرج فى سقارة قبل ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

أما العنصر الرابع المعمارى المستجد فى هذا العصر الأشورى فيتمثل فى تأزير الأجزاء السفلى من بعض جدران القصور بلوحات حجرية ، سمح لهم بها توافر الأحجار فى هضابهم وفى المرتفعات القريبة منهم . أكثر من توافرها فيما دون أرضهم من بلاد العراق .

وجرى الملوك الأشوريون على عادة مواطنيهم ملوك بلاد النهرين فى تعمير المعابد والزقورات وبناء الجديد منها ، وكان عهد توكلتى نينورتا من أنشط العهود فى هذا السبيل ، فجددت فى عهده معابد كثيرة للمعبودات أشور وشمش وسين وآنو وأداد وإشتار وغيرهم (٢) ، وتهدمت هذه المعابد ولم يتبق منها غير رسوم قليلة تعرف الآثاريون منها على تجديدات طفيفة فى فنون عمارتها ، ومنها بناء الزقورة على مساحة مربعة ، وبداية الطرق المفتوحة ذات الدرجات المؤدية إليها بمدخل معتمد ، ثم الاتجاه شيئاً فشيئاً إلى الاستغناء عن استخدام هذه الطرق والاستعاضة عنها بالوصول إلى مسطح الزقورة عن طريق معبر يؤدى إليه من سطح المعبد الأرضى المجاور لها أو من سطح بناية تقوم مقامه ، وأخيراً وضع تمثال المعبود داخل مقصورته فوق صفة عالية يؤدى إليها درج ، رمزاً إلى ارتفاع شأنه واتساع ما بينه وبين خلقه ، ثم احتمال وجود مشكلوات فرعية ملحقة بمعبد رب الدولة أشور ، لأرباب آخرين مثل مردوك البابلى الذى خرب توكلتى نينورتا عاصمته بابل ونقل تمثاله منها إلى آشور (٣) . وليس ما يعرف عن ارتفاع الزقورات فى هذه المرحلة ، ولكن يحتمل من مناظرها فى نقوش الأختام أنها كانت تتألف من أربع أو خمس طبقات(٤) .

وصورت واجهات المعابد تحف بها صروح أو أبراج عالية (٥) ، وتحلى سطوحها حليات معمارية بسيطة مدرجة ذات زوايا قائمة شاعت أمثالها فى الحليات العلوية المسننة لعمائر الشرق الأدنى فيما تلا ذلك من عصور ، لا سيما فى الحصون ، ولا تزال أشباهها تتمثل إلى حد ما فى الحليات المسننة التى تعلو المساجد حتى الآن .

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, 67.

(٢) Andrae, *Das Wiedererstehende Assur*, 1938, Abb. 24, 42, 47, 48, etc...

(٣) Frankfort, *op. cit.*, 68–71.

(٤) Anton Moortgat, *op. cit.*, Nr. 591, 592.

(٥) Andrae, *op. cit.*, Abb. 49–50.

وكانت تحف بمداخل المعابد الأشورية أحياناً تماثيل حيوانية ترمز إلى معبوداتها الكبرى (١) ، وتؤدى غرض الحراسة الرمزية لها فضلا على ما تضفيه على المدخل من عنصر الزينة .

وشهدت آشور مقرين ملكيين جديدين فى هذه المرحلة : مدينة كالح على الضفة اليسرى لنهر دجلة (فى مقابل أشور ولكن على مبعدة منها على ضفته اليمنى) فى عهد شلمانصر الأول ، وامتد عمرانها فوق لسان خصب بين الدجلة وبين الزاب الأكبر ، ثم مدينة أخرى شيدت فى عهد ولده ونسبت إليه فسميت «كارتوكلتى نينورتا» ، وقامت على مبعدة ميلين من أشور . وشاد له رجاله فيها قصراً بقيت منه أطلال طفيفة يفهم منها أنهم زخرفوا بعض جدرانه بقطع من القاشانى المزخرف ولوحات مرسومة اقتبسوا موضوعاتها من عالم الإنسان والحيوان والنبات ومن الخطوط الهندسية (٢) ، ونجحوا فى تحقيق التناسب والحيوية فيها إلى حد مقبول ، وصوروا فيها الملك يقاتل بعربته الحربية منفرداً حيناً ، ويشترك معه جنوده فى الحرب الفعلية حيناً آخر (٣) .

وأعقبت النهضة الأشورية الأولى فى عصرها الوسيط فترة انتكاس ، غاضت فيها أحداث التاريخ الأشورى وضعف فيها شأن الملوك واضطرب أمن دولتهم ، على الرغم من أن ظروف التوسع الخارجى كانت مهيأة لهم بعد أن انهارت دولة الخاتيين (الحيثيين) تحت ضربات الهجرات الآرية الكاسحة التى عرفت اصطلاحاً باسم شعوب البحر ، فى أواخر القرن الثالث عشر ق . م . ويبدو أنه وقف فى سبيل استمرار النهضة الأشورية حينذاك عدة عوامل داخلية وخارجية ، كان منها تكرار النزاع على عرشها ، والتمزق الداخلى فى أرضها ، بعد أن اغتيل توكلتى نينورتا فى مؤامرة دبرها ولده وكان اغتياله بداية لتحلل كيان حكم أسرته . كما كان منها أن شعوب البحر التى حلت محل الخاتيين كانت لا تزال فى عنفوان شدتها فظلت مصدر رعب لجيرانها ، وأن جماعات سامية جديدة بدأت تغذى قوة الأراميين فى العراق ، وأن بابل لم تن عن محاولة استرداد كيانها والانتقام لنفسها . ونكتفى هنا بالبابليين .

فقد سارعت بابل بعد اغتيال فاتحها الأشورى توكلتى نينورتا بمحاولة النهوض من كبوتها ، فشنت هجوماً خاطفاً على الأشوريين فتكت فيه بملكهم الجديد وحاصرت عاصمته واستردت كرامتها الدينية باسترداد تمثال معبودها الأكبر (مردوك) ، وقنعت بما أحرزته من نصر سريع ، لتتقى أطرافها الجنوبية الشرقية من الإلاميين (العيلاميين) ، ولكن نشاطها ضد هؤلاء وهؤلاء كان فيما يبدو أشبه بنضال اليائس ، إذ ما لبثت أن انهارت تحت ضغطها ، ودمرها العيلاميون وقضوا على أسرتها الكاسية فى نهاية القرن الثانى عشر ، وتبع ذلك ما أوجزناه (ص٥٦٥ — ٥٦٦) من جهاد بابل المستميت فى سبيل النهوض ، ومقاومتها للعيلاميين حتى أجلتهم عن ديارها ، ثم مناطحتها للأشوريين وانتصارها عليهم مرة وانكماشها أمامهم أخرى .

---

(١) *op. cit.*, Abb., 49.

(٢) *Ibid.*, Taf. 2-3.

(٣) *Ibid.*, Taf. 51 A ; *Co'oured Ceramics*, Pls. 6-8.

المرحلة الثانية من النهضة الأشورية الوسيطة :

بدأت مرحلة التوسع الأشورى الثانية خلال العصر الوسيط بعهد تيجلات بيليسر الأول (١١١٤ أو ١١١٢–١٠٧٦ ق . م) ، ذلك الذى وصف نفسه (١) بأنه الملك الحق « لوجال كالاجا » (وفى الأكدية شارو دانو) (٢) ، ملك العالم ، ملك آشور ، ملك الأطراف الأربعة ، البطل الهمام المؤيد بوحى أشور ونينورتا والأرباب الكبار سادته الذين دحروا أعداءه . وقد انفسح السبيل أمام آشور فى هذا العهد نتيجة لظاهرتين ، وهما ، انكماش القوة المصرية الضاربة بعد كفاحها العنيف مع شعوب البحر ونتيجة لمشاكلها الداخلية ، وانكماش نفوذها بالتالى فى بلاد الشام ، ثم خمود حمية شعوب البحر خلفاء الحيثيين فى آسيا الصغرى وزوال رهبتهم من نفوس جيرانهم .

وترتب على هاتين الظاهرتين أن روت حوليات تيجلات بيليسر الأشورى أن آشور وبقية أربابه العظام منحوه البأس والسلطان وأوحوا إليه بأن يعمل على توسيع حدود أرضهم ، وأنه أخضع إثنين وأربعين شعباً وحارب ستين ملكاً وانتصر عليهم ، وأنه هاجم أرض نايرى (فى أرمينيا ؟) وأجبر أمراءها الثلاثين على أن يسجدوا لدى قدميه ، واحتجز أبناءهم رهائن عنده (٣) ، وأنه بلغ جبال لبنان (شادى لبنانى) وغزا أرض أمورو ، وتلقى جزى جبيل (جوبال) وصيدا (صيدونى) وأرواد (أرمادا) ، ثم هاجم أرض خاتى الكبرى وفرض الجزية على ملكها إيلى تيشوب (٤) ، وغزا الصحراء بخيله ورجله وبعون ربه أشور ، وهاجم الأخلامو والأراميين ثمانى وعشرين مرة من أرض سوخى حتى مدينة قرقميش وأسر منهم وقتل ونهب ، وانتصر على ست مدن من مدنهم على سفح جبل بشرى وحرقها ودمرها ونقل غنائمها إلى آشور (٥) ، كما عبر الفرات مرتين فى عام واحد ليدحرهم ، وتغلب عليهم ابتداء من تدمر فى أرض أمورو ، وعنات فى أرض سوخى ، حتى مدينة رابيقو فى كار دونياش (بابل ؟) (٦) . وجرب حظه مع بابل نفسها فانهزمت جيوشه أمام جيوش ملكها « مردوك نادين أخى » حيناً ، وانتصرت عليه حيناً أخرى ودخلها لأمد قصير (٧) . وبلغ من ثقة تيجلات بيليسر بسيطرته على ملكه العريض أن بنى له رجاله قصرين فيما بين سوريا والعراق فى تل

---

(١) Leo Oppenheim, *ANET*, 274–75 ; Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, I, 300 f.

(٢) *Ibid., and See,* Jacobsen, *The Sumerian King-List*, 181 f. ; Lewy, *HUCA*, XIX, (1946), 476.

(٣) Luckenbill, *op. cit.*, 271, 300 f. ; F. Lehmann-Haupt, in *Materialen zur alteren Geschichte Armeniens und Mesopotamiens*, 1907.

(٤) Luckenbill, *op. cit.*, ; *ANET*, 275.

(٥) Dupont-Sommer, *op. cit.*, 18.

(٦) *Ibid.*, 18, 21 ; Luckenbill, *op. cit.*, 287.

(٧) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

برسيب (تل أحمر) وخادانو (أرسلان تاش) وزخرفوا جدرانهما برسوم حروبه ورحلات صيده وأساطير قومه ، وتأثروا فيها بعض الشئ بالأسلوب السورى (١) .

لم تخل حوليات تيجلات بيليسر من ادعاء واضح فى تعداد الشعوب التى أخضعها والتى قد لا يزيد أغلبها عن مدن وقبائل متفرقة ، وفى تأكيد انتصاراته المستمرة على ملوك قد لا يزيد أغلبهم عن حكام إقليميين إلى جانب أن تعدد حروبه مع جماعات بعينها ، مثل جماعات الأراميين ، يدل ضمناً على عدم وصوله معهم إلى نتائج حاسمة . غير أن هذه الحوليات لم تخل فى الوقت ذاته من أهمية تاريخية فى تصوير مناطق انتشار الأراميين بين قرقميش وتدمر وحدود بابل ، ولم تخل كذلك من دلالة على خطة رسمت طريق التوسع الأشورى بعد عهده ، فى مناطق جنوب شرق آسيا الصغرى وفى لبنان وشمال سوريا ، إشباعاً لشهوة المجد ، وللاستفادة من أخشابها ، وضمان تنفيذ موانيها التجارية لرغبات آشور ، أو على الأقل لضمان تعاملها معها ، وإن كان تيجلات بيليسر قد عبر عن هذا بتلقى جزاها . وكانت سياسته فى معاقبة أعدائه نبراساً متواضعاً للقسوة الأشورية حين بلغت عنفوانها ، فكررت حولياته أنه حرق مدناً وشرد أهلها وقطع رؤوس زعمائها وعلقها على أسوارها ، واعتبر أبناء الأمراء المستسلمين له رهائن عنده .

ولم ينس تيجلات بيليسر حظه من الدنيا ، فإلى جانب قصريه السابقين ، ذكرت نصوصه أنه استقل سفينة من أرواد وأبحر بها مسافة طويلة ، وصاد ما يسمونه فرس (أو كلب) البحر فى البحر الأعلى . وذكر ما يفهم منه أنه أمر باستيراد نباتات جديدة لتزرع فى بساتينه ، واستيراد قطعان من الماعز الجبلى لتطلق فى ساحات الصيد والقنص المخصصة له (٢) .

• • •

صاحب فترات الازدهار السياسى والحربى فى المرحلة الثانية من العصر الوسيط نشاط مناسب فى مجالات العمارة والفن والتشريع ، وأخذت آشور تعبر بنفسها عن نفسها فى كل هذه المجالات مع الاستفادة المستمرة من جيرانها .

ولما كانت عمارة المعابد فى العصور القديمة من أهم ما أشبع رغبة الملوك فى خلود الذكر والتفاخر ، تعددت مشروعاتها الأشورية ، ومنها معبد مزدوج فى العاصمة أشور للمعبودين آنو وأداد ، بدأ فى عهد أشور رش إيشى وتم فى عهد ولده تيجلات بيليسر الذى ذكرت نصوصه أنه رفع قمته إلى السماء ، ويذهب الظن إلى أن برجيه كان يرتفعان نحو أربعة طوابق وأن واجهات جدرانه وأسواره كسيت بالآجر ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك أكثر من مرة فى العصر الأشورى الحديث .

---

(١) Thureau-Dangin..., *Tel Bersip*, 45.

(٢) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٦٠ .

وعثر في نينوى على تمثال لمعبودة فقد رأسه وأغلب ذراعيه وقدميه ، ونحته فنان بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الواقعي ، فمثلها عارية بتقاطيع الجسم الأنثوي العادي ، فأصبح على بساطته يتميز إلى حد كبير عن تماثيل المعبودات الأشورية الثقيلة ذات الملابس الكاسية .

ومن أهم ما استحدثته آشور في نظمها الإدارية منذ أوائل عصرها الوسيط ، تأريخ وثائقها بأسماء كبار شخصياتها على التعاقب واحداً فواحداً كل عام ، بحيث يبدأ تأريخ الوثائق باسم الملك الحاكم طيلة العام الأول لاعتلائه العرش ، ثم يتجدد اختيار أحد كبار موظفيه عن طريق القرعة كل عام ، ويلقب بلقب «لمو» أو شاغل وظيفة « لمو » (١) ، ولعلها كانت تعني ولايته لأمور التشريع والتوثيق في عام بعينه .

ونظمت طريقة اختيار الليمو فيما بعد ، فرتبت الوظائف الكبرى في الدولة ترتيباً تنازلياً ، يبدأ بعد الملك بالوزير (؟) ثم الترتانو وكبار رجال البلاط والحكومة المركزية ثم كبار ولاة الأقاليم ، ويليها كل منهم عاماً واحداً بعد عام الملك الذي يبدأ باعتلائه عرشه ، حتى إذا انتهت القائمة وطال حكم الملك أكثر من ثلاثين عاماً ، يبدأ التأريخ باسمه مرة ثانية ويعود الترتيب التنازلي بعده من جديد . ومعروف أن المصريين القدماء كانوا يعتبرون فترة الثلاثين عاماً فترة مثالية لتولى الملك عرشه ويحتفلون بعدها بعيد يعتقدون أن طقوسه تجدد قدرته على بداية فترة حكم جديدة . ولا ندرى مدى الرابطة بين هذا التقليد الذي أخذ المصريون به منذ بداية عصورهم التاريخية وبين تحديد فترة الثلاثين عاماً للملك الأشوري . أما تأريخ الوثائق باسم حاكم كبير لفترة عام واحد ، فظهر له شبيه فيما بعد في أثينا التي كانت تؤرخ وثائقها باسم من يلي منصب الإبينيموس أرخون السنوي ، كما ظهر له شبيه آخر في دولة سبأ بالنسبة لمن كان يلي منصب الرشاوة ، وفي دولة قتبان بالنسبة لرئيس مجلس المسود (٢) . ولا ندرى مرة أخرى مدى الصلة بين هذه التقاليد .

وقد يكتفي كاتب اللوحة الأشوري بذكر اسم صاحب الليمو ، أو يضيف منصبه إليه ، أو يضيف إليه إسم حادثة هامة حدثت في عامه . ومن هذا القبيل أن أرخت هبة عقارية من عهد أشور أوبالليط (١٣٦٣ – ١٣٢٨ ق.م) بشهر كيناته ، اليوم السادس ، ليمو « أداد ناصر » ، ثم وقعت بخاتم « أشور أوبالليط ملك آشور إبن إريبا أداد » (٣) .

التشريعات الأشورية :

عثر في أطلال العاصمة أشور (قلعة الشرقاط الحالية) على لوحات تشريعية (من الصلصال) نسخت نصوصها خلال عهد تيجلات بيليسر الأول في أواخر القرن الثاني عشر ق.م ، ولكن ذهب ترجيح بعض

(١) J. Lewy, *Revue Hittite et Asiatique*, V (1939), 117 f. ; U. Ungand, in *Reallexikon der Assyriologie*, II, 412 f. ; E. F. Weidner, *A. f. O.*, XII (1941), 308 f.

(٢) عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة – ١٩٨٨ – ص ٦٩ – ٧٠ ، ٧٤ – ٧٥ ، ١٠٥ – ١٠٦

(٣) Ebeling, *MAOG*, VII (1933), 88 ; *ANET*, 220.

الباحثين إلى رد أصول تشريعاتها إلى ما قبل عهده بزمن طويل ، وربما إلى أواسط الألف الثانى ق.م(١) ، وسوف نعود إلى مناقشة هذا الترجيح ومعناه .

عالجت هذه التشريعات كثيرا مما عالجته التشريعات العراقية السابقة لها من شئون الأسرة والمعاملات والقروض والرهون والاعتداءات على الغير اعتداء أدبياً أو ماديا(٢) ، ولوحظ من تجديداتها التى لم يكن لها من قبل غير معالم بسيطة أنها استفادت من العقوبات العامة والخاصة لصالح الدولة ، فضمنتها تسخير المذنبين فى أعمال الملك (أى فى مشاريع الدولة) لفترات تتراوح بين عشرين يوما وبين أربعين يوما ، واتصفت بقسوة العقوبات فهددت بالخصى والإعدام على الوتد فى كثير من عقوباتها ، واشتدت فى اشتراط التسجيل والإعلان وإشهاد الشهود فى كثير من موضوعاتها ، وتوسعت فى جواز رهن أفراد الأسرة ضمانا للديون ، وحرمت الاشتغال بالسحر وجعلت عقوبته الإعدام . ولأمر ما جعلت أمور النساء محورا لعدد كبير من بنودها واشتدت على المحرفات بخاصة . فقضت على سارقة المعبد بتنفيذ قضاء ربه فيها (١) . وقضت على من تضع يديها على مواطن بتغريمها ٣٠ مينه من الرصاص وجلدها عشرين عصا(٢) فإذا أصابت خصيته قطعوا إصبعها ، وإذا أضرت الخصيتين فقأوا عينيهـا(٣) ، ولعلهـا عنت بذلك سيئات السمعة والسلوك فى عصر تضمن المجتمع الأشورى فيه طوائف متنوعة من الجماعات الخاضعة له ، وقضت على من تجهض نفسها بإعدامها على الخازوق ، وتوعدت من يتستر عليها (٥٣) .

وجعلت التشريعات للزوج ولاية كاملة على زوجته ، وسمحت له بأن يعفو عنها إن أخطأت فى حقه ، أو يطبق عليها بنفسه العقوبات البدنية التى فرضها القانون على مثل حالتها . وكفلت لزوجها حق تشويه أذنيها إذا سرقته وهو مريض ، أو العفو عنها إذا شاء (٣ — ٤) ، وحرية افتدائها إذا سرقت شيئاً ذا قيمة من بيت جاره . أو التخلى عنها ليشوه المسروق أنفها بنفسه (٥) . فإذا كانت هذه العقوبات مما يسبب عاهات دائمة مثل فقء العين أو صلم الأذنين أو الجلد المبرح نفذها أمام القضاة وبحضور موظف مسئول ، فإذا أتت المرأة أمرا لم يتناوله القانون جاز لزوجها أن يحلق شعرها أو يعرك أذنها دون عتاب عليه (٥٧ — ٥٩) . فإذا شردت عنه وآوت إلى بيت آخر وبقيت به ثلاثة أيام كان له أن يشوه أذنها أو يعفو عنها ، ويجوز له أن يطالب بصلم أذنى من آوتها وتغريم زوجها إن كان شريكا لها بغرامة كبيرة (٢٤) .

وكما كان للزوجة أن تحتفظ بهبة خاصة « ترىباتو » تقدم إليها حين خطبتها ويكون شأنها شأن الشرقتم (أو الشركو) الذى تدخل به بيت الزوجية ، اعتبرت التشريعات الأشورية الزوجة متضامنة مع زوجها فى ديونه وعواقب أخطائه وجرائمه (٣٢)، واعتبرت ثروة أحدهما ثروة للآخر إذا انتفعت منه بهبة عقارية (٣٥)(٣)

---

(١) See, Driver and Miles, *op cit.*, ; Meek, *ANET*, 180–188.

(٢) تعبر الأرقام الموجودة بين قوسين عن الأرقام الاصطلاحية لبنود التشريع .

(٣) كونتينو (ج) : المرجع السابق — ص ٣٦ — ٣٩ .

ونظمت وضع زوجة المحارب الغائب فقضت أن تنتظره خمسة أعوام ، فإذا كان لها أولاد ينفقون عليها استمرت فى عصمته (٣٦) ، أما إذا علمت بأسره وكانت مقلة غير ذات ولد فعليها أن تنتظره عامين فقط على أن يكفل القضاء لها ما تتعيش به سواء من إيجار أرض زوجها أو داره ، أو من معاشات القصر الملكى ، ثم يسمح لها بالزواج من آخر ، على أن يكون لزوجها الأول أن يستردها إن عاد من الأسر (٤٥) .

وسمحت لوالد الخطيب الذى فقد ولده بأن يزوج خطيبته لأحد أولاده الآخرين الذين بلغوا العاشرة (زواجاً إسمياً حتى يكبر ؟) ، أو أحد أحفاده من خطيبها المفقود (؟) ، ولا يحق له أن يزوجها بولد دون العاشرة إلا برضاء أبيها (٤٣) ، وسمحت للأرمل غير ذات الولد بأن تتزوج أحد أبناء زوجها (من زوجة أخرى ؟) (٤٦) وهى عيبة وجد لها ما يماثلها فيما بعد فى المجتمع العربى الجاهلى .

وربما كان لعادة الحجاب أصل بابلى قديم ، ولكن الجديد فيه هو أن التشريعات الأشورية أصرت على خروج الحرائر محجبات من الرأس إلى القدم ، لا سيما إذا خرجن وحدهن ، وعلى أن تسلك الجوارى سبيلهن إذا اصطحبن سادتهن . وأعفت من الحجاب الكاهنات اللائى وهبن عفافهن للمعبد ولم يتزوجن . وحرمته على الإماء والعاهرات تمام التحريم ، وإذا استخدمنه جردن من ثيابهن وضربن بالعصا وصب القار على رءوسهن . وأوجبت على المواطنين فى هذه الحالة أن يقبضوا عليهن محجبات ويشهدوا عليهن ، وتوعدت من يتغاضى عن ذلك بجلده وتسخيره وثقب أذنيه (٤٠) . واشترطت لحصانة المحظية أن يشهد سيدها خمسة أو ستة من جيرانه على أنها أصبحت زوجته وحينئذ يحق لها أن تتحجب ويحق لأبنائها أن يرثوه فى إقطاعيته (٤١) .

وحرصت على عفاف الزوجات المحصنات ، فقضت بقطع إصبع من يربت على خد أنثى متزوجة ، وقطع شفته السفلى إن قبلها (٩) ، وقضت بالإعدام على من اعتدى على امرأة متزوجة رغماً عنها (١٢) ، وقضت بإعدامهما معاً إن رضيت بما فعله معها . وقضت عليه بما يوازى قضاء زوجها فيها ، فإن قتلها قتل ، وإن صلم أذنيها خصى وشوه وجهه ، وإن عفا عنها عفى عنه (١٥—١٦) ، وقضت على من يرافق امرأة متزوجة فى الطريق بتغريمه تعويضاً لزوجها (٢٢) ، وقضت بإعدام القوادة إن دفعت امرأة إلى الفسق رغماً عنها (٢٣) .

وفى الوقت نفسه قضت على من يتهم امرأة بالزنا عند زوجها ويعجز عن إدانتها والاستشهاد على صدق قوله فيها ، باستفتاء النهر فى شأنه إذا شكته المرأة أو زوجها (١٧) ، فإذا اتهمها علناً ولم يأت عليها ببينة وجب ضربه أربعين عصا وخصيه وتغريمه ٦٠ مينه من الرصاص وتسخيره فى أعمال الملك شهراً (١٨) . وقضت على من يغتصب فتاة بكراً بغير رضاها بتجريده من زوجته وتسليمها إلى والد الفتاة لينكحها من يشاء ، وبأن يسلمه (المعتدى) مهر البكر ، فإن شاء بعد ذلك زوجها له وإن شاء زوجها لغيره (٥٥) .

وكافحت اللواط ، فقضت بجواز نكح من يأتيه مع جاره وخصيه (٢٠) ، وقضت على من يتهم جاره بأنه مأبون ثم لم يقم البينة على ادعائه ، بخصيه وضربه خمسين عصا وتغريمه ٦٠ مينه من الرصاص وتسخيره شهراً فى أعمال الملك (١٩) .

وقدرت التشريعات الأشورية جانب المعبودات ، فقضت على من تثبت عليه البينة بالتجديف وسب المعبد بضربه أربعين عصا ، وقضت على من يتهم آخر بهذه الخطيئة ويعجز عن إثباتها عليه ، بنفس العقاب البدنى مع تسخيره فى أعمال الملك شهراً .

ويبدو أن سلطة الأب الأشورى على أبنائه قد زادت بحيث كان يوصف فى بعض الوثائق القانونية بأنه سيد أو مالك لولده . وقد توسعت التشريعات الأشورية فى جواز رهن أفراد الأسرة فى دين ، ولكنها حرمت على الدائن أن يزوج إبنة مدينه الرهينة دون موافقة أبيها (٣٩ ، ٤٨) ، فإن مات أبوها وانتقلت ولايتها إلى أخوتها ، أصبح لهؤلاء أن يحرزوها من رهينة الدين خلال شهر ، وإلا جاز للدائن أن يزوجها بمن يشاء (٤٨) ، أو يبيعها إذا ورد ما يبيح له ذلك فى نصوص القرض (٤٨) . ولكن حرم على الدائن أن يبيع الرهينة قبل نفاذ الأجل ، وقضت عليه بالضرب والسخرة والغرامة وفقد دينه إن فعل ، فإن مات الرهين عنده ميتة غير طبيعية عوض أهله عنه بمثله (إن كان عبداً ؟) .

واشترطت التشريعات للبيوع العقارية أن يعلن المنادى عن العين ثلاث مرات خلال شهر حتى يتسنى لأصحاب الحقوق أن يسجلوا مستحقاتهم لدى المسجل الحكومى خلال هذا الشهر ، فإن خلت العين من الالتزامات ، وجب تسجيل بيعها فى حضرة ممثل ملكى (أو وزير) وكاتب المدينة والمسجلين والمنادى إذا تمت الصفقة فى العاصمة ، أو أمام عمدة أى بلدة أخرى وثلاثة من أعيانها (لوحة ب ٦) .

واستمرت التشريعات فى أحكام أخرى كانت لها أشباهها فى التشريعات القديمة ، لا سيا فى شئون المواريث والمشاركة والإيجارات والعمل وما إليها . وإذا كان هناك ما نختتمها به فهو أنها لم تلتزم فى تعبيرها عن الأحرار بلفظ واحد ، وإنما فرقت فى التعبير أحياناً بين لفظ « السيد » ، وبين لفظ « الأشورى » (فى مثل لوحة « أ » مادتى ٢٤ ، ٤٠ ، ولوحة « ج » مادة ٣ ، الخ) . وليس ما يعرف إن كان المشرع قد اعتبر ذلك مجرد ترادف لفظى ، أم أنه استهدف به تخصيص الأشورى عن العراقى غير الأشورى ، أم استهدف به التفرقة بين طبقة حاكمة وبين طبقة محكومة تتمثل فى أهل الولايات التى فتحت عنوة وخضعوا للسيادة الأشورية المباشرة فى مقابل اعتبارهم مواطنين أشوريين (من درجة ثانية) لا سيا وأنه كان ينزل من يدعوه بالسيد منزلة أكبر من منزلة الأشورى الحر (أميلوم) أحياناً . وقام هذا الرأى محل رأى آخر اعتبر التشريعات من وضع طبقة حاكمة مستوطنة ولكنها غير أشورية الأصل مثل طبقة الحوريين أو الميتانيين الذين غلبوا على أجزاء من دولة آشور لفترات متفاوتة إبان قوتهم وضعفها ، مع تقدير اتجاه بعض الباحثين

إلى ترجيح تأليف هذه التشريعات فى القرن الخامس عشر ق . م وهو قرن شهد نشاط الهجرات الهندوآرية، دون أواخر القرن الثانى عشر ق . م الذى نسخت خلاله فى عهد تيجلات بيليسر الأشورى . ولو أن هذا يدعو إلى التساؤل لم أبقى نساخ عهد تيجلات بيليسر على هذه التفرقة بعد أن تخلصت أرضهم من تأثير الطبقة الأجنبية فيها . وذلك أمر لا يكفى فيه الظن بسوء تصرف الناسخ .

* * *

لم يطل أمد مرحلة النهضة الثانية من العصر الأشورى الوسيط ، على الرغم من بدايتها المشرقة ، ويبدو أن توسعها فى عهد تيجلات بيليسر الأول خاصة ، كان طفرة سابقة لأوانها ، فلم تستطع الدولة أن تحافظ على أطرافها البعيدة بعد وفاته ، وانفصلت ولاياتها عنها واحدة بعد أخرى .

وهادنت آشور بابل فترة طويلة حتى تتفرغ للآراميين الذين استمروا فى مناوأتها على فترات متقطعة خلال القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد ، واستمروا على إنشاء الإمارات بجوارها فى شرق الفرات وغربه ، فكونوا إمارة بيت أديني التى امتدى شرقاً حتى بلخ واتخذت عاصمتها فى تل بارسيب على ضفة الفرات جنوبى قرقيش ، وإمارتين فى وادى بلخ ، وعدة إمارات فى وادى الخابور من أهمها بيت باخيانى (وكانت من مدنها جوزانا ووسيكانى) . كما كونت قبائل تيمانايا الأرامية ثلاث إمارات شرق الخابور الأعلى فيما يسمى منطقة طور عابدين وهى إمارات نصيبينا وخوريزانا وجيدارا . واحتفظت بعض روايات التوراة بذكرى هذه الإمارات القريبة من الخابور فى تسمية أهلها أو أرضها « آرام النهرين » (١) ، والنهران هما على الأغلب الفرات وفرعه الخابور ، وتسمية « فدان (أوبادام) آرام » (٢) . وكانت أكبر مدن المنطقة التى عاصرت روايات التوراة عنها هى مدينة حران .

واتجه فريق من الآراميين جنوباً ، فانتشرت قبائل السوخى على جوانب الفرات من عنات حتى رابيقو . وانتشرت قبائل اللاكى فى سهل يقع جنوبى جبل سنجار . ولم يقتصر أمر الآراميين على ذلك ، وإنما اتجهت بعض قبائلهم إلى الجنوب الشرقى من دولة آشور ، فانتشرت قبائل الوتواتى على شواطئ دجلة فيما بين فرعيه الزاب الأسفل والأدهم (٣) . ومال النصر فى مراحله الأولى إلى صف جماعات الأراميين ، بحيث اضطرت آشور إلى الانكماش فى مناطقها الشرقية إلى حين .

* * *

---

(١) Roger, T. O. Callaghan, *Aram Naharaim*, Rome, 1948, 143.

(٢) سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨ : ٥ . Abel, *Geographie*..., Vol. I, 245.

(٣) Dupont-Sommer, *op. cit.*, 21-22.

ج – فى العصر الأشورى الحديث :

اكتفت آشور بحدودها الضيقة تحت ضغط الآراميين حتى تزعمها أشوردان (٩٣٢–٩١٢ ق . م) ، فنهضت فى عهده ، وتأهبت لمكافحة الآراميين شرقاً وغرباً . ثم اشتدت عزائمها فى عهد ولده أداد نيرارى الثانى (٩١١–٨٩٠ ق . م) الذى غلبت شهرته على شهرة أبيه ، ووصفت نصوصها الآراميين حينذاك بأنهم أهل برارى (١) . ويبدو أن أولئك الآراميين (الشرقيين) وإن أخذوا بحضارة بلاد النهرين واطمأن بعضهم إلى حياة الاستقرار والزراعة ، واستطاعوا أن يرهبوا دولة آشور فترة طويلة وكادوا يسيطرون على مسالك تجارتها ، إلا أنهم ظلوا متخلفين حضارياً عن جيرانهم وعن الآراميين (الغربيين) فى بلاد الشام إلى حد ما ، وظلوا يؤثرون النظام القبلى والتركز فى إمارات منفصلة عرفت كل منها – كما مر بنا – باسم بيت كذا وبيت كذا ، فشجع تفرقهم الأشوريين على الاستمرار فى محاولة إخضاعهم كلما توافر لهم ملك طموح وظروف موائية لاستثارة هممهم ، وهكذا تتبعوهم عاماً فعاماً فى عهد أداد نيرارى (الثانى) فى منطقة طور عابدين حيث توزعت إمارات خوريزانا وجيدارا ونصيبينا ، وفى وادى الخابور .

وبعهد هذا الملك أداد نيرارى (الثانى) ، بدأ عصر جديد طويل عرف اصطلاحاً باسم العصر الأشورى الحديث ، أو عصر الاتساع الأشورى الكبير ، وقد استمر نحو ثلاثة قرون من ٩١١ إلى ٦١٢ ق . م ، وشهد مرحلتين عظيمتين من مراحل القوة والازدهار والتوسع توسطتهما فترة ركود . وساعد آشور على التوسع فى المرحلتين أن أغلب شعوب الشرق القديمة فى مصر وبابل وإلام ، كانت قد بلغت أدوار شيخوختها ، وأن الجماعات المستحدثة فى الشرق بقيت على تفرقها ولم تلم شملها ، فانفسح السبيل أمام آشور لتصول وتجول فيه حيث شاءت .

وبدأ المرحلة الأولى للتوسع الأشورى الحديث أداد نيرارى كما ذكرنا ، ولم يتجه فيها إلى فتوح بعيدة ، وإنما عمل على تثبيت قواعد حكمه واسترجاع الإشراف الفعلى لدولته على تخومها الغربية حول نهرى الفرات والخابور ، وإشعار أهل هذه التخوم ، والآراميين منهم بخاصة ، بسلطانه . ثم اتجه إلى تأمين حدوده الجنوبية ، ولما تعارض سلطانه فيها مع سلطان بابل العجوز حاربها مرتين وغلبتها جيوشه فى المرتين ، وأتى نصره عليها بمعاهدة حدودية اعترفت بسيادته على أرض السواد من الخابور فى الغرب إلى ما يجاور بغداد الحالية فى الجنوب الشرقى .

وسار خلفه توكلتى نينورتا الثانى (٨٩٠–٨٨٤ ق . م) الذى تميزت حولياته حروبه بما ذكرته من التفاصيل اليومية ، على سياسته فى إرهاب الآراميين ، فكان من ضحاياهم فى عهده قبيلة « بيت زمانى » التى اتخذت أميدى حاضرة لها (وهى ديار بكر الحالية) . وتتبعت جيوشه قبائلهم الجنوبية فى وسط العراق

---

(١) *Op. cit.*, 18, 31.

وفيما بين دور كوريجالزو (عند أبواب بابل) حتى سيبار (١) . ثم اتجهت حروبه إلى الشمال بغية إرهاب الجماعات الجبلية والوصول إلى حدود يسهل احتلالها أو يسهل الدفاع عنها حسب مقتضيات الظروف .

ومنذ ذلك الحين اتجهت سياسة آشور إلى مثل ما رسمه لها تيجلات بيليسر ابتداء من عصرها الوسيط - من حيث إرهاب بابل من حين إلى آخر ، وإخضاع القبائل الجبلية فى الشمال الشرقى ، وترطيد سلطان الدولة على حدودها الغربية ومحاولة السيطرة الكاملة على الطرق التجارية والحربية التى تتجه غرباً إلى الشام حيث وفرة المنتجات والمخارج البحرية ، مع محاولة إضعاف الفروع الآرامية الغربية التى استمرت فى شرق سوريا وفى أواسطها وامتد نفوذها إلى موانيها البحرية ، ومحاولة الامتداد شمالا بغرب إلى جبال طوروس وآسيا الصغرى .

وتميز من كبار القائمين على تنفيذ هذه السياسة فى آشور ملكها أشور ناصر بال الثانى (٨٨٣—٨٥٩ ق . م) وكان من وجهة نظر المصالح الأشورية أعظم شخصية ضارية وضاربة فى المرحلة الأولى من عصرها الحديث . وقد ورث عن أسلافه الأقربين جيشاً محنكاً وخطة ثبتها هو وخلفاؤه ، وهى : إضرب قبل أن تضرب ، وهاجم قبل أن تهاجم ، واجعل تنكيلك بأقرب خصومك عبرة يخشاها بقية أعدائك (٢) . وبهذا استمر زحف الجيوش الأشورية ، التى استمدت قوتها من تعاون المقاتلين على ظهور الخيل فيها مع الرماة والمشاة المدججين بالسلاح ، واستخدام أدوات حصار وهدم مطورة كانت منها ما سميت اصطلاحاً باسم الكباش أو الثيران التى تكاد تشبهها الدبابات الحالية وهى ذات أربع أو ست عجلات ومقدمة مدببة أو معاول ، ويبدو أنها كانت تدفع بقوة من بعيد لتنقب الحصون وتدكها ، وأخرى كانت تقوم مقام العربات المصفحة يستتر الجنود فيها وينقبون الحصون وهم فى مأمن من سهام العدو ، وأبراج متنقلة ليصعد الرماة فى داخلها إلى مستوى أعلى أسوار العدو ويسددون أقواسهم على حماتها ، وما يشبه الخراطيم لإطفاء النيران التى يحتمل أن يصبها العدو على آلات الحصار . وقد تجمع أداة الحرب بين غرضين أو أكثر من هذه الأغراض . وكان إخضاع الجيوش الأشورية لكل منافس من منافسيها يوسع من حدود دولتها ، فتنساق بهذا إلى أعداء ومنافسين جدد مما يتطلب منها تكرار الإجراء نفسه . ويبدو أن إحاطة آشور بالأعداء والمنافسين من كل جانب قد زكى فيها على مر العصور روح التحدى وإظهار العنف فى المعاملة وقسوة الانتقام ، رغبة فى إشاعة الرهبة حولها وتعويض قلة أعداد أهلها .

أكدت نصوص أشور ناصر بال بمعبد نينورتا فى كالخ أنه سيطر على المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية وأنه تلقى جزى الخاتيين ، وأنه ضرب فى الشام حتى غمس أسلحته فى بحر أمورو العميق (أى البحر المتوسط) وتلقى الجزى من الموانى والجزر (الفينيقية) الكبيرة : صور وصيدا وجبيل ، ومحلاتا ، ومايزا ،

(١) *Op. cit.*, 31.

(٢) أنظر جون هامرتون : تاريخ العالم — معرب بالقاهرة — الجزء الثانى — الخبر الثالث .

وأمورو ، وإمارات الآراميين وأرواد التى فى البحر ، وأنه صعد جبال لبنان ، وجلب (رجاله) أخشاب الأرز والصنوبر من جبال خامانا (أى أمانوس) لمعابد سين وشمش ربى النور ، ولاستخدامها فى قصره. ومع مبالغاته الواضحة ، امتازت الروايات التى أثبتت على لسانه فى حولياته بحيوية فياضة وتفاصيل ممتعة ظهرت بوادرها فى حوليات أبيه كما أشرنا ، ويقول فيها : ارتحلت الى كذا ، وجعلت كذا على يسارى . وعبرت نهر أورانتو مثلا (أى نهر العاصى) وقضيت الليل على ضفافه واحتفلت بعيد كذا فى قصر كذا(١) ، وغالباً ما كان يفخر بعبوره نهر الفرات فى قمة فيضانه مع جيشه الكبير على ناقلات ، وأصبح مثل هذا الفخر عبارة تقليدية رددتها نصوص خلفاته . وسجلت مناظر عهده عبور الفرات هذا ، فصورت نقل العربات على العابرات ، وسباحة الجند بجانبها ، واستعانتهم على تعويمها بقرب منفوخة من جلود الماعز ، وصورت نقل الملك بعربته فى قارب خاص ، وسباحة الخيول طليقة فى النهر أو مع إمساك جنود القوارب بأعنتها(٢) .

وصبغت نصوص هذا الفاتح الأشورى حروبه وانتصاراته بطابع القسوة الشديدة والرغبة فى تخويف الخارجين على سيطرته ، فتحدثت عن أن رجاله كانوا يسلخون جلود كبار الأعداء أحياء وينشرونها على العمد والأسوار وأبواب المدن ، بالمسامير ، وكانوا يعذبون بعضهم على الأوتاد ويقطعون أيديهم ، ويجمعون جماجمهم فى أكوام أوينثرونها على الأشجار ، ثم يحرقون مئات من الأسرى ولا يستثنون النساء ، ويجدعون أنوف آخرين ويصلمون آذانهم ويبترون أصابعهم ويسملون أعينهم ، أو يجعلون أجسادهم لبنات فى مبانيهم . وإن لم تمنع أمثال هذه المعاملة أشور ناصر بال من أن يشيد بفضل أربابه فى تأييده ، ويكرر اهتمامه بتقديم القرابين إليهم وحرصه على تخصيص أخشاب أرز جبال أمانوس لأبهاء احتفالات معابدهم .

ولسنا مضطرين بطبيعة الحال إلى التسليم بحرفية هذين الضدين من المعلومات ، ففى كل منهما مبالغة ، مبالغة فى تصوير القسوة لتكون عبرة ، ومبالغة فى تصوير التقوى للتغطية على الأخطاء . وما ينطبق من حكمنا هذا على نصوص أشور ناصر بال ينطبق على نصوص غيره من الملوك القدماء .

ويفهم من بعض حوليات هذا الملك أن عملية توطين الأشوريين فى المدن المفتوحة ليصبحوا سادتها والمنتفعين بخيراتها وليخمدوا نشاط زعمائها ويكونوا عيوناً عليهم لدولتهم ، قد سبقت عهده وربما بدأت فى عهد شلما نصر الأول ، إذ تحدث أحد نصوصه عن أن جماعة منهم توطنوا فى منطقة جبلية فى الشمال الغربى قد أخذهم الغرور وابتغوا أن يتسعوا لحسابهم فى المناطق القريبة منهم فعاملهم بقسوة لا تقل عن معاملته لأعدائه الأجانب(٣). وترك أخيراً ملكاً موطداً وترك معه قصراً عظيماً فى كالح (نمرود) التى إهتم بها اهتمام شلما نصر الأول

---

(١) Luckenbill, *Ancient Records*, I, 476 f.

(٢) Budge, *Assyrian Sculptures in the British Museum*, Pls. XXI a–b, XXII a.

(٣) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – ص ٤١٨ – ٤١٩ .

من قبله ويبدو أنها كانت تعتبر مصيفاً ملكياً(١) ، ولا تزال بقايا قصره فيها من أروع المصادر لفن النقش فى عهده مما سنعود فيما بعد إلى ذكره .

* * *

استفاد شلما نصر الثالث (شلمانواشاريدو) (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م) من جهود أبيه أشور ناصر بال وحمية دولته ، واستطاع فيما ذكرت نصوصه أن يسود غرب آسيا من الخليج العربى حتى جبال أرمينيا ، ومن الحدود الميدية حتى سواحل البحر المتوسط (٢) . ولم يكن أقل اعتزازا بجبروته من أبيه ، فوصفته نصوصه أنه الأفعوان الكبير أوشوم جال(٣) (وكان لقب الأفعوان الكبير مما يوصف به الأرباب ، وتلقب به حمورابى ثم انتحله الملوك الأشوريون ، ولعل فيه بعض الشبه بالصل الملكى المصرى) ، وأنه طحن أعداءه جميعاً كما لو كانوا من صلصال . وأنه المقتدر الذى لا يعرف الرحمة فى الحروب . . . الخ . وقد ساعدته الظروف فتدخل فى مشكلات عرش بابل ، ولم يكن ذلك بغير ثمن لصالحه وصالح دولته ، فقد أصبحت له اليد العليا على صاحب عرشها بعد أن ناصره ، وسمح له ذلك أن يتعداها بجيوشه جنوبا إلى كلديا والخليج العربى ، ويتلقى هدايا ملوكها (أو جزاهم على حد تعبير نصوصه) . وقد روت قوله عنها : « هبطت إلى كلديا وقهرت مدنها وسرت حتى البحر الذى يسمونه البحر المالح (الخليج العربى) ، وتلقيت فى بابل جزية أدينى بن داكورى من الفضة والذهب وخشب أوشو والعاج . . . » . وصور فنانوه جزية بيت داكورى هذه يحملها أهلها بين صفوف النخيل ويشرف عليها حراسه وكتبته . وسجلوا صورها على أبواب قصره المكسوة بصفائح البرونز فى بلاوات (٤) .

وروت نصوصه فى اتجاهه بجيوشه ناحية الشمال ، أنه اكتسح أرض خاتى كلها وجعلها تلالا خربة كأنما اكتسحها فيضان . ولعلها أرادت بمات خاتى هذه أطراف العراق القريبة من آسيا الصغرى ، أو المناطق التى انتشر فيها بقايا الحيثيين القدماء بعد أن شتتهم أعداؤهم حول قرقميش(٥) ، وكان أبوه قد أشار إلى قتاله إياهم أيضاً . واعتز شلما نصر بزيارته منابع دجلة فى الشمال ، وقالت نصوصه على لسانه : « وبلغت منبع دجلة حيث ينبع الماء ، وغمست سلاح أشور فى مياهه . . . ، وأقمت حفلا سعيداً ، وأمرت (بنقش) نصب باسمى وصورتى » . وصور الفنانون هذه الزيارة على أبواب قصره ، وهى زيارة اعتبرها L.W. King لأحد روافد دجلة العليا المسمى بالكاليم سو(٦) . وعلى مقربة من هذه النواحى ، ذكرت نصوصه حملة له

(١) *See. Iraq*, 1950.

(٢) *See*, Luckenbill, *A.R.*, 475 f. ; Ernest Michel, "Die Assur-Texte, Salmanassars III", *Die Welt des Orients*, 1947, 57 f.

(٣) *See*, *ANET*, 276.

(٤) L.W. King, *Bronze reliefs from the gates of Shalmaneser*, London, 1915, Pl. 64.

(٥) *Cf.*, Luckenbill, *Ancient Records*, I, 475 ; II, 616 f. ; *ANET*, 275.

(٦) King, *op. cit.*, 13.

على أورارتو (أورارتي) ، وهو إسم يحتمل أن أطلقه الأشوريون على المنطقة التي سماها أهلها بياينياس شمال غرب آشور وفيا يتركز حول بحيرة فان الحالية وجبال أرارات شرقي آسيا الصغرى . وكانت النصوص الأشورية قد بدأت ذكرها منذ عهد شلما نصر الأول في القرن الثالث عشر ق.م ، ولكنها زادت في عهد سميه شلما نصر الثالث فذكرت ملكاً من ملوكها ، ثم عادت بعد فترة فذكرت إسم سيدورى قائد أورارتو ، وهو إسم ذكرته أقدم نقوش الأورارتيين أنفسهم بلفظ « ساردورى » ، ويبدو أن شلما نصر قد أحرز بجيوشه نصراً هناك مما خلع عليه شيئاً من القداسة وسمح لفنانه أن ينقش ما يصور تقديم القربان لصورته على سفح جبل قريب من بحيرة فان (١) .

وكانت لشلما نصر (الثالث) ، أو لجيوشه بمعنى أصح ، قصة طويلة مع سوريا ، امتازت نصوصه عنها بتضمينها عدة أسماء لاتزال حية في أسماء مدنها ومواقعها مع تحريفات وتصحيفات يسيرة مثل أسماء : خالمان عن حلب ، وأماة عن حماة ، ودمشق عن دمشق ، وخاورانى عن حوران ، وأرانتو عن نهر الأورنت (العاصي) . وخزى عن عزى ، وقرقرة عن قرقر ، وعمون . . وما إليها . غير أن الأهم من ذلك هو تضمينها إسم أريبو أو عريبو بمعنى العرب ، وأعراب البادية خاصة ، وصفة أربي بمعنى العربي ، لأول مرة في النصوص القديمة المعروفة ، وإسم جنديبو تحريفاً لاسم أمير عربي يدعى جندب أو جندية . وإسم أخابو تحريفاً للاسم العبرى أخاب أو أحاب . وخطط شلما نصر لمهاجمة دمشق ، أكبر الإمارات الأرامية العربية ، بعد أن أرهب هو وأبوه من قبله الإمارات الأرامية الأخرى التي توزعت بين الفرات وبين قلب الشام . ولكن دمشق لم تكن صيداً سهلا على الرغم من طول منافساتها مع جيرانها من الأراميين والبدو والعبرانيين ، فعزمت على الوقوف في وجه جبروت الأشوريين ، وجمع أميرها أداد إدرى أو (هداد عذيرى ؟) الأحلاف حوله من أهل الشام ومن العرب أو الأعراب ومن العبرانيين الذين تناسى معهم ضغائنهم القديمة في سبيل مواجهة عداء الغزو الأشورى العنيف ، وخف بهم إلى قرقر حيث ضم إليه أميرها وجيشه .

وعبرت نصوص شلما نصر عن لقائه (أو لقاء قواته) مع أولئك الأحلاف بتعبيرات مسرفة ولكنها طريفة ولا بأس من الاستشهاد ببعضها كنموذج لأمثالها . فقد روت على لسانه ما يقول : « . . . حينما اقتربت من حلب (خالمان) خشى (أهلها) الحرب وارتموا على قدمى ، فتلقيت جزاهم فضة وذهباً وضحيت أمام أداد حلب ، ورجعت من حلب وبلغت مدينتى إرهولينى الحموى ، فهاجمتهما وهاجمت عاصمته أرجانا ، وتلقيت جزاءه . واستوليت على ممتلكاته وحرقت قصوره ، ثم واصلت المسيرة إلى قرقرة فمزقتها وحرقتها ودمرتها ، وكان (أميرها) قد جمع حوله ألفين ومائتى عجلة حربية ، وألفا ومائتى فارس ، وعشرين ألفاً من مشاة أداد إدرى الأمورى (الإمريشو أو الإمريشي) واستعان بسبعمائة عربة وسبعمائة فارس ، وعشرة آلاف من مشاة إرهولينى الحموى ، وألفى عربة وعشرة آلاف من مشاة أخابو وأرض إسرائيل(؟)Akha - ab - bu mat Siri - la - a - a (?),

---

(١) B. Pritchard, *The Ancient Near East in Pictures*, Fig. 155.

خمسمائة جندى من قوى ، وألف جندى من مصرى ... ، وألف (راكب) جمل من جنديبو الاربى أى جندب أو جندبة العربى) ، و ... ألف من بأسا بن روهوبى العمونى ... (وكلهم) إثنا عشر ملكاً أهبوا للاقاتى فى معركة حاسمة ، فقابلتهم بقوات آشور العظيمة التى هيأها لى مولاى أشور ، وبالأسلحة لتى قدمها لى مرشدى نرجال ... ، وأوقعت بهم الهزيمة بين مدينتى قرقرة وجيلزاو ، وذبحت أنفاً وأربعمائة من جنودهم بالسيف ، وانحططت عليهم انحطاط أداد حين يرسل عواصفه الممطرة مدراراً ، وبعثرت جثثهم (فى كل مكان) ، وملأت السهل كله بهم ، وأجريت دماءهم ... ، وضاق السهل عن نزول أرواحهم (إلى العالم السفلى) ... ، وجعلت جثثهم معبراً لى على نهر الأرانتو (الأورنت) ... » .

وهكذا أكد شلما نصر انتصاره على خصومه الأراميين وحلفائهم فى موقعة قرقر حوالى عام ٨٣٣ ق.م ولكن كانت هذه من المرات النادرة — بمحض الصدفة — التى سجل الأراميون فيها وجهة نظرهم فى مواجهة آشور ، وقد أكدوا فيما سجلوه عنها أنهم أحرزوا فيها نصراً كبيراً . ولن نملك إزاء تضارب المصدرين إلا أن نفترض أن موقعة قرقر هذه لم تكن حاسمة لأى طرف من الطرفين ، لاسيما وأن الكتبة الأشوريين قد أعادوا ذكر انتصار ملكهم وتغنوا به مراراً وتكراراً فى نقوش قصوره وعلى العمد والنصب ، وذلك مما يعنى تكرار حروب الأراميين ضده ، أو هو يعنى تقديرهم الكبير لقوة الأراميين وحلفائهم واعتبار النصر عليهم أى نصر ، كسباً كبيراً ومجداً عظيما . ويبدو أن الحلف الذى استشهدنا برواية شلما نصر عنه ، لم يكن الحلف الوحيد الذى حاول الأراميون تكوينه على الرغم من انسلاخ أخاب الإسرائيلى وقومه عنهم ، فقد تحدثت النصوص الأشورية عن تحالف أداد إدرى مع أمير حماة وإثنى عشر ملكاً نسبتهم إلى ساحل البحر حيناً ، وإلى ساحل البحر الأعلى والبحر الأسفل حيناً آخر ، وضمت إليهم كل ملوك خاتى مرة ثالثة ، ثم جعلتهم خمسة عشر ملكاً مرة رابعة . وتبارى الكتبة الأشوريون فى تضخيم أعداد قتلى خصومهم الأراميين فيما بين العام السادس والعام الرابع عشر من حكم ملكهم ، فتارة هم ألف وأربعمائة ، وتارة خمسة وعشرون ألفاً ، وتارة عشرون ألفاً وخمسمائة ، وتارة عشرون ألفاً وتسعمائة ... الخ . وعلى أية حال فلم تهن عزيمة دمشق ومن بقى على الولاء لحلفها إلا بعد أن مزقتها الأطماع الداخلية ، فاغتيل أداد إدرى ، وولى بعده حزائيل ، وكان ذا كفاية حربية مثله ، وإن كانت النصوص الأشورية قد ادعت أنه مجهول الأب . وروى شلما نصر قصته مع هذا الأمير الجديد قائلا : « وهلك أداد إدرى ، وأصبح حزائيل أميراً على دمشق ... ، وفى عام الثامن عشر من حكمى عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة وكان حزائيل الأمورى (خزائيل الأمرينو) قد اطمأن إلى جيشه الكثيف وتحصن فى جبل سنير (سا — نى — رو) المواجه للبنان فقاتلته وأنزلت به الهزيمة وقتلت ١٦٠٠٠ من رجاله بالسيف ، واستوليت على ١١٢١ عابة ، و ٤٧٠ جواداً ، وسيطرت على معسكره ولكنه فر بنفسه فتتبعته إلى دمشق عاصمته . وقطعت بساتينها ... ، وواصلت المسيرة حتى جبال حوران (شادى مات خاورانى) ملمراً وممزقاً ومحرقاً مدناً لا عد لها ومستولياً على أسلاب لاحصر لها ... ، ووصلت حتى جبال بعلى رأسى بجانب البحر وأقمت هناك نصباً بصورتى ، وتلقيت حينذاك جزى أهل صور وصيدا وياهو بن (أو أمير) عمرى .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة بين الأشوريين وبين حزائيل ، وإنما تكرر لقاؤهما مرات وكانت إحدى هذه المرات فى العام الحادى والعشرين من حكم شلما نصر . وترتب على إضعاف دمشق أخيراً ما يسر للأشوريين بسط سلطانهم على الإقليم الواقع شمالها والممتد فيما بين الفرات وبين البحر المتوسط . وروى ملكهم هذا الأمر بأسلوبه الخاص فقال فى نصوصه : « اكتسحت مدن أرض أمورو العليا فصارت تلالا فى مهب الريح العاصفة ، وعبرت منتصراً على طول شاطئ البحر الكبير »(١) . ويبدو أن موانى فينيقيا آثرت السلامة حرصاً على أمنها التجارى ، فواسات شلما نصر بهداياها واحترامها ، وإن كان فنانوه قد اعتبروا هذه الهدايا جزى وأسلاباً ، فصوروا على أحد أبواب قصره هيئة ميناء صور فوق جزيرة صخرية وسط البحر تنتقل منها قوارب الجزى حتى الشاطئ حيث يساعد على رسوها رجال يجرونها بحبال ، ثم صوروا حمولتها تنقل تحت إشراف الحرس الأشورى إلى حيث يستقبلها الملك بنفسه(٢) . ونقش فنان أشورى لملكه نصباً تاريخياً يشيد بأعماله على سفح جبل يجاور نهر الكلب قرب بيروت ، إلى جانب لوحة تاريخية ضخمة قدمه للفرعون المصرى رمسيس الثانى(٣) . ثم ضمن بعض فنانيه أغلب أحداث عصره نقشاً وتصويرا على قائم من حجر أسود ذى أربعة أوجه يقل قطره إلى أعلى على هيئة جسم المسلة ، لولا أن قمته شكلت على هيئة ثلاث درجات صغراها هى أعلاها (على عكس المسلات المصرية المدببة الطرف) ، وشغلوا وجوهها الأربعة بنقوش وصور قليلة البروز للغاية ، ووزعوا مناظرها فى أربع وعشرين لوحة ضمنوها بعض صور الأسلاب والغنائم والجزى وخضوع الأعداء . وعندما أرادوا أن يعبروا عن خضوع إسرائيل لملكهم صوروا ملكها ياهو بن عمرى (وهو فى واقع ليس من بيت عمرى وإنما ولاه الكهنة بعد إنهيار بيت عمرى) ساجداً بين يدى الملك ويشرف عليه من عل رمز المعبود أشور ورمز المعبود شمش ، وكأن خضوعه لم يكن للملك وحده وإنما لأربابه أيضاً . وتضمنت مناظر الغنائم وحدات تقليدية من حملة الجزى وبيئات الصيد ، ومن أطرافها تصوير جمال ذات سنامين (من بكتريا) ، وفيلة من منطقة مصرى فى سوريا ، وقردة بوجوه بشرية مفتعلة (٤) .

نهاية مرحلة :

ادعت نصوص شلما نصر الثالث فيما ادعته ، أنه قاد إثنتين وثلاثين حملة خلال فترة حكمه التى امتدت خمسة وثلاثين عاماً . ولكن نشبت فى نهاية عهده فترة ضعف بدأت بخروج ولده الأكبر عليه بسبب ما هضمه حقه فى ولاية العهد وتخطيه إياه إلى أخيه الأصغر شمشى أداد الخامس ، ثم حدوث حرب أهلية اطتمرت نحو ست سنوات .

---

(١) King, *op. cit.*, 23.

(٢) *Ibid.*, Pl. 13.

(٣) Pritchard, *op. cit.*, Fig. 103.

(٤) *Ibid.*, Fig. 100.

وظلت آشور نحو ثلاثة أرباع القرن من الزمان (٨٢٤ — ٧٤٥ ق . م) تتلقى ضربات جيرانها الأراميين والبابليين وثورات السوريين والفلسطينيين والعبرانيين حيناً ، وتضربهم هي حيناً آخر ، ولكن بغير نتائج حاسمة لها أو لجيرانها . وظل ملوكها يدعون أنهم تلقوا خضوع ملوك أركان الدنيا الأربعة من مشرق الشمس عند البحر الكبير إلى مغرب الشمس عند البحر الكبير ، ولكن بغير دليل صحيح . بل حدث على العكس من ذلك وفى عهد شمشى أداد الخامس بالذات أن تجرأت قوات أورارتو (أرارات وبحيرة فان) فاتجهوا جنوباً بشرق حتى الحدود الأشورية وسجل كتبتهم هناك نصباً بانتصارهم بلغتهم الخاصة ، وباللغة الأشورية ، وفرضوا الجزية على ميليتيا أو ملاطية الحالية وما يجاورها .

واحتفظت روايات المؤرخين الإغريق فيما سمعوه عن هذه الفترة بقصة محورة لملكة أطلقوا عليها إسم « سميراميس » تحريفاً فيما يبدو للإسم الأشورى « سمورمات » أو « شميرام » . ولعلها كانت وصية على ولدها أداد نيرارى الثالث من زوجها شمشى أداد الخامس . ورووا أنهم سمعوا أسطورة تدعى أن أمها كانت إلهة تعبد فى عسقلان قرب البحر ويرمز إليها بصورة نصفها سمكة ونصفها حمامة ، ولما ولدت ابنتها على هيئة بشرية سوية تركتها للحمام يرعاها ، ولهذا سميت محبوبة (رمات) الحمام (سمو) . ثم عثر عليها كبير رعاة ملك آشور ورباها ، وتزوجها حاكم نينوى « أونيس » . ولكن ملك آشور العظيم « نينوس » طمع فيها وأجبر زوجها على التخلى عنها فانتحر ، ولجأت هى إلى الحيلة لتنتقم له ولنفسها ، فكرت بالملك الغاصب وطلبت منه أن يعهد إليها بالعرش والسلطان خمسة أيام فرضى ، واستغلت هى سلطانها المؤقت وأمرت بسجن الملك ثم قتلته ، واستأثرت بالعرش بعده أكثر من أربعين عاماً .

أما من حيث الواقع ، فقد استطاع أداد نيرارى الثالث (٨١٠ — ٧٨٣ ق . م) بعد أن اشتد عوده وانتهت وصاية أمه عليه ، أن يحافظ على القليل الباقى من إرث أجداده ، وساعده الحظ فهادنته أو تمسحت بسلطانه الإسمى بعض إمارات فلسطين ومنها منطقة إدوم ، ويبدو أن غيرتها من جارتها دمشق قد رمتها فى أحضانه ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هى أن زادت العزلة على دمشق وزادت وهناً على وهن ، وفى هذه الظروف روى كتبة الملك الأشورى أنه أخضع أرض أمورو وأرض عمرى وإدوم وفلسطين (بالاستو ، بالابشتو) ، وأن ملك دمشق اضطر إلى أن يعتبر نفسه تابعاً له وقدم له جزاه فى قصره بدمشق . ويبدو أن مهادنة دمشق له كان لها ظل من الحقيقة فعلاً منذ عام ٨٠٢ ق . م(١) . أما فى الشرق والشمال فكان أهم ما تضمنته نصوص أداد نيرارى الثالث هذا من أسماء الأقوام التى تلقى جزاها (أو وصلته متاجرها وهداياها بمعنى أصح) ، إسم أرض الماذيين ، وفارس (باراسو) ، وسوف يكون لهؤلاء وهؤلاء أثر وأى أثر فى المستقبل البعيد لإيران وآشور وبلاد النهرين كلها .

---

(١) وبدأت نصوص شلما نصر الثالث بذكرهما فى عامى ٨٤٤ و ٨٣٦ ق . م .
Luckenbill, *A. R*, 734 f., 739 f. ; *ANET*, 281-282.

ولكن ما لبثت الفتن الأهلية أن عادت بعد عهده ، ومزقت وحدة آشور وأضعفت هيبتها ، فأفلت منها ما كان قد هادنها أو والاها من بلاد الشام ، وتراجعت الجيوش الأشورية مدحورة أمام تقدم نفوذ ساردبوس وأرجستوس حاكمى أورارتو ، وابتدأت أسباب التقارب بين البطائح الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية وبين الماذيين ، وانتهزت بابل المغلوبة على أمرها الفرصة فاستعادت انفصالها عن العجلة الأشورية ، وإن ظلت على حالها من الضعف القديم .

وفى حمأة هذه المشكلات الداخلية والخارجية سجلت النصوص الأشورية حدوث كسوف كلى للشمس وافق عام ٧٦٣ ق . م ، ورتبت عليه ما شاءت من تعليقات عقائدية وخرافية(١) . وفى هذه الظروف كذلك طويت صفحة المرحلة الأولى من العصر الأشورى الحديث .

* * *

مرحلة الأمجاد الأخيرة من العصر الأشورى الحديث :

بدأت المرحلة الثانية للتوسع الأشورى الحديث فى عام ٧٤٥ ق . م . بولاية تيجلات بيليسر الثالث ، الذى ذكرته بعض النصوص البابلية باسم « بولو » . ويحتمل الإسمان أكثر من تفسير واحد ، فقد يكون إسم بولو هو إسمه الشخصى ويدل بهذا على أنه لم يكن من صلب البيت الحاكم أصلا ، وإذا صح هذا أمكن افتراض أنه كان من قادة الجيش نظراً لما تجلى من مهاراته الحربية فيما بعد ، ولما اعتلى العرش تيمن باسم الفاتح القديم تيجلات بيليسر الأول وتسمى باسمه ،أو يكون إسم بولو مجرد مرادف بابلى إخترعه البابليون له لغرض ما فى نفوسهم .

وأراد الحاكم الجديد تيجلات بيليسر أن يثبت قوة شخصيته وأن ينتشل آشور من وهدتها ، فاتجه بفتوحه إلى حيث اعتاد الملوك العظام من قبله ، وبدأ ببابل القريبة منه فهيمن عليها بعد مشقة وعهد بأمرها إلى صنيعة له يدعى نابو نصر ، ثم اتجه بجيوشه إلى سوريا وبعد حروب عامين استعاد أغلبها للنفوذ الأشورى ، وأراد أن يعقب على ذلك بمواجهة ساردبوس أمير أورارتو ، ولكن دمشق التى خضعت له على مضض أعلنت ثورة عنيفة ضده عام ٧٣٩ ق . م ، فأصبح يضرب بجيوشه فى الجهتين واستطاع أن يوهن أورارتو ، ولكنه كان أكثر ضراباً فى الشام ، وذكرت نصوصه من بلدانها إلى جانب الأسماء القديمة التى رددتها نصوص أسلافه ، أسماء عسقلان وموآب وغزة التى لجأ حاكمها إلى مصر . ثم تدخل فى مشكلات العبرانيين وعين عليهم هوشع ملكاً بعد أن خلعوا ملكهم ، وجعله صنيعة له بينهم(٢) .

والتفت الرجل إلى بابل مرة أخرى ، وكانت قد شهدت تنافساً مسلحاً على عرشها ، بعد وفاة نابو نصر العميل الأشورى فيها . وظهر من أشد المتنافسين على حكمها آنذاك مردوك أبال إدين الثانى الذى ذكرته

(١) أنظر جون هامرتون : المرجع السابق .

(٢) *ANET*, 284.

التوراة بإسم مرداك بالادان . فانحطت جيوش تيجلات على المتنافسين وأجبرت مردوك أبال إدين على الفرار، وخضعت بابل للحكم الأشورى المباشر ، ثم تقلد تيجلات تاجها وخلع على نفسه ألقاب ملوكها ولا سيما لقب ملك سومر وأكد ، فى عام ٧٢٩ أو ٧٢٨ ق . م .

واتبع تيجلات بيليسر أربع وسائل لتثبيت قبضته على أطراف دولته وممتلكاتها ، وهى : تعيين حكام أشوريين على مدنها الكبيرة دون الاكتفاء بحكامها المحليين ، وإيفاد مندوبين فوق العادة لتفقدها وتنفيذ مطالب دولته منها ، وربما كان من أولئك المندوبين من لقبوا بلقب رابشاق الذى ذكرته بعض قصص التوراة (١) ولقب « قيبو » الذى قد يعنى معنى القيم أو الرقيب ، وفرض عبادة الأرباب الأشوريين على بعض أهل المدن العنيدة (مثل غزة) ، ثم تشريد أغلب الخطرين من أهل المناطق المفتوحة ، وتهجير أغلب الأيدى العاملة منهم إلى بلاد أخرى بعيدة عنها ، حتى لا تقوم لبلادهم قائمة ، مع إحلال غيرهم من مناطق بعيدة محلهم حتى يضغطوا على السكان الأصليين أو يظلوا بينهم أغراباً مستضعفين ، وتهجير بعض آخر إلى دولة آشور نفسها حتى يظلوا تحت إشراف حكامها وحتى يمكن استغلالهم فى خدمتها استغلالا مباشراً ، وذلك فضلا عمن يستعبدون منهم استعباداً تاماً عند خاصة أهلها . وكان من هذا القبيل أن أمر فى عامه الثالث بتهجير ثلاثين ألفاً وثلاثمائة شخص من سكان المنطقة السورية التى تمتد بين حماة وبين البحر إلى منطقة تسمى كو . . . ، وتهجير ١٢٢٣ آخرين إلى منطقة تدعى الأبا (٢) . ويبدو أنه أحل محلهم سكاناً جلبهم رجاله من منطقة لولومو فى جبال زاجوراس ومن نايرى قرب بحيرة فان . وهجر بأمره فى عام آخر عدداً كبيراً من أهل « بيت خومريا »(٣) ، أى أرض عمرى فى منطقة العبرانيين ، إلى آشور . بل وروت نصوصه أنه هجر بأمره أكثر من مائة ألف من أنصار المتنافسين فى بابل نفسها بعد أن أخضعها لحكمه المباشر . وكثيراً ما كان التهجير يتضمن نقل (تماثيل) معبودات الأعداء إلى آشور وولاياتها القريبة ، باعتبارهم أسرى حرب حيناً ، وباعتبارهم لاجئين تخلوا عن نصرة مواطنيهم لسوء أعمالهم والتمسوا الحماية من أرباب آشور ضدهم(٤)، وكانت لهذه السياسة سابقة منذ عهد حمورابى (ص ٥٢٨) .

ومن أهم ما يرتبط بعهد تيجلات بيليسر ، من وجهة النظر العربية ، هو صدام جيوشه مع قبائل عربية كثيرة انتشرت على الطريق التجارى القديم فى شمال شبه الجزيرة العربية بين البحر الأحمر وبين العراق . وذكرت نصوصه أسماء فريدة يتناولها بحثنا لتاريخ شبه الجزيرة العربية(٥) . ومنها إسمان لملكتين أطلقت

---

(١) *See for* "Rabshaq" : W. Manitius, *ZA*, XXIV, 199 f .; *B.* Meissner, *Babylonien und Assyrien*, I, 103.

(٢) Luckenbill, *Ancient Records*, I, 770.

(٣) *Ibid.*, 819.

(٤) أنظر كذلك خالد الدسوقى : الاستعمار الأشورى وسياسته الدينية فى القرنين الثامن والسابع ق.م ، مقال غير منشور .

(٥) عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة (محاضرات) – إصدار رابع – القاهرة ١٩٨٨ – ص ١٢٦ – ١٣٨ .

على كل منهما لقب « ملكة أريبى » وهما : زيبى (تحريفاً فيما يبدو عن زبيبة) ، وقد ذكرت أنها أدت الجزية لآشور واعترفت بالطاعة لملكها ، ثم سمسى (تحريفاً عن شمس) وذكرتها النصوص الأشورية فى مناسبتين : مناسبة أدت الجزية فيها للملك الأشورى فى بداية عهدها ، ومناسبة أخرى قلبت له فيها ظهر المجن ونقضت إيمانها بالمعبود شمش ، على حد تعبير النصوص الأشورية ، فساعدت الأراميين أعداءه وتركت رجالها يتعرضون لقوافله ، فحاربها الأشوريون حتى أجبروها على الفرار وضيقوا على كثير من أعوانها حتى أهلكهم الجوع ، فاضطرت إلى الإذعان وتأدية الجزية ، ولكن الملك الأشورى لم يطمئن إلى إخلاصها فعين رقيباً أو قيماً على بلادها بلقب « قيبو » ليشرف على توجيه سياستها ويكتب إليه عن أمرها(١) . ولم يكتف الأشوريون بأن يسجلوا نصرهم على الملكة شمس بالكتابة وحدها وإنما سجلوه تصويراً ورمزاً أيضاً (راجع فيما بعد) . وأدرك تيجلات بيليسر أن أعراب الصحراء لن يتمكن منهم غير واحد منهم ، فاستمال إليه بعض شيوخهم ، وعين الشيخ إيدبيئيل مشرفاً على منطقة تدعى مصرى(٢) . يبدو أنها كانت قريبة من الحدود المصرية الشمالية الشرقية عند أطراف سيناء .

ولم يسلم أهل الشام للأشوريين وملكهم تيجلات بيليسر تسليماً مطلقاً ، وإنما انبعثت ثوراتهم من حين إلى آخر ، وظلت مصر ملجأ للفارين من وجهه ، مثل هانو أمير غزة (خانونو الخزاتى). وزادت هذه الثورات بعد وفاته ، فثارت صور ضد ولده شلما نصر الخامس (٧٢٧ — ٧٢٢ ق . م) واستعصمت بجزيرتها وأسوارها . وتطلع العبرانيون حينذاك إلى عون مصر فأعانتهم (ص . ٣١) ، ولهذا إمتد حصار جيشه لعاصمتهم السامرة (سامرينا) ثلاث سنين دون جدوى ، فى نفس الوقت الذى استنفذت فيه قوى بقية جيوشه فى الشام فى إخضاع صور .

ولم تكن بابل أقل ضيقاً بالحكم الأشورى ، فاستغل الأراميون الكلدانيون تذمرها وسعوا إلى استعادة عرشها . وترتب على ذلك كله أن عرش آشور لم يستمر فى أسرة تيجلات بيليسر الثالث غير جيلين ، وانتقل منها فى عام ٧٢١ ق . م إلى أسرة شروكين الثانى أو سرجون الثانى على حد شهرته فى الكتب التاريخية ، وهو رجل لم يكن أقل كفاية من سميه شروكين الأكدى القديم .

• • •

كان من المشكلات التى واجهت سرجون الثانى فى بداية عهده أن انتهز مردوك أبال إدين كبير بيت باكين الكلدانى فترة البلبلة التى صحبت تغيير الأسرة المالكة الأشورية ، فاستعان بقوات الإمية على استرداد سلطانه على بابل ، وهزم الجيوش الأشورية بمعاونتهم وأعلن نفسه ملكاً فى نفس العام الذى اعتلى فيه سرجون عرش آشور أو بعده بعام واحد . وتحالف روزاس ملك أورارتو (وخليفة سارديوس) مع الماذيين

(١) Luckenbill, *op. cit.*, I, 777 f. ; *ANET*, 283, 284.
(٢) *Ibidem.*

فى إيران فى جانب ، ومع الفريجيين فى آسيا الصغرى (أو الموشكيين على حد تعبير النصوص الأشورية) فى جانب آخر ، وبدأ الأحلاف يعملون لحسابهم ويحطمون من بقى على الولاء لآشور من جيرانهم. كما انحل الحصار الأشورى من حول السامرة واندلعت نيران الثورة فى بقية بلاد الشام ابتداء من غزة حتى حماة وأرواد ، وعاونتها مصر هنا وهناك.

وأجل سرجون أمر بابل وأورارتو وآسيا الصغرى والماذيين أيضاً ، وبدأ بفلسطين فأخضعها بجيوشه وأتم فتح السامرة العاصمة الشمالية للعبرانيين وخربها وشرد أهلها وأنهى إستقلال دولتها ، مما سنعود إلى تفصيله والتعليق عليه بعد قليل . ثم أخذ يضرب بقواته شمالا وشرقاً ، ضد أهل أورارتو ، وضد الماذيين ، الذين روى أنه أسر ملكهم دايوكو ، وضد أهل إقليم كيليكيا (خيلاكو) الذين حرضهم ضده ميداس الفريجى (أو ميتا ملك موشكى).

وفرغ سرجون أخيراً لمشكلة بابل بعد هزيمة جيوشه فيها باثنى عشر عاماً أمام الكلدانيين والإلاميين (العيلاميين) . فانفرد بالكلدانيين الذين تركهم حلفاؤهم الإلاميين لمصيرهم ، واسترجع التاج البابلى . وفر مردوك أبال إدين أمامه إلى الجنوب وأخذ معه أشراف بابل رهائن ليساوم بهم حين الحاجة . أما بابل نفسها فقد سلكت سبيل المدن المغلوبة على أمرها ، ففتحت أبوابها لسرجون المنتصر ، واعتبرته محررها ، واستبدلت السيادة الآشورية بالسيادة الآرامية فى عام ٧١٠ ق . م . ولم يطل الصراع بين الأشوريين وبين الآراميين بعدها ، فاجتاحت جيوش سرجون جنوب العراق وشردت بعض أهل بيت ياكين ، وأحلت محلهم أسرى من أهل الجبال الشماليين ، ولكن سرجون عفا عن زعيمهم مردوك أبال إدين واعتبره حاكماً محلياً فى أرض الجنوب ، سواء لإرضاء الأراميين ، أو لإظهار نفسه بمظهر المترفع عن ملاحقته بعد أن أفقده عزه وشهرته .

وكانت لجيوش آشرر فى عهده جولات مع قبائل عربية ، ذكرت نصوصه منها قبائل تمودى والسبئيين ومملكة سمسى مما نناقشه بتفصيل فى معالجتنا لتاريخ شبه الجزيرة العربية(١).

واتبع سرجون طريقة تيجلات بيلسر فى معاملة المدن المغلوبة ،وهى تهجير عتاة أهلها وإحلال غيرهم محلهم ، ووضح هذا الإجراء الأخير فى عهده أكثر مما وضح فى عهد أسلافه ، وكان يتخير (عن طريق أعوانه) المهجرين الجدد من مناطق متباعدة حتى لا تتحد كلمتهم عليه ، ويتخير من صفوف المبعدين إلى آشور مشاة وفرساناً يلحقهم بحرسه الخاص أحياناً لمزيد ارتباطهم بشخصه بعد أن فقدوا ارتباطهم بوطنهم ، ومن ذلك على سبيل المثال أن روت نصوصه أنه عمل على تهجير ٢٧,٢٩٠ من أهل السامرة العبرانيين إلى مناطق أخرى بعيدة مثل حران وضفاف الخابور وأطراف ماذى ، وعمل على إسكان قوم

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق .

آخرين مكانهم ، بعد أن أمر بإعادة بناء السامرة إلى أكبر مما كانت عليه ولكن دون أن يعيد إليها استقلالها ، وعين عليها حاكماً جديداً يؤدى الجزية إليه ، وظل يرسل إلى أرضهم من شاء تهجيره من مشاغبى البلاد الخاضعة ، فأرسل إليها ٧١٥ من عرب البادية و ٧٠٩ من البابليين العصاة . وفعل بالمثل مع منطقة حماة ، وتخير من أسراها ٣٠٠ فارس من ذوى الدروع الجلدية والحراب وضمهم إلى حرسه الملكى ، وهجر مكانهم إلى حماة ٦٣٠٠ آشورى. وفرض أوضاعاً خاصة على البلاد التى فتحها عنوة أو أتبعها لسلطته المباشرة ، دلت عليها عبارات مختلفة وردت على لسانه فى سياق نصوصه ،مثل قوله عن أهل أشدود : « واعتبرتهم رعايا آشوريين وحملوا نيرى »، ومثل قولهعن مستوطنين آشوريين فى قرقميش « وفرضت نير مولاى أشور فوق رقابهم » (١) . ولعله عنى بذلك اعتبارهم رعايا أشوريين (من درجة ثانية) فى مقابل التزامهم بالضرائب والخدمات للملك والدولة والتزامهم بعبادة الآلهة الأشورية وتقديم القرابين لها وهو ما سبق لنا افتراض مثله فى التعقيب على بعض عبارات التشريعات الأشورية (ص٥٨٤) .

أكثرت نصوص سرجون من ترديد أخبار إنتصاراته على عدد ممن أسلفنا ذكرهم من خصومه العتاة لا سيما حكام حماة وقرقميش وأشدود وغزة ، وقائد مصرى دعته بإسم سبيئه (؟) ، فضلا عن أرامبى بابل وأمراء أورارتو . ولن نناقش هنا مدى الصحة فى أخبار هذه الإنتصارات ما دمنا لا نملك دليلا للأسف على نقضها ، فيما خلا حديثه فيها عن مصر ، وحسبنا مما سنذكره عن معاركه ما تنم عنه من صور الغليان فى عهده وما تدل عليه من أن اتساع رقعة الدولة كان يقتضى عيناً ساهرة على الدوام ، وأن شعوب المدن المتحضرة فى الهلال الخصيب لم تتقبل التوسع الآشورى راضية ، وأن النجاح فى بسط النفوذ عن طريق القوة الباطشة شىء ، واستقرار أمور الدولة بعد إتساعها شىء آخر . وإن كان مما يعترف به لسرجون بالذات أنه كان سريع التصرف فى مواجهة المشاكل ومتاعب الحروب ، وأنه كان حريصاً على بث عيونه فى أنحاء دولته ليكتبوا له باستمرار عما يجرى فيها وما يتوقعونه منها . وتضمنت النصوص الآشورية أخبار طريفة عن أولئك الخصوم لا بأس من الاستشهاد ببعضها . فقد بلغ من حقدها على حاكم حماة أن اعتبرته حيثيا سوقيا ملعونا مغتصباً للحكم ، وما ذاك إلا لأنه حرض مدن أرواد وسميرا ودمشق والسامرة ضد الأشوريين وكون حلفاً يشبه حلف قرقر القديم ، بل واتخذ قرقر بالذات مركزاً لنشاطه العسكرى . ويحتمل أن مصر أيدته وعاونته . وعندما إنتصر الأشوريون عليه سلخوا جلده . ووصفت النصوص الآشورية حاكم قرقميش بالوصف نفسه ، فاعتبرته حيثيا خائناً للعهود ، وما ذاك إلا لأنه تعاون مع ميداس الفرجى (ميتا الموشكى) على تحرير بلديهما من تدخل النفوذ الأشورى . واعتبرت النصوص نفسها أهل أشدود فى فلسطين حيثيين أيضاً ، وما ذاك إلا لأن ملكهم إمتنع عن دفع الجزية وحرض جيرانه على أن يفعلوا فعلته ، فعزله سرجون وولى أخاه الصغير على عرشه ، ولكن أهل أشدود كالوا له الصاع صاعين ، فعزلوا صنيعته وأمعنوا فى مضايقته وطردوه ، وعينوا رجلا من غير الأسرة الحاكمة ، اعتبرته المتون الأشورية

(١) Luckenbill, *A.R.*, II, 8, 30 ; *ANET*, 284, 285, 286.

« إيونيا » (١) مغتصباً للسلطة وغير أهل لها ، ثم روت على لسان سرجون أنه جن جنونه عندما سمع بخبره ، فلم ينتظر تجييش جيوشه وركب عربة مدنية وهرع بها هو وحرسه الخاص على حد قوله ، واتجه فوراً إلى أشدود ، ففزع الإيونى ولجأ إلى الحدود المصرية . وحاصر سرجون المدينة حتى سلمت له هى وجيرانها فغنم منهم ونهب وسبى ، وعين حاكماً أشورياً على منطقتها ونقل إليها مهجرين من المناطق الشرقية واعتبرهم رعايا آشوريين (٢) . ولم تبرأ رواية سرجون عن كل ذلك من ادعاء وتهويل ، فقد ذكرت رواية أشورية أخرى أن أهل أشدود حصنوا مدينتهم ضده وأحاطوها بخندق عميق يزيد عمقه عن عشرة أمتار ، وراسلوا مصر وأمراء جنوب فلسطين وبعض جزر البحر ، فخرج سرجون إليهم بجيش كثيف عبر به الدجلة والفرات إبان اشتداد فيضانهما الربيعى (٣) . وذلك مما يعنى أنه لم يفلح فى هجومه بحرسه الخاص الذى قص قصته فى روايته السابقة ، فارتد عن المدينة وعاد إلى بلده واستعان عليها بكثير من جنده .

وكانت لسرجون قصة قصيرة مع مصر ذكرنا طرفاً منها فى سياق التاريخ المصرى (ص ٣١١ ، ٣١٤) حين استجابت مصر لنداء هانو حاكم غزة الذى لجأ إليها منذ عهد تيجلات بليسر ، وساعدته على تكوين حلف يناهض الأشوريين ، وعهدت بمعاونته إلى قائدها ونائب ملكها الذى أسلفنا أن المصادر الآشورية أطلقت عليه اسم « سيبئه » (٤) ولقب تورتان (أو تورتانو ، أو تارتانو) باعتباره لقباً عسكرياً وإدارياً كبيرا (٥) ، ويبدو أنه كان يقيم فى رفح . ولم تذكر المصادر المصرية المعروفة شيئاً عن هذه الحادثة ، ولكن الأشوريين رووا أنهم انتصروا على الحلف وأسروا حاكم غزة (٦) . ثم زادوا على ذلك فرووا أن الملوك المصريين النوبيين الذين ولوا عرش مصر فى ذلك الحين « أولئك الذين لم يتعودوا أن يسألوا عن صحة أجداد سرجون (اعتداداً بأنفسهم واستهانة بالأشوريين) آثروا عدم الاصطدام به وتركوا الإيونى حاكم أشدود الهارب لمصيره (٧) .

وأضافت المصادر الآشورية إسمين أثارا مشكلة عويصة ، فروت أن ملكها تلقى جزى برعو (برعو) ملك مصرو (٨) ، كما روت أنه تلقى إثنى عشر جواداً كبيراً لا مثيل لها هدية من شيلخينى (أو شلكانى) ملك مصرى ، وأشارت معها إلى ما سمته باسم مدينة نخل مصر (٩) . ويبدو أن هذه الأسماء لم تكن لها صلة

---

(١) For *Iamani and Iodna as "Ionian"* See, Luckenbill, *ZA*, XXVIII (1913), 92 f.

(٢) Luckenbill, *A. R.*, II, 30, 62, 79 f., etc... (٣) *Ibid.*, 193 f.

(٤) ورد هذا الاسم فى سياق قصص التوراة أيضاً (الملوك الثانى ١٧ : ١ – ٦) ، وأنظر ص ٣١١ ، وعن تخمين أصله المصرى المحتمل ، يراجع :

Kees, *G.G.A*, 1926, 426 ; Ranke, *Keilschrftliches Material zur Altaegyptischen Vokalisierung*, 38 ; Helene von Zeissl, *Aethiopen und Assyren in Aegypten...*, 1944, 18 f. ; *See also, Vetus Testamentum*, 1952, 164–168 ; 1970, 116–118.

(٥) *Cf.*, A. Unger, *ZATW*, 1923, 204 f. (٦) Luckenbill, *op. cit.*, II, 55, 80.

(٧) *Ibid.*, 62. (٨) *Ibid.*, 18.

(٩) *See*, E. F. Weidner, *A. f. O.*, XIV (1941), 40 f.

وثيقة بمصر بمعناها المعروف حيث ذكرت النصوص الأشورية إسم برعو (برعو) ملك مصرو مع رؤساء البادية مثل سمسى ملكة أربى ، ويثع أمر السبئى ، وذلك مما قد يعنى أن منطقة مصرو كانت من مناطق البادية أيضاً ، ويغلب على الظن أنها كانت قريبة من البحر الأحمر ومن الحدود المصرية ، وأنها نفس المنطقة التى روى شلها نصر من قبل أنه عين عليها الشيخ البدوى إديبيئيل . أما إسم برعو فقد يكون تحريفاً لإسم شيخها البدوى فى عهده . أو تكون تبعيتها القديمة لمصر قد أغرت الكتبة الأشوريين على اعتبار جزاها كأنها جزية من الفرعون المصرى نفسه ، وكان لقبه ينطق فى اللغة المصرية برعو فعلا (وذلك على نحو ما اعتبروا جزى أو هدايا القبائل العربية القريبة من حدود آشور والمتعاملة مع دولة سبأ من جزى الدولة السبأية الجنوبية البعيدة عنها ، تضخيماً منهم لشأن ملكهم وامتداد سطوته ولو من قبيل المجاز) . أما شيلخينى أو شلكانى ملك مصرى ، فقد يكون اسمه تحريفاً لإسم عربى مثل سلحان ، كما رأى الباحث ريكمان (١) ، وليس إسماً لفرعون مصرى كما ظن فيدنر (٢) ، لا سيما إذا أضفنا أن مصر لم تشتهر بتربية الخيول الكبيرة التى أشارت إليها نصوص سرجون ، وإنما كانت جيادها صغيرة الحجم نسبياً تستخدم لجر عربات الحرب ، على الرغم من احتمال تهجينها بسلالة ليبية فى العصور المتأخرة .

ويبقى اسم نخل مصر ، وهذا قد يترجم بمعناه الأشورى بمعنى قناة مصر ، أو سيل مصر ، ويدل بذلك على جزء من وادى العريش ، أو جزء من خليج السويس ، كما رأى بعض الباحثين ، أو يدل على واد قريب من رفح كما نم عن ذلك نص آخر (٣) ، أو يكون له بعض الصلة باسم قرية نخل الحالية فى شبه جزيرة سيناء .

وكان أشد سرور سرجون من أمجاد عهده ، هو سروره بولاء بعض حكام جزيرة قبرس له ورضاهم بإقامة نصب نقشت عليه صورته فى جزيرتهم (٤) . وعبرت نصوصه عن هذه الحال بأسلوبها المبالغ ، فروت أن ملكها أخضع سبعة ملوك من إقليم إيا فى قبرس (إيادنانا) وسط البحر الغربى على مسافة سبعة أيام ، وعلى مبعدة لم يسمع عنها أسلافه . . .(٥) . ولم تكن آشور بالدولة البحرية التى تستطيع أن تمد نفوذها على قبرس بمجهود يمينها كما ادعت نصوص سرجون ، وإنما يبدو أن حكام صور وصيدا الفينيقيين أرباب الملاحة والتجارة ، كان لهم نفوذ كبير على جزء من الجزيرة ، فلما دانت مدينتاهم صور وصيدا لنفوذ سرجون ، سارعوا بالتالى إلى إعلان ولائهم فى الجزيرة له حتى لا يتصدى أعوانه لعرقلة نشاطهم التجارى على سواحل الشام وفيما بينها وبين قبرس .

---

(١) Ryckmans, *A. f. O.*, 1941, 54 f.

(٢) *Cf.*, Weidner, *op. cit.*

(٣) *Op. cit.*, 43 f.

(٤) Winckler, *Die Keilschrifttexte Sargons*, I, Pls. 44–47.

(٥) Luckenbill, *Ancient Records*, II, 99 186.

واحتفظ عهد سرجون برسائل إدارية تكشف عن مدى سيطرة دولته على أتباعها . وكان يبث عيوناً عليهم يكتبون إليه عن مدى تقاربهم وتباعدهم ، ويحرص على أن يتلقى تقارير عيونه أينما ارتحل فى أنحاء دولته الواسعة . فحدث أن زار بابل مرة (فى عام ٧١٣ ق . م) وعهد إلى ولى عهده سينا خريب بتدبير أمور عاصمته ، فأرسل والده إليه يطمئنه على استقرار أمور الدولة ، وبدأ رسالته بما يبدأ به التابع العادى رسالته ، قائلا له : « إلى الملك سيدى ، من سينا خريب خادمك ، سلاماً للملك مولاى ، الأمن سائد فى آشور وفى المعابد وفى حصون الملك كلها ، فليسعد قلب الملك مولاى تماماً » (١) . وشفع سينا خريب رسالته بتقرير مندوبيه ورؤساء حاميات الحدود قرب دولة أورارتو . وتحدثت هذه التقارير عن اشتباكات بين بعض الأراميين وبين السمبريين ، وانتصار الأخيرين فيها ، كما تحدثت عن زيارات ملوك المنطقة (فى الشمال والشمال الشرقى) وأمرائها بعضهم لبعض (٢) . وكان سرجون لا يريد تقارب هؤلاء بعضهم من بعض ، فنمى إلى قصره ذات مرة أن ملك أورارتو وأمراءه سيخرجون بعدد من قواتهم العسكرية بحجة زيارة مدينة موتساتسير المقدسة ، فكتب ناظر القصر (نيابة عن مولاه) إلى أمير هذه المدينة يبلغه استياء مولاه من سماحه لأولئك الحكام بدخول مدينته بجنودهم دون استئذانه . ولكن رد عليه أمير موتساتسير بأنه لن يمانع فى زيارة ملك آشور لمدينته بعسكره ، فكيف يمنع ملك أورارتو عنها ؟ (٣) .

وفى نهاية عهد سرجون بدأت نذر هجرة شعوبية عنيفة تمثلت فى هجرة قبائل السمبريين أو الكيمريين التى تدفقت بقضها وقضيضها على مملكة أورارتو وهزمت قواتها فى عام ٦٠٧ ق . م واستمرت فى تقدمها حتى لاقاها سرجون بجيشه فى عام ٧٠٥ ق . م ، ويبدو أنه قتل فى المعركة أو اغتيل بعدها ، ولكن بعد أن نجح جيشه فى دفع السمبريين ناحية الغرب فاندفعوا إلى آسيا الصغرى وهزموا فى طريقهم جيش ميداس ملك فريجيا ، (ميتا صاحب موشكى) ، أحد أعداء الآشوريين الألداء ، مما أدى به إلى الانتحار . وشيئاً فشيئاً أتى السمبريون وحلفاؤهم التريريون على مملكة فريجيا من أساسها .

* * *

تتابع من الملوك المشاهير فى أسرة سرجون ثلاثة ، وهم : سين أخى ريبا (٧٠٥-٦٨١ ق . م) الذى اعتادت بعض المؤلفات التاريخية الحديثة على أن تذكره باسم سينا خريب أو سينا حريب ، وأشور أخا دين (٦٨١-٦٦٨ ق . م) أو أسر حدون أو أسر هدون كما اعتادت بعض هذه المؤلفات على تسميته ، ثم أشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق . م) الذى ذكره الإغريق باسم ساردانا بالوس . وقد ساعدت على شهرتهم بعض روايات التوراة عنهم . وسوف نذكر أولهم باسمه الأكثر شيوعاً وهو سينا خريب لقربه من إسمه الأصيل .

(١) Harper, *Assyrian and Babylonian Letters*, No. 197.

(٢) *Ibid.*, Nos. 198, 492, 380.

(٣) *Ibid.*, No. 409.

واجهت أولئك الملوك الثلاثة مشكلات ضخمة متعددة ظهرت بوادرها منذ عهد سرجون نفسه . وامتدت جذورها إلى ما قبل عهده . واتبع كل منهم أسلوبه الخاص فى معالجتها بما يتفق مع امكانيات دولته ومشاعره الخاصة واتجاهات السياسة فى أيامه . وأهم هذه المشكلات هى :

١ – خصومة دولة بابل التى ظلت تأنف من الخضوع للآشوريين وظلت فى الوقت نفسه مطمعاً للآراميين الكلدانيين .

٢ – استمرار العداء بين الدولتين العنيفتين المتجاورتين ، آشور وإلام (أو عيلام) ، مع استخدام العيلاميين لكل من الكلدانيين والبابليين للقيام بدور مخلب القط فى بعض مراحل هذا العداء .

٣ – وقوف المصريين فى وجه التوسع الآشورى فى الشام ، وتأييدهم للمناطق السورية والفلسطينية ضده ، مع تذمر هذه المناطق تلقائياً من طابع العنف والتعالى عند الآشوريين .

٤ – رغبة آشور فى إجبار أعراب الصحارى والبوادى القريبة منها على الطاعة ، مع تمرد هؤلاء الأخارى عليها على الرغم من قلة إمكاناتهم .

٥ – اضطراب الأوضاع فى الأطراف الشمالية لآشور وفى آسيا الصغرى نتيجة للنزعات الاستقلالية فيها وخشونة طباع سكان جبالها ونزول هجرات هندوآرية جديدة عليها .

مع بابل :

سوف نعود إلى تفاصيل العلاقات الآشورية البابلية فى تقديمنا لبابل الكلدانية بعد قليل ، وتكفى الإشارة هنا إلى أنه عز على بابل أن تنجب زعيماً من أهلها الأصليين يستعيد لها مجدها القديم ، فتعاقب على حكمها خلال عهد سينا خريب الآشورى مالا يقل عن ستة ولاة ليس فيهم بابلى أصيل ، وأن هذا الملك لجأ فى تعقب أحد حكامها الكلدانيين بعد فراره بأعوانه إلى الشاطئ العيلامى ، إلى إنشاء أول أسطول حربى كبير فى تاريخ الآشوريين ، اشترك فى إنشائه صناع من صيدا وصور وقبرص . وعملوا فيه عاماً كاملا على ضفاف دجلة والفرات ، ونقلوا جزءاً منه على طريق البر ، وعبر الآشوريون وحلفاؤهم به الخليج العربى وهزموا خصومهم . ثم أتى دور بابل نفسها فجرها رجال سين حريب تخريباً عنيفاً وسلطوا مياه نهر الفرات على أنقاضها حتى أغرقوها فى عام ٦٨٩ ق . م . وتمتلق المتمصرين المعوج . ثم يتورع إبن سينا خريب عن تبرير هذا التخريب على حساب البابليين المغلوبين بقوله « لقد كانوا من قبل يذلون الضعيف ، وشاع الطغيان فى مدينتهم والرشا والنهب . وكان الولد يسب أباه فى الطريق ، والعبد يهين مولاه . والجارية تعصى سيدتها . . . ، ولقد عطلوا القرابين ، ووضعوا أيديهم على كنوز إساجيل معبد الأرباب ، وباعوا الفضة والذهب والأحجار الكريمة منه إلى عيلام . . . ، فغضب مردوك إنليل الآلهة ، ودبر أمره على قهر هذا البلد وتشتيت أهله » .

وكان قتال الآشوريين للكلدانيين فى شط العرب بالجنوب موضوعاً للوحة حية صور خلالها الآشورى منطقة المناقع بأسماكها وحيواناتها المائية الصغيرة ، تتخللها أحراج القصب المرتفعة التى آوى الكلدانيون إليها وتجمعوا فيها فى جماعات صغيرة يتداولون مصيرهم . وصور قتالا عنيفاً فى مراكب من البوص المجدول المكسو بالقار ، وصور السبايا الكلدانيات بثياب طويلة كاسية وشعور مرسلة يستعطفن الغازين (١) (وتشبهن للغرابة هيئة الإغريقيات فى المناظر اليونانية القديمة) .

وانكمشت بابل العظيمة على نفسها ، حتى ولى عرش آشور ، أشور أخادين ، وكان فيما يبدو من أم بابلية ، وربما ولاه أبوه نائب ملك على بابل فى حياته ، فانصرفت عواطفه إليها وشجع على إحيائها وولى بدوره عليها ولده الأكبر شمش شوموكين ، وتجاوز عن سلطان الكلدانيين فى أرض البحر مع طاعتهم لولده (٢) . وربما لم يفعل ذلك بدافع العاطفة وحدها ، وإنما بدافع الرغبة أيضاً فى التفرغ لتنفيذ حلمه الكبير بغزو مصر ، واستقر الأمير الأشورى شمش شوسركين ببابل فترة طويلة ونهض بها خلال حياة أبيه وبعد وفاته ، ثم استعمل امكانياته ونفوذه فيها فى التضييق على أخيه الأصغر أشور بانيبال الذى نازعه عرش آشور بعد مقتل أبيه ، وضم إليه حلفاً قوياً من الإلاميين والأمراء الكلدانيين فى أرض البحر ، ولفيفاً من السوريين وأمراء البدو المتذمرين . ولكن ميزان القوى انقلب إلى جانب أخيه الصغير فشددت جيوشه الحصار على بابل عامين ، حتى تفشت فيها الأوبئة والمجاعات واضطرت الى التسليم وأشعل أميرها النار فى قصره وهلك فى لهيبها . ثم زادتها جيوش أشور بانيبال خراباً على خراب ودمرتها (عام ٦٥٠ ق . م) تدميراً عنيفاً لم تفق منه إلا بعد جيل كامل يوم هبت هبتها الأخيرة للانتقام لنفسها وللقضاء على دولة آشور كلها .

والغريب أن أنصار أشور بانيبال لم يتورعوا عن تمثيله على لوحة صغيرة باسماً مستبشراً يرفع بيده سلة من الخوص المجدول إلى ما فوق مستوى تاجه الطويل ، وسجلوا حوله نصوصاً تشيد بفضله فى إعادة بناء « إساجيل » مقر مردوك إله بابل (٣) . واشتد هذا الملك على الكلدانيين الجنوبيين فى أرض البحر فى العام نفسه ، فاضطر واليهم نابو بعل شوماتى حليف أخيه إلى الفرار إلى عيلام . وعين آشور بانيبال « دوباشو » بلاطه والياً عليهم ، ووجه إليهم نداء قال فيه : « أى خدمى . . . سلام لكم وهدأت قلوبكم . . . أذكروا فصلى عليكم قبل خطيئة نابو بعل شوماتى . . . وهأنذا أرسل إليكم بعل إبنى الدوباشو الخاص بى ليرأسكم . . . » ثم طلب منهم الطاعة وهددهم بإرسال جيوشه عليهم إن مالوا إلى العصيان (٤) . وعاش نابو بعل شوماتى لاجئاً فى عيلام لبضع سنوات ، ثم حدث لسوء حظه أن اغتيل الملك العيلامى الذى آواه ، وولى ملك آخر آثر مهادنة

(١) Layard, *Monuments of Nineven*, I, Pl. 25.

(٢) Harper, *op. cit.*, 839.

(٣) B. Pritchard, *The Ancient Near East in pictures*, Fig. 129.

(٤) Harper, *op. cit.*, No. 289.

أشور بانيبال فأبدى استعداده لتسليمه إليه، ولما ضاقت السبل باللاجئ الكلدانى نابو بعل شوماتى أمر تابعه بأن يقتله بسلاحه حتى لا يعانى تعذيب أعدائه ، ولكن هذا لم يمنع الأشوريين من التمثيل بجثته حين سلمت إليهم فقطعوا رأسها وحرموا دفنها .

مع إلام (عيلام) :

استمر العداء ضارياً أطنابه بين الجارتين اللدودتين آشور وعيلام ، وقد آثرنا التعبير عن هذه الأخيرة خلال هذا الكتاب بنطق إلام وهو أقرب إلى لغة أهلها التى لا تتضمن العين السامية مع إلحاقه فى كثير من الحالات أو إبداله باسم عيلام الشائع استخدامه فى المؤلفات العربية.ويبدو أن « إلام » أو « إلامتو » هى التسمية الأكدية لجنوب غرب إيران ووردت تحريفاً لاسم Nim السومرى بمعنى النجد المرتفع وتحويله إلى E-Nim وإبدال نونه لاما . أما عيلام فهو اسم عبرت به أنساب العهد القديم عن الجد الأعلى للإلاميين الذى اعتبرته للغرابة من الساميين فى مثل قولها فى سفر التكوين (١٠ : ٢٢) « بنو سام : عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام » وقد أصبح هو الأكثر شيوعاً . أما الإسم الذى عبر به الإلاميون عن أنفسهم وبلدهم فلا زال موضعاً للجدل ، ومن الألفاظ المقترحة له هافرتى وخاتمتى وأوفاجا . . . الخ (١) . وظلت الانتصارات والهزائم الوقتية الخاطفة دولة بين آشور فى عصرها الحديث وبين إلا م ، حتى فت فى عضد إلام اختلاف حكامها على أنفسهم بحيث انقسموا فريقين ووقفت جيوشهما بعضها لبعض بالمرصاد على ضفتى نهر الهدهد كما ذكر أحد التقارير الأشورية (٢) ، فتدخل الآشوريون فى مشاكلهم لزيادة نارها وتأليب فريق على فريق ، ثم أتت النهاية السياسية لإلام على يد (جيش) أشور بانيبال فدمر عاصمتها سوسه تدميراً شاملا ، وذكرت نصوصه أنه استولى على كل كنوزها ولم يدع فى قصور ملوكها شيئاً إطلاقاً إلا وأمر بحمله معه ، حتى أوانى الطعام والشراب والغسيل ، ولم يدع معبداً فيها إلا أمر بنهبه وتدميره وأسر معبوداته ، ولم يدع مقبرة ملكية فيها إلا وأمر بفتح توابيتها وإخراج عظامها ثم نقلها إلى آشور ، حتى يحرمها الخلود فى أرضها على حد قوله . وزاد فى نصوصه أنه ود لو حمل تراب سوسه معه إلى آشور (٣) (حتى يحرمها البقاء على وجه الأرض إلى أبد الآبدين) . وبذلك أخذ بثأر البابليين القدماء عن غير قصد ، مما فعله الإلاميون معهم فى نهاية القرن الثانى عشر ق . م حينما دمروا عاصمتهم وحرموها من أهم كنوزها وآثارها حتى الحجرية منها (كنصب لتشريعات حمورابى وأمثاله) .

وظلت انتصاراته هذه على سوسه مجالا خصباً لتصورات فنانيه ، فأخرجوا لوحات كبيرة مبدعة صوروا فيها ساحة الحرب تموج بالهرج والمرج ، يقتتل فيها المشاة والخيالة وفرسان العربات ، يدقون الرؤوس بالمقامع

(١) أنظر أيضا : طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة – ج٢

(٢) Harper, *op. cit.*, No. 289.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٤١٩ – ٤٢١ .

ويطعنون النحور والظهور بالحراب والسهام ويحزون الرقاب بالسيوف والخناجر . ويهرع بعضهم لنجدة بعض ، وينحنى بعضهم على جثة قتيل ليسلبه خوذته وسلاحه وجعبة سهامه ، بينما يجثو بعض المغلوبين طلباً للرحمة ، ويلقى بعضهم بنفسه فى النهر التماساً للنجاة . وصوروا القلاع فوق قمم الجبال وعند ملتقى الأنهار يهدمها الغزاة ويشعلون النار فيها ، فيغادرها أهلها ليلحقوا بأفراد جيشهم الذين ركبهم اليأس وساروا مشاة وفرساناً يستحث بعضهم بعضاً ، وقد تكدس شيوخهم وأطفالهم فوق عربات مرتفعة متسعة لكل منها عجلتان كبيرتان وجواد واحد يستحثه سائقه بسوط طويل . ثم صوروا العاصمة سوسه خاوية على عروشها إلا من أطلال البيوت والنخيل ، بيضاوية يحيط بها خندق ومجرى ماء ، ويقع على مبعدة منها نهر كرخا وقد امتلأ مجراه بجثث القتلى والخيول الشاردة والنافقة وبقايا العربات المحطمة . وخرج من المدينة المستضعفون من أهلها رجالا ونساء شيوخاً وصغاراً ، يصفق بعضهم وينشدون نشيداً مغتصباً على أنغام الأوتار ليداروا به بطش الفاتحين ، ويمشى بعضهم رافعين أكفهم فى ضراعة رتيبة ذليلة ، بحيث تحافظ الأم على رفع يدها والتمتمة بفمها بينما تمسك طفلها بيدها الأخرى وتنظر إليه حسيرة كسيرة الفؤاد ، أو تنظر إلى من يسير خلفها لسأله عما سيؤول إليه مصيرها .. (١) ،أما رأس تيومان ملك إلام فكانت أداة رصع الفنانون بها صورهم الغريبة، فصوروا ملكهم يقطعها بيده فى ساحة القتال ، وصوروها معلقة فى رقبة حليفه دونانو الجمبولى الذى اقتيد إلى العاصمة بعد أن قطع لسانه وسلخ جلده ثم ذبح كما تذبح الخراف ، وصوروها مرة ثالثة تتدلى من شجرة فى مجلس شراب مولاهم .

غير أن انتصار آشور على إلام لم يكن خيراً كله ، فقد تحملت إلام حتى ذلك الحين مهمة كبح جماح بقية العشائر الإيرانية من ورائها ، ولا سيما الجبلية منها ، فلما انزاح هذا الحاجز بزوالها ، وقع العبء على آشور وحدها فأحست بأن زيادة التوسع أصبحت تؤدى إلى زيادة المشاكل أمامها .

مع مصر والشام :

رأينا فى سياق بحثنا للتاريخ المصرى فى صفحة ٣١٥ وما تلاها ، كيف ادعت نصوص الأشوريين أنهم انتصروا على جيوش مصر وحلفائها فى الشام انتصاراً مستمراً ، بينما خالفتها قصص التوراة ونصوص المصريين فى بعض ما ادعته لأهلها ، وأن القصة بدأت بعد أن هاجمت جيوش سينا خريب مملكة العبرانيين الجنوبية « يهوذا » التى استنجدت بالمصريين ، فأعانوها ، ليس حباً فيها ، بقدر رغبتهم فى اتخاذها موقعاً من مواقع دفع الغزو الأشورى خارج الحدود المصرية . وروت نصوص سينا خريب أنه استولى على ٤٦ مدينة من مدنها الكبرى فضلا عن أعداد كثيرة من قراها ، وقسمها بين أنصاره من حكام عقرون وأشدود وغزة ، وذكرت أنه أسر أكثر من مائتى ألف من أهلها ، وحاصر عاصمتها أورشليم (أورشاليمو) ، فى عهد ملكها حزقيا ونبيها إشعيا . وصور فنانه فى نينوى حصنها ذا خرجات رباعية وصور رماة الأشوريين حولها

(١) Frankfort, *The Art and Architecture*..., Pls. 103—107.

يعملون على ركبة ونصف يسددون السهام عليها وأمام كل منهم ترس كبير . ويبدو أن جيش الملك الأشورى نجح فى أسر عدد من المصريين ؛ ومن ثم أرسل عامله « الرابشاق » إلى أورشليم ليدعو حزقيا إلى التسليم بعد أسر بعض حلفائه أو يؤلب قومه عليه . ثم روت النصوص أن حزقيا اضطر تحت وطأة الحصار وإزاء ما أصاب النجدة المصرية وانفضاض أتباعه عنه إلى أداء الجزية مضاعفة إلى نينوى ومعها بناته وحظاياه وموسيقييه (١) .

وأسلفنا أنه على العكس من الرواية الآشورية روت أسفار من التوراة أن الجيش الآشورى حل به الموت الإلهى وحام ملك الله فوقه ليلا ، وفى بكرة الصباح أصبحوا جثثاً هامدة (٢) ، فارتد الملك الأشورى مدحوراً بخزى الوجه إلى أرضه (٣) ، بعد أن أصبح جيشه كالعصافة فى مهب الريح (٤) . وروى هيرودوت أن المصريين أطلقوا بوحى ربهم جرذاناً على معسكرات الآشوريين فقطعت أوتار قسيهم وأتلفت جعاب سهامهم وأفسدت سيور دروعهم مما سهل تمزيقهم إرباً . وربط بعض الباحثين بين قصة الجرذان هذه وبين الهلاك الإلهى الذى تحدثت عنه التوراة بأن الجرذان أفشت وباء الطاعون الدملى بين الأشوريين فأهلكت منهم خلقاً كثيراً مما أجبر بقيتهم على الانسحاب (٥) . وعقبنا كذلك بأن توقيت هذه القصة لا زال يتأرجح بين تعيينه بعام حصار أورشليم حوالى عام ٧٠١ ق . م ، وبين تعيينه بعام تخريب سينا خريب لمدينة لاشيش (لخيش) قبيل محاولته الوصول إلى الحدود المصرية حوالى عام ٦٩٠ ق . م ، وكان انتصاره فى لاشيش هذه موضوعاً للوحة حرة نقشها فنانه فى قصر كالح ، وتخلى فيها عن الحدود التخطيطية ، وملأها ببيئة جبلية تنمو الكروم فوقها ، وصور سينا خريب فى مركز قيادته فى حضن الجبل فوق عرش مرتفع (يشبه كراسى الأرابيسك الشرقية المرتفعة) يتقدم إليه كبير أتباعه ومجموعة من القادة يصعدون من أدنى الجبل واحداً بعد الآخر ، ويتفرق على السفح مجموعة أخرى بين صاعد وهابط وواقف ، بينما ارتمى فى حضرة الملك جماعة من يهود لاشيش يقبل بعضهم الأرض ، ويجثو بعضهم الآخر يستعطفه ، وقد تعمد الفنان تحقير شأنهم فصورهم قصار القامة يبدون فى جثيهم وسجودهم على هيئة الأطفال (٦) .

ولم تخل روايات الأشوريين عن بقية ثورات فلسطين من غرابة ، حين تحدثت عن صدقيا ملك عسقلان الذى أبى أن ينحنى للملك الأشورى على حد قولها ، وألب عليه جيرانه ، فأسره هو وأهله وأعقابه الذكور . وتحدثت عن أهل عقرون الذين خلعوا ملكهم بادى صنيعة الآشوريين وسلموه إلى حزقيا اليهودى فسجنه ، وعندما استرد سينا خريب سيطرته على عقرون أراد أن يكون عادلا من وجهة نظره ، فأمر بقتل الموظفين

---

(١) Luckenbill, *The Annals of Sennacherib*, 1924; *Ancient Records*, II, 233 f.; *ANET*, 287—288.

(٢) الملوك الثانى : ١٩ : ٣٥ .

(٣) أخبار الأيام الثانى : الإصحاح ٣٢ .

(٤) إشعيا ١٧ : ١٣ .

(٥) Herodotus, II, 141 ; *Cf.*, L.L. Honor, *Sennacherib's invasion of Palestine*, 1926 ; J. Lewy, *OLZ*, 1928, 150 f. ; U. Ungand, *ZAW*, LIX, 199 f.

(٦) Gadd, *Stones of Assyria*, London, 1936, Pl. 13.

والنبلاء الذين اشتركوا فى خلع ملكهم وتعليق جثثهم على الأعمدة حول مدينتهم ، واكتفى باعتبار المواطنين العاديين المتهمين بمشايعة الثوار الكبار ، أسرى حرب ، ثم غض الطرف عن بقية الجماهير التى لم يثبت عليها سوء السلوك(١) ، على حد تعبير نصوصه .

ودافعت صيدا وصور عن كيانهما التجارى المستقل ضد سينا خريب ، ولم يكتف لولى ملك صيدا بمحاولة تحقيق استقلال دولته ، وإنما حاول أن يعيد إلى حوزتها تلك المنطقة القبرسية التى أعلن حكامها الولاء لسرجون ، لكن محاولته لم تجد أمام قوة آشور ، ففر إلى قبرس حيث مات بها . وعين الملك الأشورى خلفاً له على صيدا يدعى إيثت بعل(٢) . أما صور فقد استعصت أسوارها عليه حتى وفاته .

ولم تيأس المدينتان ، فاستمر نضالها ، فى عهد أشور أخادين (٦٨١ – ٦٦٨ ق.م) ، ولكن فشل مسعاهما نتيجة لعدم تكافؤ القوى بينهما وبين خصومهما ، فدك الأشوريون أسوار صيدا ومبانيها ، وتعقبوا ملكها عبدى ميلكرته فى البحر حتى أسروه ، وكلفوا أعداداً كبيرة من سكان السواحل الفينيقيين وبقايا الحيثيين ببناء مدينة جديدة حلت محلها ونسبوها إلى ملكهم فسموها « كار أشور أخادين » ، ثم زودوا هذه المدينة الجديدة بمهاجرين من أهل الجبال وساحل الخليج العربى . وادخروا نهاية قاسية لملك صيدا وأحد حلفائه الأشداء فى جنوب آسيا الصغرى (سانلدوارى ملك كوندى وسيزو فى كيليكيا) ، فقطعوا رأسيهما وعلقوهما فى عنقى أميرين من أهل صيدا وساقوهما فى موكب النصر بنينوى وسط أصوات المزامير(٣) ، وظلت نصوص الملك الأشورى تؤكد سلطانه على ملوك جزر البحر(٤) .

ووجد أشور أخادين متعة كبيرة فى تكليف إثنين وعشرين حاكماً من حكام بلاد الشام وآسيا الصغرى وقبرص ، بتوريد كل ما يتطلبه بناء قصره فى نينوى ابتداء من الأحجار ، وتعمد كتبته أن يسجلوا هذا التكليف فى نصوصهم بصورة توحى بأن الحكام كانوا يشاركون فى عملية نقل المواد المطلوبة ، بأنفسهم «مع ما فى ذلك من مشقة بالغة »(٥) . ولم تكن الجيوش الأشورية أقل شدة ، أو أقل نشاطاً من وجهة نظرها ، فى معاملة القبائل العربية مما سنتعرض له فى بحث تاريخ شبه الجزيرة العربية . ومع عنف أشور أخادين تفاخر فى بعض نصوصه بتسامحه فى إعادة تماثيل المعبودات التى كانت قد لجأت إلى آشور – كما يقول – إلى معابدها الوطنية. وأطمعت هذه السياسة الطارئة حزائيل ملك قيدار العربية فى أن يرجوه إعادة تماثيل معبوداته التى كان

---

(١) Luckenbill, *op. cit.*

(٢) *Ibid.*, II, 574 ; *Annales of Sennacherib*, 76 f.

(٣) Luckenbill, *A.R.*, II, 527 ; R. Campell Thompson, *The Prisme of Esarhaddon and of Ashurbanipal*, 1931, 16.

(٤) Bury, *History of Greece*, 1959, 217, n. 1.

(٥) Campell Thompson, *op. cit.*

الملكان تيجلات بيليسر الثالث وسينا خريب قد استوليا عليها، فأعادها إليه بعد أن أخذ عليه مواثيق الولاء. وبعد ترميمها نقش اسمه الملكي واسم ربه أشور عليها تذكارا لفضله عليها (١).

وأدى أشور أخادين ما تردد فيه أبوه، فاستعرض عضلاته مع مصر، وكانت مصر تمر حينذاك بفترة من فترات الشيخوخة السياسية والحربية بعد أن أدت دورها الحضارى المجيد قروناً طويلة، وكانت تسيطر عليها فيما مربنا (ص٣٠٧+) أسرة جمعت دماؤها بين الدم المصرى والدم النوبى الجنوبى، وولى عرشها حينذاك طاهرقا الذى رددت قصص التوراة إسمه. وكانت الخلافات الداخلية قد فعلت فعلها فيها كما روى العبرانيون عن نبيهم إشعيا حين ينقل عن ربه: «أهيج مصريين على مصريين فيحارب رجل أخاه ورجل صاحبه، مدينة مدينة ومملكة مملكة» (٢).

نجح الأشوريون فيما رأينا فى إضعاف حلفاء مصر بالشام ليفتوا فى عضدها، وكانت أشد أولئك الأحلاف إخلاصاً مدينة صور التى روت النصوص أن حاكمها «بعلو» (بعل إيلى) أجاب على رسائل الملك الأشورى بإجابة جافة، فشدد الأشوريون الحصار حولها، وحاولوا أن يمنعوا اتصالاتها البرية والبحرية(٣) إلى أن يفرغوا من حليفتها الكبرى، فنجحوا بالنسبة للأولى وطال أمرهم فى الثانية. وقد ابتغى أشور أخادين أن يغزو مصر غزواً مباشراً، أملا فى تحطيم قوتها العسكرية، وطمعاً فى ثرائها، وليقطع معونتها من حلفائها السوريين الذين مافتئوا يتطلعون إليها على الرغم من تجاوز الحظ عن مشاريعها الحربية أكثر من مرة. ولقد أسلفنا فى بحثنا للتاريخ المصرى (ص ٣١٧+) أن مهاجمته لمصر مرت فى مرحلتين، مرحلة بدأها عام ٦٧٤ ق.م بلغ فيها الحدود المصرية الفلسطينية، وهنا روت المصادر البابلية أن جيشه هزم فى معركة دموية بمصر(٤)، ثم ارتد عنها ليواجه حلف السكيثيين والماذيين اللذين هددوا الحدود الأشورية الشمالية الشرقية(٥). ثم مرحلة ثانية بدأها عام ٦٧١ ق.م واستعان فيها ببعض أعراب الصحراء على تذليل مشقة الطريق عبر سيناء والصحراء الشرقية، وكانت له معارك عدة فى الطريق وإزاء منف، كما كانت له سياسته فى ترك بعض الأمراء المحليين فى مناصبهم بعد أن ظن رضاهم بسلطانه، ثم خرج من مصر بكنوز طائلة وأعداد كبيرة من الفنيين والمهنيين ليحرم بلدهم منهم وتستفيد بهم دولته، ولكنه لم يهنأ طويلا بنصره، فثارت مصر ضده وعاونت ملكها طاهرقا على استرجاع سلطانه، فجن جنون أشور أخادين، واعتزم الخروج لمقاومة الثورة بنفسه لولا أن مشكلات وراثة عرشه شغلته عاماً كاملا أعدم فيه عدداً كبيراً من كبار دولته، ثم خرج بجيشه قاصداً مصر ولكنه مات فى الطريق وأفل جيشه عائداً إلى وطنه. وتكفل بمواجهة المقاومة المصرية

(١) Borger, *Asarhaddon*, 27, ef. 3, 23—26 ; Deller–Parpola, *Orientalia*, 37 (1968), 464—466.
(٢) إشعيا ١٩ : ٢
(٣) Luckenbill, *op. cit.*, II, 554 f.
(٤) *See*, *ANET*, 302.
(٥) ديلابورت : المرجع السابق ص ٣١٦

أخلفه شور بانيبال ، واستعان على مشروعه ضدها بقوات من الشام ونواحى الفرات خرجت تحت راية إثنين وعشرين ملكاً ، على حد رواية نصوصه ، واستعان بخبرتهم الملاحية وهاجم مصر من البر والبحر، وانتصر بهم على جيش طاهرقا ، ولكن هذا لم يقض على المقاومة ، فما لبث حتى اشتدت كرة أخرى ، وعاد أشور بانيبال إليها بجيشه للمرة الثانية وبلغ انتقامه فى هذه المرة مداه ودمر طيبة كبرى عواصم العالم القديم ، حوالى عام ٥٦٩ ق.م) وتراجع عن تفاصيل المقاومة وظروف إجلاء الأشوريين عن مصر ص ٣١٨ + ، ص ٣٢٢ +) .

وبقيت أمام الملك الأشورى صور الحصينة ، ويبدو أنه فت فى عضدها سوء حظ حلفائها المصريين ، وقسوة الحصار عليها من البر والبحر ، فاستسلمت للملك الأشورى حين خرج إليها بجيشه الكبير فى غزوته الثالثة وتبعتها أرواد . وتبجحت النصوص الأشورية فروت أن ملك صور استرضاه بتقديم ولى عهده وبنته وبنات إخوته إليه بالهدايا ، فأعاد إليه ولى عهده واستبقى البنات(١) ، وهكذا فعل مع ملك أرواد الذى لم يخضع لأحد من ملوك أسرته على حد قوله ، فقبل إبنته هدية منه . وفعل أشور بانيبال بعرب البادية مافعله بغيرهم مما سنعود إليه فى حينه ، وكانت أشد نقمته عليهم لانضماء بعض زعمائهم إلى أخيه ضده ، وتقلب عواطفهم معه ، وبلغ من شدته معهم أن لجأ إليه أحد زعمائهم وهويويطع (أو يثع) بن حزائيل معتذراً خاضعاً ، فقبل عذره ، ولكنه أمر بوضع مقود فى عنقه وقرنه مع كلب ودب لحراسة إحدى بوابات عاصمته نينوى ، كما أمر بقرن زعيم آخر من زعمائهم بأمراء عيلام وشدهم جميعاً كالخيول إلى عربته فى بعض مواكبه(٢)

وعلى نحو ما بلغت جيوش أشور بانيبال مداها فى بلاد المشرق ، استطاعت أن تدق أبواب مملكة ذات صبغة شرقية غربية فى آسيا الصغرى ، وهى مملكة ليديا التى اعتمدت فى كثير من نشاطها المدنى والحربى على الإغريق المستوطنين فيها ، وتحالفت مع الأشوريين فى عهد ملكها جيجيس ضد قبائل السميريين ، ثم تحالفت مع مصر ضدهم ، فبادلها الأشوريون عداء بعداء وفتكوا بجيشها ، وعندما قتل ملكها جيجيس عام ٦٥٣ ق . م فى كفاحه مع السميريين ، اضطر ولده أرديس إلى مهادنتهم(٣) .

بداية النهاية :

أحاطت بالملوك السرجونيين هالات من المجد شجعتهم على أن يستبدوا بكل من وقعوا تحت طائلتهم ، ولكن بنيانهم الداخلى لم يكن سليما تماماً ، ونخرت فيه عوامل التنازع الأسرى فى القصر الملكى منذ عهد سرجون نفسه الذى اغتيل فى ميدان القتال أو بعده فى عام ٧٠٥ ق . م ، واغتيل بعده سينا خريب فى المعبد ، بيد أحد أبنائه ومعونة صاحب الليمو عام ٦٨١ ق . م ، واستمرت الفتنة قائمة فى آشور منذ يقوم وفاته

(١) Luckenill, *op. cit.*, II, 547.
(٢) *See, ANET*, 298, 300.
(٣) Bury, *op. cit.* 111—112.

فى ٢٠ تيبتو إلى الثانى من أذارو (آذار) ، ثم هدأت وأعلن أشور أخادين نفسه ملكاً فى اليوم ١٨ . وفرق أشور أخادين بين أولاده ، فأوصى لأكبرهم شمشى شوموكين بحكم بابل ، وأهمل الثانى ، وأوصى للثالث أشور بانيبال بولاية عهد آشور . وعقد اتفاقيات متعددة مع أمراء الولايات والمدن فى دولته أخذ عليهم فيها المواثيق بأسماء أربابه وأربابهم أن يظلوا مخلصين لولده هذا قلباً وقالباً وإلا حاق الشر بهم فى الحياة وبعد الممات هم وكل أهلهم (١) . وليس ما يعرف إن كان قد فعل ذلك إيثاراً منه لابن زوجة على إبن زوجة أخرى ، أم فعله تقديراً منه لاتساع دولته وصعوبة إشراف شخص واحد عليها . على أنه مهما يكن قصده فقد تنمر كل من الأخين المحظوظين للآخر ، وانحاز إلى جانب كل منهما فريق من الأمراء والقادة ، وتذبذبت عواطف الأب نفسه بين الفريقين ، فبدأ باضطهاد أنصار الإبن الأكبر الذين احتجوا على مضمون وصيته وأمر بسفك دماء عدد كبير منهم ، ثم استجاب لتحريض من بقى منهم فعاد واضطهد أعوان الإبن الأصغر وتغير قلبه عليه ومات وهو على هذا الإحساس نحوه ، بينما ظلت أمه « زاكوتو » صاحبة الحظوة فى عهد أبيه ، والتى حملت فى عهده لقب الملكة الوالدة ، وفية عطوفة لحفيدها الأصغر ، وعندما خرج يقاتل إخوته وأعوانهم قامت على رعاية شئونه فى العاصمة وأصبح كبار حكام الأقاليم يراسلونها باعتبارها الملكة الوالدة والوصية على العرش ويطمئنونها على ولدها (ويعنون حفيدها) ، وينهون إليها أخبار أقاليمهم (٢) ، وعندما استتب الأمر لحفيدها ظل يتلقى نصائحها (٣) .

ولم يكن للدولة بعد أن أضاع التنافس على السلطان صواب ملوكها ، وبعد أن جرأ الإبن منهم على أن يغتال أباه ، وجرأ الأخ منهم على الفتك بأخيه ، إلا أن تتوقع نازلة قريبة تحل بها وتهد بنيانها . ولكن وقبل أن نصل بالدولة إلى هذه النهاية ، نستعرض فى الصفحات التالية طرفاً مما اتصفت به الحياة الأشورية فى فترات مجدها إبان عصرها التوسعى الحديث ، من مظاهر الحضارة المادية والفنية والفكرية ، إلى جانب ما استدعى السياق التاريخى تصويره متفرقاً فى الصفحات السابقة من مناظر المعارك وفخامة المواكب وصور استمتاع الملوك . ويلحظ القارئ أننا قد نسهب فى شرح نماذج فنية عراقية بأكثر مما أسهبنا فى شرح النماذج الفنية المصرية على الرغم من كثرتها ، وذلك على أساس كثرة ما أصدرناه عن هذه الأخيرة من دراسات مستقلة بها .

صور من الحضارة الأشورية :

ترك الأشوريون آثاراً عدة فى عواصمهم الأربعة الكبرى أشور ونينوى وكالح ودورشروكين . وقامت نينوى بالقرب من الموصل الحالية ، ووجدت بقايا آثارها فى ربوتين رئيسيتين : ربوة قويونجيق فى طرفها الشمالى الغربى وهى الأكبر ، وربوة النبى يونس فى طرفها الجنوبى الشرقى وهى الأصغر . وتوفرت محاجر

(١) Wiseman "The Vassal Treaties of Esarhaddon", *Iraq*, 1958 ; R Borger, *ZA*, 1961, 173—96 ; *ANET*, 1968, 534—541.

(٢) Harper, *op. cit.*, No. 303.

(٣) *Ibid*, No. 324.

الألباستر حولها فاستغلها المعماريون فيها فى بناء وتزيين قصور ملوكهم . ولعبت المدينة دور العاصمة منذ القرن الثامن عشر ق . م وفيما يعاصر عهد حمورابى ؛ وتجدد حظها فى العصر الأشورى الحديث خلال القرن السابع ق . م وفى عهدى سينا خريب وأشور بانيبال بخاصة ، حيث بلغ محيط سورها نحو عشرة أميال ، وتضمن مالا يقل عن خمس عشرة بوابة (١) . ولا تزال أطلال معالم مشروعات القنوات والحدائق باقية نها من عهد سينا خريب ، وقد ذكرت نصوصه أن رجاله زرعوا له فيها شجيرات القطن التى سموها شجيرات الصوف .

ولم تكتشف كل ربوة قويونجيق لاتساعها ، ولكن الصورة العامة للمنطقة التى تشغلها هى قيام قصر سينا خريب فى جنوبها الغربى ، وقصر أشور بانيبال فى شمالها ، وقد اكتشف كلاهما فى أواسط القرن الماضى . وقدر لايارد مساحة الجدران المنقوشة المكتشفة من قصر سينا خريب حتى عام ١٨٥٣ بنحو عشرة آلاف قدم وإن كان أغلبها قد تهدم فى العصور القديمة ، ونقل بعض ما بقى منها إلى حوزة المتحف البريطانى . وتناولت نقوشها ما يصور رحلات الصيد الملكية وحياة البلاط وتقارير تفصيلية للمنشآت المعمارية والدفاعية التى تمت فى عهده وعمل فيها أسراه .

ومثل قصر أشور بانيبال فى نينوى مصدراً آخر للفن الأشورى ، ولو أن ما عرف عنه على الرغم من روعته ، لا يزال أقل مما عرف عن القصر الأول ، ليس فقط لما أصابه من تدميرات متعاقبة ، بل ولضياع كثير من نقوش جدرانه وصورها خلال عمليات نقلها فى العصر الحديث ، ولا تزال بقايا مناظر الصيد فيه تمثل ذروة ما بلغه الفن الأشورى فى ميدانها .

وتخلفت بين القصرين الكبيرين بنينوى بقايا معبدين للإلهين نابو وإشتار . وتحد مدخل المعبد الثانى منهما تماثيل ونقوش تصور الملك منشئ المعبد فى طريقه إليه على عرش محمول فوق عجلات ويصحبه أهل بلاطه وحراسه وعدد من الموسيقيين .

وأدت كالحو ، أو كالح التوراة ، أو نمرود الحالية ، دور العاصمة الأشورية الثانية . وهى مدينة قامت على الضفة اليسرى للدجلة ، إلى الشمال الشرقى من مدينة أشور التى تقع على ضفته اليمنى ، وامتد عمرانها فوق لسان خصب بين الدجلة والزاب الأكبر ، ونشأت كمركز عسكرى ، ثم احتلت مكانتها المدنية بتشييد بعض قصور الملوك الأشوريين فيها منذ القرن الثالث عشر ق . م فى عهد شلما نصر الأول ، ثم زادت أهميتها فى العصر الأشورى الحديث ، وكشف فيها حتى الآن عن بقايا قصور الملوك الثلاثة الكبار أشور ناصر بال الثانى وشلما نصر الثالث وأشور أخادين . وهى قصور دلت على ما دلت عليه قصور نينوى ، من حيث فخامة واجهاتها ، وحراسة التماثيل الحيوانية البشرية الحجرية الضخمة لمداخلها (حراسة رمزية) ، ومن حيث تعدد الأجنحة والقاعات فيها ، وتميز القاعات الرئيسية منها وقاعات العرش بخاصة بمناظر منقوشة تنطق

(١) Thompson, *Iraq*, VII, 1940, 91 f.

لقطات مختارة من حياة الملوك فى الحرب والسلم مع كثير من المبالغات المعتادة ، ولوحات منقوشة تنطق بمثل ذلك، كلوحة تصور خضوع ياهو الإسرائيلى أمام شلما نصر الثالث (عام ٨٤١ق.م)، وأخريات تتحدث عن حفل افتتاح قصر أشور ناصر بال فى عام ٨٧٩ ق . م ، بعد جهود طويلة ونفقات طائلة بذلت فى تشييده ، وأقيم بعدها حفل بلغ عدد المدعوين فيه ٦٩٥٧٤ شخصاً استضافهم الملك لعشرة أيام (١) ، ثم من حيث قرب المعابد والمزارات والزقورات من الأحياء الملكية ، وأخيراً من حيث ما أدت المصادفات إليه من بقاء بعض التحف والطرف فيها مثل قطع العاج الثمينة المشكلة ، والأوانى المعدنية الفاخرة ، واللوحات المسمارية ذات الصبغات الأدبية والإدارية والتنجيمية والتعليمية .

وتخير سرجون لنفسه عاصمة جديدة تقع إلى الشمال الشرقى من نينوى بنحو ١٦ كيلو متر ، ونسبت إليه فى تسميتها « دور شروكين » أى داره أو مدينته » ، وافتتحها قبل وفاته بنحو خمس سنين . ثم هجرها العمران بعده بفترة قليلة فغطاها الردم وحمى لحسن الحظ جزءاً كبيراً من أطلالها . واحتفظت المصادر العربية بجزء من التسمية القديمة لهذه المدينة مع قليل من التحريف حيث ذكرتها باسم « سرغون » ، بينما احتفظ إسمها الحالى بنطق آخر أطلقه الساسانيون عليها وهو « خسرو أباد » (أى مدينة خسرو) ، مع تحريفه إلى « خور سباد » و « خور صباد » فى اللغة الدارجة الحالية(٢) .

قامت هذه المدينة على خطة شبه مربعة بلغت مساحتها نحو ميل مربع ، وأحاطت بها أسوار ضخمة تنفتح فى واجهاتها الأربع سبعة مداخل متباعدة ، وقيل إنه كان لها ١٥٠ برجاً . وشيد لسرجون فيها قصران من طابق واحد أحدهما كبير فى الضلع الشمالى للمدينة والآخر صغير فى ضلعها الغربى . وقام الكبير منهما فوق مسطح مرتفع يؤدى إليه طريق صاعد ، وتضمن نحو مائتى قاعة بلغت أبعاد القاعات الرئيسية منها نحو ٣٢ × ٨ أمتار ، وبلغت مساحة بهوها الكبير نحو ٩٧٦ متراً . وخدمت القاعات الصغرى منها أغراض الملحقات وأماكن الإدارة . ويذهب الظن إلى أن عدداً من حجراتها المستطيلة سقفت بعقود وأن عدداً من حجراتها المربعة سقفت بقباب . واتصلت بقصر سرجون عن طريق فنائه الواسع ستة معابد ، ثلاثة كبيرة وثلاثة صغيرة ، وجاورتها زقورة مشتركة بلغ طول ضلع قاعدتها ١٤٣ قدماً ، وتخلف منها ما يدل على ثلاث طبقات أو أربع ، لونت كل طبقة منها بلون مختلف عن لون الأخرى ، وبلغ ارتفاع كل واحدة منها ثمانية عشر قدما . ويحتمل أن الزقورة بنيت فى أصلها من سبع طبقات وتوجها قدس الأقداس على ارتفاع ١٤٣ قدماً ، أى بما يساوى طول ضلع القاعدة . وكان يدور حولها طريق صاعد مسور يبدأ من القاعدة حتى القمة . وأقيم أكبر المعابد الستة ، وهو معبد نابو ، فوق مسطح مرتفع يؤدى إليه طريق صاعد ، وتقدمت بوابته الداخلية صوار مصفحة بالبرونز تعلوها رموز مقدسة ، وكسيت جوانبها بقراميد من القاشانى الملون (أو الطوب المزجج) المزخرف ، تصور حيوانات وطيورا وأشجارا ، وقامت فى واجهة المعبد أساطين نصفية .

(١) *ANET*, 1968, 558—560.

(٢) *See*, G Loud, *Khorsabad*, I—II ; *Encyclopedie Photographique de l'Art*, II, 1 f.

واستخدم المعماريون فى عمائر سرجون الأحجار بكثرة فى الأساسات وقواعد الأساطين وتيجانها وأعتاب الأبواب الرئيسية ، وفى رصف الأرضيات وحشو شرفات القصر ، وتكسية أسافل الجدران الكبيرة، بينما استخدموا قوالب اللبن فى بناء بقية الجدران ، واستخدموا الآجر فى بناء الأقبية والعقود المدببة وما يشبهها . واستفادوا فى تنفيذ مبانيهم وزخارفها من أساليب المبانى الحيثية القديمة والمبانى السورية المجاورة لأرضهم . وهكذا كسيت الجوانب الداخلية لمداخل الحصن والقصر الرئيسية بالجص حتى ارتفاع يصل إلى ما بين الخمسة والستة أقدام، وكسيت أكتافها بلوحات حجرية امتدت نحو ١٤ قدماً طولا وارتفعت نحو ١٣ قدماً ، ونقشت بصور مجسمة شديدة البروز لكائنات حارسة . وكسيت جوانب فناء القصر الرئيسى وجدران قاعاته الرئيسية بلوحات حجرية أيضاً نقشت بحوليات سرجون وصوره متبوعاً برجال حاشيته ، فى أحجام كبيرة يزيد بعضها عن الحجم الطبيعى لقامة الإنسان ، بينما نقشت لوحات الممر المؤدى إلى قاعة العرش بصور كائنات حارسة . ولعل الأشوريين قد اقتبسوا أسلوب الكساء الحجرى فى أول الأمر من مبانى الحيثيين فى بوغاز كوى ومن مبانى شمال سوريا فى مثل ألالاخ أو تل العطشانة الحالية .

وتميزت عمارة القصر الصغير ببناء صفة ذات أساطين تعقب المدخل وتقوم أساطينها الخشبية المرتفعة فوق قواعد حجرية شكلت بعض وجوهها على هيئات الأسود ، وشكل بعضها الآخر بما يشبه هيئة الآنية (المصمتة) المزخرفة المنبعجة الجوانب . وكان الأشوريون قد استعاروا أسلوب الصفة وأساطينها ذات القواعد المشكلة من مبانى جيرانهم الغربيين واحتفظوا لها باسمها الشائع فى شمال سوريا ، وهو « بيت خيلانى » ويبدو أن الصفة السورية كانت مجرد تقليد لأصل حيثى ، بحيث رأى بعض الآثاريين أن الصفة الأشورية كانت أقرب إلى الأصل الحيثى منها إلى التقليد السورى ، وأنها استخدمت كالصفة الحيثية جزءاً من بهو المدخل ، بينما كانت تعتبر فى سوريا بناية مستقلة بذاتها . ومن الباحثين من يفترض اشتقاق تسمية خيلانى (أو هيلانى) من أصل حيثى بمعنى المدخل أو البوابة (١) .

* * *

عبر الفن التسجيلى الأشورى عن وجوه عدة من الحياة الحربية والاجتماعية والدينية فى عصره ، فضلا عن دلالته الذاتية عن تطور الأساليب والمهارات الفنية عند أصحابه . ووجد هذا الفن مجالاته الرحبة على السطوح المعتادة القديمة مثل سطوح النصب ، والجدران المكسوة بالخزف والقاشانى ، والأخشاب المصفحة برقائق معدنية ، وعلى الأختام وقواعد التماثيل والعروش ، فضلا عن سطوح جديدة على عمد تشبه هيئة المسلات ، وعلى الأفاريز الحجرية لجدران القصور والمعابد وكانت ترتفع إلى نحو سبعة أقدام . وظل هدف الفن على هذه السطوح كلها أكثر احتفالا بإشباع شهوة الغلبة وحب الزهو والتعاظم عند الملوك فصورهم يقودون الجيوش ويتقبلون خضوع زعماء خصومهم ويفتكون ببعضهم أو يشهدون التمثيل بهم. وصور ربهم

(١) *See*. Frankfort, *op. cit*,. 167 and Notes.

أشور يشاركهم القتال ويصوب سهامه من قرصه المجنح . وصور المشاة والخيالة وفرسان العربات ذات العجلات الغليظة التي يستقلها إثنان أو ثلاثة (ويصحب الملك فيها عادة سائق وتابع مسلح) . وصور تحركات الجيوش في ساعات الكر والفر وعمليات مهاجمة الأسوار بالمدببات والسهام والفؤوس والعمد الطويلة . وصور هدم المدن وتحريقها ، وراحة الجنود في معسكراتهم . كما صور ذلة الأسارى وتهجير المدنيين. وحرص على أن يجعل النصر من نصيب الأشوريين دائماً ، شأنه في ذلك شأن كل فن تسجيلي قديم بالنسبة لأهله ، وترتب على ذلك أن أصبحت أغلب لوحاته لا تخلو من رتابة ومناظر معادة ، زادها افتعالا مبالغة أغلب الفنانين في تنميق زخارف السطوح والثياب والشعور واللحى ، والمبالغة في إظهار عضلات الشخصيات الرئيسية ، وهم الملوك في أغلب الأحوال ، ثم إخضاع بعض الكائنات الطبيعية لعناصر زخرفية مفتعلة ، وعدم مراعاة التناسب أحياناً بين المكان وشاغليه ، سواء في الارتفاع أم في المساحة . ولم يخفف من ثقل هذه الظواهر غير نجاح بعض أولئك الفنانين في إظهار حيوية تحركات الأفراد ولفتاتهم ، والتمييز بين ملابس طبقة وأخرى ، والتمييز بين ملابس الأشوريين وبين ملابس أعدائهم والتعبير عن البيئة الطبيعية بما يناسبها ، كمنحدرات الجبال وحدود الجزر وأحراج البوص عند مصبات الأنهار ، ثم إظهار طابع الطراوة في صور الولدان الخواص من خدم القصر بحيث تراهم في هيئات تشبه هيئات الإناث أو الأغوات. وقد يرجع ذلك إلى كثرة الولدان الأجانب والمولدين من جوارى أرمينيا وإيران وآسيا الصغرى في بلاطات الملوك وقصور السراة .

وعلى نحو ما سجل الفنانون لحظات انتصار ملوكهم، صوروا لحظات صيدهم للأسود والثيران الوحشية . وكان الجنود يحيطون عادة بساحة الصيد الملكية ويؤلفون سوراً حولها بتروسهم الكبيرة ، وربما صادوا الأسود من أجماتها واحتجزوها في أقفاص كبيرة استعداداً لإطلاقها حين يحين وقت الصيد الملكي ، وحينئذ كان يعلو قفص الأسد قفص آخر يحتمي فيه حارسه حين يرفع الباب إلى أعلى لإطلاق الأسد من أسره (١) . وكان الملك يصيد راجلا وعلى عربته وفوق صهوة جواده ، ويكسو ذراعيه وساقيه بجلد سميك ذي شرائط ليتقي به تأثير مخالب الوحوش ، أو يصحبه حراسه ليشاركوه الصيد ويناولوه السهام ويجهزوا على الوحوش الجريحة ويدافعوا عنه حين المفاجأة . وقد يسرف الفنان فيصور ملكه يرفع أسداً صحراوياً من ذيله ليدور به ، أو يصوره وقد تجمعت أمامه جثث عدد كبير من السباع وهو يطؤها بقدمه ويسكب عليها ماء مقدساً ليقدمها قرباناً لإشتار ربة الحرب وسط تراتيل الكهان والحراس وأنغام الموسيقى الوترية . ولم يخفف من غلواء الفنانين في تصوير شجاعة ملوكهم إلا البراعة الفائقة من كبارهم في تصوير خصائص الحيوان ومظاهر اندفاعه وغضبه، وتهالكه وألمه ، وبلغوا من ذلك حداً لم يبلغوه في تصوير الإنسان . وقد وفق فنان عهد أشور بانيبال التوفيق كله في تصوير الحيوانات الجريحة كتصوير لبؤة أدمتها السهام فانطلقت تزأر في ألم ممض

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 108 B.

وتجر مؤخرتها العاجزة وهى تقاوم نزعها الأخير (١) . وتصوير أسد هائل تقوقع على نفسه رافعاً كتفيه متحاملا بأربعته على الأرض بكل قوته ليقاوم السقوط وهو ينزف دماءه بغزارة من فمه (٢) ، وآخر تدلى لسانه وبرزت أنيابه وتحجرت مآقيه بعد أن لقى حتفه (٣) .

وعبرت المناظر عن الحياة المدنية للملوك ، ولكنها صبغتها بصبغة رسمية غالبة ، ومن أشهر صورها مناظر أشور ناصربال فى كالح فى مجالس قصره وفى أعقاب حفلات صيده ، يستمتع بالشراب والموسيقى ، أو يصب الماء من كأسه على صيده ليقدمه قرباناً لربه (٤) . ثم مناظر سرجون مع رجال حاشيته عند استقبال مقدمى الهدايا إليه (٥) ، على جوانب أفنية قصره والردهة المؤدية إلى قاعة عرشه . وزيارة شلما نصر الثالث لمنابع دجله ودعواته أمام ربها (٦) ، وخروج سينا خريب فى موكب النصر فى عربة مدنية تعلوها مظلة مرتفعة تشبهها مظلات العربات الهندية (٧) .

أما عن الحياة الداخلية الخاصة للملوك ، فلعل أشهر مناظرها القيلة الباقية هى صور أشور ناصر بال فى مناسبات شرابه . وصورة أشور بانيبال وقد تخفف من ثيابه التقليدية واستلقى على سرير مرتفع تحت كرمة أو نخيلة ، ودلى قلادته من طرف سريره ، ووضع سيفه على منضدة تجاوره ، وجاست أمامه زوجة بدينة ثقيلة تشاركه الشراب ، وأحاط بهما الأتباع والعازفون وخدم المائدة ، وتدلت فى الوقت نفسه رأس عدوه الألد ملك عيلام من شجرة مرتفعة غير مثمرة (٨) .

وليس من نقوش متميزة يستشهد بها فى تصوير حياة الأفراد ، وقد يرجع ذلك إلى طغيان شخصيات الملوك وتغطيتها على من سواها ، أو يرجع إلى قلة احتفال الأفراد أنفسهم بمقابرهم ومناظرها كما حفل المصريون . غير أن المناظر الملكية تجاوزت فى بعض المرات حدود الحياة الملكية إلى تصوير حياة الأتباع ، فصورت على سبيل المثال فترات الراحة للجنود ، ومن هذا القبيل لقطات من معسكر أشور ناصر بال صورت مطابخ الجيش ورجاله ، وحظائر الخيول وسياسها ، وعمليات إقامة السرادقات وإعدادها لسكنى الضباط (٩) ، ومنظر لركن من أركان معسكر أشور بانيبال بعد انتصاره على مدينة هامان ، وقد وقف

---

(١) *Ibid*, Pl 111 A.

(٢) *Ibid*., Pl. 111 B.

(٣) *Ibid*, Pl 110.

(٤) W. Budge, *Assyrian Sculptures in the British Museum*, Pls. XIX a — b, XXXI ; *Compare also* : B. Pritchard, *The Ancient Near East*, Fig. 156.

(٥) Frankfort, *op. cit.*, Pls. 96, 97.

(٦) L. W. King, *The Bronze reliefs from the gates of Shalmaneser, III*, Pl. 59.

(٧) Frankfort, *op. ci.* , Pl. 89.

(٨) *Ibid*., Pl. 114 B ; Pritchard, *op. cit.*, Fig. 122.

(٩) جون هامرتون : تاريخ العالم – معرب بالقاهرة – جـ٢ – شكل بصفحة ٢٥٥ .

على باب المعسكر جندى مسلح جلست أمامه امرأة تمازحه ، وجلس الجنود فى الداخل يعبون من الكاسات ويصطلون(١) . وصورت بعض المناظر جوانب من حياة الطبقة الكادحة — عرضاً — كتصوير عمال يشدون خلفهم عربات كبيرة محملة بجذوع أشجار ضخمة ، بحبال تنساب فوق أكتافهم كالدواب (٢) .

وظل النقش المسطح أو المنخفض قليل البروز ، أكثر شيوعاً مما سواه . وظل التصوير يؤثر طابع الضخامة والامتلاء بالنسبة للشخصيات الكبيرة ، وطابع الرهبة بالنسبة للشخصيات الخرافية . وتقيدت أغلب المناظر بالتقاليد الفنية القديمة المألوفة ، مثل تقسيم المسطحات إلى صفين أو ثلاثة صفوف ، وانتماء كل موضوع بنهاية صفه ، واستقرار الأشخاص فوق خطوط الوقف ، وشغل الفراغات بمفردات مناظر ليس من الضرورى أن يتوافر الترابط بينها دائماً . ولكن شذت عن هذه التقاليد بضع لوحات كبيرة وصغيرة ، تجاوز الفنانون فى بعضها حدود الخطوط ، وربطوا بين مناظر الصفوف المتعاقبة ، ثم تخلوا فى بعض آخر عن فكرة الصفوف تماماً ونجحوا فى استخدام المسطح كله لتصوير مراحل متتابعة مترابطة من موضوع واحد ، وهو موضوع الحرب فى أغلب الأحوال . ويذكر من النماذج الناجحة لهذه الاتجاهات اتصال المناظر لكل صف على الوجوه الأربعة لمسلة أشور ناصر بال بحيث ظهرت خلفية الخيول التى تجر العربة الملكية على وجه وظهرت بقية العربة وتوابعها فى موازاة السطر نفسه على وجه آخر (٣) . ثم تصوير قطعان الظباء والحمر الوحشية والخيول البرية وكلاب الصيد ، تصوير من شاهدها ودرس خصاصها فى أحوال أمنها وساعات فزعها ، طليقة لا تتقيد صورها بخطوط الوقف ولا بالأرضية المستقيمة ، مما سمح بإظهار العمق فى مناظرها(٤) . واتصال موضوع واحد على ثلاثة صفوف فى مناظر الحرب الأشورية العربية ، وهى مناظر تموج بالحركة والكر والفر والسرعة يقاتل الأشوريون فيها بالحراب والسهام ، مشاة وفى العربات وعلى صهوات الخيول ، ويقاتل الأعراب فيها مشاة وعلى ظهور النجائب ، يمتطى كل إثنين بعيراً ، أحدهما يسوقه بعصاه والآخر يرمى عن قوسه أماما وخلفاً ، وتجرى النجائب بسرعة عجيبة لتنقذ راكبيها وتنجو بنفسها ، حتى لتكاد تقفز أو تطير . . . (٥) . ثم حرية المناظر فى لوحات الحروب الأشورية الإلامية مما بسطناه فى سياق حديثنا عن الحرب ذاتها . ويماثلها إلى حد ما منظر مهاجمة لاشيش فى عهد سينا خريب (ص ٦٠٤ ، ٦٠٥) .

وتهيأت المواد الأولية الصلبة لفن النحت فى آشور أكثر مما تهيأت فى بابل ، لقربها من مناطق الجبال وقرب محاجر الألباستر من عاصمتها نينوى ، ولاتساع أملاكها الخارجية الغنية بالأحجار والمعادن الصالحة للنحت والتشكيل ، لولا أنه لم يبق من التماثيل الأشورية غير قلة لا تتفق مع إمكانيات عصرها . انحصرت

(١) Frankfort, *op. cit.*, I, 107.

(٢) جون هامرتون : المرجع السابق — شكل بصفحة ٢٤٣ .

(٣) E. Unger, "Der Obelisk des Konigs Assurnasirpal aus Nineveh", *Mitt der Altorientalishen Gesell*, VI, 1932 ; *and See*, Landsberger, Sam'aal, *Ankara*, 1948, 24.

ويردها الأول إلى القرن الحادى عشر ق . م بينما يردها الثانى إلى القرن التاسع ق . م .

(٤) Frankfort, *op cit.*, Pls. 112—113, 174 B.

(٥) *Ibid.*, Pl. 102 B.

نماذجها الناجحة فى تماثيل الملوك والأرباب أكثر من تماثيل الأفراد ، ولسنا ندرى مرة أخرى إن كانت هذه الظاهرة قد ترتبت على محض المصادفة ، أم ترتبت على انعدام شخصية الفرد أمام جبروت الملوك . ويستشهد من التماثيل الناجحة للملوك بتمثال حجرى صغير لأشور ناصر بال يبلغ ارتفاعه نحو المتر ولا يخلو من التأثر بالأسلوب البابلى ، يمثله واقفاً فى هيئة رسمية فى سن الرجولة بشارب متدل وشعر مرسل طويل ولحية ضخمة مرجلة (مستعارة) . ولا تخلو جزئيات هذا التمثال من عيوب ، كضيق الجبهة ، وتحديق العينين ، ورقة الشفتين ، وفرطحة القدمين ، والافتعال فى تمثيل اللحية المرجلة ، وخشونة الظهر ، ولكنه على الرغم من ذلك مقبول فى مجمله لا سيما ببدنه الملفوف ، وانحدار كتفيه ، وامتلاء ذراعه العارية ، مع نحافة خصره تحت تأثير ربطة الزنار ، والحزوز الزخرفية التى تزين ثوبه ، وقد شكلت الشارتان اللتان يمسكهما فى يديه بالنقش البارز فى جسم تمثاله (١)، ونقشت بضعة سطور على صدره تشيد باتساع ملكه . وعثر عليه فى مشكاة بمعبد نينورتا بعاصمته كالح ، باعتباره بانى المعبد ليستفيد عن طريق تمثاله بما يقدم إلى أرباب المعبد من صلوات ودعوات وقرابين . وتمثال صغير من الكهرمان كان جزءاً من حلية كبيرة ، لملك أشورى غير معروف ، تضمن مزايا التمثال السابق دون عيوبه ، وزاد عليها سماحة مظهره ، وسلامة تكوين العينين ، وصدق تمثيل الشفتين ، وطرافة تشكيل الشارب مبروم الطرفين ، وانعقاد يديه على صدره ، وتحلية صديريته الطويلة بزخارف نباتية لطيفة (٢) . ثم تمثال صغير للمعبود نابو ، من أواخر القرن التاسع ق . م ، يمثله بجسد ملفوف ذى خطوط بسيطة ، وشعر كث مرسل ولحية طويلة وشارب بسيط متدل ، وتاج ذى قرون ، ووجه لا يخلو من سماحة يزكيها عقد يديه أسفل صدره وتشابك كفيه فى ليونة طريفة (٣) .

وجمعت بين النقش والنحت نقوش شديدة البروز أجيد تفريغ خلفياتها فبدت على هيئة التماثيل الناتئة من جدرانها ؛ وتجلت نماذجها الكبيرة على أفاريز حجرية وجصية كست جوانب مداخل قصر آشور ناصر بال ، ومعبد نينورتا فى كالح ، وجوانب مداخل قصر سرجون ومدخل قاعة عرشه فى خور سباد . وتراوحت ارتفاعاتها بين الثلاثة وبين الأربعة أمتار ، وتجسمت مفرداتها على هيئة كائنات حارسة ذات هيئات بشرية مجنحة ، وأخرى ذات هيئات بشرية خالصة ، وثيران وأسود مجنحة برؤوس بشرية ضخمة متوجة لم ينس الفنانون تفاصيلها الصغيرة حتى الأقراط المتدلية من الآذان . ولعب الخيال الفنى والأسطورى دوره فى تمثيل بعض هذه الكائنات الضخمة ذات الأجسام الحيوانية والرؤوس البشرية بخمس سيقان ، إثنتين أماميتين متجاورتين توحيان بطابع الثبات والاستقرار لمن يشاهدهما من الجانب ، وتنسجمان مع امتلاء صدر حيوانهما وفخامة رأسه البشرية ، ثم ثلاث سيقان أخريات ذوات حجم طبيعى تنسجم مع جسم الحيوان ، وتتقدم إحداها الأخرى بحيث توحى فى مجموعها بهيئة المشى لمن يشاهدها من الجانب .

(١) Budge, *Asyyrian Sculptures in the British Museum*, Pl. 1.

(٢) Frankfort, *op. cit.*, Pls. 80—81. – وارتفاعه ٢٤ سم ويوجد فى متحف بوستن .

(٣) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – شكل ٤٦ .

وامتازت رؤوس الكائنات عند مدخل قاعة عرش سرجون بتصويرها من الأمام والتفاتها ناحية الداخلين لتلأهم روعة ورهبة . وسمحت سطوحها المجسمة المتسعة بإظهار تفاصيل تكوين الجسم البشرى لا سيما صفحات الوجوه وعضلات الذراعين والساقين ، وتفاصيل الثياب والأجنحة ، فى أناة مستحبة غطت على عيوب طابع المبالغة فى تمثيل اللحى الكثة والشعور الطويلة . واستغلت أرضياتها لنقش نصوص تمجد ملك عصرها(١)، وهكذا جمعت بين أغراض النقش والنحت والزخرف والتسجيل والرمز بالحماية المقدسة ، كما جمعت بين الأسلوب الواقعي والتخيل الأسطورى ، وجمعت بين الجمود وبين مظاهر الحركة والحيل الفنية .

وأدى فن الرسم الملون دوره ، وبقيت منه نماذج قليلة ولكنها متقنة تشهد بتجارب طويلة سابقة ، وأشهرها هى رسوم قاعة عرش سرجون والبهو المؤدى إليها؛ وتتألف من شرائط أفقية عريضة، تتكرر فى كل شريط منها وحدتان زخرفيتان، إحداهما لحيوان أو كائن خرافى مقدس ، والأخرى لزهرة كبيرة أو تخطيط هندسى لطيف، وتفصل بين كل شريط وآخر خطوط متجانسة، ويعلوها كلها ويتوسط اتساعها محراب مزخرف تظهر صورة الملك فيه وهو يحيى تمثال معبوده (٢) .

وواصلت الفنون الصغرى ، أو الفنون التطبيقية ، طريقها فى زخارف النسيج ونقوش الأختام ونقوش الأوانى والكؤوس وزخارف الأساور ، فضلا عن تشكيل القوائم المعدنية للمشاعل وموائد القربان ، وتطعيم وتكفيت اللوحات الخشبية والمرمزية وقطع الأثاث الفاخر . وعبرت وحدات هذه الفنون عن الأذواق الأشورية المعاصرة لها وانتفعت فى ذلك بتراث عصرها الوسيط ، ولكنها استفادت فى الوقت نفسه من محصول الإمبراطورية الواسعة ، فظهرت فيها تأثيرات بابلية وحيثية وسورية ومصرية ، بل وتأثيرات من أرمينيا ، وما حولها أيضاً (٣) .

وبلغت زخارف النسيج الأشورية مبلغاً كبيراً من الرقة والتنوع فى ملابس الملوك بخاصة ؛ واعتمد أغلبها على زخارف نباتية اصطلاحية شاعت فيها صورة الشجرة المقدسة أو شجرة الحياة ؛ ومناظر أسطورية لكائنات مجنحة خيرة وعاتية ، وحيوانات أليفة وضارية (٤) ؛ وتخطيطات هندسية لطيفة تكاد تعتبر الأصل البعيد لتعاشيق الأرابيسك الإسلامية (٥) . ومن أمتع ما يقرن بزخارف الملابس ، تنوع هيئات أغطية الرؤوس فى المناظر الأشورية ، فمنها قلانس تشبه الطاقية ، وأخرى تشبه القاووق والطرطور والاسطوانة المرتفعة ؛ وغيرها تشبه طربوشاً بلون واحد أو لونين قد يكون مرتفعاً يعلوه ما يشبه القمع المقلوب ؛ وقد تتدلى منه

(١) Budge, *op. cit.*, Pls. VI—VI ; G. Loud, *Khorsabad*, I, Fig. 56 ; II, Pl. 46 A.

(٢) *Ibid.*, II, Pls. 88—89 ; *See also*, Layard, *Monuments of Nineveh*, I, Pls. 86—87 ; *Iraq* XII, 1950, Pl. XXX ; F. Thureau Dangin, *Tell Barsip*, 54.

(٣) *See*, Frankfort, *op. cit.*, 101 f. and References.

(٤) Budge, *op. cit.*, Pls. XLIX—LIII.

(٥) *Ibid.*, Pl. LIII, 36.

عدبة طويلة تصل إلى ما تحت الكتفين ، وذلك فضلاً عن التيجان المقدسة ذات الزوجين أو الثلاثة أزواج من القرون . وتنوعت طرز النعال أيضاً ؛ فمنها ما يشبه الخف الصوفى ، ومنها الطويل الذى يشبه ما يسمى الآن التوزلك أو البوت ؛ ومنها الصندل العادى ذو الأشرطة ، ومنها أشكال أخرى لا تحضرنا مرادفات أسمائها فى اللغة العربية .

وشكلت زخارف بعض اللوحات المرمرية ، فى قصر سرجون بخورسباد وقصر سينا خريب فى قويونجيق بنينوى ، بوحدات تشبه وحدات زخارف السجاد الشرقى المألوفة (١) ، وقد تكون أصلا لها أو تكون مشتقة من زخارف بسط فرشت بها أرضيات القصور الأشورية فعلا .

وانتفعت نقوش الأختام الاسطوانية والمسطحة من تراث العصر الوسيط ؛ وأحيت معه عناصر بابلية قديمة ؛ واستعارت كذلك بعض الأساليب الحيثية القديمة ؛ وامتازت النقوش الجيدة منها بوضوح مناظرها واستقلال مفرداتها وحيوية تفاصيلها النباتية والحيوانية ، مثل حراشيف النخيل وسعفه وريش الأجنحة وزخارف الملابس ، واستطاعت أن تعبر بوضوح عن مضمون بعض الأساطير وبعض مناظر الصيد والتعبد وتقديم القرابين .

ونهل الفنانون الأشوريون من فنون سوريا الخاضعة لهم ، واتخذوها معبراً لهم إلى اقتباس فنون الترف المصرية الخالصة ، والمحورة منها بالطابع السورى . وكان أمتع هذه الفنون بالنسبة لهم هو تطعيم لوحات العاج وجوانب الصناديق الفاخرة وتكفيت الصحاف والأوانى المعدنية وزخارف المقابض العاجية للمراوح الفاخرة والمرايا المعدنية . واحتفظت أطلال قصورهم بقطع عاجية مطعمة بهيئات كائنات حيوانية خرافية مجنحة لها رؤوس الكباش ، ولها أمثالها فى الفن الشامى ، ومنها مقبض عاجى شكل على هيئة شيخ كنعانى (٢) ، ورؤوس نسوية جمعت بين الطابع السورى الشمالى والطابع الحيثى المستحدث (٣) . واحتفظت أطلال قصور الولاة الأشوريين فى أرسلان تاش بتحف بارعة أخرى عبرت بزخارفها وموضوعات نقوشها عن بضعة أساليب وأساطير مصرية خليطة مقتبسة (٤) .

وتضمنت قصور كالح وخورسباد نماذج رائعة للفن المصرى السورى المقتبس ، ومنها قطعة عاجية تمثل أنثى ذات وجه مصرى نحيف طيب سمح تطل من نافذة أو كوة ، هى فيما يغلب على الظن حتحور المصرية التى شبهها السوريون بعشتار ، وسمتها كتب الفن الحديثة « عشتار فى النافذة » و « موناليزا العالم القديم » (٥) .

(١) Perrot et Chipiez, *Histoire de l'Art*, II, Fig. 96.

(٢) Thureau-Dangin, *Arslan-Tash*, 1931, Pls. 19, 29, 33 ; Frankfort, *op. cit.*, Pl. 168 c-d.

(٣) *Ibid.*, Pl. 167 d-f.

(٤) *Ibid.*, pls. 168a-b, 169 a-b; Thureau - Dangin, *op. cit.*

(٥) Loud, *op. cit.*, Pl. 51.

ثم عدد من تماثيل أبو الهول الصغيرة ذات الوجوه المصرية الصميمة . وقطعة عاجية زخرفت بوريقات البردى المصرية وزهور اللوتس وبراعمه المحورة ، وتداخلت فيها صور حيوانات سورية مجنحة . وقطعة عاجية أيضاً لصندوق ظهرت عليها صور عازفات ذوات ملامح مصرية وثياب سورية يعزفن على الناى والدف والوتر فى حيوية دافقة . ومقبض مروحة شكلت وجوهه الأربعة على هيئة نوبيين بملابس مصرية تعلوهم زهور اللوتس المحورة . ومقبض مرآة على هيئة أنثى تجمع بين الهيئة المصرية والملامح السورية . وصحاف نقشت حوافها العريضة بمناظر صيد مصرية رقيقة قليلة الحشو قليلة التكلف فى صور الحيوان والطير والإنسان . وأخرى زخرفت من داخلها بدوائر لولبية متعاقبة حول محور نباتى صغير وأحاطت بها زخرفة إنشائية كبيرة تألفت من تكرار صور حيوانين خرافيين متقابلين ذوى طابع مصرى يتوج رأس كل منهما التاج المصرى المزدوج ، وحددت قطرى الدائرة أعمدة مصرية شكلت تيجانها على هيئة الجعل المصرى المجنح . وتكررت الأعمدة بأحجام صغيرة بين كل حيوانين متقابلين وحف بهما شخصان يتعبدان (١) .

فى الأدب :

كان حظ الأشوريين من الخلق الأدبى نسبياً يسيراً نسبياً ، فعاشوا على آداب العصور التى سبقتهم ولكن قامت لهم مأثرة عليها ، وهى تجديدهم لأغلب لوحاتها وحفظهم إياها ونشرهم لها مع بعض التحوير والإضافة أحياناً ، لا سيما منذ أن أنشأ ملكهم سرجون مكتبة كبيرة فى نينوى ، قيل إنه نقل منها إلى حوزة المتحف البريطانى وحده ما يزيد على ٢٢٠٠ لوحة طينية ؛ وزاد هذه المكتبة وأسس أمثالها أولاده وحفدته ، كان أكثرهم احتفاء بالتدوينات القديمة وجمعها فى مكتباته هو آشور بانيبال الذى أرسل رقاعاً إلى ولاته على الأقاليم يأمرهم فيها بالتحرى عن الألواح المسمارية القديمة حيثما وجدوها ويقول لكل منهم فيها « لا يجوز لأى إنسان أن يمنع شيئاً من الألواح عنك ، وإذا عثرت على أية لوحة أو رقية لم أعينها لك وتجد فيها صلاحية لقصرنا استول عليها وأرسلها إلى » . وعثر فى أطلال قصره بنينوى على لوحات كثيرة زادت من معرفة الباحثين المحدثين بالآداب القديمة . ولم تكن كل هذه الألواح أدباً خالصاً ولا علماً خالصاً وإنما تعلق أغلبها بالعبادات والتمائم والتعاويذ . ووجدت رسالة من هذا الملك إلى واليه فى بابل يأمره فيها بأن يبحث جاداً عن لوحات تعاويذ الأنهار والشهور ورقى الوسائد الملكية وتقاويم الأيام ومراسيم رفع الأيدى ومجموعة الكروب ومجموعة تجمع أنها مسونة بعنوان « لا تدع السوء يمس الذاهب إلى المزارع أو الداخل الى القصر » ، ثم أمره إلى جانب ذلك بأن يضم أشخاصاً معينين إلى معينه بعد أن سمع عن حيازتهم للوحات ثمينة قديمة (٢) . واتخذت ألواح أخرى صبغة عملية وعلمية ، فكان منها ما تحدث عن مركبات الزجاج وأطلية الخزف . ووجدت منها جداول تتضمن بضع مئات من أسماء النباتات تداخل بعضها فى بعض ، وعبر بعضها عن خصائص نباته وثماره واستعماله ، مثل نبات القنب الذى أسموه نبات الغزل ونبات الهموم نظراً لمفعوله المخدر الذى ينسى الهموم .

---

(١) *Ibid.*, Pls. 166 B, 167 a–c, 170 a–c, 171, 172 B, 173 B.

(٢) Contenau, *op. cit.*, 315 f.

وتضمنت الألواح تفاصيل عقاقير نباتية رتب كل منها باسم النبات ونوع المرض الذى يعالجه ثم طريقة تعاطيه، فكان منها ما يقول : « العرقسوس، لعلاج السعال، يدق ويشرب مختمراً». «والصبر، دواء للصفراء، يدق ويشرب» (١). وكان فى إطلاع بعض الملوك الأشوريين، لا سيما الملكين أشور أخادين، وأشور بانيبال على أشباه هذه العقاقير والوصفات ما جعلهم يبدون اهتماماً كبيراً بنشاط أطبائهم ويرسلونهم خصيصاً لعلاج أصدقائهم ثم يتلقون منهم تقارير عنهم وعن علاج ذوى قرباهم بخاصة (٢). وكثيراً ما اختتمت نصوص الألواح بتحذير القارئ من سرقتها أو كسر طابع مكتبتها الخاصة أو العامة، وإلا تعرض لنقمة الآلهة.

وانتفع الكتبة الاشوريون بأساليب المعاجم القديمة فى بابل، وزادوا مفرداتها ومترادفاتها الأجنبية نتيجة لاتساع صلات دولتهم بجيرانها، وضمنوها مفردات خاتية وكاسية ومصرية ...، وبعد أن كانوا يؤرخون نصوصهم فى عصرهم الأشورى الوسيط بأسماء الشهور : كيناته، وسين، والاناتو، وشاسارازاته، وما يشبهها من أسماء غريبة، أصبحوا يذكرون شهورهم فى عصرهم الحديث بأسماء : آبو، وتشرينو، وتمرز، ونيسانو، وأدارو، وأولولو، وهى نفس الأسماء المعروفة للشهور الأرامية الباقية حتى الآن، مع تغيرات لفظية طفيفة.

ولم يخل الأدب الأشورى الخالص من مزايا خفيفة فى تقاريره وأقاصيصه الحربية بخاصة، فوصف كاتب مدينة السامرة فى حوليات العام الثامن لفاتحها سرجون الأشورى، قائلا على لسانه : « لقد كانت قمة عظيمة ترتفع مثل سن الرمح وتسمو فوق الجبال حتى لكأنها رأس تعتمد السماء عليها، ولها جذور تتعمق حتى تصل إلى قلب الجحيم. وكانت من خارجها كالسلسلة الفقرية للسمكة لا تسمح لأحد بالنفاذ منها». ولم يقصد كاتب سرجون بذلك أن يشيد بالمدينة، ولكنه ابتغى أن يشيد بمجهوده فى تحطيمها على الرغم من حصانتها، إذ أتبع ذلك بوصف مسالكها الوعرة ثم عقب بخططه الحربية فى تذليلها بفضل سعة أفقه وما أوحى أربابه به إليه. وعلى الرغم مما حفل به هذا الأدب الحربى من مبالغات وادعاءات ظل ذا قيمة لا تنكر فى احتفاظه بأخبار شعوب قديمة لم تترك وثائق مكتوبة تنم عن تاريخها، مثل القبائل العربية الشمالية والقبائل الجبلية الشمالية، وإن كان قد صور أخبارها من وجهة نظره الخاصة.

ولعبت العرافة دوراً هاماً فى حياة الأشوريين، وتقبلها ملوكهم بقبول حسن، وتكفل بها كهنة وكاهنات كان من أنشطهم كهنة المعبود أشور وكاهنات المعبودة إشتار أربلا، ويبدو أنهم كانوا ينطقون بنبوءاتهم وهم فى غيبوبة أو حالة انجذاب فتؤخذ على أنها صادرة من روح المعبود عن طريق وساطتهم، ثم يدونها كتبتهم ويرسلونها إلى القصر إذا كانت تتعلق بشخص الملك ومشروعاته. ومن طريف ما تلقاه أشور أخادين

(١) *See*, Campell Thompson, *The Assyrian Herbal*, 1924 ; *On the Chemistry of the Ancient Assyrians*, 1925.

(٢) Pfeiffer, *State Letters of Assyria*, 1935, Nos. 285, 288, 294, 295, etc... ; Contenau, *op. cit.*, 187 f.

من كاهنة إشتار أنها بعد أن وعدته النصر على أعدائه ترقعت تردده فى تصديق نبوءتها ، فقالت له « ماذا فى قولى الذى تحدثت به إليك لا تستطيع أن تعتمد عليه . . . ؟ » . وقالت له كاهنة أخرى من إبلا تدعى « بعلة أبيشا » على لسان ربتها إشتار : « . . . لم لم نصدق النبوءة السابقة التى تحدثت بها إليك ؟ صدق هذه ، وادعنى يوم اشتداد العاصفة . . . ، واشكرنى . . . » . وأفسحت حروب أشور بانيبال مع إخوته وفى أنحاء مملكته مجالا خصباً لتنبوءات العرافين وأمنيات المتزلفين ، فأرسل إليه رجل يذكره برؤيا رآها جده ووعده أشور النصر خلالها ، . . . ثم دعا له بأن يفتح أقطاراً لم يفتحها أبوه . . . ، وأرسل إليه يخبره بأنه رآه فى منامه ورأى معه الربة إشتار ودار بينه وبينهما حديث انتهى بطبيعة الحال بتأكيد رعاية الربة له وتأييدها إياه (١) .

هذا عن أدوار المجد الأشورى ، أما عن مرحلة انهياره ، فهذه نتناولها فى صفحات تالية مع مسبباتها المباشرة .



(١) See. Pfeiffer, "Akkadian Oracles and Prophecies", *ANET*, 449—451 ; Goetze, *Old Babylonian Omen Texts*, 1947.

الفصل العشرون

بابل الكلدانية

او العصر البابلي الأخير

(٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م)

تمهيد – عودة إلى الآراميين فى بابل والعلاقات مع آشور :

كان الكلدانيون (أو قبائل كالدو) فرعاً من الأراميين مر بنا أنهم جعلوا ضفاف العراق قبلتهم منذ القرن الرابع عشر ق . م أو نحوه . وأحست بابل بخطورتهم على اقتصادياتها منذ القرن الثالث عشر ق . م ، حين كتب كل من الملك البابلى كادشمان إيلليل والملك الحيثى خاتوسيلى إلى زميله ، بتعكيرهم صفو الأمن على الطرق التجارية الواصلة بين الدولتين (١) . وتسلل الأراميون إلى أرض بابل فى أواخر عصرها الكاسى ، وعند سقوطه ، وشجعهم انتشار بنى عمومتهم حول نهرى الفرات والخابور ، وظهور إماراتهم العديدة فيما يجاور آشور وتضييقهم عليها فى أواخر عصرها الوسيط . ثم تجدد نشاطهم فى دولة بابل فى أواخر عصر أسرتها الرابعة ، وبلغوا غايتهم منها حين اغتصب زعيمهم أداد أبالدين عرشها فى عام ١٠٨٣ ق . م . واحتفظ به زهاء عشرين عاماً ، وهادن ملك آشور « أشور بعل كالا » وزوجه إبنته وأهداها هدية كبيرة . ومن البدهى أنه وفر لقومه الآراميين مكانتهم فى الدولة ، فزاد تدفق قبائلهم على أرضها ، وسادوا « دور كوريجالزو » قرب بغداد ، وانتشرت بعض قبائلهم القوية على الشواطئ الشرقية لدجلة ، وكانت أقواها قبائل الجامبولو (٢) . وأحدثت تحركاتهم هزات عنيفة فى الدولة ، بحيث تعاقبت على عرشها ثلاث أسر حاكمة فى أقل من نصف قرن (٣) .

واستمر الأراميون فى توسعهم ، فامتدت قبائل كاللدو فى جنوبى العراق حتى الخليج العربى وكانوا ست إمارات أكبرها « بيت داكورى » و « بيت ياكين » (٤) . وسيطرت قبائل أخرى على ما بين بابل وبورسيبا ، فخافهم أهل المدينتين على مواكبهم الدينية (٥) . وظهرت آشور حينذاك فى ميدان العلاقات بين الفريقين ، وكانت قد بدأت عصرها الحديث فى أواخر القرن العاشر فعملت فيما مر بنا آنفا ، على إضعاف جيرانها

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٥٩ . Dupont Sommer, *op. cit.*, 17.

(٢) وقامت إلى جانبها قبائل ليتاو وخندارو وبوكودوا ... إلخ . *Ibid.*, 23.

(٣) هى الأسرات الخامسة والسادسة والسابعة . ولم تدم السابعة غير ست سنوات حكم بابل فيها رجل الامى الأصل (أنظر ديلابورت المرجع السابق – ص ٦٠ – ٦١) .

(٤) وقامت إلى جانبها إمارات لا راك وبيت أموكانى وبيت شالى . Dupont Sommer, *op. cit.*, 24.

(٥) وكانت بورسيبا مركز عبادة نابو الذى كان له دوره بجانب مردوك فى احتفالات رأس السنة فى بابل .

الأراميين الشماليين ثم تجرأت فى عهد أداد نيرارى الثانى وهاجمت البابليين وامتد تأثيرها على الأراميين المنتشرين بين بابل وبورسيبا (١) . وحاولت بابل بعد هدنة قصيرة أن تستخدم الأراميين لحسابها فحرضت بعض طوائف السوتيين على مهاجمة الأطراف الأشورية (٢) ، ولكن خاب مسعاها فى عهد أوشكت آشور أن تبلغ فيه قمة من قمم مجدها ، وهو عهد ملكها أشور ناصر بال الثانى الذى اكتسح بجيشه عدداً كبيراً من القبائل الأرامية الشمالية الضاربة على حدود العراق والشام وذكرت نصوصه أنه هجر ١٥٠٠ من قبائل الأخلامو من بيت زامانى التى قهرها أبوه قرب ديار بكر (٣) .

ولم يكن الآراميون بغير أثر فى المجتمع العراقى ، على الرغم من تفرقهم واعتمادهم على حضارة البابليين والأشوريين . فقد ترتب على انتشارهم فى أجزاء شتى من بلاد النهرين ، وتدخلهم فى المعاملات عن طريق التجارة ، ووجود بعضهم خدماً وأرقاء فى بيوت الأثرياء وضياعهم ، أن وجدت لهجاتهم سبيلها إلى السكان الأصليين وكتب بها بعض المتعلمين بالخط المسمارى ، وبلغ من أمرها أن كتبت بها نصوص قصيرة على بعض آثار شلما نصر الثالث وسرجون وسينا خريب فى كالح وخور سباد ونينوى . ثم نقل بعض الأراميين الغربيين الذين أبعدوا إلى آشور الخط الأرامى الغربى من مواطنه فى الشام إلى العراق ، ونقلوا معه طريقة الكتابة على البردى التى تعلموها من المصريين والفينيقيين . ويحتمل من أحد مناظر عهد شلما نصر الثالث أن أحد كتبته الأراميين كان يكتب على البردى ، وإذا صح ذلك كان نموذجاً لكثيرين غيره . وعندما دعا صاحب وظيفة « الرابشاقه » ملك اليهود فى أورشليم إلى الخضوع والتسليم خاطبه بالأرامية من خارج السور ، وذلك مما يعنى أن أمثاله من كبار الموظفين الأشوريين كانوا يعرفونها (٤) .

وشهدت بابل حرباً أهلية بين ملكها وأخيه ، واستعان ملكها (مردوك زاكير شوم) بالملك الأشورى شلما نصر الثالث فأعانه وأصبحت له اليد العليا على عرشه ، وسمح ذلك للملك الأشورى بأن يذهب بجيوشه أو بنفوذه حتى كلديا ، وقال فى نصوصه فيما استشهدنا به من قبل : « « هبطت إلى كلديا وقهرت مدنها وسرت حتى البحر الذى يسمونه البحر المالح (الخليج العربى) ؛ وتلقيت فى بابل جزية أدينى بن داكورى من الفضة والذهب وخشب أوشو والعاج . . . » . وصور فنانوه على أبواب قصره المكسو بصفائح البرونز جزى بيت داكورى الكلدانية يحملها أهلها بين صفوف النخيل ويشرف عليها كتبة الملك وحراسه (٥) . ولم يكن شلما نصر أقل اعتزازاً بخضوع أراميي الجنوب من اعتزازه بانتصاراته المتكررة على بنى عمومتهم الشماليين فى بيت أدينى وشمآل ، وبنى عمومتهم الغربيين فى قرقر . . (راجع قصته معهم) .

---

(١) Dupont Sommer, *op. cit.*, 31.

(٢) ديلابورت : المرجع السابق ص ٦٠

(٣) Dupont Sommer, *op. cit.*, 18, 32.

(٤) ومما عثر عليه فعلا رسالة بالأرامية موجهة من موظف أشورى يدعى بينيتر إلى موظف أشورى آخر يدعى بير آور ، من منتصف القرن السابع ق . م .

(٥) King, *Bronze Reliefs from th Gates of Shalmaneser*, 1915, Pl. 63.

ومرة أخرى استعانت بابل بالكلدانيين ومن شابههم من الأراميين ، فضلا عن الإلاميين حلفائهم الاضطرابين ، فى مهاجمة آشور بعد وفاة ملكها شاما نصر الثالث ، ولكنها فشلت وقتل ملكها وخلا عرشها فترة من الزمن ، ثم استعادت قواها وعاودت الكرة ضد الأشوريين فى عهد ملكهم أداد نيرارى الثالث لكنه اكتسح أرضها وتلقى جزى الكلدانيين . وأصاب بابل بعد ذلك ما أصاب آشور من حيث غموض التاريخ واضطراب الحوادث . وانتهت فى ذلك الحين الأسرة البابلية الثامنة ، وتلتها الأسرة التاسعة التى عاصرت بداية المرحلة الأشورية الثانية من عصرها الحديث على نحو ما يرد ذكره بعد قليل .

* * *

فى الفن :

حاول الفن البابلى أن يحتفظ خلال فترات الضعف السياسى هذه بإثارات من تقاليده القديمة تذكر أهله بمجدهم الغابر ، مع تلوينها بصبغة حديثة خفيفة تتفق مع اتجاهات عصره والتجديدات الأشورية التى ظهرت فيه . ووجد فن النقش سبيله حينذاك على نصب الهبات ونصب الحدود الإقليمية (كودورو) وعلى النصب التذكارية للملوك . فاحتفظت آثار القرن الحادى عشر ق . م بنصب صغير (من عهد نبو خذ نصر الأول) صور فنانه عليه عدداً من هيئات الأرباب وصور مقاصيرهم ونواويسهم ورموزهم الحيوانية والنجمية والاصطلاحية . وليس للفن نصيب كبير فى هذا النصب فيما خلا مجهود ناقشه فى تصوير مفرداته الكثيرة على مسحه الصغير ومحاولته تمثيل طيات الثوب الواسع لصاحب النصب فى جلوسه، ولكن بقيت له قيم أخرى معمارية ودينية تمثلت فى صور ما ذكرناه من المقاصير والرموز المقدسة ، مثل تصوير سقوف المقاصير على هيئات مخروطية ومائلة ومقبية ، وتصوير أسطون لولبى بتاج على هيئة رأسى أسدين متدابرين ، وقد ظهر له ما يماثله فى الفن الإيرانى ، ومثل وضوح التفرقة بين رموز الثالوث السماوى الكبير ، الشمس والقمر والزهرة ، فظهر رمز الشمس على هيئة قرص تتوسطه نجمة رباعية تنبعث الأشعة من بؤرتها ؛ وظهر رمز القمر على هيئة هلال داخل قرص القمر ، وظهر رمز الزهرة على هيئة نجمة مثمنة داخل قرص كبير . وظهر من رموز النصب صورة حيوان بارك يخرج من ظهره خطان لولبيان يعبران فيما يبدو عن تموجات البرق ويرمزان إلى المعبود أداد رب العواصف والبروق (١) .

واحتفظت آثار القرن التاسع ق . م بلوحه تذكارية مستطيلة سجلت قصة تجديد معبد شمش فى سيبار (أبو حبة الحالية) خلال عهد نابو بالدينا (حوالى عام ٨٧٠ ق . م) (٢) ، وظهر شمش فى أعلاها بهيئته البابلية التى صورتها له لوحة حمورابى ، شيخاً مهيباً برداء كاس وتاج ذى أربعة أزواج من القرون ، مع تحوير يسير فى طريقة تمشيط لحيته الطويلة ، وزخارف ثوبه ، ووضع عصاه ، وزخرفة عرشه التى مثلت معبودين يرفعان سقفه ، وأشرفت عليه ثلاثة أقراص قد ترمز إلى الثالوث السماوى الكبير ، الشمس والقمر

(١) Pritchard, *The Ancient Near East*, Fig. 142.

(٢) Frankfort, *The Art and Architecture...*, Pl. 121.

والزهرة . وجلس شمش بعرشه داخل ناووس ينحدر سقفه انحداراً لطيفاً إلى الخلف وتعتمد واجهته على أسطوانين صور الفنان أسطوناً منهما مضلع الساق بما يشبه حراشيف النخيل ، وشكل قاعدته وتاجه بوحدات نباتية محورة اعتبرها بعض الباحثين سلفاً قديماً لما سمى فيما بعد باسم زخارف الأعمدة الدورية . وتقدم ناووس شمش صوان استند فوقه رمزه ، وهو عبارة عن قرص ضخم ذى قاعدة مزخرفة تتوسطه نجمة رباعية تنبعث الأشعة من بؤرتها . ولم يصور الفنان القرص بجانبه الضيق الظاهر ، وإنما صوره بواجهته الواسعة على عادة تقاليد الفن القديم فى تصوير الأشياء من أوضح هيئاتها ووجوهها ، ولكنه تحرر من ناحية أخرى فى تصوير معبودين متجاورين يطلان من السماء على سقف الناووس ويشدان القرص ، فصورهما تصويراً جانبياً سليما بحيث أخفى أقربهما إلى الرائى جذع زميله ، وصور ذراعيهما البعيدتين أكثر انخفاضاً من ذراعيهما القريبتين ، وذلك مما ينم عن إحساسه بالفارق بين ما يبدو فوق مستوى النظر وما يبدو تحته . وصور الفنان ملكه يبتغى القربى من ربه فى هيئة خاشعة تنم عن إحساسه بعظم الفارق بينه وبينه وتختلف إلى حد كبير عن هيئة حمورابى القديمة أمام ربه . فصوره بحجم صغير يحيى إلهه ، متواضعاً يرفع يده ويبسط كفه ، ويتقدمه كاهن يأخذ بيده ، ويلمس مائدة ربه بيده الأخرى متبركاً بها ، وتتبعه راعيته إشتار (؟) . وصور الفنان هذه الشخصيات الثلاث تصويراً جانبياً سليما على الرغم من صغر أحجامها ، وجعل اختلاف أوضاع أيدى أصحابها سببا للتنويع ودفع الرتابة فى التصوير . ثم فصل بين هذه المجموعة المصورة وبين نصوص اللوحة بفاصل عريض يعبر عن تموجات الماء ، ورتب نصوصه تحته فى سطور أفقية وزعها على ثلاثة أنهر رأسية وقص فيها نبأ آخر إصلاح للمعبد فى عهدى ملكين بابليين سبقا عهد ملكه بأكثر من قرنين وتخرب المعبد بعدهما إلى أن انتهز مولاه فرصة عقد صلح مع آشور والتفت إلى أداء واجباته نحو معابد أربابه .

• • •

عاصرت الأسرة البابلية التاسعة بداية المرحلة الأشورية الثانية من عصرها الحديث ، ولم تكن ذات أثر هام فى حياة بلدها ، فدانت بالطاعة لجبروت تيجلات بيليسر الثالث الأشورى . ثم انتقل الحكم منها إلى أسرة حاكمة جديدة خلال عهده ، وهى الأسرة البابلية العاشرة منذ عام ٧٣٢ ق . م ، وكان الحدث الهام فى أوائل أيامها هو نجاح مردوك أبال أدين الكلدانى زعيم بيت ياكين فى اعتلاء عرش بابل مستغلا فرصة البلبلة التى صاحبت انتقال العرش الأشورى إلى البيت السرجونى منذ عام ٧٢١ ق . م ، ومدعياً أنه من سلالة إربا مردوك أحد ملوك الأسرة البابلية الثامنة ، هادفاً بذلك إلى صبغ حكمه بصبغة شرعية ، ولكن ذلك جر عليه وعلى أسرته عداء البيت السرجونى حتى عهد آشور بانيبال ، كما فصلنا ذلك فى حينه .

وتركت أواخر القرن الثامن ق . م نصباً من نصب الهبات (كودورو) ، ظهر عليه الملك البابلى يعلن هبته لأحد أتباعه المقربين ويضعها تحت حماية أرباب ظهرت صور مقاصيرهم وحيواناتهم المقدسة فى أعلى النصب(١) . وصور الفنان ملكه وتابعه تصويراً جانبياً سليما لاسيما بالنسبة للصدر الذى لم يلتزم بتقليد تصويره

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 120.

بانساعه ، وبالنسبة لتصوير قدمى التابع العاريتين اللتين اكتفى بتصوير أصابعهما الظاهرة وحدها ، فأظهر الإصبع الكبير لإحداهما والأصابع الخمس للأخرى ، ولو أنه تصوير سبقت له أمثلة قديمة أخرى كثيرة . ثم صور ملامح وجه مالكه ومسطح رقبته وصدره ورداء رأسه واستدارة ذراعه بخطوط ناعمة وروح بسيطة تختلف عن الروح الأشورية الرسمية المعاصرة لها فى تصوير الملوك .

يقظة بابل وماذى وانهيار آشور :

شكلت مصائر علاقات بابل بآشور فى أواخر عهد أشور بانيبال وعقب وفاته عدة عوامل ، وهى : اهتزاز الحدود الأشورية تحت ضغط القبائل الهندوآرية والجبلية الناهضة من السمريين والسكيثيين والماذيين ، واهتزاز العرش الأشورى نتيجة لكثرة الخلافات الأسرية فى البيت المالك ، وازدياد حقد البابليين والكلدانيين بعد الانتقامات العنيفة التى أنزلها الأشوريون بهم مرة بعد مرة ، ثم انتقال الحكم فى بابل إلى أسرة كلدانية قوية استطاعت أن تستغل الظروف المحيطة بها وهى الأسرة الحادية عشرة والأخيرة .

وأسس الحكم البابلى الجديد كلدانى يدعى نابو بولاسر (٦٢٦–٦٠٤ ق . م) يحتمل أنه كان ولداً لأمير يدعى كاندا لونو عينه أشور بانيبال على بابل بعد مقتل أخيه ، وعمل قائداً فى الجيش الأشورى وحاكماً على الأقاليم الجنوبية ، ثم عمل لحسابه فزحف على بابل وولى عرشها بعد تفكك أواصر البيت الأشورى الحاكم ، ولكن لم يتعد سلطانه فى بداية أمره ما حولها .

وتتابعت الأحداث فيما حول بلاد النهرين ، فنى شرقها بدأ الماذيون يلعبون دورهم فى نواحى إيران ، وكان هؤلاء (وهم من سماهم الإغريق باسم الميديين) فرعاً من الجماعات ذات الأصل الآرى ، رددت النصوص الأشورية إسمهم منذ القرن التاسع ق . م على أقل تقدير (وإن كان يحتمل ورود إسم قريب من إسمهم منذ عهد تيجلات بيليسر الأول فى أواخر القرن الحادى عشر أيضاً) ، وذكرتهم نصوص شلما نصر الثالث حول همدان ، هم والفرس (باراسو) فى جبال كردستان (١) – وخضع القريبون منها لسلطانها . ثم اتضحت تجمعاتهم وأطماعهم منذ أواخر القرن الثامن ق . م ، ومالوا إلى التحرر من نفوذ الأشوريين ، وذكرت نصوص سرجون انتصاراته عليهم وأنه نفى بعضهم إلى سوريا وأحل محلهم مهاجرين من سماريا ومن شعوب مغلوبة أخرى ، وأشارت الروايات العبرية إلى شئ من ذلك . ثم نجح الماذيون فى تحقيق كيانهم المستقل حوالى عام ٧٠٨ ق . م بزعامة « دايكر » ، وروت القصص الإغريقية عن هذا الزعيم الذى سمته دايوكيس أن شعبه انتخبه ملكاً وأنه نجح فى توحيد كلمة القبائل الماذية تحت حكمه واتخذ اكباتانا (ربما بمعنى ملتقى الطرق وهى همدان الحالية) عاصمة . وأقام قصره داخل حصن تحيط به سبعة أسوار ، ثم احتجب عن رعاياه ولم يسمح لهم بأن يتصلوا به اتصالا مباشراً (٢) . ولم يكن من المنتظر أن ترضى آشور عن انسلاخ ماذى عنها فى

(١) دوفالدولير : إيران ماضيها وحاضرها – معرب بالقاهرة – ص ٢٦ .

(٢) Herodotus, I, 75 f. ; Bury, *The History of Greece*, 221.

ديلابورت : المرجع السابق – ص ٣٢٠ .

عهدها السرجونى العظيم ، فتكرر الصدام بينهما ، ولكن قضاء الأشوريين على مملكة إلام فى عام ٦٤٤ ق . م أراح الماذيين من ضغط هذه المملكة عليهم ومقاومتها لرغبتهم فى الاتساع جنوباً منذ عهد ملكهم فراورتى (Phraortes) ، فى منتصف القرن السابع ق . م . وهكذا استغل الماذيون المرتفعات الجنوبية الغنية بمعادنها وأحجارها الكريمة ، كما استغلوا مزارع السفوح والوديان فى بناء اقتصادهم ، ولكنهم ظلوا أقل قوة من الأشوريين ، وقتل ملكهم فراورتى فى الحرب (١) .

وزادت أمام الماذيين فرص الانطلاق بعد أن اهتزت أركان الأشوريين بطرد حاميتهم من مصر وخروج أغلب ولايات الشام عليهم وحدوث الانقسامات الداخلية فى دولتهم ، فانتظمت قبائل مانداهور الماذية تحت زعامة هواخشتر (كيخسرو فى الفارسية وأوماكيشتار فى البابلية وكياكساريس Cyaxares فى اليونانية) . وتوالت هجمات جيشه على آشور منذ العام الأول من حكمه ، وحاصر نينوى بعد أن أعاد تنظيم قواته على نسق التنظيم الأشورى ، لولا أن اهتز الشرق الأوسط حينذاك باندفاع السكيثيين أعداء الماذيين ، وقد أخذوا يضربون شرقاً وغرباً دون هدى ، ومالوا فى بداية الأمر إلى محالفة الأشوريين ، ولكنهم ما لبثوا حتى هاجموا كلا من أطراف ماذى وآشور معاً ، مما اضطر هواخشتر الماذى إلى التراجع عن آشور ليحمى مملكته (٢) .

وإلى الغرب من آشور كانت دولة ليديا المتأغرقة تحاول طرد هجرات السميريين (أو الكيميريين) البرابرة من آسيا الصغرى . والتمس ملكها جيجيس عون آشور فى عهد ملكها أشور بانيبال ولكنه لم يجد من معونتهم ما كان يبتغيه، وقتل فى الحرب ، ثم انفردت دولته بالمهمة وطردت السميريين من آسيا الصغرى فى عهد ولده أرديس . واندفع السميريون فى تقهقرهم على الحدود الأشورية فصدتهم عنها جيوش أشور بانيبال بعد جهد جهيد . واقتفى السكيثيون أثر السميريين فاقتحموا ممرات طوروس واجتاحوا مناطق غرب الدولة الأشورية وولاياتها الساحلية دون مقاومة تذكر من الجيوش الأشورية التى أنهكتها الحروب المتواصلة ولا من الفرق المؤلفة من الشعوب الخاضعة التى لم يكن لها من حسن التدريب ولا من الإخلاص للدولة ما يعوض ضعضعة الأشوريين . بل إن هذه الهزة قد شجعت المدن السورية على أن تنفض ما بقى من النفوذ الأشورى عنها ، واحدة إثر الأخرى ، بعد أن تبينت ضعف أصحابه . أما السكيثيون فيروى هيرودوت أنهم أوشكوا أن يصلوا فى اندفاعتهم إلى الحدود المصرية لولا أن صرفهم الفرعون بسماتيك عنها بالعطايا ، مفضلا ذلك عن استهلاك قوته الحربية معهم (٣) . (وراجع ص ٣٢٤) .

وأدلى نابو بولاسر البابلى الكلدانى بدلوه فى أحداث عصره ، فاشتبكت جيوشه مع الأشوريين منذ العام العاشر من حكمه على أقل تقدير ، فى قابلينو ومادانو وعلى نهر الزاب وحول العاصمة أشور نفسها ، وفى

---

(١) Herodotus, I, 192.

(٢) *See*, Landsberger-Bauer, *ZA*, XXXVII, NF. III, 82 f.

(٣) Herodotus, I, 105 ; II, 30, 153—154, 157 ; IV, 46.

تكريت (تاكريتين) (١) ، ولكن دون نتائج حاسمة لأحد الجانبين ، لا سيا وأنه لم يلق العون مخلصاً من كل البابليين ، كما ظلت بقية القبائل الأرامية المجاورة له حريصة على استقلالها الذاتى بجانبه . وفى ظل هذه الظروف التى أحاطت بآشور وجيرانها ، تلفت كل من الطرفين القريبين منها والطامعين فيها ، ونعنى بهما الكلدانيين والماذيين ، كل منها إلى عون الآخر ، بعد أن أيقنا أنه لا قبل لأحدهما منفرداً بأن يهدم آشور ، فتحالفا وأيدا تحالفهما بمصاهرة البيتين الحاكمين فيهما (٢) ، وابتدأت جيوش الحليفين تدق على أبواب آشور من جديد .

ويفهم من الروايات البابلية أن المصريين كان لهم دور فى معاونة الجيوش الأشورية (٣) ، وإذا صح ذلك كان معناه أن آشور لجأت فى محنتها إلى عون مصر خصيمتها العتيدة ، وأن مصر استجابت لها حرصاً على الوضع الدولى القائم ودفعاً للخطر الثنائى الجديد من ماذى وبابل . ولكن الدفعة التى خرج بها الماذيون المتحفزون والبابليون الكلدانيون الحاقدون على آشور ، كانت أقوى من أن تصدها دولة مزقتها الخلافات أو يصدها حليف بعيد الديار . فشدد الماذيون والبابليون حصارهم على نينوى ودمروها تدميراً عنيفاً فى عام ٦١٢ ق . م ، وقضوا على استقلالها ، وقتلوا ملكها « سين شار إشكين » أو دفعوه إلى الاحتراق بنيرانها كما ذكرت الروايات الإغريقية ، على نحو ما هلك شمش شوموكين ملك بابل الأشورى الأصل قبل ذلك بستة وثلاثين عاماً فى نيران عاصمته . واعترفت الوثائق البابلية بأن أكثر الجهد كان من نصيب الماذيين العتاة ، ليس فى القضاء على نينوى وحدها ، وإنما فى اجتياح الأقاليم العراقية التى لم تعترف بالوضع الجديد ولم تنتظم فى سلك الزعيم البابلى أيضاً . ولم يأبه الماذيون حين ذاك بمقدسات العراق ومعابدها (٤) ، ويذكر النص البابلى أنهم اكتسحوا ما فوقهم وما تحتهم وما على يمينهم ويسارهم ، وكانوا كإعصار الفيضان . ولم يكن فى وسع حليفهم البابلى غير السكوت فى سبيل القضاء على الغول الأشورى ، أو على حد تعبير النصوص البابلية لم يجد أمامه إلا أن يرسل شعره مهوشاً درن تمشيط ويوثر النوم على الأرض دون المضاجع ، تدليلا على براءته من انتهاك حرمة المعابد على أيدى حلفائه (٥) .

وجمع الأشوريون فلولهم وتحصنوا فى حران بقيادة أشور أوبالليط وريث العرش الأشورى ، وكانت حران عصباً رئيسياً لأحد الطرق التجارية الكبيرة فى بلاد النهرين (وقد يعنى إسمها معنى الطريق أيضاً) ، ولكنهم ما لبثوا حتى أخلوها تحت ضغط الغزاة ، فدخلها البابليون والماذيون وتركوا حامية بها (حوالى عام ٦١٠ ق . م) . ثم حاول أشور أوباللبط أن يجرب حظه للمرة الأخيرة فاستعان بجيش مصرى على حد

(١) *ANET*, 204.

(٢) ديلابورت : المرجع السابق – ٦٧ .

(٣) *See*, *ANET*, 304.

(٤) *Ibid.*, 309 ; Zehnpfund-Langdon, *VAB*, IV, 270 f.

(٥) *Ibidem.*

رواية البابليين وحاصر الحامية البابلية فى حران (حوالى عام ٦٠٩ ق . م) ، ولكن طال أمد الحصار حتى لحقت بها النجدات البابلية والماذية وهزمت جيوشه بعد أن قاومتها نحو ثلاث سنوات(١) .

وبذلك انتهى دور الأشوريين من التاريخ بعد أن أثبتوا أنهم كانوا أعنف قوة عسكرية منظمة شهدها الشرق القديم حتى عصرهم ، وبعد أن ضربوا المثل فى ضراوة القتال وأساليب العنف لجيرانهم الإيرانيين ، لا سيما الماذيين والفرس ، وبعد أن شتتنوا جهودهم بتوسيع أملاكهم إلى آفاق بعيدة يصعب الاحتفاظ بها ويصعب الدفاع عنها سواء من الشرق أم من الغرب مما أدى إلى تفسخ قواهم ، وبعد أن أثاروا حقد بقية بلاد النهرين عليهم بإصرارهم على إذلال بابل والسيطرة عليها على الرغم من قرابتها لهم وسمعتها القديمة الواسعة ، وعلى الرغم من استفادتهم من حضارتها .

التوسع البابلى الأخير :

زادت صحوة الكلدانيين البابليين بعد القضاء على الكيان الأشورى ، واستمروا فى تقوية جبهتهم الداخلية والاستعانة بالدين عن طريق تعمير المعابد وتشييد الجديد منها ، وسيطروا على أواسط بلاد النهرين وجنوبها ، ورضوا مؤقتاً بسيطرة الماذيين على شمال العراق وأملاك الأشوريين الكثيرة فى شرق دجلة وما يمتد نحو حدود آسيا الصغرى . ثم طمعوا فى إحياء الأملاك الأشورية الغربية فى الشام لحسابهم ، وبدأوا يعملون للسيطرة على بادية الشام وسوريا وفلسطين ، ولكن طموحهم أثار مخاوف مصر من عودة التنافس على الطرق التجارية فى الشام ، فخرج الفرعون نيكاو الثانى بجيشه إلى فلسطين وكسر شوكة مملكة يهوذا التى أرادت أن تنتصر فى عهد يوشيا (٢) للقوة البابلية الجديدة ، وواصل طريقه إلى سوريا ليوقف مسيرة الاحتلال البابلى الجديد ، ثم واصل طريقه نحو الفرات ، ولكن انتصاراته أسكرته وأخذه الزهو فعاد وتوقف بجيوشه فترة طويلة فى لبنان ، حيث أمر بتسجيل انتصاراته على صخور وادى الكلب (تلك الصخور التى حفلت بنقوش عدد من الفاتحين والمنتصرين) فكان توقفه بجيوشه فرصة سانحة اغتنمتها الجيوش البابلية فتجمعت وأزادت أعدادها بقيادة ولى العهد البابلى نبوخذ نصر ، والتقت بالمصريين فى موقعة قرقميش عام ٦٠٥ (أو ٦٠٤) ق . م ، ونجحت فى أن توقف زحفهم (٣) . وحاول المصريون أن يعيدوا الكرة لمهاجمة مصالح بابل فى الشام عن طريق البحر مرة أو مرتين ، ولكن مشروعاتهم لم يكتب لها التوفيق (٤) . ويحتمل أنهم عاودوا إرسال قواتهم بالبر مرة أخرى فى عهد بسماتيك الثانى (٥٩٤—٥٨٨ ق . م) حيث أشارت نصوص عسكرية فى أبى سنبل إلى امتداد نفوذه حتى قرقميش . ثم روى هيرودوت أن الفرعون أبريس (واح إب رع) (٥٨٨—٥٦٨

---

(١) *See*, Gadd, *The Fall of Niniveh*, 1923.

(٢) الملوك الثانى ٢٣ . ٢٩ — ٣٥ — وراجع ص ٣٢٦ .

(٣) Woolley, *Carchemish*, II. 125—127.

(٤) Herodotus, II, 157.

ق . م) هاجم صيدا وصور براً وبحراً بعد خضوعهما للبابليين خوفاً من اتخاذها سبيلا لمهاجمة مصر عن طريق البحر (١) (راجع ص ٣٢٨) .

وواصل نبوخذ نصر الثانى (وصحيح إسمه فى البابلية هو « نابو – كدورى – أوصر » بمعنى « الإله نابو يحمى الحدود ») مشروعاته فى الشام بعد اعتلائه العرش (٦٠٥–٥٦٢ ق . م) ، وسيطر على لبنان (لبنانو) وبرر عمله فيها بمنطق الفاتحين . فاعتبر نفسه محررها وناشر السلام فى ربوعها ، وادعى رعايته لأهلها المشردين ، وبرر اهتمامه بها بملكية ربه مردوك لغاباتها وحب أربابه العراقيين لأخشابها وروائحها الزكية ، ثم وعد أهلها بأن ينقش صورته على سفوح جبالهم حتى لا يعتدى عليهم معتد أو يعكر أحد صفو أمنهم(٢) .

وخلدت التوراة والأساطير حروب نبوخذ نصر مع مدينتين ، وهما : أورشليم عاصمة يهوذا ، وصور الميناء الحصينة . وقد أسلفنا ص ٣٢٦ كيف تذبذب ولاء يهوذا بين مصر وبين بابل فى بداية النهضة البابلية ، وكيف هزم الفرعون نيكاو حاكم أورشليم اليهودى يوشيا عام ٦٠٨ ق . م فى مجدو ، وكيف عزل ولده من بعده وعين على المدينة يهو ياقيم وألزمه الجزية . وظل الأمر كذلك حتى زال خوف أورشليم من مصر بعد موقعة قرقميش ، فعادت إلى ترددها فى علاقاتها مع بابل بين الطاعة وبين العصيان ، حتى هاجمها نبوخذ نصر حوالى عام ٦٠٠ ق . م فاستسلمت له بسهولة ، وأعلن له حاكمها يهو ياقيم الطاعة وصار عبده ثلاث سنوات على حد تعبير سفر الملوك ، ثم ثار عليه بعدها وكون حلفاً ضده ، فهاجمه نبوخذ نصر وضرب بمن خرجوا عن حلفه من أهل الشام و « أرسل ضده جيشاً مؤلفاً من كلدانيين وسوريين ومؤابيين وعمونيين » كما روت التوراة . وانتصر البابليون وأعوانهم فى عام ٥٩٧ ق . م وأسروا ملك أورشليم وعدة آلاف من جنوده وأهل دولته ، وكان فيهم ألف من الصناع . وأمر نبوخذ نصر بنفى الأسرى جميعاً إلى بابل . وأطلق اليهود على هذا النفى إسم السبى الأول ، ويبدو أنه صحبهم فيه نبيهم حزقيال .

وعين نبوخذ نصر « صدقيا » اليهودى والياً على أورشليم ، تحت إشرافه ، فظلت يهوذا خاضعة للبابليين أحد عشر عاماً ، ثم ثارت عليهم ، وانقسم أهلها حينذاك شيعتين ، أشرنا إليهما فى صفحة ٣٢٨ ، شيعة تزعمها صدقيا وتكلم بإسمها النبىء حنانيا فدعا إلى كسر نير بابل والثورة عليها بإسم الرب ، وشيعة أخرى مضادة تزعمها النبىء إرميا ودعا معها إلى وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل بأمر الرب أيضاً(٣) . وكان فى تعارض دعوة النبيئين وتمسحهما فى أوامر الرب ما دعا كلا منهما إلى إنكار نبوة الآخر(٤) . وعاودت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة أورشليم فى عام ٥٨٨ أو ٥٨٧ ق . م وشددت الحصار عليها ، ولكنها

---

(١) Herodotus, II, 161.

(٢) *ANET*, 307 ; F.H. Wissbach, *Die Inschriften Nebukhadenzars* II im *Wadi Birssa und am Nahr El-Kelb*, 1966 ; Zehnpfund-Langdon, *VAB*, IV, 151 f.

(٣) الملوك الثانى ٢٤ ، ١٥ – ١٦ .

(٤) إرميا ٢٨ : ١ ، ١٢ – ١٤ ، ١٥ – ١٧ ، ٣٧ : ١ – ٥ .

اضطرت إلى رفع هذا الحصار ، بعد أن تحركت الجيوش المصرية لمساعدتها (فى عهد واح إب رع (١) ، ثم عاودت حصارها مرة أخرى وضيقت عليها تضييقاً شديداً نحو عام ونصف عام حتى دخلتها فى عام ٥٨٦ أو ٥٨٥ ق . م ودمرتها ، وأحرقت هيكل سليمان ونقلت خزائنه ، ونفت أربعين ألفاً أو خمسين ألفاً من أهلها إلى بابل لينوحوا عند الفرات على حد قول التوراة . وأسر البابليون صدقيا عند أريحا ، وفعلوا معه ما اعتاد اليهود أن يفعلوه مع بعضهم البعض ، بل ومع أنبيائهم أيضاً الذين كانوا يقتلونهم بغير حق ، فقتلوا أولاده أمامه ثم فقأوا عينيه ليكون سفك دم أولاده آخر منظر يراه (فى ربلة على نهر العاصى) . واعتبرت التوراة ما حل باليهود حينذاك عقاباً لهم على « تماديهم فى عصيان الرب حتى ثار غضبه على شعبه فأصعد عليهم الكلدانيين » (٢) . وصدق الله تعالى حيث قال فى قرآنه الكريم : (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلل الديار وكان وعداً مفعولا . .) (٣) ، والعلو هنا هو التمادى فى الظلم . أما إرميا داعية الخضوع لبابل ، فقد لجأ مضطراً مع جماعة كبيرة ممن نجوا من القتل والتشريد إلى مصر ، فوسعتهم رحابة صدرها(٤) .

وتابعت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة المدن الفينيقية والسورية ، وكانت أشد هذه المدن مقاومة لها مدينة صور التى ظلت على مقاومتها ثلاثة عشر عاماً (٥٨٥ — ٥٧٣ ق . م) أبدت فيها من البسالة صوراً مشرفة وساعدها على المقاومة سهولة اتصالاتها بجزيرة لها بالبحر ، ثم رضيت فى نهاية الأمر بصلح اعترفت فيه بسيادة البابليين ، واضطرت تحت ضغطهم إلى معاونتهم ضد مصر حين أرادوا أن يتخذوها قاعدة لمهاجمة السواحل المصرية عن طريق البحر(٥) .

العمران والفنون :

أرادت بابل الكلدانية أن تعوض أجيال التبعية الطويلة التى مرت عليها ، وقد أسكرتها نشوة النصر على الأشوريين على الرغم من قرابة الجنس والديار بينهما . ووجدت فرصتها الذهبية فى طول عهد ملكها نبوخذ نصر الثانى ، الذى امتد ثلاثة وأربعين عاماً ، وفيما مر بنا من تعدد انتصاراته وأمجاده . فنشطت حركة العمران فيها كما لم تنشط من قبل ، وبلغ محيط عمرانها حينذاك نحو ١٨ كيلو متر ، وذكر المؤرخون الإغريق أن أسوارها كانت أسواراً دائرية عظيمة وأنه أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية . وأولها هو السور الداخلى للمدينة وقد بنى من اللبن ، وكان ذا أبراج ، وبلغ سمكه ٧,١٢ من الأمتار ، وتلاه على مبعدة إثنى عشر متراً سور آخر خارجى ضخم بلغ محيطه أحد عشر ميلا ونصف ميل ، بنى من الآجر وثبت

(١) حزقيال ٢٧ : ١٥ ؛ إرميا ٢٧ : ٥ .
(٢) الأيام الثانى — الإصحاح ٣٦ .
(٣) سورة الإسراء — الآية ٣ وما بعدها .
(٤) الملوك الثانى ٢٥ : ٢٥ — ٢٦ ؛ إرميا ٤٤ : ٣١ ، ٣٠ .
(٥) Herodotus, II, 161.

بالقار وبلغ سمكه ٧٫٨١ من الأمتار ، وأطل على خندق واسع ، ودعم أصحابه أساسه بجدار ساند يرتفع بارتفاع الخندق ويبلغ سمكه ٣٫٢٥ من الأمتار . أما خطا الدفاع الخارجيان ، فسمي أحدهما بإسم السور الماذى وامتد من الشمال إلى الجنوب من بلدة الحديثة على نهر دجلة حتى أبو حبة على نهر الفرات ، وامتد الآخر من خان الناصرية على نهر الفرات حتى مدينة كيش على أحد فروعه .

وتمثلت أهم عمائر ومعالم بابل الكلدانية فى قصر نبوخذ نصر ؛ وفى زقورة « إ . تمن . آنكى » أو برج بابل كما سماها الرواة العبرانيون والإغريق والمسلمون ؛ وحدائق المدرجات التى اشتهرت خطأ بإسم الحدائق المعلقة واعتبرت إحدى العجائب السبع فى العالم القديم ، وقيل إنها أعدت للتسرية عن زوجة الملك ماذية الأصل حتى لا توحشها روابى بلادها إذا أقامت فى أرض بابل السهلية المنبسطة . ثم بوابة إشتار (عشتار) ، فضلا عن الأسوار الضخمة التى ذكرناها . وتعصب البابليون لتقاليدهم الفنية القديمة فى تنفيذ أمثال هذه العمائر والمشروعات ، وودوا لو اعتبروا تجديدات خصومهم الأشوريين كأنها لم تكن ، ولو أن ذلك لم يكن متيسراً دائماً . فرجعوا من ناحيتهم بتخطيطات المعابد إلى أصولها البابلية القديمة ، وأزادوا إستخدام الآجر المحروق والمزجج ، وأحلوا محل الرسوم المسطحة التى استحبها الأشوريون نقوشاً غائرة .

توسط قصر نبوخذ نصر الجدار الشمالى للمدينة ، وبنى داخل حصن كبير على عادة القصور الملكية فى بلده ، وتألف من وحدات معمارية كثيرة ، وتضمن عدة أفنية ، وأحاطت به ملحقاته التى يحتمل أنه كان منها بعض إدارات الدولة ، وتميزت فيه قاعة عرشه (التى بلغت مساحتها ٥٢× ١٧ متراً) عن قاعات العروش الأشورية ببساطة طابعها ، واحتل عرشها مشكاة كبيرة (أوحنية أو محراباً ضخماً) توسطت الجدار المواجه للمدخل . وكسيت جدران بهو القصر الكبير بقوالب الآجر ذات السطوح الخزفية الزرقاء الداكنة ، وزخرفت فى أسافلها بإفريز من الأسود الحارسة صورت تصويراً جانبياً (على العكس من أسود خور سباد الأشورية التى تواجه الداخل) ، كما زخرفت فى أعلاها بما يمثل أساطين ذات تيجان مركبة ، تصل بين تيجانها وتعلوها زخارف تكوينية تتألف من زهيرات محورة ومعينات صغيرة . وتعاقبت فى كل هذه الوحدات الزخرفية ألوان بيضاء وصفراء فوق الأرضية الزرقاء الداكنة فخلعت طابعاً من البهجة على زخارفها الرقيقة(١) .

بدأ تجديد زقورة « إ . تمن . آنكى » فى عهد نابو بولاسر مؤسس الأسرة الكلدانية . وأكدت نصوص الرجل ومناظره أنه استفتى وحى الأرباب فى تخطيطها القديم واشترك مع ولديه فى وضع أساسها ، فحمل أدوات البناء فوق رأسه ، وحمل ولى عهده طين اللبنة الأولى ، ورفع ولده الآخر (نوبا شوم ليشو) معولا ومجرفة .

وخلمت الزقورة معبد مردوك أساساً ، وهو ذلك المعبود البابلى القديم الذى اعتبر أتباعه بقية المعبودات الكبار مجرد صور لنواحى قدرته ، وقالوا تمجدونه : « سين قدسيتك ، وآنو نصيحتك ، وداجان قيادتك ،

(١) Koldewey, *Das weiderstehende Babylon*, Abb. 64.

وإنليل ملكيتك ، وأداد قدرتك ، وإيا حكمتك » (وكان الأشوريون قد نسبوا مثل هذه الصفات أيضاً إلى ربهم نينورتا فى عصرهم الوسيط ، وإلى معبودهم الأكبر أشور فى عصرهم الحديث) . وخدمت زقورة بابل أربعة معابد أخرى كبيرة أو نحوها ؛ كان منها معبد « نين ماخ » (إى . ماه) ربة الخصب . وهى معابد أخذت فى تخطيطها وتنظيم قاعاتها وقواعد تماثيلها بالأسلوب الأكدى القديم دون الأسلوب الأشورى الخصيم (١) .

ووصف المؤرخ هيرودوت هذه الزقورة إبان اكتمالها وصفاً شائقاً (٢) ، ثم وصفت لوحة من القرن الثالث ق . م ما بقى منها على أيامها ، كما احتفظت لها أجيال الرواة العبرانيين والمسلمين بصورة أسطورية غالية . أما من حيث الواقع فلم يتبق منها مما ينم عنها حتى الآن غير خطوطها الأرضية وأطلال ثلاث درجات تؤدى إلى مسطحها الأول من ناحية الجنوب ، وترتب على ذلك أن تعددت النظريات المعمارية فى تصور هيئتها الأولى ، دون أن تسلم إحداها من شك ونقد . ويحتمل مما أتى به هؤلاء جميعاً أنها بنيت من اللبن وكسيت بالآجر . وأن واجهاتها كلها شكلت فيها مشكاوات رأسية متعاقبة ، وأنها توسطت فناء مسوراً عظيم الاتساع (٦٦٧× ٣٦٥ متراً) يقع المدخل الرئيسى لسوره ناحية الشرق ، وأن طول ضلع مسطحها الأول بلغ حوالى ١٨٣ متراً . وربما تعاقبت على جوانبه أعمدة مربعة . وبلغ طول ضلع مسطحها الثانى نحو ١٠٦ من الأمتار وتضمن عدة مقاصير لكبار أرباب بابل والمدن المجاورة لها مثل الأرباب : مردوك ونابو وإيا وآنو وسين وتاشمتوم ونوسكر . . . وعدة مقاصير لكنوز الزقورة . ثم قام فى وسط المسطح ، وهذا هو الأهم ، بناء مدرج تألف من خمسة مسطحات تصغر مساحة كل مسطح منها عما تحته ويصل بينها درج جانبى صاعد يدور حولها حتى يؤدى إلى أعلاها حيث يتوسط المسطح العلوى منها ويتوجه قدس الأقداس الكبير . ويرى المعماريون الآثاريون الأخذ بما رواه هيرودوت وغيره من أن كل مسطح من المسطحات المتعاقبة للزقورة قد اتخذ لوناً يختلف عن لون الآخر ، ومن الألوان التى يقترحونها لها على التتابع ألوان : الأبيض فالأسود فالبنفسجى فالأزرق فالبرتقالى فالقرمزى فالفضى فالذهبى ، ولكل كل هذه الألوان والأصباغ ذهبت مع زقورتها حينما دمر الفرس أغلبها فى عهد الملك أخشويرش ، وبعد أن استخدم أهل المنطقة معظم لبناتها فى مبانيهم المتعاقبة (٣) .

ووصل بين زقورة بابل وبين « إساجيل » (é-sag-il) معبد مردوك الأرضى ، طريق للمواكب ارتفعت أرضيته عن مستوى أرض المدينة ورصفت باللبن المكسو بالقار ثم غطيت ببلاطات متسعة من الحجر الجيرى وحفت بها مربعات صغيرة من قطع الرخام الزاوى الأحمر (البرشيا) (٤) . وكان يحف بالطريق

(١) *Op. cit.*, Abb. 32 ; *Antiquaries Journal*, X. Pl. XXXV, 374 f.

(٢) Herodotus, I, 181 ; O.E. Ravn, *Herodotus's Description of Babylon*, 1932.

(٣) *Memoires de l'Academie des Inscriptions*, XXXIX , 1913.

(٤) *See* Parrot, *Ziggurates et Tour de Babel*, 1949.

وعن طرقات أخرى مرصوفة باللبن والقار – أنظر سومر ١٩٠١ – ص ٣ .

جدران وتطل على جانبيه أبراج متباعدة . ويبدو أن بعض واجهات جدرانه كسيت بأفاريز من الخزف الملون نقشت نقشاً بارزاً بما يمثل الكائنات الحارسة وبخاصة الأسود .

ويخترق طريق المواكب بوابة إشتار (قاهرة أعدائها) وكان لها أصل قديم ثم جددت فى العصر الكلدانى وزيد ارتفاعها حتى بلغ ما بين ٤٠ و٤٧ قدماً ، فأصبحت من معالمه الرئيسية . وتقع فى الركن الشمالى الشرقى من الحصن الجنوبى لبابل وتؤدى فى الوقت نفسه إلى صرحين كبيرين يرتبط بهما جسرمعلق يصلهما بالقصر الملكى . وتألفت البوابة من صرحين رئيسيين علتهما زخرفة معمارية مسننة . وكسيت مساحة كبيرة من جوانبها الكلدانية المستحدثة بقوالب الآجر ذات السطوح الخزفية الزرقاء ، وتعاقبت على سطوحها هذه تسعة صفوف نقشت بالنقش الغائر ، مثل بعضها ثيراناً ذات أشكال محورة ، ومثل بعضها صور حيوانات خرافية متباعدة ، وجمع بعضها الآخر فى صوره بين أجزاء من التنين والنسر والأسد والأفعوان ووحيد القرن . وعبرت هذه الصور فى مجموعها عن رموزحيوانية للمعبودين أداد ومردوك ، وسمى بعضها باسم سيروش ، وتعاقبت فى جسومها وشعورها وقرونها وأقدامها ومخالبها ألوان بيضاء وصفراء وخضراء وبنية وزرقاء بدرجات متفاوتة ، وتعاقبت ظلالها فوق أرضية زرقاء ، وبهذا أكسبت بوابتها طابع الجمال وخدمت غرض الدين وغرض الزخرف معاً ، وزادها جمالا أنه أحاطت بها أطرمنقوشة تتألف من مربعات زخرفية وزهيرات كبيرة رقيقة . وكانت جدران البوابة القديمة قد تضمنت قبل العصرالكلدانى صور الحيوانات نفسها ، ولكن بعضها كان منقوشاً فوق الآجر العادى . وعندما رفع رجال نبو خذ نصر مستوى طريق المواكب غطت هذه التعلية على جزء كبير من صور البوابة القديمة ، وكان ذلك لحسن حظها إذ بقى عدد منها كاملا حتى الآن ، بينما لم يبق من مناظر الآجر الخزفى التى شكلت فى عهد نبوخذ نصر نفسه غير أسافلها التى حالت ألوانها . ويبدو أن الصور القديمة والحديثة قد بلغ عددها نحو ٥٧٥ صورة .

ونقبت بعثة آثارية ألمانية فى أرض بابل فترة طويلة قبل الحرب العالمية الأولى ، وعملت على نقل ما وجدته من أجزاء بوابة إشتار مفككة إلى متحف برلين فى ٦٤٩ صندوقاً وصل آخرها إليه فى عام ١٩٢٧ ، حيث أعيد تكوينها بعد ذلك فيما هو أقرب إلى تصميمها القديم .

وصاحب الاهتمام بمعابد العاصمة بابل اهتمام مماثل بمعابد المدن الأخرى ذات الشهرة الدينية ، فجددت فى مدينة بورسيا (برص نمرود الحالية) ، إلى الجنوب الغربى من بابل بنحو سبعة أميال ، زقورة تشبه زقورة بابل ، كانت بعض مداميك الآجر فيها مزججة ، وكانت مسطحاتها ملونة بألوان مختلفة . وتحدثت نصوص العصرنفسه عن عربة (صغيرة) للربة إنانا (أو إشتار) ربة الوركاء ، شدت إليها سبعة أسود . أعادها نبوخذ نصر إلى معبدها « إيانا » بعد أن أبعدها عنه أهل المدينة فى عهد الملك إربا مردوك أحد ملوك الأسرة

البابلية الثامنة وأقاموا لها تمثالا مزيفاً ، وترتب على فعلتهم هذه أن هجرت المعبودة معبدهم واعتكفت فى مكان قصى كما روى نص الملك (١) .

* * *

الأفول أمام نهضة الفرس :

كانت انطلاقة بابل الكلدانية أشبه بصحوة الموت بالنسبة لتاريخ العراق القديم ، ولم يكن من المنتظر أن تستمر هذه الانطلاقة أمداً طويلا على الرغم من حدتها ، فى عصر ماجت الهضاب الإيرانية المجاورة لها خلاله موجاً شديداً بتحركات قبائل فتية عاتية أصرت على أن تفرض نفسها على عصرها فرضاً وأن تبدأ فيه من حيث انتهى غيرها . فقد أدى نجاح قبائل مانداهور فى زعامة الدولة الماذية وتحطيم القوة الأشورية إلى نتيجتين متضادتين : نتيجة مباشرة ، وهى تشجيع بقية الماذيين على مواصلة التوسع والدق العنيف على أبواب جيرانهم ، ثم نتيجة لاحقة وهى تشجيع قبائل جبلية أخرى على أن تسلك سبيل الماذيين وتستفيد من تجاربهم بكل ما فيها من فشل ونجاح ، ومنها قبائل البرس أو الفرس التى عاشت فى بداية أمرها فى غرب وجنوب غرب بحيرة أورميا ثم هاجرت فى حوالى القرن الثامن ق . م إلى جنوب إيران وتركزت لدى سفوح جبال بختيارى(٢) .

ورث الماذيون أملاك الأشوريين الشمالية والشرقية كما أسلفنا ، وابتلعوا مناطق أورارتو شيئاً فشيئا ، وامتدوا شمالا حتى بلغوا نهر هاليس فى آسيا الصغرى ، وهناك اصطدمت أطماعهم بدولة ليديا التى جمعت فى سياستها وعلومها وحياة ملوكها بين تقاليد الشرق والغرب معاً واتخذت عاصمتها فى مدينة ساردیس (راجع أيضاً ص ٣٣١) . وتطور التنافس بين الماذيين وبين الليديين بعد فترة إلى صدام مسلح لزمت بابل فيه جانب حلفائها الماذيين . ولكن هذا الصدام توقف بصلح روى بعض المؤرخين الإغريق من أسبابه المباشرة أنه حدث فى أحد أيام العام السادس للحرب (وهو ما يوافق يوم ٢٨ مايو عام ٥٨٥ ق . م) أن أظلمت السماء فجأة فى واضحة النهار فأجفلت جيوش الفريقين واعتبراها نذيراً من السماء ، فتوقفا عن الحرب ، وقيل إن ملكيهما اتفقا على توسيط ملكى بابل وكيليكيا بينهما ، ثم انتهى الأمر إلى هدنة أيدها البيتان الحاكمان بالمصاهرة ، واعتبرا نهر هاليس حداً فاصلا بينهما . وأضاف الإغريق أن الفيلسوف ثاليس (طاليس) الميليتى أبا العلم الإغريقى كان قد تنبأ لقومه بكسوف الشمس فى نفس العام (٣) . وهى المرة الأولى التى تنبأ فيها عالم إغريقى بحدوث ظاهرة فلكية تنبأ صحيحاً .

ولكن لم يطل الأمد بالنهضة الماذية ، وأحاط بها بعد وفاة ملكها هواخشتر (كياكساريس) ، ما أحاط بجيرانها أكثر من مرة ، ترف مسرف ترتب على كثرة الأسلاب والمغانم . وطغيان سياسى ترتب على غرور

---

(١) See, ANET, 399.

(٢) دوفلدولير : المرجع السابق .

(٣) See, Bury, History of Greece, 222

الحكام الذين أسكرتهم نشوة انتصاراتهم المتكررة بحيث روى بعض رواة الإغريق قصصاً شتى عن قسوة آخر الملوك الماذيين ستياجيس ، فذكرو أنه غضب ذات مرة على أحد كبار رجال دولته فقتل ولده أمامه وأرغمه على أن يأكل أحشاءه . . . (١) ، ثم طموح قبلى صدر عن جزء من الدولة للسيطرة على أجزائها الأخرى ، وقد صدر فى هذه المرة عن إقليم أنشان (فى إلام القديمة و جنوب إيران) . وهو إقليم كانت حياة أهله شاقة جافة و يمت حكامه بصلة القرابة أو المصاهرة للبيت المالك الماذى واستطاعوا أن يحتفظوا بمكانتهم إزاءه طوال ثلاثة أجيال ، ولكنهم ظلوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم أعرق أصالة وأحق بالملك وأقدر على تحقيق العدالة منه . وقد بسطوا نفوذهم على إقليم بارسو الذى عرف بإسمهم فى جنوب غرب إيران ، وتميز من أمرائهم الأوائل الكبار قورش الأول الذى قاسم أخاه الملك وورثه لولده قمبيز الأول . ثم تبعه قورش الأكبر أو الثانى الذى حقق حلم أسرته (وذكر أحد الأخبار الإغريقية أن أمه هى إبنة ستياجيس آخر الملوك الماذيين) ، فلم شمل الحاقدين على البيت المالك الماذى وقضى على نفوذه فى حوالى عام ٥٥٥ أو ٥٥٣ ق . م (٢) ، وبدأ أسرة حاكمة جديدة ، أو دولة جديدة ذكرتها المصادر الفارسية باسم الدولة الهخامنشية ، وأطلقت المصادر اليونانية عليها إسم الدولة الأخمينية ، واعتادت المؤلفات الحديثة على أن تذكرها باسم الدولة الفارسية (الأولى) وهو ما سنجرى عليه فيما يلى ، وقامت عاصمتها فى بازارجادة أو برسوبوليس . وكان من تمجيد هذا الملك لنفسه قوله « أنا ابن كامبوزيا (قمبيز) الملك العظيم ملك أنشان ، حفيد قورش الملك العظيم ملك أنشان ، سليل شيشبيش الملك العظيم ملك أنشان ، من أسرة (مارست) الملكية دائماً » . .

ورثت الدولة الجديدة ملك الماذيين ، ولم تكن لتقف بعزائمها الجديدة عندما وقفوا عنده ، فتخوفت نهضتها كل من بابل وليديا ومصر . وكانت ليديا هى البادئة بعد أن بلغت أوج مجدها وثرائها فى عهد ملكها كرويسوس Croesus (٥٦٠–٥٤٦ ق . م) وأخضعت المدن الإيونية والأيولية فى آسيا الصغرى لنفوذها ، حتى امتد سلطانها من نهر هاليس إلى بحر إيجه ، وطمعت فى أن تستغل البحر وتسيطر على جزره ، وأصبحت شيئاً عظيماً فى نظر إغريق الشرق والغرب معاً . ثم أقلقتها نهضة فارس فأرادت أن تكون هى البادئة ، وطلبت عون إغريق شبه جزيرة لاكيدايمونيا وزعيمتها اسبارطه ، كما طلبت عون بابل ومصر . وتقدمت جيوشها ناحية الشرق ، ولكنها ما لبثت حتى تحطمت أمام الطوفان الفارسى ، فتراجعت فلولها إلى ساردیس ولحق بها قورش وجنوده ، فدمروا العاصمة وأسروا ملكها فى عام ٥٤٦ ق . م قبل أن يتمكن حلفاؤه من نجدته (٣) ، وبذلك أتت نهايته على غير ما توقع لنفسه وعلى غير ما توقع الإغريق له .

وفى بابل لم تستمر النهضة بعد نبوخذ نصر طويلا ، وتعاقب ثلاثة من أسرته على العرش فى مدى سبع سنوات ملؤها التفسخ والقلق ، ثم انتقل الحكم منهم إلى الملك « نابونهيد » ، وكان من أسرة كهنوتية ، أو

(١) *See, ANET*, 316.

(٢) *Ibid.*, 316.

(٣) Herodotus, I, 129, 177, etc...

على الأقل من أسرة يؤيدها الكهنة ، ولو أنه لم يعتبر نفسه فى نصوصه غريباً عن اللوحة الحاكمة ، فادعى أن الرؤى والآيات تعاقبت لتبشره بأنه سيكون خليفة نبوخذ نصر ومتبعاً لطريقته ، برضا مردوك وبقية الأرباب . وأراد الرجل بعد اعتلائه العرش فى عام ٥٥٥ ق . م أن يحقق حسن ظنه بنفسه ، فأسرف فى إظهار تقواه إزاء المعبودات بتجديد معابدهم وزيادتها ، ومن أشهر ما جدده منها زقورة أور التى اعتبر مشيدها القديم أورنمو من أسلافه ، ومعبد الشمس فى سيبار الذى اعتبر مشيده نرام سين الأكدى من أجداده ، وأسرف فى إظهار حب العلم والشغف بجمع اللوحات والآثار القديمة ، وشاركته هذه الهواية إبنته التى عينها كبرى كاهنات رب القمر وادعى أن هذا الرب اختارها زوجة بنفسه بعد أن هدد الدنيا باسوداد وجهه ، أى بخسوفه . كما شاركته الدعوة إلى رعاية المعابد سيدة عجوز لعلها كانت أمه ، تعدت المائة فى عهده وكانت لا تزال ذات سلطان وقوة جسدية وعقلية كاملة (١) .

وجرب نابو نهيد أن يكون سياسياً ، فتظاهر بمناصرة قورش الفارسى ضد الماذيين حلفاء بابل بالأمس ، وهدف من ذلك إلى استخلاص مدينة حران الأشورية من سلطانهم لحسابه ، ونجح فى استعادتها فعلاً وجدد معبدها الذى يبدو أن جدته وأباه وأمه كانوا من كهنته (٢) . فكانت من الحسنات القيلة التى أداها لدولته نظراً للأهمية الاقتصادية والثقافية التى تجمعت فى هذه المدينة بحكم وقوعها على أحد الطرق التجارية الرئيسية الممتدة من شمال العراق إلى نواحى الشام وآسيا الصغرى ، وفى بقعة التقت فيها الثقافات البابلية والأشورية والكنعانية . ثم تمادى فى الثقة بنفسه فغزا شمال سوريا حتى وصل حماة وجبال أمانوس ، وغزا جنوبها حتى إدوم وغزة ، وربما وصل توسعه فى الحجاز حتى يثرب . ولأمر ما أناب عنه على عرش بابل ولده بال شار أوصر (بعل إحم الملك) ، واتجه إلى واحة تيماء بخاصة (٣) ، ربما ليحيى أهميتها التجارية على الطريق التجارى بين ساحل البحر المتوسط وشمال غرب شبه الجزيرة العربية وبين العراق ، ثم ينتفع باقتصادياتها ، أو على أمل أن يستعين بها وبوسطها البدوى على تطعيم جيشه بقوات فتية يحيى بها مجد دولته ويستعد بها لمعركة قريبة لا محيص عنها بينه وبين الفرس الطموحين ، أو ليتخذها ملجأ أخيراً له لو عجز أمام الفرس . ولكن خاب أمل الرجل فى هذا كله وخابت سياسته مع تيماء وجيرانها ، إذ اشتد عليها وقتل ملكها ، ثم سورها وأقام بها بضع سنوات فى قصر جديد ، على الرغم من سوء ظنه بأهلها وسوء ظنهم به ، بينما أناب عنه ولى عهده فى العاصمة بابل سرة الدولة التى وجب عليه أن يرعاها بنفسه . وعندما عاد إليها فى عام ٥٤٥ ق . م

---

(١) *See, ANET*, 309 f.

(٢) أنظر مجلة سومر ١٩٦١ – ص ٥ .

(٣) *ANET*, 311, 560—562.

(٤) Smith, *Babylonian Historical Texts*, 1924, 27 f.

(٥) *See*, J. Lewy, *HUCA*, 1946, 434 f. ; R.P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar*, New Haven, 1927 ; *Mizraim*, I, 1933, 140 f. ; W.F. Albright, *JRAS*, 1925, 293 f.

كان سوء الإدارة قد عمل عمله فيها ، وانتشرت المجاعات حولها (١) . وفي هذه الظروف صحت عزيمة قورش الفارسي على ضمها إلى ملكه في بداية تنفيذ مشروعه لغزو الهلال الخصيب كله . وهنا حاول نابونهيد أن يجمع الأحلاف حوله . ولكنه لم ينجح في ذلك غير نجاح قليل ، وخشي الآخرون شدة بطش الفرس العتاة . ويبدو أن كلف نابونهيد بآثار الماضي جعله يكثر من صور وتماثيل آلهة المدن الأخرى القديمة في عاصمته مما جلب عليه كره كهنته . فاستعاض عن ولائهم باستدعاء تماثيل المعبودات الأخرى إلى بابل ليشتركوا مع إلهها مردوك في حمايتها ، ولكنه بمعبوداته كان أقل من أن يقف أمام الطوفان الفارسي فانهزم وعز عليه الالتجاء إلى حصنه في تيماء . ودخل قورش بجيوشه إلى بابل وادعى في نصوصه أنها فتحت أبوابها له ورحبت به ملكاً رد عليها مقومات الحياة ، وروى أن أهلها فرشوا طريقه فيها بالرياحين . ولكن ورد في رواية أخرى أنه دخلها بمعونة بعض البدو وخيانة قائد في جيشها (٢) .

وزاد قورش ، أو من كتب نصوص النصر على لسانه ، فرمى نابونهيد بالكفر والسخافة وتعقيد طقوس الأرباب ، بل وبفساد الذوق حتى في اختيار تمثال معبوده الذي بدا وجهه فيه قاتماً كهيئة القمر في المحاق ، ووصلت جدائل شعره حتى عرقوبيه . واتهمه بأنه تسبب في قتل نبلائه وتعطيل طرق التجارة بمشروعاته التوسعية الفاشلة ، حتى غضب عليه كل الأرباب والناس (٣) ، وما إلى ذلك من ادعاءات يصعب على التاريخ تبين حقيقة الأمر فيها لأنها صدرت عن مصدر واحد وعلى لسان منتصر لا منافس له ولا معقب عليه . وزيادة في الاستمتاع بمظاهر النصر أبقى قورش على حياة نابونهيد وبعث به إلى كرمان . ومرة أخرى هلل اليهود للمنتصر وتشفوا في المنهزم وقالوا بلسان النبي دانيال : « قسمت مملكتك وأعطيت للميديين والفرس » . وزعموا أنها كانت نبوءة كتبت على أحد جدران قصر ملك بابل (٤) .

خاتمة المطاف :

انتهى دور بابل في التاريخ القديم كدولة مستقلة في عام ٥٣٩ ق . م ، كما انتهى قبلها دور آشور بعد عام ٦١٢ ق . م ، ولكن زوال دورهما السياسي لم يستتبعه اطلاقاً زوال وجودهما وتأثيرهما الحضاري في الشرق والغرب معاً . ولم تكن بابل أقل حظاً من أختها في ذلك ، حتى لقد رأى فيها بعض المؤرخين الإغريق الذين زاروها منذ عصرها الفارسي وخلال عصرها السليوكي ، صورة تجمعت فيها المفاخر العقلية للعراق القديم كله ، فتحدثوا عن تراثها الفلكي بما فيه من تقسيمات دائرة البروج ورموزها الإثنى عشر ، وإضافة

---

(١) R.P. Dougherty, *Records from Erech*, 1920, No. 154 ; "Nabonidus in Arabia", *JAOS*, XLII, 395 f. ; *ANET*, 1968, 562—563.

(٢) R. Chirman, *Iran*, 1964, 131—132.

(٣) Sidney Smith, *Babylonian Historical Texts*, Pls. V-X, P. 83 f. ; E. Ebelling, *AOT*, 368 f. ; *ANET*, 312 f., 315 f.

(٤) سفر دانيال : ٥ : ٢٨ .

وتنظيم شهر النسئ (أو الكبس) فى تقويمها على أساس دورة زمنية مقدارها ثمان سنوات ودورة أخرى مقدارها تسعة عشر عاماً ، وتحدثوا عن قدرة علمائها على التنبؤ بخسوف القمر مستعينين بدورة الثمانية عشر عاماً ، وعن معرفتهم بالمزولة الشمسية والمزولة المقعرة ثم بالساعة المائية ، مع تقسيم الساعة إلى أجزاء ودقائق . . . ، وبراعتهم فى استخدام الطريقة الستينية التى توارثوها عن عصورهم القديمة . . . الخ (١) .

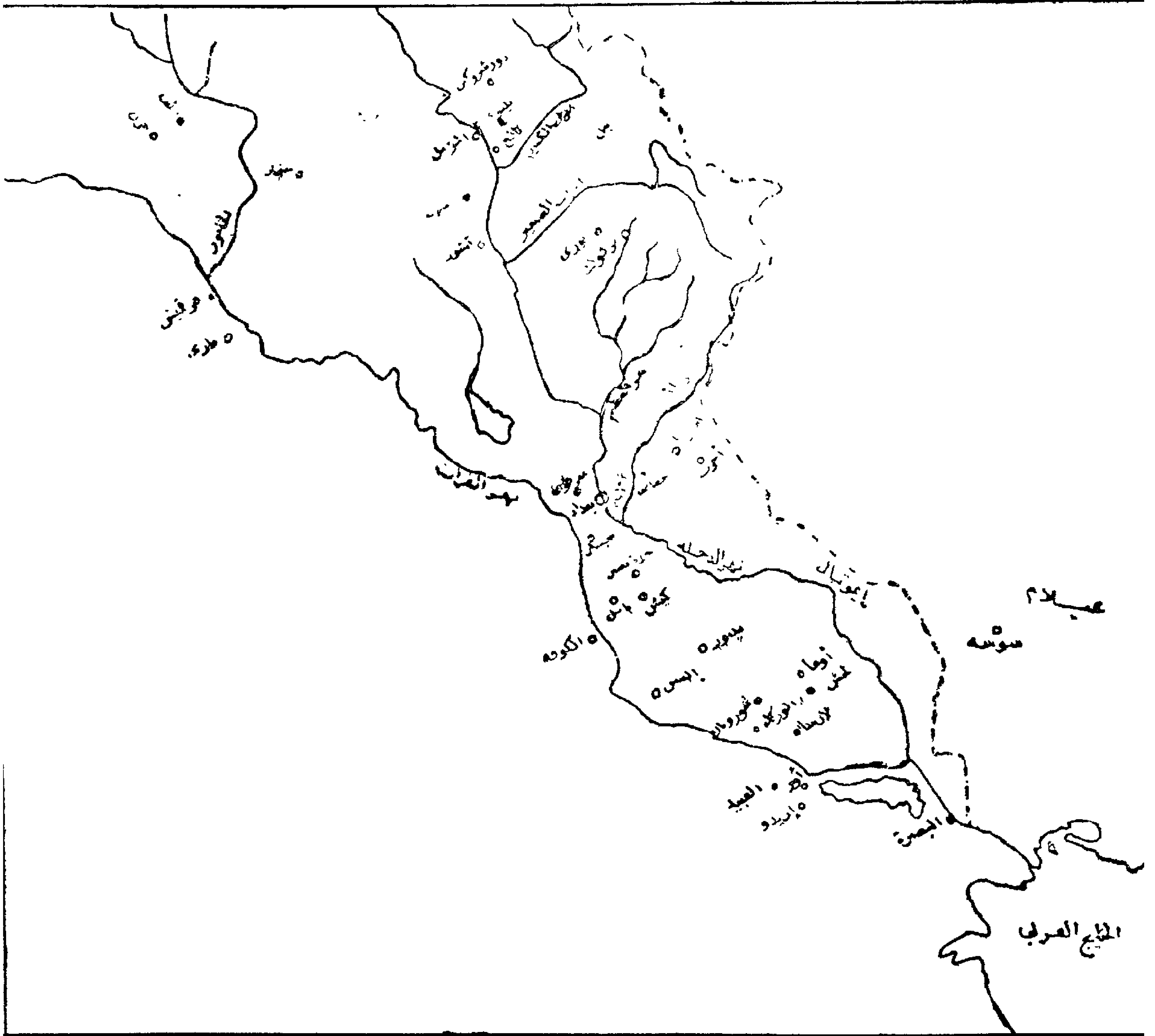
ومن طريف ما صوره أحد البابليين الأواخر ، خريطة لما تشغله بابل وجاراتها من العالم المعروف لديه ، على لوحة مسمارية سجلت فى أعلاها بعض أخبار حملات سرجون الأكدى (ولعله أراد أن يفسر بها مواقع هذه الحملات) ، فصور العالم على هيئة دائرة تحيط بها دائرة أوسع منها قليلا ، بهرتها بابل العظيمة على هيئة دائرة سوداء صغيرة ، ويشقها طولا الفرات ودجلة إلى حيث يصبان فى مياه الخليج . ثم صور مدنا أخرى وشعوباً على هيئة دوائر سجل أسماءها فيها وبجوارها (ولكن دون اهتداء إلى توزيعاتها الجغرافية الصحيحة بطبيعة الحال) . وصور فى شمال البحر الكبير ثمانى جزر قال عنها إنها لا ترى الشمس . وصور على أطراف دائرته مثلثات كبيرة تخيلها فيما يبدو جبالا بعيدة أو رواسى ترتكز قبة السماء عليها . . (٢) .

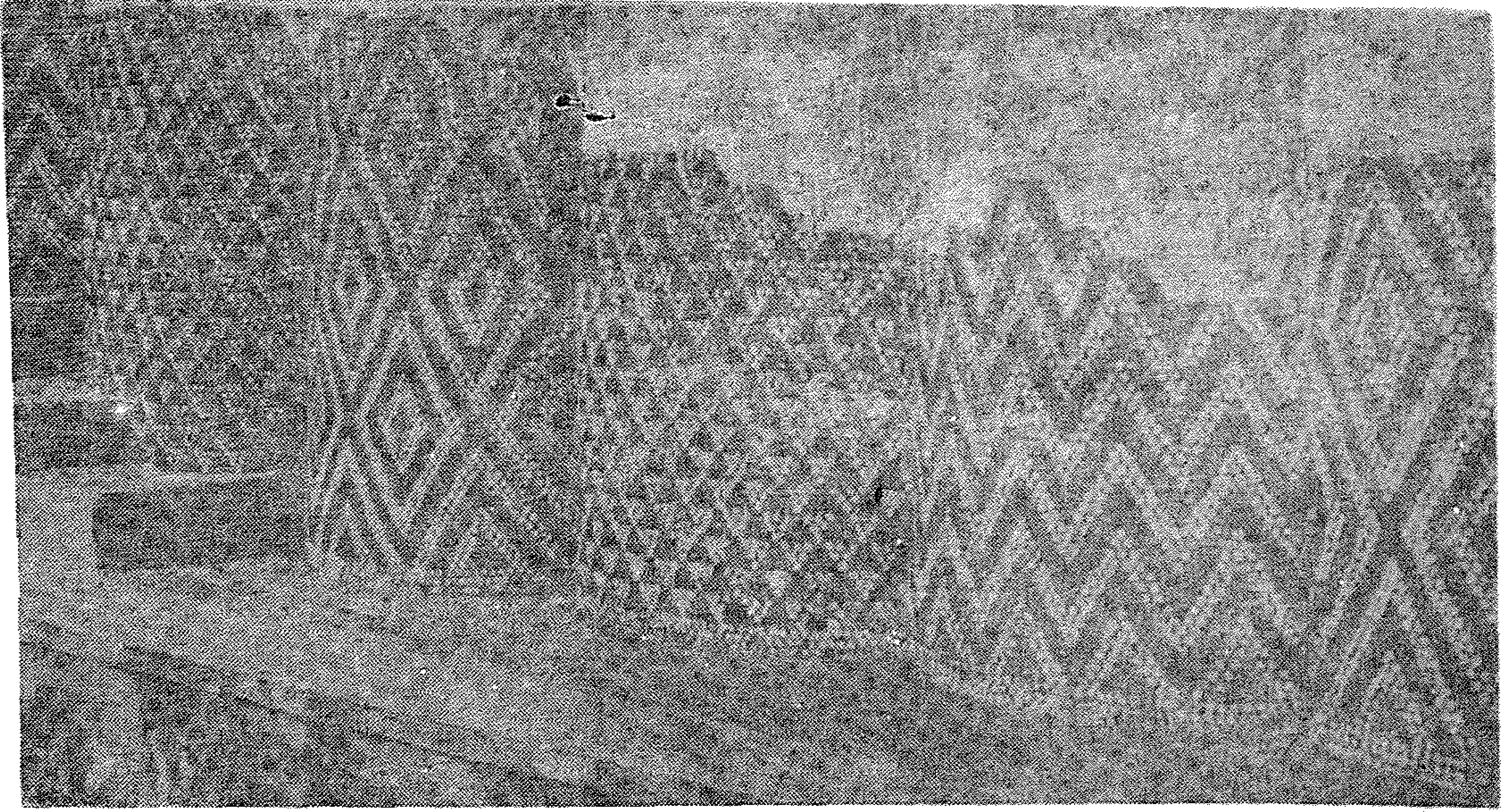


(١) *See*, Thureau-Dangin, *Esquisse d'une histoire du Systeme Sexagèsimal*, Paris, 1932 ; A.T. Olmstead, "Babylonian Astronomy", *AJSJ*, 1938, 113—129 ; O. Neugebauer, "The History of Ancient Astronomy", *JNES*, IV, 1944, 1 f.

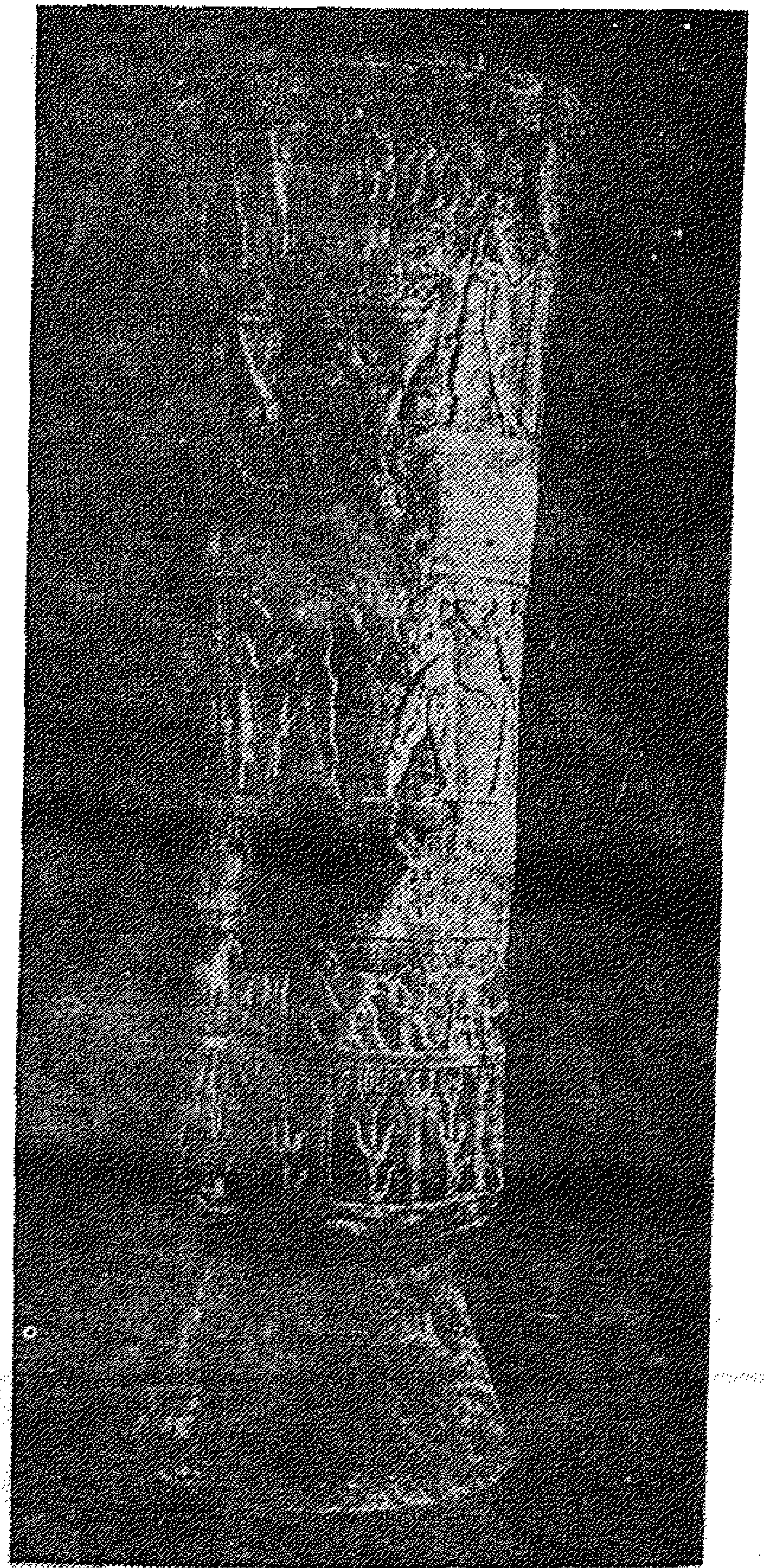
(٢) Contenau, *La Civilisation d'Assur et de Babylone*, Paris,1951, 16-17, Fig 2.

اهم المواقع الاثرية فى العراق القديم





٧٠ ـ زخارف اساطين جدارية بمخاريط ملونة من قبيل العصر الكتابى

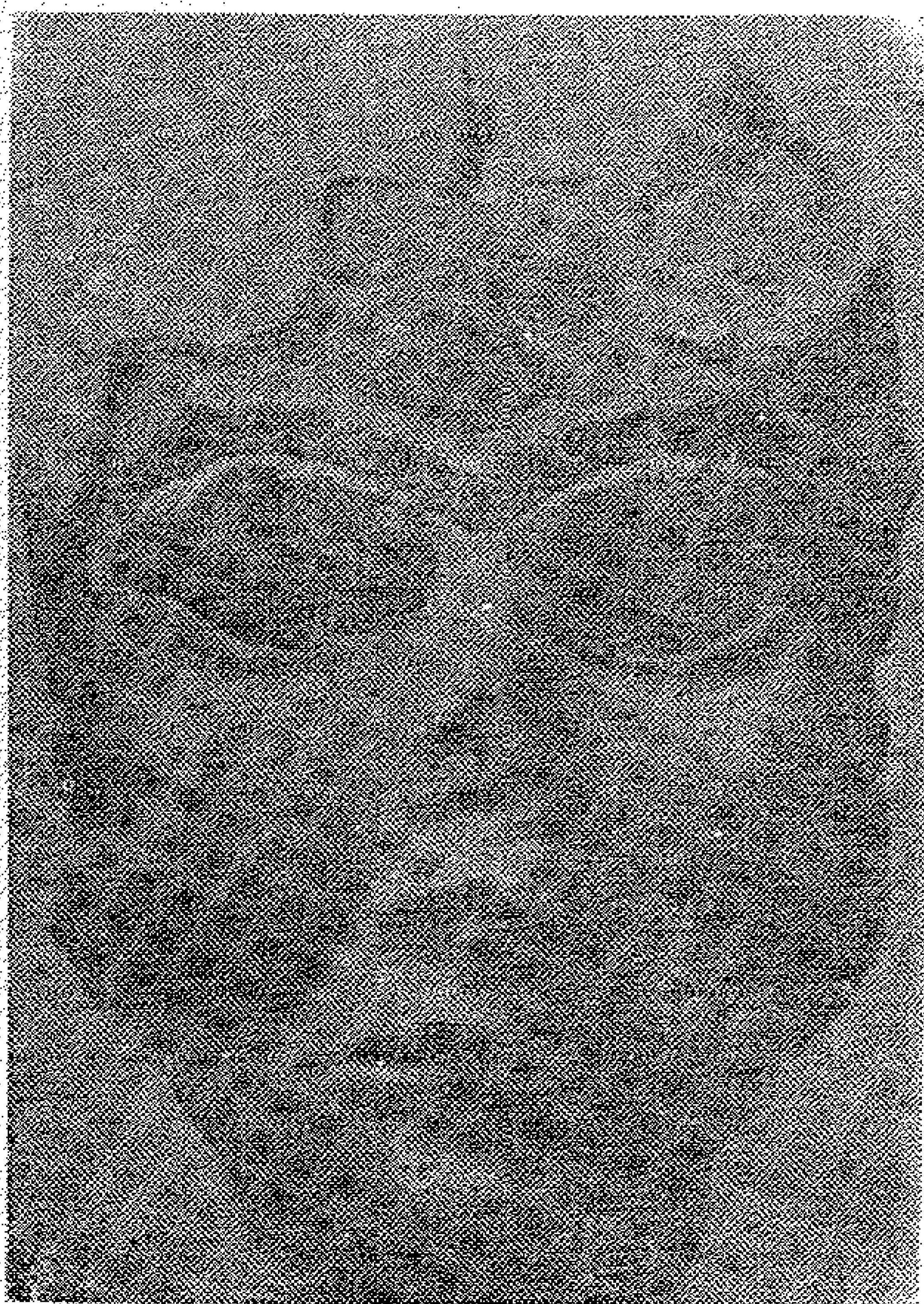


٧١ ـ مزهرية مرمرية منقوشة للمعبودة انانا .





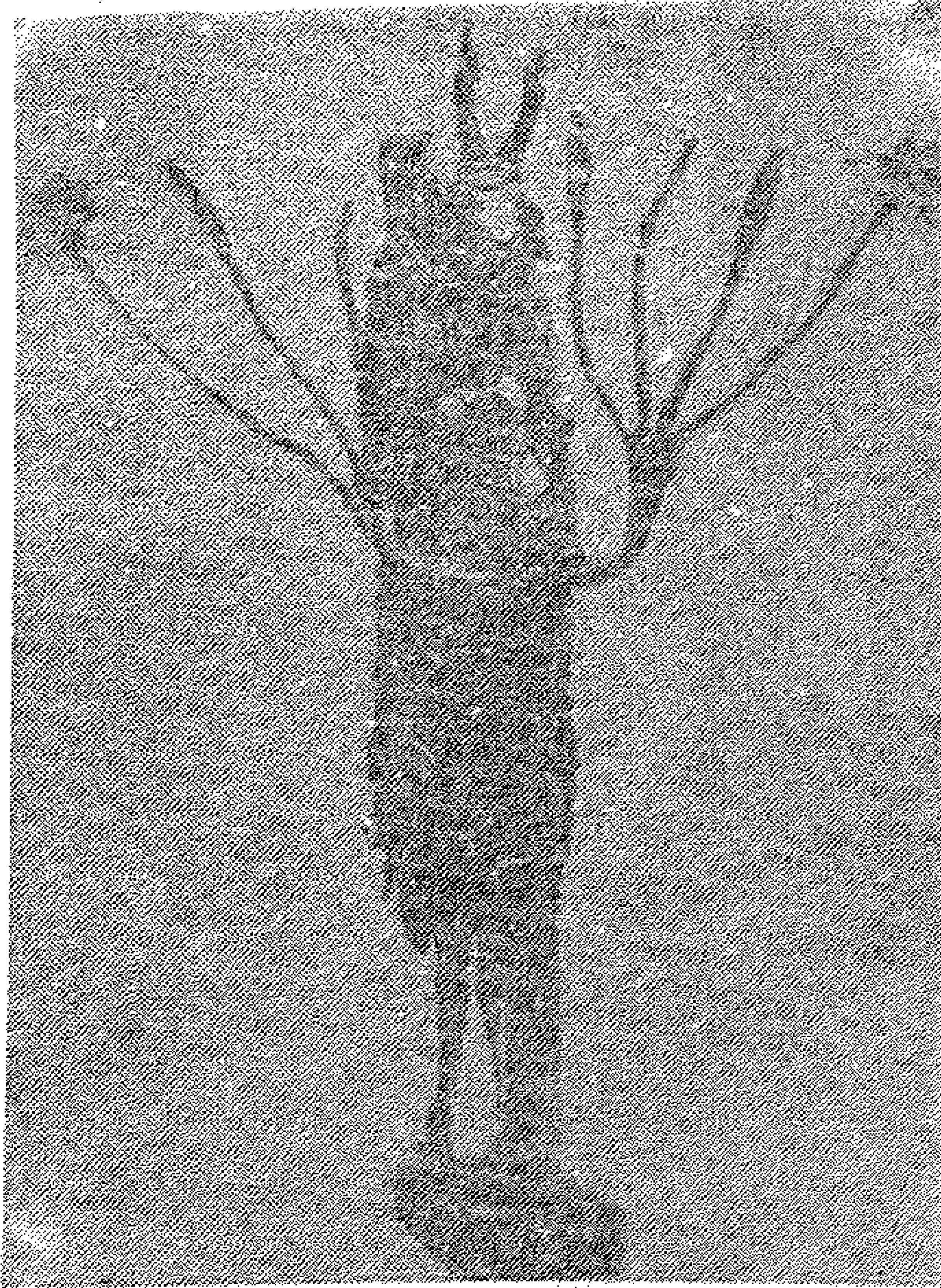
٧٢ ، ٧٣ ـ من تجارب فن النحت قبيل العصر التاريخى



٧٤ ـ حسناء الوركاء (؟)



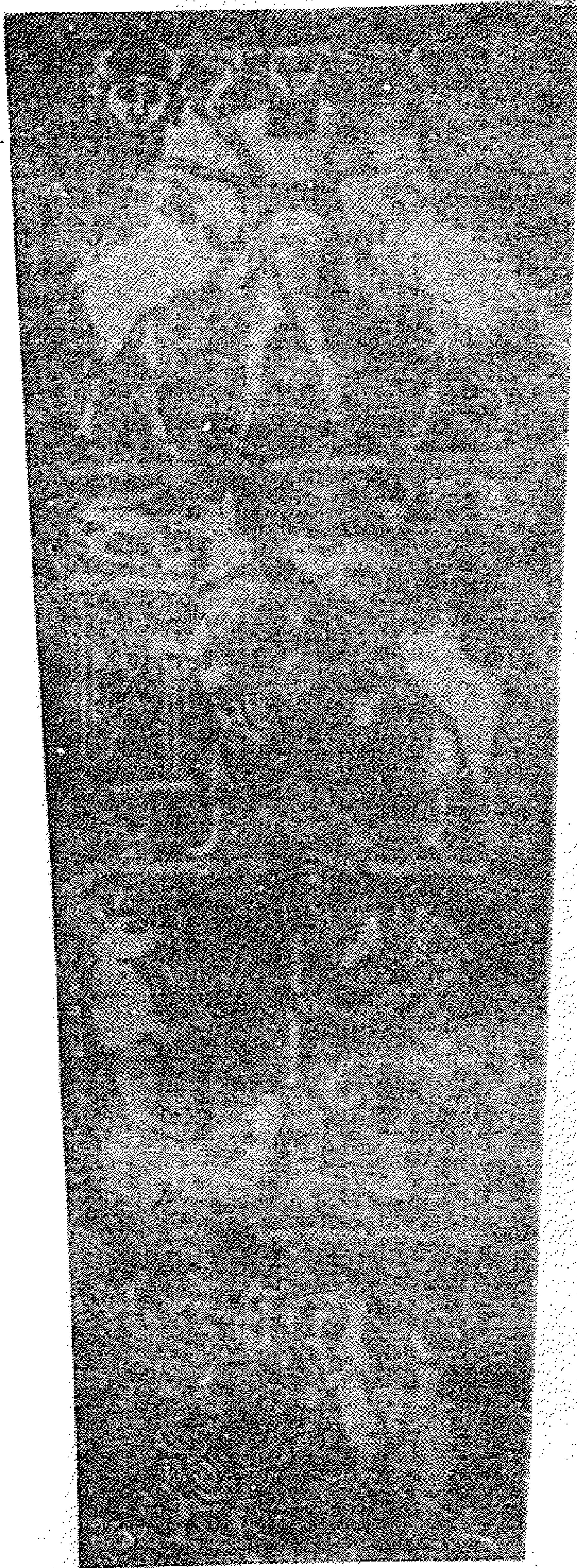
٧٥ ـ معبودات وكهان سومريون من اشنونا .



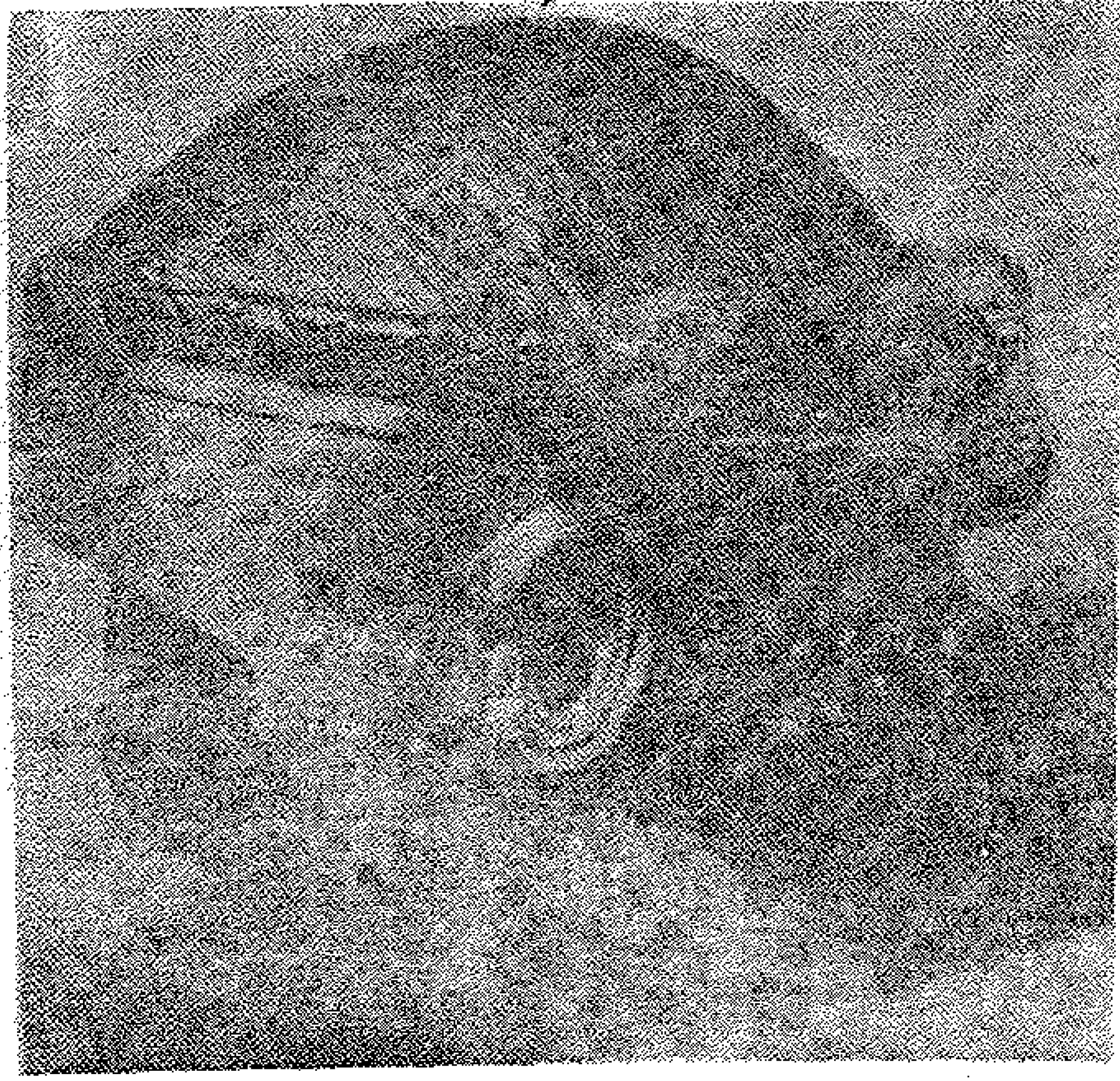
٧٦ ـ عنز (أو كبش ؟) وشجيرة من اور .



٧٧ ـ مختومات بحيوانات
واساطير سومرية .

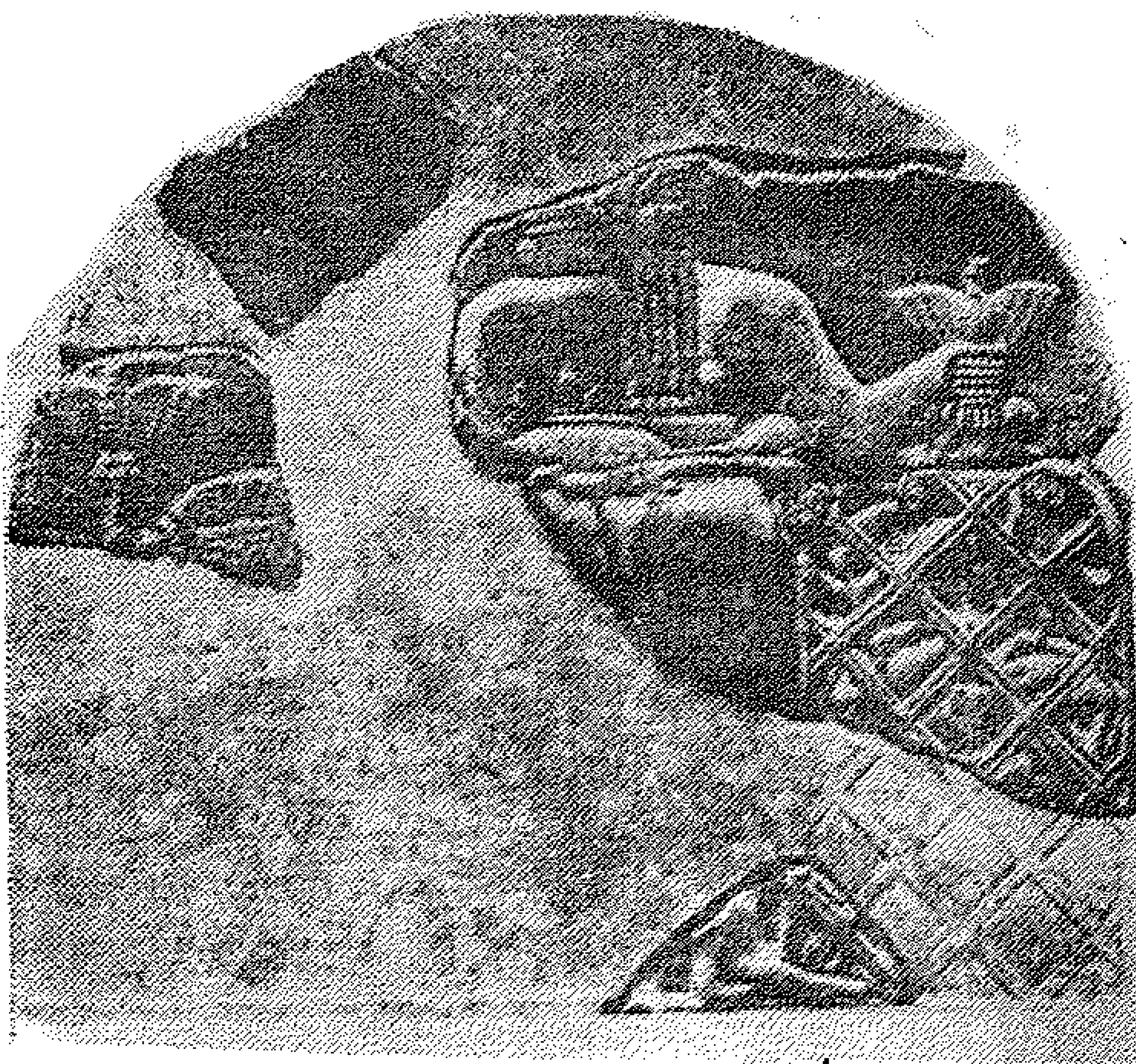


٧٨ ـ حيوانات فى اهاب البشر ،
والعكس بالعكس .



٧٩ ــ خوذة مذهبة من أور .





٨٠ ــ أ ، ب ــ لوحة نصر ايانانم ومعبوده نين جيرسو





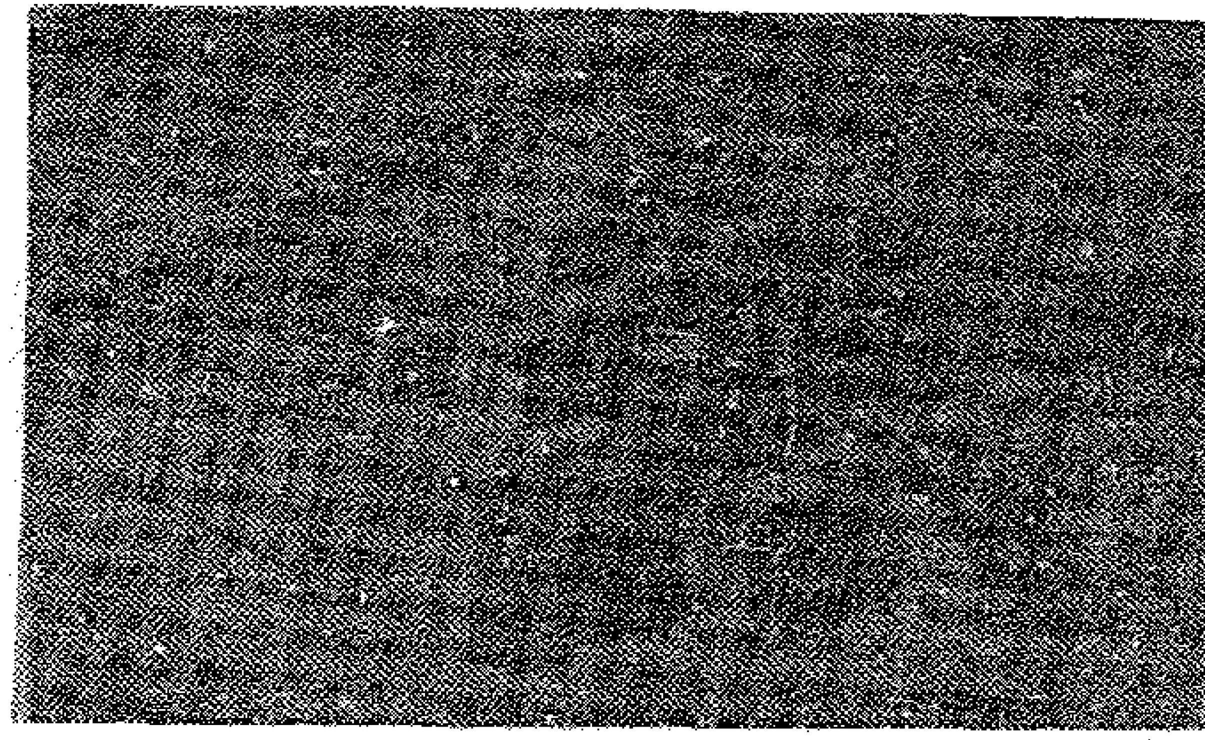
٨١ ، ٨٢ ـ جوديا التقى ملك لجش



٨٤ ـ رأس مرمريه لأنثى من اور .



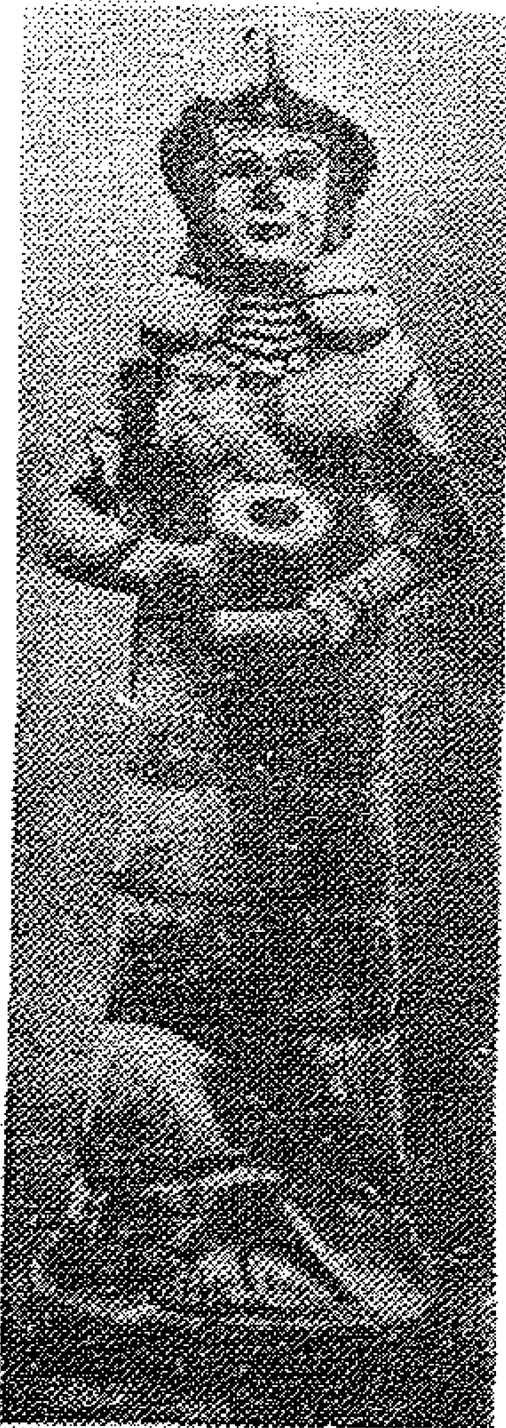
٨٣ ـ عظيم من اجش



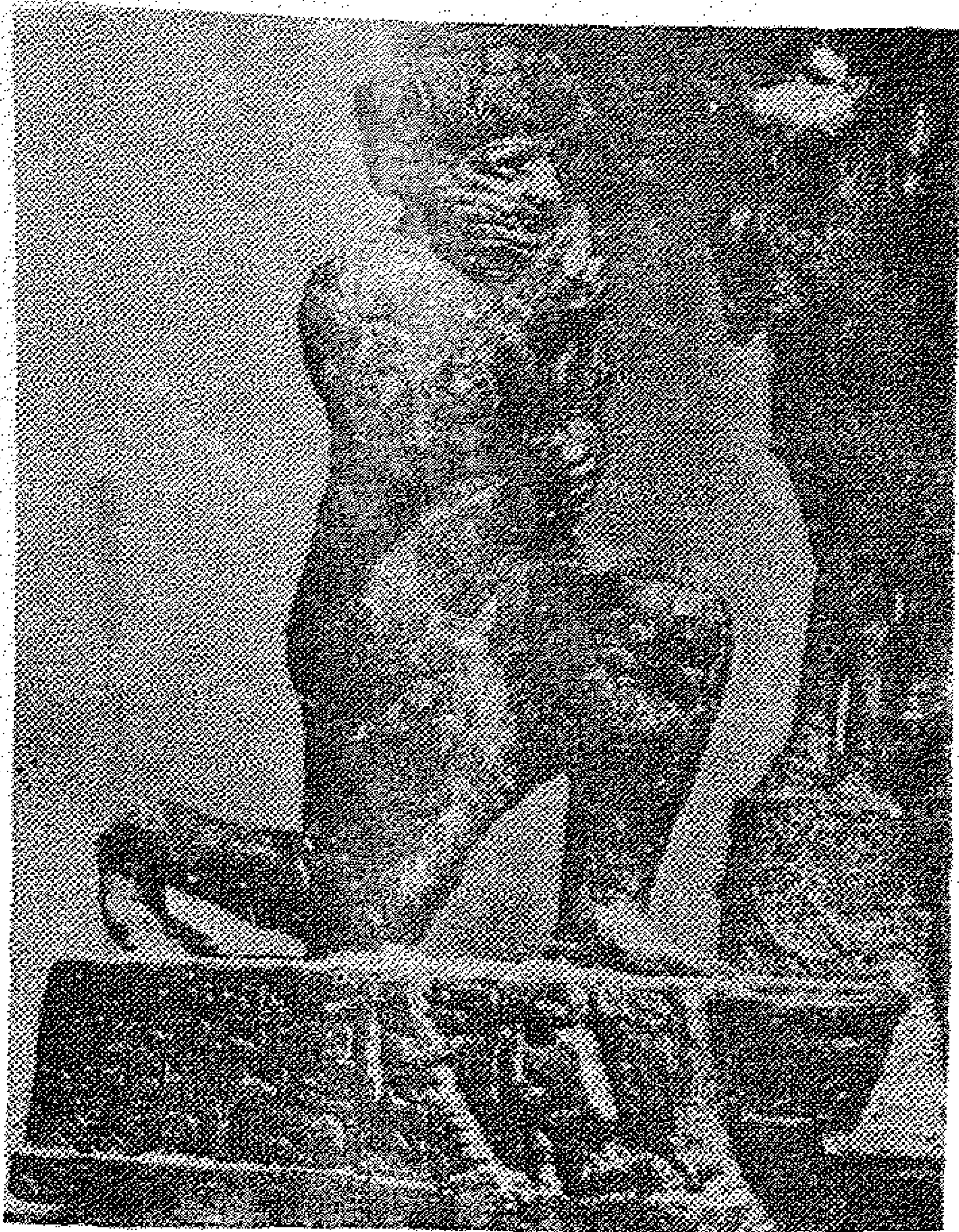
٨٥ ـ تخطيط حديث لزقورة أور
(حين اكتمالها)

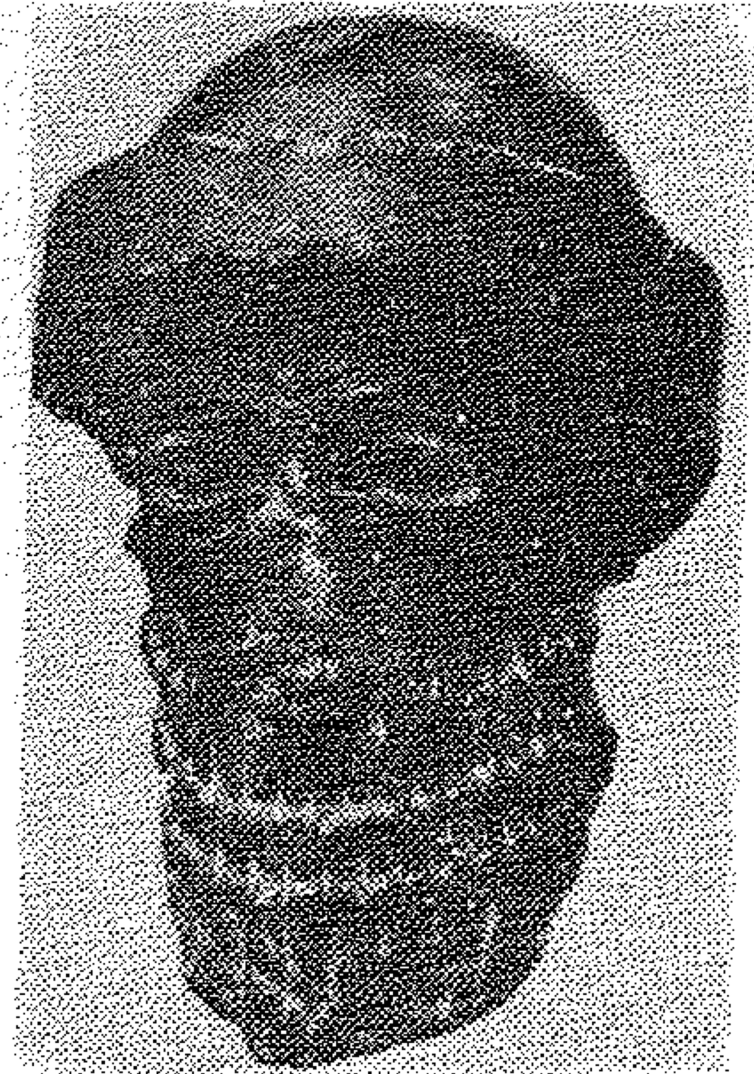


٨٦ ـ شيخ من مارى

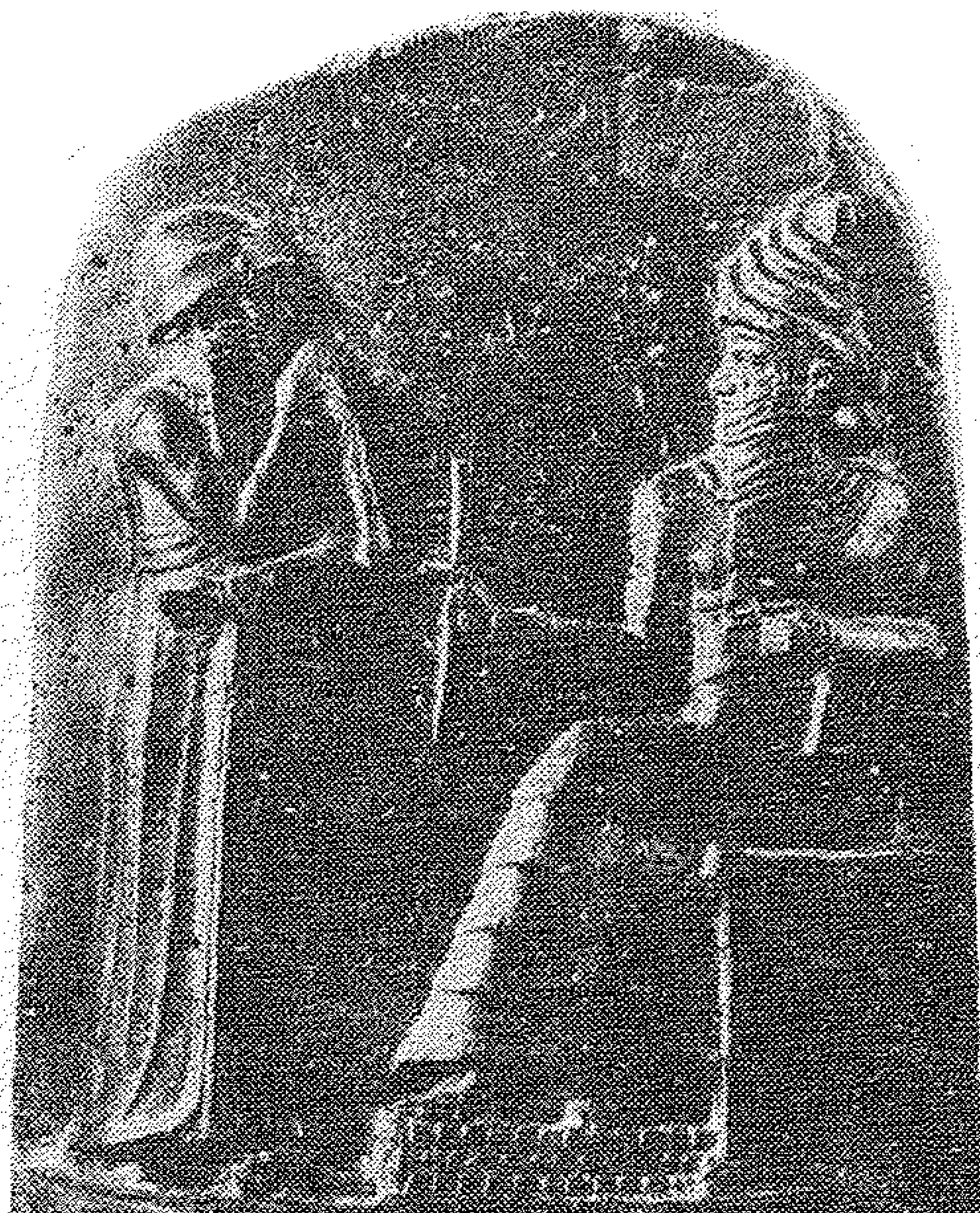


٨٧ ـ ربة المياه فى مارى .





٨٨ ـ راس وقور للملك حمورابى (؟)   ٨٩ ـ متعبد ورع (باسم حمورابى) من لارسا .



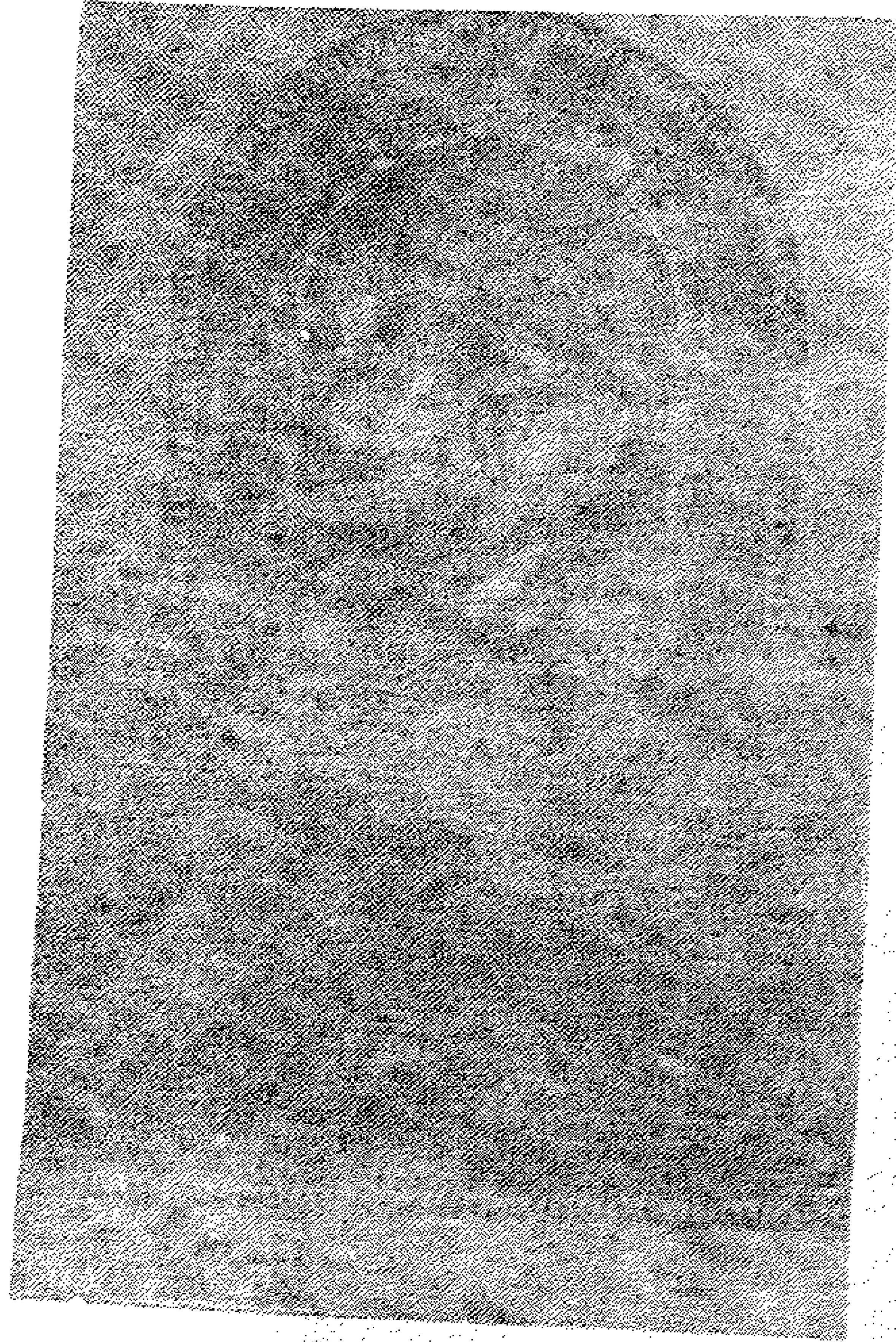
٩٠ ــ حمورابى يتلقى الاذن بالتشريع من معبوده شمش



٩١ ـ ملك أشورى مهيب



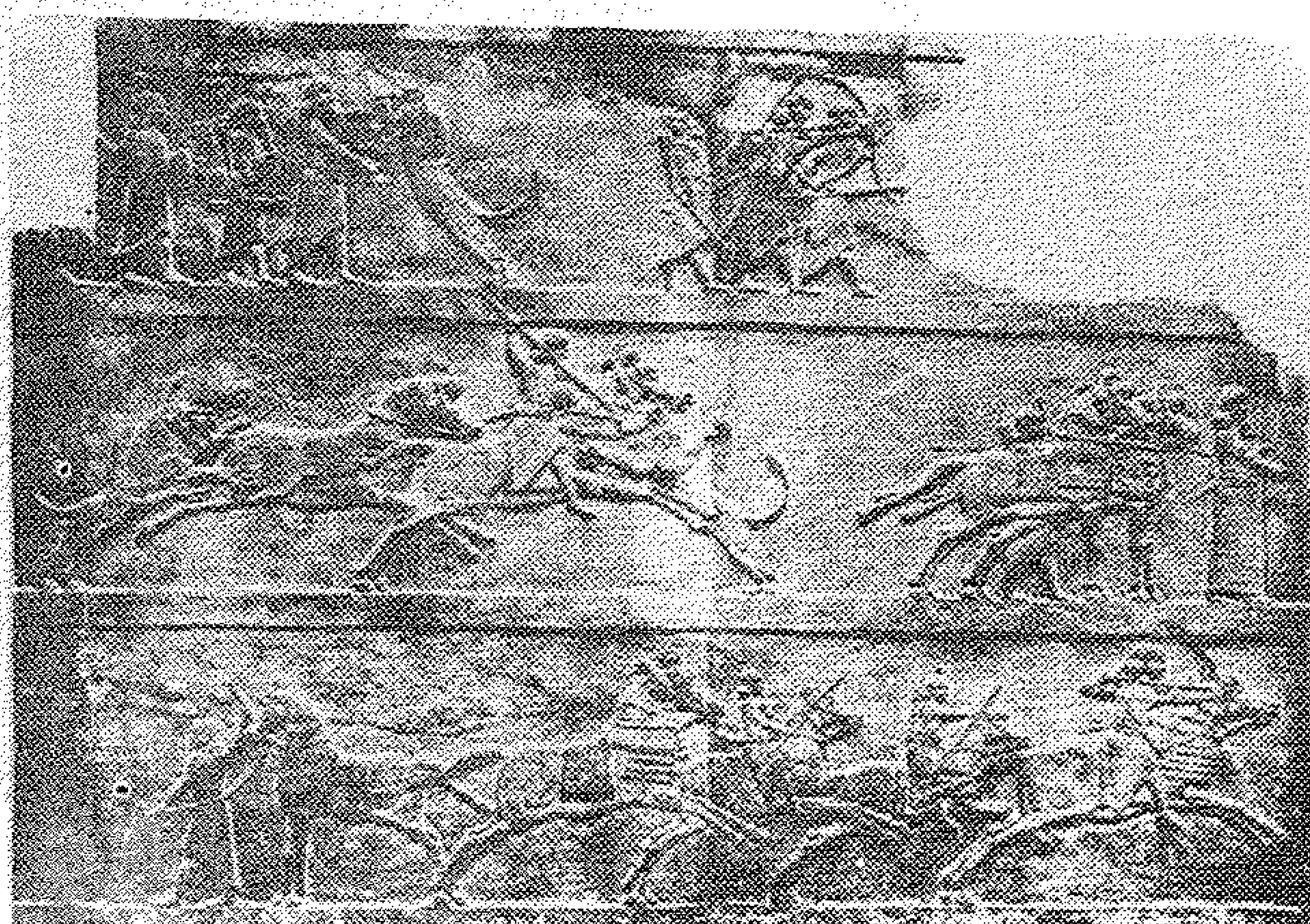
٩٢ ـ عامود (مسلة) انتصارات شلما نصر الثالث



٩٣ ـ رسوم (مرممة) فى قاعة عرش سرجون الاشورى



٩٤ ـ حارس اشورى مقدس



٩٥ ـ فرسان اشوريون فى ساحة صيد



٩٦ ـ الصرخة الأخيرة من نينوى



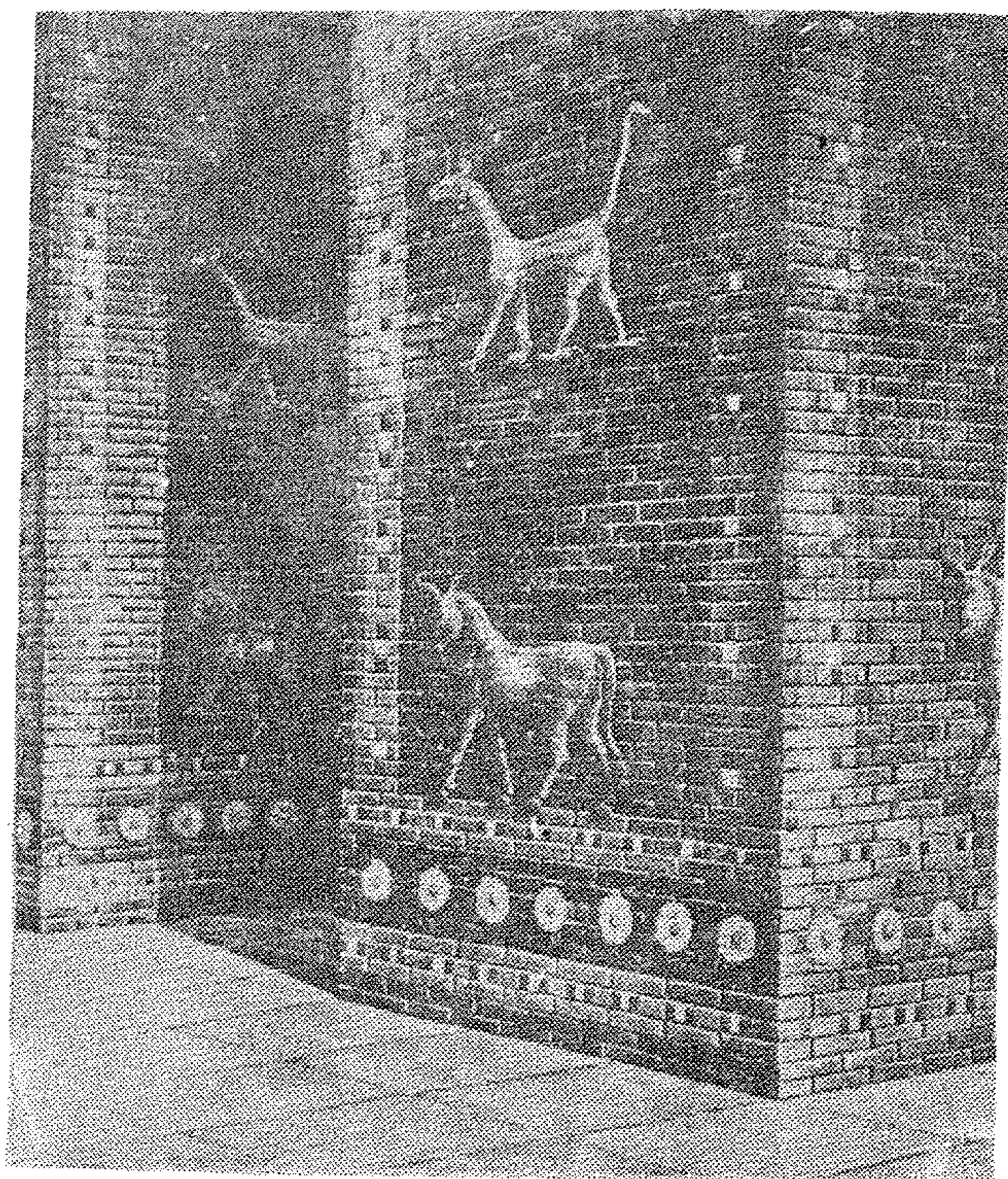
٩٧ ـ نهاية اسد من نينوى



٩٨ ـ ابو الهول مصرى عراقى مجنح



٩٩ ـ اشتار العراقية فى هيئة حتحور المصرية
(اومونااليزا القديمة فى مشربية النافذة)



١٠٠ ـ بوابة اشتار (عشتار) بعد ترميمها

فهرس بأهم الاعلام والمعالم القديمة بمصر والعراق

(أ)

(ت)

(ل)

(م)

(ن)



تم الطبع بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
المدير العام
البرنس حموده حسين عمر
١٩٩٣/١٢/١

رقم الايداع ٨٢٩/ ١٩٩٣

الترقيم الدولى ٥ ـ ٩٠٣ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

﴿ مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ٨٢٩ / ١٩٩٣ / ١٠٠٠ ﴾